BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية 2010 ©

الاستغلال غير التجاري

تم إصدار المعلومات الواردة في هذا المصنف للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية . وإنما نطلب الآتي فقط :

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها "مصدر" تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يشار إلى أنه تمّ بدعمٍ منها .

الاستغلال التجاري

يحظر نسخ المواد الواردة في هذا المصنف كله أو جزء منه، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية . وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذا المصنف، يرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. 138 الشاطبي، الإسكندرية، 21526، مصر. البريد الإلكتروني :

secretariat@bibalex.org

في الفكر النهضوي الإسلامي

خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني

وفيها مجمل آرائه وأفكاره ومرتآه في أهل الشرق والغرب أخلاقاً وسياسة واجتماعاً

تأليف

محمد باشا المخزومي

تقديم

منى أحمد أبوزيد

دار الكتاب اللبناني
بيروت

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب المصري
القاهرة

خاطرات

جمال الدين الأفغاني الحسيني

هــذا الكتـــاب

طُبع لأول مرة عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م). وهو يحتوي على الخاطرات التي ألقاها جمال الدين الأفغاني أثناء إقامته الأخيرة في الأستانة، في الفترة من (١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م) إلى (١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م)، أي حتى وفاته.

ترجع أهميته إلى أنه ضم آخر ما صرح به الأفغاني من آراء قبيل وفاته. بالإضافة إلى أن مُسجِّل هذه الخاطرات (محمد باشا المخزومي) كان موضع أسرار الأفغاني، فهو صديقه وتلميذه وملازمه. وقد كشف له الأفغاني عن نواياه، وأوضح له آراءه بحرية وصراحة؛ لذا جاء الكتاب صورة حيّة وصادقة لآراء جمال الدين؛ جامعًا بين دفتيه خلاصة ما أنتجه عقل هذا المفكر الإسلامي الكبير؛ من أحاديث ومحاورات ودروس وآراء كان يتلوها على مجالسيه ومريديه.

سلسلة

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشـراف العام

إسماعيل سراج الدين

إدارة المشـروع

صلاح الدين الجوهري

ألفت جافور - هالة عبد الوهاب- حنان عبد الرازق

اللجنة العلمية

محمد عمارة — محمد كمال الدين إمام

صلاح الدين الجوهري — إبراهيم البيومي غانم

الإشراف على الإخراج الفني

ألفت جافور

تصميم جرافيكي: شيرين بيومى – ريم نعمان

الإشراف على مراجعة النصوص

أحمد محمد شعبان — محمد القاسم

الأعمال التحضيرية والمتابعة

بسمة عبد العزيز ـ هدى سيد ـ شيماء التركي

مراجعة لغوية: علياء محمد أحمد

في الفكر النهضوي الإسلامي

خاطرات
جمال الدين الأفغاني الحسيني

وفيها مجمل آرائه وأفكاره ومرتآه في أهل الشرق والغرب
أخلاقاً وسياسة واجتماعاً

تأليف

محمد باشا المخزومي

تقديم

منى أحمد أبو زيد

١٤٣٤ هـ / ٢٠١٢ م

دار الكتاب المصري
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبناني
بيروت

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة – أثناء – النشر (فان)

المخزومي، محمد حسن، باشا، 1868-1930.
خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني / تأليف محمد باشا المخزومي ؛ تقديم منى أبو زيد. – الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، 2012.
ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-186-9

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية

1. جمال الدين الأفغاني، 1254-1315 هـ. 2. الإسلام -- حركات الإحياء و الإصلاح و التجديد. 3. الإسلام والإصلاح السياسي. أ. أبو زيد، منى. ب. العنوان. ج. السلسلة.

ديوي – 297.8 2012623382

ISBN: 978-977-452-186-9 رقم الإيداع: 11550/2012

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير

للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)

ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York

على الدعم المادي والمعنوي الذي قدَّماه للمشروع.

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٢

جميع حقوق النشر الورقي محفوظة لدار الكتاب المصري واللبناني، وذلك بموجب اتفاق مبرَم بين مكتبة الإسكندرية ودار الكتاب المصري واللبناني.

هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْن/ التاسع عشر والعشرين الميلاديَّيْن»

المحتوى

مقدمة السلسلة ١١

تقديم الكتاب ١٧

كتاب «خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني»

حول إهداء الكتاب ٥

تمهيد ٧

مقدمة المؤلف ١٧

سيرة جمال الدين ٢٣

كيفية استقدام جمال الدين إلى طهران وتألمه من الشاه ناصر الدين وغلظته في مخاطبة الملوك والعظماء ٦١

ما خاطب به السلطان عبد الحميد بشأن الشاه ناصر الدين ٦٩

صفات جمال الدين، ومذهبه، وآماله ومقاصده ومناقبه، وأخلاقه ومنزلته من العلم ٨١

رأيه في الإسرار والإعلان ٩١

غرض جمال الدين الأسمى في حياته ٩٥

رأيه في الأحزاب السياسية في الشرق ١٠١

رده على من زعم أن حكمته بلسانه أكثر مما هي من قلبه ١٠٥

رأيه في مصر والمصريين وصورة الحكم الذي يجب
أن تحكم فيه مصر خصوصًا والشرق عمومًا ١٠٩

رأيه في الوطن وفلسفته فيه بالنسبة إلى النوع الإنساني واعتقاده أن
التفرد بالسلطة وسوق الأمم على هوى الفرد سيزول من العالم ١١٣

قوله في تأثير فضائل الوفود والفاتحين وضربه المثل في العرب
في فتوحاتهم وانتشار لسانهم ١١٧

تفسيره لما أشكل على المؤرخ والشاعر التركي ضيا باشا، من عدم
ترك الأتراك أثرًا بعد أن توغلوا في أوروبا ولم يكن لهم ما كان للعرب
في فتوحاتهم وحجج جمال الدين على ذلك ١٢١

استنتاجه أن ترك الأثر مع التفريط في صون الملك وعدم حفظه
أدعى للتأثر وليس فيه شيء من الفخر ١٢٧

قوله في تأثير آداب اللسان ١٢٩

فيما عرف عن جمال الدين من مزية الإقناع في حالتي السلب
والإيجاب والسبب في ذلك ١٣١

في تأثير كلامه في مخاطبه وكيف كان يحمل الخامل على العظائم
والجبان على الجسارة ١٣٧

في تكليف السلطان عبد الحميد للسيد أن يزوجه من إحدى جواري قصره
وما جرى في هذا البحث من أخذ ورد وكلامه في الحكمة الزوجية،
واستطرادًا في المرأة والرجل وهل يتساويان ١٤١

مقابلة جمال الدين لسمو الخديوي عباس حلمي واختلاق الجواسيس
مسألة الدولة العباسية، واهتمام السلطان عبد الحميد
وما احتمل هذا الأمر ١٥٧

دعابة السيد عبد الله نديم في بحث الدولة العباسية وتعريضه فيمن
اختلقها في ذلك الحين ١٦٧

رأيه في الإنكليز ووصفه للإنكليزي والعربي وفلسفته في الحجر الشرعي
على الفرد السفيه وشكل تطبيقه اليوم على أهل الشرق من الغربيين ١٧١

رأيه في كيفية الوصول لرفع ما وقع وسيقع على الشرق وأهله من الحجر
وخطورة ما يلزم ذلك الأمر من الحكمة والتدبير وبيان وعورة المطلب ١٨٣

رأيه في كيفية تربية الطفل الذي سيكون رجل المستقبل ١٨٧

قوله في الصبر والثبات ١٩١

إنكار جمال الدين ما نراه من المدنية ومغالطته باستبداله لفظة الفناء في التنازع
عوضًا عن البقاء وأن العلم الصحيح إذا وصل إليه العالم فأعظم أثر له إنما يكون
في منع الحروب التي هي من أكبر الأدلة وأسطعها على توحش الإنسان ١٩٥

قوله في دعوة الإسلام وكيفية انتشاره وأن الدين لا ينبغي ولا يصح أن
يخالف الحقائق العلمية ولزوم الرجوع إلى التأويل ٢٠٥

فيما اشتمل عليه القرآن من تدبير الممالك وأصول الحكومة الشورية ووظائف الملوك إلخ. والإشارات إلى مقدمات العلوم والفنون الحديثة ٢١٥

فيما سبق إليه العرب من العلوم والفنون ٢٢٣

أدلة جمال الدين على أن الكيمياء قد تتم بالصناعة وتفنيده لأدلة ابن خلدون ٢٢٥

إنكار جمال الدين على من يقول بسد باب الاجتهاد ٢٣٥

نفور جمال الدين من قول سني وشيعي وأن لا موجب لهذه التفرقة التي أحدثتها مطالع الملوك لجهل الأمة ٢٣٩

رأيه في مذهب النشوء والارتقاء وأن العرب سبقوا وقالوا في هذا المذهب، وذكره الدكتور شميل استطرادًا، ومذهب درون ٢٤٣

رأيه في الاشتراكية (السوسياليست) وأنها لا تخالف الدين بل يقول بها ٢٥١

قوله حقائق الأشياء ثابتة، والإحاطة بها لفرد متعذر والعلم بأسبابها متوزع بين المجموع على نسب متفاوتة ٢٧١

قوله: إن الحق لا يكون مع الأكثرية أحيانًا ٢٧٩

رأيه في الأديان الثلاثة وأنها متفقة في المبدأ والغاية ٢٨٥

رده على من أخذ عليه قوله أن أصول الأديان واحدة وأنها من المتناقضات، وبحث تصوفي ٢٩٣

المسألة الشرقية ومرتئاه في حلها، وتبجيله لفكرة السلطان محمد الفاتح،
والسلطان سليم باتخاذ اللسان العربي لسانًا رسميًّا والأخذ بتعميمه ٢٩٩

ذكره الفرق بين عدل يأتيه الفاتح عن علم وحب بإجراء العدل والأخذ به،
وبين ما يأتيه عن غرور وإتيان العدل إذ ذاك عرضًا ٣٢٩

رأيه مختصرًا في الدول الإسلامية ومحاكمته لما أتوه من الخطأ
والصواب، وأسباب ما نراه في الأشياع والأتباع من التقهقر والانحطاط ٣٣٧

حديثه عن الهند ومستقبلها وشيء عن سيرة السلطان محمود الغزنوي
بفتحه لتلك الأقطار والمقابلة بين حالة مصر في عهد محمد علي باشا
وحالتها بعد الاحتلال ٣٤٣

استغرابه ميل الشرقيين في هذا العصر إلى حب التطويل في المقال،
والمماطلة بالأفعال على عكس ما كان عليه السلف، وأمثلته على ذلك ٣٨٧

رأيه في المستعمرات والمستعمرين، وأن الاستعمار لأي دولة مهما تعاظمت قوة
واقتدارًا فمستعمراتها إن هي إلا ثوب عارية قابل للاسترداد ٤٠٣

قوله: إن المسلم سواء فيه العربي، والأعجمي، إنما يعجب بماضيه وأسلافه،
وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف يجب أن يكون ٤١١

قوله في الناشئة الشرقية استحسانًا واستهجانًا، وأمثلته على التقليد النافع،
وضربه المثل بدولة اليابان الشرقية وذكره أنجع الوسائل للنهوض من السقوط ٤٢٥

قوله إن أضعف ما في هذا العصر حق لضعيف لا قوة له وأقوى شيء باطل
لقوي يجعل بطله حقًّا ٤٤٧

نظرته العامة في الإسلام والمسلمين، وأسباب ما ألم بهم من الانحطاط مع توفر ما في الدين من دواعي النهوض، وأسباب الرقي، على عكس من نهض وليس في دينهم ما يحملهم على ما هم عليه، وفيه من أخذ العدة والنهضة المشهودة فيهم، وفلسفته بذلك ٤٥٣

ذكره مذهب الجبرية، والمعتزلة، ورأيه في القضاء والقدر وإفاضته فيه ٤٦٥

من المصائب والنوازل، وبحثه في التعصب الجنسي والتعصب الديني، وتتبعه سير إنكلترا في الحوادث المصرية سنة ١٨٨٤، وموقف الدولة العثمانية والفرنساوية إزاء تلك الحوادث ٥٢٣

بحثه في التعصب الجنسي والتعصب الديني ٥٣٣

جمل مختصرة وأمثال حكيمة ٥٣٩

عبرة وذكرى ٥٥١

التهتك في الحيلة ٥٥٣

مقدمة الأستاذ المحقق المرحوم الشيخ محمد عبده على الرسالة ٥٥٩

مختصر الرسالة ٥٦١

مقدّمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْنِ / التاسع عشر والعشرين الميلادِيَّيْن»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بمدٍّ وجزر - إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع - فيما يهدف - إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي/ الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة

من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضًا – في إطار هذا المشروع – بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلاَّل الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود

شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا – وغيرهم – لا تزال بمنأًى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية والإسلامية، فضلاً عن الشباب المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًّا وإلكترونيًّا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية
والمشرف العام على المشروع

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر مكتبة الإسكندرية، إنما تعبِّر عن وجهة نظر مؤلفيها.

تقديم

منى أحمد أبوزيد

كان للواقع الذي حل بالشرق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأدى إلى احتلال عسكري لمعظم بلدان الشرق أثره في إيقاظ الشعور الثوري في تلك الأقطار، ونبّه الشعور الإسلامي- الذي أصيب بصدمة عنيفة إثر تفكك الروابط الإسلامية الجامعة بين أجزاء الدولة العثمانية- إلى ضرورة الوحدة بين البلدان الإسلامية.

وانتبه الفكر الإسلامي على حقيقة الضعف الذي انتاب الشرق في مواجهة حضارة الغرب، وحدثت مواجهة وتصادم بين الشرق الساكن والغرب المتحرك، وعقب هذا التصادم خرجت أقلام المصلحين تدعو إلى توحيد صفوف المسلمين لنصرة دينهم وأوطانهم، واتخذت حركات الإصلاح عدة صور، لعل أبرزها دعوة جمال الدين الأفغاني إلى الوحدة الإسلامية.

لقد ظهر الأفغاني المفكر الثائر في عالم إسلامي متغير، يخطو على أرض قلقة سياسيًّا واجتماعيًّا وفكريًّا، وجاءت منظومته الفكرية حول توحيد المسلمين في وحدة دينية في كل الأحوال، وسياسية في بعض الأحوال.

واحتل الأفغاني مكانة مميزة في تاريخ الحركة الإسلامية في العصر الحديث، إلا أنه قد أثيرت حوله بعض التساؤلات وعلامات الاستفهام، فقد أثار إعجاب الكثيرين، وفي نفس الوقت أثار شكوك الآخرين، فوصفه المعجبون به بصفات جليلة، فقيل عنه إنه «موقظ الشرق ومفجر ثورته»، وإنه «رائد الأصولية الإسلامية»، وهو أيضًا «أصدق معبر عن آمال الشرق وآلامه»، إلى غيرها من صفات الإجلال والتقدير.

وأثار الأفغاني عند آخرين شكوكًا كثيرة، واختلفوا حوله اختلافًا شديدًا، اختلفوا حول موطنه، ومذهبه، وعقيدته، وتساءلوا: هل هو أفغاني أم إيراني؟ هل هو سني أم شيعي؟ هل هو مؤمن أم ملحد؟ بالإضافة إلى أسئلة أخرى دارت حول حياته وأعماله، لم تجد في أغلب الأحيان إجابة قاطعة.

سيرة حياة الأفغاني

هو السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر، من بيت عظيم في بلاد الأفغان. يرتقي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، وكانت لأسرته

سيادة على مساحة كبيرة من الأراضي الأفغانية، ولكن سُلبت منها الإمارة والحكم.

وُلد الأفغاني[١] في قرية «أسعد» (أسد) «آباد» من قرى «كابل» سنة (١٢٥٤هـ/١٨٣٩م)[٢]، وانتقل من قريته مع أبيه إلى «كابل» حيث تلقى علومًا جمّة، برع فيها جميعًا، منها العلوم العربية: من نحو وصرف ومعان وبيان، وتاريخ عام وخاص، ومنها علوم الشريعة: من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه، وعلم كلام وتصوف، ومنها علوم عقلية: من منطق، وحكمة عملية (سياسية ومنزلية وتهذيبية)، وحكمة نظرية (طبيعية وإلهية)، بالإضافة إلى العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية.

وقد أخذ الأفغاني هذه العلوم على أساتذة ماهرين في تلك البلاد، ودرس الكتب الإسلامية المشهورة- حينذاك- واستكمل الغاية من دروسه وهو في سن الثامنة عشرة من عمره، سافر بعدها إلى الهند لدراسة العلوم الرياضية على الطريقة الأوروبية، ثم رحل إلى مكة للحج سنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٧م)، وهناك

---

(١) ويُفضل الإيرانيون تسميته «جمال الدين الأسد آبادي».

(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، الطبعة الحالية، ص٢٤. وهناك من يؤكد أن جمال الدين وُلد في قرية (أسد آباد) الفارسية، فهو فارسي الأصل، شيعي المذهب، انظر: ميرزا لطف الله خان، جمال الدين الأسد آبادي، المعروف بالأفغاني، ترجمه عن الفارسية: صادق نشأت وعبد النعيم حسنين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، ص٤٦.

ظهرت فكرة إنشاء جامعة إسلامية بمكة المكرمة، وتمكن من الاشتراك في تأسيس جمعية أم القرى[١].

وعاد الأفغاني إلى أفغانستان وعمل بها فترة، خرج منها إثر انقلاب سياسي إلى الهند- مرة ثانية- سنة (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م)، والتي طُرد منها إلى القاهرة - سنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) - التي بقي بها مدة قصيرة، لا تزيد عن أربعين يومًا، تردد خلالها على الجامع الأزهر، وخالط كثيرًا من طلبة العلم، رحل بعدها إلى الأستانة.

وعاد الأفغاني إلى مصر ثانية، وأقام بها مدة ثمانية أعوام منذ سنة (١٢٨٨هـ/١٨٧١م)[٢]. وتُعد هذه المرحلة من أخصب مراحل حياة الأفغاني فكرًا وتأثيرًا، حيث وجد في مصر المناخ العلمي المناسب لنشر أفكاره.

ويصف الشيخ محمد الفاضل بن عاشور (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) هذه الفترة من حياة الأفغاني بأنها هي طور بروز حكمته ومعرفته، والإصداع بدعوته في الإصلاح الديني[٣].

والتف حول الأفغاني مجموعة كبيرة من المريدين ومن طلاب الأزهر تمثلوا أفكاره، ومبادئه، وقدم لهم الأفغاني علومًا جديدة، وكُتبًا غير ما كانت

(١) وربما اطلع الكواكبي على آراء هذه الجمعية، واستفاد من الاسم، ووضعه عنوانًا لكتابه «أم القرى».
(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٣٩.
(٣) محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٥٦.

تدرس في الأزهر، فقدم لهم كتبًا عن المنطق والفلسفة والتصوف والفلك، منها كتاب «الزوراء» للدواني في التصوف، و«شرح القطب على الشمسية في المنطق»، و«الهداية» و«الإشارات» لابن سينا، و«حكمة الإشراق» للسهروردي، و«حكمة العين» للقزويني، وهي كتب في الفلسفة، وتذكرة الطوسي في علم الهيئة القديمة (علم الفلك) وكتابًا آخر في علم الهيئة الجديدة.

وأخذ الأفغاني ينشر دروسه وأفكاره بطرق متعددة، فكان أحيانًا يلقي الدروس في بيته، أو الأماكن العامة، أو في بيوت كبار العلماء ورجال الدولة. وتمثل نشاطه التعليمي في صورتين: دروس علمية منظمة يلقيها في بيته، ودروس علمية يلقيها بين زواره في بيوت رجال السياسة.

ومن أبرز تلاميذ الأفغاني الأزهريين: عبد الله النديم، والشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، والشيخ إبراهيم اللقاني، والشيخ إبراهيم الهلباوي، والشيخ إبراهيم العجمي الصحفي المعروف، والشيخ سعد زغلول - الذي أصبح فيما بعد زعيمًا سياسيًّا - بالإضافة إلى تلامذة آخرين، أمثال: محمود سامي البارودي، وعبد السلام المويلحي، وأخيه إبراهيم المويلحي، وعلي مظهر، وسليم النقاش، ويعقوب صنوع، وغيرهم.

وعندما أراد الأفغاني توسيع آفاق جهاده عمد إلى نشر أفكاره في الصحف. ولم تكن الصحف التي تصدر في البلاد - حينذاك - تعنى بالسياسة، فشجع

بعض تلاميذه على إنشاء صحف تهتم بالأمور السياسية. ودعا الأفغاني «ميخائيل عبد السيد» إلى إنشاء صحيفة تنطق بلسان الوطنيين، وتنتقد سياسة الخديوي إسماعيل صراحة، فأنشأ جريدة «الوطن»، كما عهد إلى «أديب إسحق» بأن ينشأ جريدة «مصر» وكان ذلك سنة ١٨٧٧م. وعندما وجد أن الإسكندرية تسبق القاهرة في مصادر الأخبار، طلب من «أديب إسحق» أن ينتقل إلى الإسكندرية، وأن يسهم مع «سليم النقاش» في إصدار جريدة «التجارة»، التي لقيت رواجًا كبيرًا، ولفتت الأنظار بروحها الجديدة[١].

ونتيجة لتشجيع الأفغاني أيضًا أسس «سليم» و«بشارة تقلا» جريدة «الأهرام»، و«سليم الحموي» «الكوكب الشرقي»، كما أسس «سليم عنجوري» «مرآة الشرق»، ثم ظهرت بعد ذلك جرائد «المحروسة» و«العصر الجديد»، ثم «التنكيت والتبكيت» ووصف الأفغاني بالثائر، ونُسب إليه بحق الدور التاريخي لـ«أبي القومية»[٢].

وكان الأفغاني يكتب في بعض هذه الصحف، مرة باسمه، وأخرى وراء اسم مستعار، مثل «مظهر بن وضاح». كما استكتبت هذه الصحف بعض تلاميذه.

---

(١) قسطاكي إلياس عطارة، تاريخ الصحف المصرية، مطبعة التقدم، الإسكندرية، مصر، ١٩٢٨م، ص٢٨٥.
(٢) عبد الله النديم، مذكرات، جمعها محمد أحمد خلف الله تحت عنوان «عبد الله النديم ومذكراته السياسية»، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٥٤.

ومما كتبه الأفغاني في هذه الصحف مقالان: أحدهما في «الحكومات الشرقية وأنواعها»، والآخر «روح البيان في الإنجليز والأفغان»، كان لهما صدى بعيد، مما لفت الأنظار إلى الأوضاع السياسية، وأثار حفيظة الحكومة المصرية حينذاك.

ويذكر الأفغاني عن نفسه أنه في خلال سنة ١٨٧٨م زاد مركزه خطرًا؛ لأنه تدخل في السياسة، وكان مما قاله مخاطبًا المصريين: «إنكم معاشر المصريين... تسومكم حكوماتكم الحيف والجور... انظروا أهرام مصر وهياكل ممفيس وآثار طيبة، ومشاهد سيوة وحصون دمياط فهي شاهدة بمنعة آبائكم، وعزة أجدادكم، هبوا من غفلتكم، واصحوا من سكرتكم، عيشوا كباقي الأمم أحرارًا سعداء».

بهذه الصيحة وأمثالها بث الأفغاني في نفوس المصريين بذور الثورة، وانقلب الشيخ من مدرس في حجرة إلى معلم أمة، يخاطب العامة والخاصة، ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية.

ويذكر «ألفريد سكاون بلنت» (١٣٤٢هـ/١٩٢٤م) هذه الحقبة قائلاً: «إن الفضل في نشر هذا الإصلاح الديني الحر بين العلماء في القاهرة لا يعود إلى عربي أو مصري أو عثماني، ولكن إلى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغاني»[١].

(١) ألفريد سكاون بلنت، التاريخ السري لاحتلال إنجلترا لمصر، تمهيد بقلم عبد القادر حمزة، المكتب العربي للبحث والنشر، القاهرة، ١٩٨١، ص٧٧. وأيضًا: السيد يوسف، جمال الدين الأفغاني والثورة الشاملة، سلسلة تاريخ المصريين رقم (١٥)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٣.

ويصف الإمام محمد عبده حال مصر قبل مجيء الأفغاني بقوله: إن أهالي مصر قبل سنة (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) كانوا يرون شئونهم العامة، بل والخاصة ملكًا لحاكمهم الأعلى، يتصرف فيها حسب إرادته، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكلان إلى أمانته وعدله، أو خائنته وظلمه، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيًا يحق له أن يبديه في إدارة بلاده، ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر، فكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم، وأن لهم آراء يرجع إليهم فيها، لم يحس أحد منهم، ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق[١].

وقد كان الخديوي إسماعيل قد أمر سنة ١٨٦٦م بإنشاء مجلس شورى النواب؛ ليمثل الشعب تمثيلاً ديمقراطيًّا، ولكن ليس له حقيقتها وفعلها، ثم حل المجلس سنة ١٨٧٩م، وقامت في مصر حينذاك جمعيتان سياسيتان، هما «مصر الفتاة» و«الحزب الوطني» ساهم فيهما الأفغاني.

وتغيرت لهجة الأفغاني منذ ذاك الوقت، فبعد أن كان يتحدث عن الإصلاح الديني ويراه طريقًا للإصلاح السياسي والاجتماعي، أصبح يتحدث عن ضرورة التخلص من الظلم الاجتماعي والحكم الفردي[٢]، والتدخل الأجنبي، والاستبداد الواقع على أعناق المصريين، وتحدث عن الأزمة المالية،

(١) محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مطبعة المنار، القاهرة، ١٩٣١م، ج١، ص٣٦.
(٢) الأفغاني، خطبة ألقاها بالإسكندرية، نُشرت في جريدة «مصر»، العدد (٤٧) في ٢٤ مايو ١٨٧٩م.

وصندوق الدَّيْن، والتدخل الأوروبي، والظلم والعدل والاستقلال والحرية، ورأى أن الحرية والاستقلال لا يوهبان من الحاكم عن طيب خاطر، بل إن الأمم تحصل عليهما قوةً واقتدارًا.

ولتأكيد هذا الهدف انخرط الأفغاني في العمل العام، وانضم إلى «المحفل الماسوني[١] الأسكتلندي»، الذي كان يرفع شعار «حرية – مساواة – إخاء». وقد ضم هذا المحفل عددًا كبيرًا من علية القوم من مصريين وأجانب، ولكن ما إن دخله الأفغاني حتى ثارت ثائرته، وأخذ يهاجمه وينقده بخطبه المتوالية؛ لأن أعضاءه لا يتكلمون في السياسة، وعلق الأفغاني على هذا قائلاً: أول ما شوقني للعمل في «بناية الأحرار» عنوان كبير خطير: حرية – مساواة – إخاء، وأن غرضها «منفعة الإنسان، وسعي وراء دك صروح الظلم، وتشييد معالم العدل المطلق»[٢]. ولكن سرعان ما خاب أمله عندما شعر بجبن أعضائه، وتخوفهم من التدخل في السياسة، وتنازعهم حول رئاسة المحفل، دون اهتمام بشئون البلاد العامة.

واستقال الأفغاني من هذا المحفل، وأسس محفلاً آخر تابعًا للشرق الفرنسي، وسرعان ما كثر أعضاؤه، وبلغوا أكثر من ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين من المصريين والشوام[٣]، وضم هذا المحفل شعبًا متعددة

(١) الماسونية كلمة فرنسية معناها بناء. والماسونية هي البناية، وقد دخلت الماسونية مصر في أواخر عهد إسماعيل باشا، وكانت جميع المحافل المصرية متصلة بالمحافل الأوروبية.

(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٤٣– ٤٤.

(٣) المرجع السابق، ص٤٦.

للوزارات المختلفة، فهناك شعبة للحقانية (العدل) وأخرى للمالية، وثالثة للأشغال، ورابعة للجهاد (الدفاع).

وهكذا أصبحت لكل مصلحة أو وزارة شعبة خاصة، تدرس شئون وزارتها أو مصلحتها، وتعرف ما يقع فيها من مظالم، ووجوه إصلاحها، وتتصل كل شعبة بالناظر (الوزير) المختص، وتبلغه مظالم موظفيها في أسلوب حازم صريح، فكان لذلك هزة في المجال الإداري.

وكان الوضع حينذاك فيه إجحاف بالموظفين المصريين، ففي الوقت الذي يقبض فيه الموظف المصري خمسة جنيهات راتبًا شهريًّا، يقبض الموظف غير المصري خمسة عشر جنيهًا أو عشرين جنيهًا راتبًا شهريًّا على نفس العمل، ونفس الوظيفة؛ مما أشعر المصريين بعدم مساواتهم مع الأجانب في بلادهم.

وقد اصطدم الأفغاني بسياسة الخديوي إسماعيل، وشعر بضعفه أمام الأجانب، فذهب مع جماعة من المواطنين إلى مندوب فرنسا يطالبه بمساعدة الدول الأوروبية للمصريين على إقالة هذا الخديوي، وتعيين الأمير توفيق بدلاً منه، ولكن الأخير غدر به بعد أن وعده بالإصلاح.

وقد تعرف الأفغاني على الأمير توفيق في المحفل الماسوني، وتوسم فيه الخير إن تولى الحكم بعد أبيه إسماعيل(١). وكان توفيق - قبل اعتلائه العرش - يتودد إلى الأفغاني، مؤكدًا له كلما قابله اعتماده عليه في تحقيق الإصلاح المنشود، قائلاً: إنك أنت موضع أملي في مصر أيها السيد. مما دفع الأفغاني إلى المناداة بتوليته، ولكن ما إن استقرت له الأمور حتى نسي وعوده، وغدر به، وضاق بالأفغاني حينما طالبه أن يحكم بالعدل والشورى.

واستدعاه الخديوي توفيق إلى قصر عابدين، وقال له: إنني أحب كل خير للمصريين، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرُّقي والفلاح، ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل، لا يصلح أن يُلقى عليه ما تلقونه من الدروس.. فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة(٢).

فأجابه الأفغاني: ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص: إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكن غير محروم من وجود العالِم والعاقل، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفراده، ينظرون لسموكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلص، وأسرعتم في

(١) عبد الرحمن الرافعي، جمال الدين الأفغاني: باعث نهضة الشرق، دار الكاتب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٤٤.
(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٤٨.

إشراك الأمة في حكم البلاد على طريق الشورى يكون ذلك أثبت لعروشكم وأدوم لسلطانكم[(١)].

وضاق الخديوي بالأفغاني لتدخله في شئون البلاد، فأمر بطرده، بواعز من القنصل الإنجليزي في مصر، فاجتمع مجلس الوزراء، وقرر نفي الأفغاني من مصر، فقُبض عليه مع تابعه «عارف أفندي أبي تراب» في (رمضان ١٢٩٦هـ/أغسطس ١٨٧٩م)، وأودعا باخرة، سارت بهما إلى الهند، وكان هذا آخر عهده بمصر.

وعاد الأفغاني إلى الهند مرة ثالثة، وأقام في «حيدر آباد» منفيًّا، لا يُسمح له بمفارقتها، وفي تلك الفترة كتب رسالته «الرد على الدهريين».

وعندما قامت الثورة العرابية في مصر، خشيت حكومة الهند من محاولة الأفغاني للقيام بثورة مماثلة، فنقلته من «حيدر آباد» إلى «كلكتا»، وألزمته الإقامة الجبرية حتى انتهت ثورة عرابي، ودخل الإنجليز مصر، فأُبيح له الذهاب حيثما يشاء، فذهب إلى أوروبا، ونزل بدايةً بلندن سنة ١٨٨٣م، وفيها التقى بالفيلسوف الإنجليزي «هربرت سبنسر» الذي سأله قائلاً: ما هو العدل؟ فأجابه الأفغاني: يوجد العدل عندما تتعادل القوى، أما إذا تفاوتت فيسقط العدل، ولا يبقى له وجود[(٢)].

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) محمد سلام مدكور، جمال الدين: باعث النهضة الفكرية في الشرق، القاهرة، (١٣٥٦هـ/١٩٣٧م)، ص١٤٠.

ويذكر مستر «بلنت» أن الأفغاني رحل من الهند إلى أمريكا بداية ليتجنس بجنسيتها، وأقام بها شهرًا، ولم يذكر ذلك غير «بلنت» من مترجميه، ويقول «جولدتسيهر»[(١)]: إن هذا الزعم ادعاه «ويلفريد سكان بلنت» وحده، ولم يذكره غيره.

ورحل الأفغاني إلى باريس وأقام بها ثلاث سنوات، وأرسل إلى تلميذه وصديقه الإمام محمد عبده ليوافيه من منفاه (بيروت)، التي نُفي إليها بعد فشل الثورة العرابية، وكان أحد محركيها، ففعل، واشتركا معًا في تأسيس مجلة «العروة الوثقى». وقد سبق ذلك تأسيس جمعية وطنية اسمها «جمعية العروة الوثقى» كلفته بإصدار جريدة تكون لسان حال الجمعية، تدعو المسلمين إلى الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العظمى[(٢)].

وأصدر الأفغاني بمساعدة محمد عبده جريدة «العروة الوثقى» (١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م) وقد جمعت هذه المجلة بين روح جمال الدين وقلم الشيخ محمد عبده. فجمعت بين قوة المعنى ورصانة اللفظ، فكان الأفغاني يحدد الأفكار ومعانيها، ويقوم عبده بالتحرير والصياغة، ثم يقوم «ميرزا محمد باقر» بتعريب الأخبار التي تهم العالم الشرقي من الصحف الأجنبية.

(١) جولدتسيهر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة «الأفغاني»، النسخة العربية، كتاب الشعب، القاهرة، ١٩٦٩م، ج١٢، ص٢٦٠. وأيضًا انظر: بلنت، الأفغاني ومحمد عبده، ترجمة: علي شلش، كتاب الهلال، العدد (٤٢١)، يناير ١٩٨٦م، ص١٥.

(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٥٣.

وقد حددت الجريدة منهاجها في افتتاحية العدد الأول، قائلة: إنها تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم، ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواهها لالتهامهم، ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق التأهب، وكان هذا هو منهاج العروة الوثقى[(١)].

وعن هذه الجريدة يقول الشيخ «محمد رشيد رضا»: إن الجريدة المذكورة كانت لسان حال جمعية سرية تحمل نفس الاسم، أسسها جمال الدين من عناصر مختلفة من مسلمي مصر والهند وشمال إفريقيا وسوريا. وكان هدف هذه المنظمة تحقيق الوحدة الإسلامية، وإيقاظ المسلمين من سباتهم، وتنبيههم إلى الأخطار المحدقة بهم، ثم السير بهم قدمًا في الطريق المؤدي إلى مغالبة تلك الأخطار، أما هدفها المباشر فقد كان مُنصبًّا على تحرير مصر والسودان من الاحتلال البريطاني[(٢)].

وقد منعت بعض البلاد دخول هذه الجريدة، مثل الهند ومصر، التي أصدر فيها «نوبار باشا» - رئيس الوزراء حينذاك - قرارًا بالتشدد في منعها، ومصادرة أعدادها، وسجن حائزيها.

---

(١) المرجع السابق، ص٥٥.

(٢) محمد رشيد رضا، مجلة المنار، مج٣، ص٤٥٥. وأيضًا: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى، دار العرب للبستاني، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م، ص٧.

وأُغلقت جريدة «العروة الوثقى» بعد صدور ثمانية عشر عددًا، حيث ظهر العدد الأول منها في (١٥ جمادى الأولى ١٣٠١هـ/١٣ مارس ١٨٨٤م)، وكان العدد الأخير في (٢٦ ذي الحجة ١٣٠١هـ/١٥ أكتوبر ١٨٨٤م)، ولكن لم يمت أثرها، فقد أحيت روح المقاومة في نفوس كثير من المثقفين في العالم الشرقي، وأثارت عددًا من الأفكار من أمثال: الجامعة الإسلامية، والرابطة الشرقية، والمسألة المصرية والسودانية والهندية، إلى جانب السياسة الدولية العامة.

ولم تتأثر بالدعوة - حينذاك - الشعوب ولا الحكومات الأجنبية أو المحلية، وإنما تأثرت بها طبقة صغيرة من المستنيرين في الأقطار الشرقية المختلفة، تأثرًا كان نواة للحركات الوطنية بعد ذلك أمثال: مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، وأحمد لطفي السيد وغيرهم، ومع أن الصحيفة لم يُكتب لها البقاء طويلاً، فقد عظم تأثيرها في العالم الإسلامي أجمع، ووفقت في إيقاظ روح الوطنية في الأمم الإسلامية المتأخرة[(١)].

والتقى الأفغاني - أثناء إقامته بباريس - بالفيلسوف الفرنسي «إرنست رينان» (١٣٠٩هـ/١٨٩٢م) ودخلا معًا في معركة حول الإسلام والعرب. فقد ألقى رينان محاضرة في السوربون عن الإسلام اتهمه فيها بمعاداة العلم، وتقييد حرية العلماء، كما اتهم العقل العربي بالقصور عن التفكير الفلسفي.

---

(١) تشارلز آدمس، الإسلام والتجديد في مصر، ترجمة: عباس محمود، تقديم: الشيخ مصطفى عبد الرازق، لجنة دائرة المعارف الإسلامية، مصر، ١٩٣٥م، ص١٢.

فقد كان رينان متعصبًا للجنس الآري، يفرق بين الأجناس، ويفاضل بينها حضاريًّا على أساس العرق والجنس.

وقد دارت محاضرة رينان حول نقاط ثلاث[١]:

- خطأ المؤرخين في قولهم: علوم العرب، وفنون العرب، وتمدن العرب، وفلسفة العرب، مع أنها ليست من نتاج المسلمين، بل من نتاج الأمم غير العربية.
- أن عقلية العنصر العربي أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها.
- أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر، بل هو عائق لها، لما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات، والإيمان التام بالقضاء والقدر.

وختم رينان محاضرته بالإشادة بقيمة العلم، ودعوة الأمم كلها شرقية وغربية إلى الأخذ به. فالعلم روح كل هيئة اجتماعية، وبه تتقدم الأمم، وبه يتحقق العدل، وبه يستخدم العقل القوة، فهو يساعد على التقدم المؤسس على حرمة الإنسان وحريته.

(١) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٩م، ص٩٢.

وقد ردّ الأفغاني على محاضرة رينان في مقالة عنوانها «في العلم والإسلام وحقيقة القرآن والعمران»[1]. نشرها في جريدة «الديبا» الفرنسية في (١١ جمادى الأولى ١٣٠٠هـ/ ١٩ مارس ١٨٨٣م)، قائلاً: إنه سوف يتناول بالرد نقطتين أساسيتين، هما:

النقطة الأولى: هل الديانة الإسلامية تناهض العلم؟

النقطة الثانية: هل العقلية العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة والفلسفة؟

أما عن النقطة الأولى فيتساءل الأفغاني: هل المعاداة بين الإسلام والعلم تعود إلى الديانة نفسها أم إلى أخلاق بعض الشعوب التي اعتنقت الإسلام؟ وأجاب أن مناهضة المسلمين للعلم والفلسفة في بعض عصورهم المتأخرة لا يرجع إلى طبيعة دينهم، بل إلى سوء فهم بعض الشعوب التي اعتنقته من غير العرب.

وأخذ الأفغاني يبين أن ما وقع للمسلمين وقع مثله لأهل الأديان الأخرى، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية عاكفون - حتى ذاك الوقت - على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال، يعني العلم والفلسفة.

---

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٦٠.

أما النقطة الثانية: فالكل يعلم أن الشعب العربي خرج من حال الهمجية التي كان عليها، وأخذ يسير في طريق التقدم الذهني والعلم بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية. وتمكن في خلال قرن من الزمان من الاطلاع على العلوم اليونانية والفارسية، وتقدمت تلك العلوم تقدمًا مدهشًا على يد العرب. صحيح أن العرب قد أخذوا عن اليونان، كما أخذوا عن الفرس، بيد أن تلك العلوم التي أخذوها بعد الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها وصححوها، ونسقوها تنسيقًا منطقيًّا، وبلغوا بها مرتبة الكمال.

وبعد ردود الأفغاني - كما روى المخزومي - شهد له رينان بصحة العلم وقوة الحجة، ورجع عن كثير من آرائه في أن الإسلام والقرآن مانعان للحضارة والعمران، وأن ما يُرى في المسلمين من الانحطاط والتقهقر ناشئ عن سوء فهم أهل الجمود من رؤساء أهل الدين لحكمته(١).

أما النقطة الداعية أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر بسبب إيمان المسلمين بعقيدة القضاء والقدر، فقد رد عليها الأفغاني في مقالة بعنوان «القضاء والقدر» وهي موجودة أيضًا في كتاب «الخاطرات» أبطل فيها زعم الأوروبيين أن المسلمين متأخرون عن المدنية بسبب اعتقادهم بهذه العقيدة، مبينًا أن الغرب لم يفرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائل بأن الإنسان مجبور في جميع أفعاله، ويرد الأفغاني قائلاً: «افتروا - أي

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

الغرب - على الله والمسلمين كذبًا، لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني، وشيعي، وزيدي، وإسماعيلي، ووهابي، وخارجي يرى مذهب الجبر المحض.. بل كل هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختياريًّا في أعمالهم، ويسمى بـ(الكسب) وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم»[(١)].

وكانت مدة إقامة جمال الدين في فرنسا محفوفة بالتعظيم والإجلال من أكثر علمائها وفلاسفتها. واستمر مقيمًا بباريس، حتى أرسلت بريطانيا إليه تستدعيه لمقابلة اللورد «سالسبوري» لتسأله عن رأيه في حركة «المهدي»[(٢)] في السودان، وتعرض عليه عرش السودان. ولكن السيد جمال الدين رفض هذا العرض قائلاً: «هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان؟!»[(٣)].

وبعد فترة قرر مغادرة باريس وأوروبا، والسفر إلى شبه الجزيرة العربية، التي رآها بعيدة عن النفوذ الاستعماري، وأمل أن ينفذ فيها مشروعه لإقامة

---

(١) المرجع السابق، ص٤٨٨.

(٢) هو محمد أحمد المهدي (ت١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م) زعيم ديني أنشأ الطريقة المهدية، وهي طريقة دينية صوفية سياسية كانت ترمي إلى إقامة عدالة اجتماعية عن طريق الجهاد المسلح ضد الاستبداد العثماني والاحتلال الإنجليزي، وقد أعلن المهدي دعوته سنة ١٨٨١م، وصرّح بأنه المهدي المنتظر، وأطلق على أتباعه الدراويش اسم الأنصار، ثار على الحكومة، وهزم الحملات التي بعثتها لتأديبه، واستولى أتباعه على السودان، ودخلوا الخرطوم ثم أُخمدت الثورة سنة ١٨٩٩م.

(٣) المرجع السابق، ص٥٧ و٥٨. وأيضًا: الأفغاني ومحمد عبده، العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى، مرجع سابق، ص٣٥.

خلافة إسلامية، إلا أنه غير وجهته إلى «طهران» تلبية لدعوة الشاه «ناصر الدين القاجاري» الذي أغراه باستعداده لتنفيذ أهدافه.

ولم يمكث الأفغاني في «طهران» طويلاً، فغادرها إلى «موسكو» لتنسيق جهود الحركة الإسلامية مع القيصرية الروسية ضد الاستعمار الإنجليزي في الهند ومصر، وعاش في «بطرسبرج»، ونشر في صحفها مقالات ضد إنجلترا واستعمارها، شرح فيها أهداف وأطماع أوروبا في الشرق.

وتعرّف الأفغاني على أوضاع المسلمين في روسيا، وكان عددهم - حينذاك - نحو ثلاثين مليونًا يعانون من الظلم، فحاول الاتصال برجال الحكم عسى أن يلطف من ظلمهم، ويخفف من جورهم، وسعى لدى القيصر في السماح للمسلمين هناك بطبع المصحف وبعض الكتب الدينية، فأذن له بذلك.

وعندما قابل الأفغاني القيصر، سأله القيصر عن سبب اختلافه مع الشاة، فقال: إن الحكومة الشورية التي أدعو إليها لا يراها الشاه. فقال القيصر: إنني أرى الحق في جانب الشاه؛ إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم به فلاحو مملكته؟! فأجاب الأفغاني: «أعتقد يا جلالة القيصر أن عرش الملك إذا كانت الملايين من الرعية أصدقاء له خير من أن تكون أعداءً يترقبون الفرص، ويكنون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام»(١).

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٦٣.

وقد أغضبت هذه الإجابة القيصر، فأوعز إلى رجاله بسرعة إخراج الأفغاني من روسيا، فرحل الأفغاني قاصدًا أوروبا، ومتنقلاً بين بلادها، والتقى بالشاه «ناصر الدين» في «ميونيخ» الذي عرض عليه العودة معه مرة أخرى إلى «طهران»، وواعدًا أن يمهد له طريق الإصلاح الذي اقترحه، وقَبِل الأفغاني العرض.

وعاد الأفغاني من جديد إلى «طهران»، والتف حوله جمهرة من العلماء الراغبين في وضع مشروعات لإصلاح الإدارة، وإقامة العدل، وسنّ القوانين، وتنظيم حكم نيابي للبلاد؛ لتكوين حكومة ملكية شورية، وعرض هذه الإصلاحات على الشاه الذي اعترض قائلاً: أيصح أن أكون يا حضرة السيد (الأفغاني) وأنا ملك ملوك الفرس (شاهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين؟! فأجابه الأفغاني قائلاً: اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري أعظم، وأنفذ، وأثبت مما هي الآن. وأضاف: لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت، وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك، ولكن هل رأيت ملكًا عاش بدون أمة ورعية؟![1]

وشعر الأفغاني بغضب الشاه، فرحل إلى بلدة شاه «عبد العظيم» واتخذها مركزًا لدعايته وخطبه، وكان يزوره هناك بعض الضباط والعلماء ورجال الدولة، يستمعون إلى دعوته للثورة والإصلاح، فوسوس «الصدر الأعظم» للشاه بخطورة

(١) المرجع السابق، ص٦٥.

هذا الوضع على مُلكه. فقام بطرد الأفغاني وهو مريض إلى البصرة، التي رحل منها إلى لندن مرة ثانية.

وفي لندن ساهم الأفغاني في إخراج مجلة شهرية اسمها «ضياء الخافقين»، كانت تصدر باللغتين العربية والإنجليزية. صدر العدد الأول منها في (رجب ١٣٠٩هـ/ فبراير ١٨٩٢م)، وكان يوقع مقالاته باسم «السيد الحسيني»، وفي تلك المقالات فضح الأفغاني حكومة الشاه، وحرَّض العلماء أن يصدروا فتوى بعدم التعاون مع الشاه. كما سعى من خلال هذه الجريدة إلى تقوية التواصل بين الغربيين والشرقيين.

وفي تلك الأثناء دعاه السلطان «عبد الحميد»[١] سلطان العثمانيين إلى الأستانة؛ ليعاونه على نشر التضامن الإسلامي، واستجاب الأفغاني للدعوة، ولقي هناك حفاوة كبيرة، وأجرى عليه السلطان راتبًا شهريًّا.

وخُيل للأفغاني أنه يستطيع - بمعونة السلطان - أن يوسع دائرة إصلاح البلاد الإسلامية؛ فوضع خطته لجامعة إسلامية، يؤلف بها بين الفرس والأفغان والعثمانيين بنوع من الاتحاد أو الحلف، ثم رسم منهج إصلاح الإدارة وإصلاح التعليم في الدولة العثمانية، ودعا السلطان إلى الحكم الشوري، وخدعه السلطان

(١) حكم السلطان عبد الحميد (١٨٤٢-١٩١٨م) الدولة العثمانية لفترة تقترب من الثلاثين عامًا، فقد ارتقى العرش سنة ١٨٧٦ حتى ١٩٠٩م، وكان من أعظم دهاة العصر الحديث، وعُزل بعد قيام حكم الاتحاديين، وبعد ثورة «تركيا الفتاة» سنة ١٩٠٨م.

بالتظاهر لتلبية إصلاحاته، واتفقا معًا على العمل لتكوين جامعة إسلامية تضم كل مسلمي العالم، ولكن سرعان ما اكتشف الأفغاني أطماع السلطان وخداعه له، فحاول السفر عن الأستانة، إلا أن السلطان كان يراضيه للبقاء، ويحيطه بالجواسيس التي ترصد تحركاته منعًا للفرار.

وواجه الأفغاني في الأستانة خصمًا لدودًا هو «أبو الهدى الصيادي»[١] الذي حاك حوله الحيل والمؤامرات، وأوقع ما بين السلطان وجمال الدين، وضاع أمل الأفغاني في تعاون السلطان، فأخذ ينقده في مجالسه الخاصة قائلاً: إن هذا السلطان سُلّ في رئة الدولة[٢]. وسخر من أطماع السلطان أن يكون خليفة لكل المسلمين.

وفي الأستانة التقى الأفغاني بالخديوي عباس حلمي الثاني، بدون موافقة السلطان، وأشاع الجواسيس أن جمال الدين قد تعاهد مع الخديوي على تأسيس دولة عباسية[٣]؛ ليكون خليفة للمسلمين، مما أغضب السلطان، فضيق من تحركات الأفغاني، ومنع زيارته إلا بإذنه، وفرض عليه إقامة شبه جبرية.

---

(١) أبو الهدى الصيادي من أشهر علماء الدين في عصره، وُلد في حلب سنة (١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م) ورحل إلى استانبول، وصار يُلقب بـ«مستشار الملك» و«حامي العثمانيين» و«سيد العرب»، له رسالة بعنوان «داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد» بيَّن فيها أهمية الجامعة الإسلامية في حياة المسلمين. توفي سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩٠٩م).

(٢) هذا رأي خاص للأفغاني، وواقع الأمر أن للسلطان عبد الحميد إسهامات رائعة في حماية الدولة الإسلامية، منها أنه وقف ضد أطماع اليهود في تملك فلسطين وجعلها وطنًا خاصًا بهم.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٩.

وبعد فترة أصيب الأفغاني بمرض السرطان في الفك، ويقال إن طبيبه قد دس له السم أثناء علاجه[١]، وتوفي الأفغاني في (٧ شوال ١٣١٤هـ/ ٩ مارس ١٨٩٧م)، بعد أن قضى حياته في خدمة الإنسانية، ومحاولة إعادة مجد الإسلام ورفعة المسلمين، واتحادهم في رابطة واحدة.

مؤلفات الأفغاني

لم يحرص الأفغاني على كتابة الكتب، وكل ما تركه مجموعة من المقالات، ورسالة في «الرد على الدهريين»، ومقالات عن الأفغان جُمعت في كتاب «تتمة البيان»، بالإضافة إلى هذا الكتاب الذي سجل فيه المخزومي[٢] «خاطرات جمال الدين الأفغاني»، وأهم هذه الأعمال هي:

- مقالات في جريدة «مصر» وجريدة «التجارة».
- مقالات في «العروة الوثقى» بباريس.
- مقالات في مجلة «ضياء الخافقين» بلندن.

(١) ميرزا لطف الله خان، جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني، مرجع سابق، ص٤٠. وأيضًا: بلنت، الأفغاني ومحمد عبده، ترجمة: علي شلش، مرجع سابق، ص٦٠.

(٢) وُلد محمد المخزومي في بيروت سنة (١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م)، وبُعث إلى مصر سنة ١٨٨٥م لدراسة الطب في معهد قصر العيني. ولم يستمر فيه، وترك الطب وأنشأ مجلة نصف شهرية مع خاله بالقاهرة. اتسمت هذه المجلة باتجاهها السياسي والوطني، ثم سافر إلى لندن سنة ١٨٨٩م، رحل بعدها إلى الأستانة التي عُين فيها عضوًا في مجلس المعارف، وأستاذًا في المكتب الشاهاني، ومُنح رتبة الباشوية، ومع انهيار الدولة العثمانية- عقب الحرب العالمية الأولى- عاد المخزومي إلى بيروت، واستقر بها حتى وافته المنية يوم الأحد الموافق (٤ ربيع الأول ١٣٥٠هـ / ١٩ يوليو١٩٣١م) عن عمر يناهز الثلاثة والستين عامًا.

- مقالته في جريدة «الديبا» الفرنسية ردًّا على أرنست رينان.
- كتاب «تتمة البيان في تاريخ الأفغان» وهو مختصر في تاريخ الأفغان.
- رسالة «الرد على الدهريين» كتبها بالهند.
- كتاب «خاطرات جمال الدين الأفغاني» سجله محمد باشا المخزومي بالأستانة.

وسنعرض لأهم ما تتضمنه هذه الأعمال من أفكار:

- **«تتمة البيان في تاريخ الأفغان»**(١)

بدأ الأفغاني هذا العنوان بمقالة نشرها بجريدة «مصر» تحدث فيها عن السياسة الإنجليزية، وما يهدف إليه الإنجليز في بلاد العالم الإسلامي، ثم نشر عدة مقالات متتابعة بالجريدة المذكورة، جُمعت بعد ذلك في كتاب.

ويشتمل الكتاب على أربعة فصول: الأول تحدث فيه عن «اسم هذه الأمة» الأفغانية. والفصل الثاني عن «نسب هذه الأمة» والقبائل التي تتكون منها. ويتناول الفصل الثالث «ابتداء سلطانهم وقيام زعيم منهم بأمر الملك». ثم تناول تاريخ أفغانستان حتى العصر الحديث. والفصل الرابع في بيان الشعوب المختلفة الساكنة في الأقطار المعبر عنها باسم أفغانستان وأخلاقهم وعاداتهم ومذاهبهم، وأيضًا إيضاح كيفية الحكومة في تلك البـلاد.

---

(١) الأفغاني، تتمة البيان في تاريخ الأفغان، تصحيح: علي يوسف الكريدلي، مطبعة الموسوعات، مصر، ط١، (١٣١٨هـ/ ١٩٠١م).

- **رسالة «الرد على الدهريين»**

وعنوانها التفصيلي «رسالة في إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم، وإثبات أن الدين أساس المدنية، والكفر فساد العمران»، وقد كتبها بالفارسية، ثم تُرجمت إلى الأردية، وقام الإمام محمد عبده بترجمتها إلى العربية بمعاونة «عارف أفندي أبي تراب».

واستعرض جمال الدين في هذه الرسالة نشأة المذهب المادي منذ أقدم العصور، والأطوار التي مر بها خلال فترات التاريخ القديمة والحديثة، حتى ظهور مذهب النشوء والارتقاء عند «داروين» وأمثاله.

وقد أخذ هذا المذهب في الانتشار في الهند، بواعز من الإنجليز، لتفكيك الروابط الدينية، ومهاجمة العقائد الإسلامية، حيث كان أساسًا لمذهب مادي إلحادي أخذ في الانتشار بين الهنود، وعُرف باسم مذهب «النيتشريين» أو «النتشرية» نسبة إلى Nature – وهي كلمة إنجليزية معناها الطبيعة – كما عُرف هذا المذهب في مصر، واعتنقه البعض أمثال: شبلي شميل، وإسماعيل مظهر.

وأدى انتشار هذا المذهب في الهند إلى فزع بعض المسلمين، فبعث أحدهم، وهو «مولوي محمد واصل» – المدرس بمدرسة الفنون بـ «حيدرآباد» – برسالة[١] إلى السيد جمال الدين لشرح مبادئ النيتشرية، وفنَّد جمال الدين حجج هذا

---

(١) أوردها الإمام محمد عبده كاملة في مقدمته لرسالة الرد على الدهريين. انظر: الرد على الدهريين، تحقيق: محمود أبو رية، تقديم صلاح الدين السلجوقي، دار الكرنك، القاهرة، (د.ت)، ص٣٤.

المذهب، وبيَّن قيمة الدين وضرورته؛ لأن عقائده أساس لكل سعادة اجتماعية أو فردية. فالدين أساس العمران، بينما يفضي الإلحاد إلى الخراب وانهيار الأمم، ثم انتقل الأفغاني من هذه الفكرة إلى القول بأن الإسلام يفضل الأديان الأخرى في تحقيق السعادة، ورسم مناهج الإصلاح الاجتماعي والسياسي.

- **كتاب «خاطرات جمال الدين الأفغاني»**

سجل محمد باشا المخزومي هذه الخاطرات، وهي مجموعة من الأحاديث التي ألقاها الأفغاني أثناء إقامته الأخيرة في الأستانة، في الفترة من (١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م) إلى (١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م)، أي حتى وفاة الأفغاني.

وترجع أهمية هذا الكتاب أنه ضم آخر ما صرح به الأفغاني من آراء، ولم تُسجل له آراء بعد ذلك غير ما حوى هذا الكتاب، فكان آخر ما ذكره قبيل وفاته. بالإضافة إلى أن المخزومي كان موضع أسرار الأفغاني، فهو صديقه وتلميذه وملازمه. وقد كشف له الأفغاني عن نواياه، وأوضح له آراءه بحرية وصراحة؛ لذا جاء الكتاب صورة حيّة وصادقة لآراء جمال الدين.

يضاف إلى هذا أن الكتاب قد حوى ردود الأفغاني على بعض الاتهامات والمزاعم التي وُجهت إليه. فقد كان المخزومي كثيرًا ما يسأل الأفغاني عن التهم التي توجه إليه، ويطلب منه الإجابة عنها، من أمثال تلك المزاعم، زعم من قال:

إن حكمة الأفغاني بلسانه أكثر مما هي في قلبه[١]، وكذلك ما أُشيع عنه القول بالمستبد العادل.

وما نلاحظه على هذا الكتاب أنه لم يكتب في موضوع واحد، أو مطلب واحد، بل هو أحاديث بعضها تعليق على الحوادث، وبعضها أتى على سبيل السؤال والاستفهام، والبعض الآخر على سبيل الجدل والحوار مع آخر. كما حوى بعض مقالات العروة الوثقى، ومختصر رسالة «الرد على الدهريين»، وعددًا من المقالات والأحاديث التي لم تُنشر في أي عمل آخر، بالإضافة إلى بعض العبارات المختصرة التي قالها الأفغاني على شكل حكم ومواعظ، وسيرة حياة الأفغاني على لسانه، أو نقلاً عما كتبه محمد عبده.

وهذه الموضوعات غير مسلسلة أو مرتبة، وكان في إمكان المخزومي أن يرتب موضوعات الكتاب، ويقسمها إلى مقالات اجتماعية، وأخرى سياسية، وثالثة دينية، ورابعة ذكريات، إلا أنه ترك الموضوعات بغير ترتيب، وربما كانت الظروف القلقة التي عاشها المخزومي – عند نشر هذا الكتاب – وراء نشرها على هذا النحو.

وقد أراد المخزومي – بداية – أن يعنون الكتاب باسم «جمال الدين الأفغاني في البلاط السلطاني»، فلما سمع الأفغاني بهذا العنوان نفر منه، واقترح

---

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص١٠٥.

أن يسميه «خاطرات»، إلا أن أحد علماء اللغة أخبره أن الأقرب إلى الصواب هو «خواطر»، ولكن الأفغاني أصر على تسميته «خاطرات».

ولم يُنشر هذا الكتاب في حياة الأفغاني، وبعد وفاته وصلت مجموعة من الرسائل من مصر والهند تطالب المخزومي بنشر الكتاب، فلما شرع في إعداده، وجد أن مقال جمال الدين عن «الأحزاب في الشرق» ينطبق على حال جمعية «الاتحاد والترقي» الحاكم - حينذاك - في تركيا، فرأى أن يؤجل الكتاب إلى وقت آخر.

وفي سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١٢م) وصلت رسائل جديدة إلى المخزومي تستحثه على سرعة طبع الكتاب، وفي أثناء إعداده، تغيرت الأحوال السياسية، وقامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، فاضطر مرة أخرى لإرجاء نشر الكتاب[١]، حتى نشره سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م) قبيل وفاته.

وقد تنبأ الأفغاني بما سيواجه هذا الكتاب وأفكاره من مقاومة التيار المحافظ، فأشار على المخزومي قائلاً: «إذا سلمت في كتابة خاطراتي من خطر الطاغية وطواغيته - يعني جواسيس السلطان عبد الحميد - فستصادف من أهل الجمود عنتًا وتخرصًا، وقلبًا للحقائق فلا تبال بهم، فما خلا الكون منهم يومًا

(١) المرجع السابق، ص٩.

ليخلو زمنك، ولا نجا منهم مخلص لتنجو أنت»[١]، وهذا بالفعل ما لقيه كتاب «الخاطرات» بعد ذلك.

الأفغاني بين «الرد على الدهريين» و«الخاطرات»

يعتبر كتاب «خاطرات جمال الدين الأفغاني» حصيلة خبرته الحياتية، بعد أن تجمعت لديه حصيلة كبيرة من الخبرات والتأملات الطويلة، واختبار خططه في أرض الواقع، واستيعابه للتراث الاجتماعي للفكر العربي الإسلامي، وتجربته الثرية في مصر وإدراكه لعمقها الحضاري والتاريخي، وبعد الاحتكاك المباشر بالفلسفات والتنظيمات الاجتماعية والأحزاب الاشتراكية الأوروبية، وبعد أن تنقل في مدن أوروبا، وعرف ما ذخرت به من تقدم صناعي، وما صاحبه من ظلم اجتماعي وصراع طبقي، واتصل بكثير من فلاسفتها وعلمائها وساستها.

ويتكون كتاب «الخاطرات» من تمهيد، ويليه مقدمة عن حياة الأفغاني ومسيرته وأهم أعماله، بالإضافة إلى خمسين موضوعًا تتناول شتى الجوانب التي عاصرها الأفغاني وساهم فيها، وهو على العكس من رسالة «الرد على الدهريين» التي كتبها في موضوع واحد، ودارت حول نقد المذهب الإلحادي الذي ينكر وجود الله.

(١) المرجع السابق، ص١٥.

وبالمقارنة بين الكتابين يتبين تطور فكر الأفغاني، ففي «الرد على الدهريين» يبدو الأفغاني محافظًا، حيث اختار الدفاع عن الموقف التقليدي في تفسير الإسلام، وحمل حملة شديدة على تجديد الفكر الإسلامي بالفكر العلمي، الذي عده الطريق المختصر إلى الزندقة وزعزعة الإيمان الديني[١].

أما الكتاب الثاني «الخاطرات» فيبدو الأفغاني أكثر تطورًا واختلافًا بعد تجربة عاشها، ورحلات قام بها، ولقاءات مع ساسة ومفكرين جادلهم، واستفاد منهم، وكان لهذا الاتصال أثره في تطوير مواقفه، وتغيير بعض أفكاره السابقة، وكان تغييرًا نحو التقدم، والعدالة الاجتماعية والشورى والتعليم الوطني.

واختلفت مواقف الأفغاني من بعض القضايا التي نظر إليها في بداية حياته بارتياب، كموقفه من النشوء والارتقاء، ومن القومية والاشتراكية، ولكن بعد اتصاله بالحياة الجديدة في أوروبا، وبالتنظيمات الجديدة ازدادت خبرته، فأعاد النظر في بعض مواقفه السابقة.

وبين هذين الكتابين اختلافات فكرية، نستطيع توضيحها بعقد بعض المقارنات في قضيتين من القضايا التي تناولها الكتابان، هما موقفه من الرأسمالية، والاشتراكية، وموقفه من قضية التطور والنشوء والارتقاء.

---

(١) السيد يوسف، جمال الدين الأفغاني والثورة الشاملة، مرجع سابق، ص١٤٣.

- **القضية الأولى**

ناصر الكتاب الأول «الرد على الدهريين» الرأسمالية، وأدان الاشتراكية والاشتراكيين. بينما انحاز الكتاب الثاني إلى الاشتراكية، ولكنه فرَّق بين مفهوم الاشتراكية الغربية، وبين مفهوم الاشتراكية في الإسلام؛ فالاشتراكية الغربية ما أحدثها وأوجدها إلا حاسة الانتقام من جور الحكام، وعوامل الحسد في العمال من أرباب الثراء، الذين استعملوا ثرواتهم في السفه، وبذلوها في الترف على مرأى من منتجيها، وأفرط الأغنياء منهم في نبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم، فاضطر العمال إلى مناهضة أهل الثروة، فلا قاعدة دينية يرجعون إليها، ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع.

أما الاشتراكية في الإسلام، فهي ملتحمة بالدين الإسلامي، ملتصقة بخلق أهله منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية، وأول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة، وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية كذلك أكابر الصحابة. يقول الأفغاني: «إن اشتراكية الإسلام هي عين الحق، والحق أحق أن يتبع»[1].

فالإسلام جعل الزكاة من أركانه، فالزكاة هي الاشتراكية الإسلامية، وهي عماد العدالة الاجتماعية، والفارق بينها وبين الاشتراكية الغربية، أنها في الغرب تطرفت، وتولدت عنها الأحقاد والضغائن بين طبقات الشعب، وجعلت الأمن

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٢٧٠.

والنظام في حاجة إلى حاكم بأمره، يضع الحدود لوقف الحرب بين الطبقات، في حين أن اشتراكية الإسلام أساسها التعاون والتراحم بين أفراد المجتمع.

- **القضية الثانية**

في رسالة «الرد على الدهريين» نقد الأفغاني نظرية النشوء والارتقاء، وصب جام غضبه على «داروين» مصورًا حاله قائلاً: لا ريب أنه يقبع قبوع القنفذ، وينتكس بين أمواج الحيرة.. وكأني بهذا المسكين وما رماه في مجاهيل الأوهام ومهامه الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والإنسان. وكأن ما أخذ به من الشُّبه الواهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة[١].

أما في كتابه الثاني «الخاطرات» فقد حاول أن يبحث عما يدعم هذه النظرية في التراث العربي، ويذكر قولاً «لأبي العلاء المعري» مؤكدًا على بحثه لهذه الفكرة قائلاً: «ليس فيه خفاء فهو يقصد (أي المعري) النشوء والارتقاء، آخذًا بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب»[٢].

ويستشهد الأفغاني برسالة لـ«أبي بكر بن بشرون» في الكيمياء، يذكر فيها أن التراب يستحيل نباتًا، والنبات يستحيل حيوانًا، وأن أرفع مواليد النبات أدنى طبقات الحيوان، والإنسان نهايتها[٣]، بل ويحاول أن يؤصل هذه النظرية

(١) الأفغاني، الرد على الدهريين، مرجع سابق، ص٤٣، ٤٤.
(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٢٤٤.
(٣) المرجع السابق، ص٢٤٥.

في تاريخ العرب، وفي حضارتهم الإسلامية قائلاً: أما الانتخاب الطبيعي فهو في جبلة البداوة، وفي حضارة الإسلام أمر معروف ومعمول به، سواء أكان في انتخاب الزوجات من النساء، أو تحسين نسل الخيل. وأما حرص العرب على الانتخاب الطبيعي في تحسين الحيوان فأمر مشهور[١]، بل يعمم الأفغاني هذه النظرية لتشمل ميدان الأفكار بعد أن طبقها على ميدان المخلوقات.

والأفغاني في هذا الكتاب - الخاطرات - لا يرفض نظرية النشوء والارتقاء على إجمالها، وإنما يرفض أن يقال إن الحياة وظهور الأحياء نتيجة طبيعية للقوى الطبيعية، بل إن خلق الحياة، وكل ما في الوجود يعود إلى الله، مؤكدًا ذلك بقوله: «إني أرى أن الأحياء التي عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية، نفخ الخالق فيها نسمة الحيـاة»[٢].

أهم أفكار كتاب «الخاطرات»

شغلت فكرة وحدة المسلمين، وإقامة رابطة أو جامعة إسلامية أغلب حياة الأفغاني، وكتب فيها أكثر مقالاته، وكانت الغاية وراء سعيه الدائم، وتنقله بين الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية، وصار كل علمه وعمله من أجل تحقيق هذه الغاية. أو كما قال عنه «جرجي زيدان»: إن مجمل أقوال الأفغاني، والغرض

(١) المرجع السابق، ص٢٤٩-٢٥٠.
(٢) المرجع السابق، ص٢٤٦-٢٤٧.

الذي تصبو نحوه أعماله، والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الإسلام[١].

وهذا ما أكده العقاد بقوله: إذا لخصت رسالة جمال الدين في كلمتين فرسالته بإيجاز الجامعة الإسلامية[٢].

أولاً: الوحدة الإسلامية في جامعة إسلامية

كانت حركة الجامعة الإسلامية أوسع وأشمل مما قام به الأفغاني، وهناك جهود كبيرة بذلها مفكرون وسياسيون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي تفاوتت إمكاناتهم وأدوارهم حسب قدراتهم ومراكزهم في نشر هذه الفكرة. ولم تكن دعوة الأفغاني أولى الدعوات إلى تحقيق وحدة إسلامية، بل سبقتها دعوات أخرى كثيرة منذ أخريات القرن الثامن عشر، وأعيد طرحها عند العثمانيين منذ بدايات القرن التاسع عشر، وهذا ما دفع أحد الباحثين إلى اعتبار جمال الدين الأفغاني ليس إلا منظمًا لحركة الجامعة الإسلامية لا موجدها[٣].

---

(١) جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مكتبة الحياة، بيروت، ط٣، ١٩٧٠م، ج٢، ص٨٤.

(٢) عباس محمود العقاد، الإسلام في القرن العشرين بين حاضره ومستقبله، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م، ص١٤٢.

(٣) عبد الباسط محمد حسن، جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث، مكتبة وهبة، القاهرة، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص٦٧.

١- نشأة مصطلح الجامعة الإسلامية وتطوره

بدأ مصطلح «الجامعة الإسلامية» في الظهور والازدهار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واتسع ليشمل مفاهيم عدة[١]، فبعض المصلحين رأى فيها دعوة للرجوع بالدين إلى ما كان عليه السلف الصالح، وآخرون فسروها على أنها دعوة لتحديث المفاهيم الإسلامية وتطويرها، وتفسيرها بشكل يساير تطور الحياة الحديثة، ويتماشى مع المفاهيم الواردة من مدنية الغرب وثقافته، وآخرون رأوا فيها دعوة إلى إحياء الخلافة العربية القرشية من جديد، لكن من غير أن يكون لهذه الخلافة سلطة دنيوية، بل مجرد رمز ديني لوحدة المسلمين.

إن الجامعة الإسلامية هي الحركة الإصلاحية التي أراد أصحابها توحيد المسلمين وراء وحدة واحدة، قد تكون عربية أو عثمانية، أي توحيد الشعوب التي تدين بالإسلام في رابطة أو جامعة تقوم على أساس من الدين.

ويفسر أحد المستشرقين هذا بقوله: الجامعة الإسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام «هي شعور بالوحدة العامة، والعروة الوثقى، لا انفصام بين جميع

---

(١) أحمد فهد بركات الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية، مكتبة المنار الزرقاء، ط١، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص٥،٦.

المؤمنين في العموم الإسلامي، وهي قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة»[1].

أي إنه يعود بالجامعة الإسلامية إلى بداية الرسالة الإسلامية. ولكن هناك من ربطها بالتحديات التي واجهت العالم الإسلامي، سواء أكانت تحديات داخلية متمثلة في الاستبداد والتخلف، أو تحديات خارجية متمثلة في الأطماع الغربية الاستعمارية لبلاد الشرق. فهي «تيار سياسي وفكري ناضل تحت شعار الجامعة الإسلامية من أجل يقظة الشرق كله على أساس من وحدة العقيدة الإسلامية»[2].

وقد ظهرت الجامعة الإسلامية في تيارين واضحين: الأول تيار الجامعة الإسلامية العثماني، والآخر: تيار الجامعة الإسلامية العربي. وجاء الأفغاني بتيار خاص بين هذين التيارين.

(١) لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، ط٤، (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٣م)، ص٣٨٨.

(٢) محمد عمارة، الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٦م، ص٤٩. وأيضًا لنفس المؤلف: جمال الدين الأفغاني المفترى عليه، دار الشروق، القاهرة، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص١٧٣.

٢- تيارات الجامعة الإسلامية

(أ) تيار الجامعة الإسلامية العثماني

قاد هذا التيار السلطان عبد الحميد، ودار حول تكوين جامعة إسلامية تحت سيطرته، وتضم الولايات الإسلامية الواقعة تحت سلطته، وأن تنضم إليها الدول الإسلامية الأخرى مثل الهند وفارس وأفغانستان.

وقد استغل السلطان «عبد الحميد» جمال الدين الأفغاني فترة من الزمن لترويج هذه الفكرة، حيث اعتقد أن الخلافة قد انتقلت إلى السلالة العثمانية حين تنازل عنها الخليفة العباسي إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧م.

وقد ارتاب السير «توماس أرنولد»[١] في صحة هذا الادعاء، كما أنكر القوميون العرب هذه الخلافة - من أمثال: عبد الحميد الزهراوي، وساطع الحصري، ورفيق العظم، وعبد الرحمن شبندر، وغيرهم - لأنه حتى وإن صح التنازل فإنه لابد أن يكون قد حصل بالإكراه.

وقد أخذ السلطان عبد الحميد على تأكيد هذه الفكرة، فاستدعى الأفغاني - أحد دعاة هذه الفكرة - لمساعدته في نشر فكرة الخلافة الإسلامية. قائلاً: إن الإمبراطورية العثمانية دولة احتوت عددًا كبيرًا من الأمم والشعوب، جمعتهم الرابطة الإيمانية، وجعلتهم أفرادًا في عائلة واحدة. فعلينا - والحالة هذه - أن نعتبر

(١) السير توماس أرنولد، الخلافة، ترجمة: جميل معلى، دار اليقظة، بيروت، ١٩٤٦م، ص٨٦.

أنفسنا مسلمين قبل أن نكون عثمانيين، وأن تكون صفة المسلمين فوق صفة السلطان العثماني[١].

ويؤكد السلطان عبد الحميد هذه الفكرة بأقوال أخرى، مثل: حب الوطن في بلادنا العثمانية يجب أن يأتي في المرتبة الثانية بعد حب الدين، الذي يحتل المرتبة الأولى[٢].

وكانت فكرة الخلافة الإسلامية قد بدأت عند بعض السلاطين العثمانيين السابقين، إلا أن الظروف التي واجهت الدولة العثمانية - حينذاك - دفعتها للتمسك بهذه الفكرة والدعاية لها؛ كي تحكم قبضتها على الولايات العثمانية المسلمة بعد محاولة الدول الأوروبية إزاحة السيطرة العثمانية عن دول البلقان.

وقد دعم فكرة الجامعة الإسلامية العثمانية بعض السياسيين والإصلاحيين وعلماء الدين، فمن السياسيين نذكر: الزعيم المصري أحمد عرابي الذي قام بثورة ١٨٨١، وأشار حينئذ إلى أن ثورته ليست ضد الخليفة قائلاً: كلنا أبناء السلطان، ويجب علينا أن نعيش كأسرة في منزل واحد. وأضاف أنه «لم يخطر

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص١٧٦، ١٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٧.

بباله أصلاً الاقتداء بالفاتحين والمتغلبين؛ لأن في ذلك ضياعًا للإسلام عن بكرة أبيه»[١].

وقد وافقه بعد ذلك رجال سياسة آخرون أمثال الزعيم مصطفى كامل، والزعيم محمد فريد الذي أورد أقوالاً في تعظيم الخليفة في كتابه «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، وقد أيده في ذلك الشيخ المراغي[٢].

وقد كان هدف السلطان عبد الحميد من هذه الفكرة توحيد الشعوب التي تدين بالإسلام، وإخضاعها لحكمه، باعتباره خليفة لجميع المسلمين، وكان حريصًا على تأكيد كونه خليفة الإسلام السني، ظل الله في الأرض[٣]، الذي يحكم بالشورى، ويلتف حوله جميع المسلمين.

وكان هذا هو إطار التفكير السياسي الإسلامي السني، الذي سبق ودعا إليه كثير من المفكرين، أمثال الماوردي والغزالي وابن خلدون. وظلت هذه الفكرة راسخة في الأذهان حتى ظهور الأفغاني.

---

(١) بلنت، التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر، مرجع سابق، ص٤٥٣.

(٢) ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م، ص٣٦٥.

(٣) ظل الله في الأرض تعني أن الله تعالى بما أنه هو الملك العدل، وهو الذي حرّم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرمًا، إذًا فكل حاكم مسلم يجب أن يكون ظلاً لله بهذا المعنى: إقامة العدل ومحاربة الظلم وجعله محرمًا تجاوبًا مع إرادة الله سبحانه، وإلا يفقد الحاكم شرعيته، وتسقط صفة كونه ظلاً لله في الأرض.

وقد أباح السلطان عبد الحميد بعض الحريات للتأكيد على فكرة الشورى، فعند إصدار دستور سنة ١٨٧٦م تضمنت إحدى فقراته فكرة الشورى والمساواة بين عناصر الأمة - عثمانيين وعربًا - واتحادها تحت العلم العثماني، وأن ينال كل فرد حريته التي يبيحها له القانون. وقد وضع مواد هذا القانون مدحت باشا[١].

ولكن سرعان ما أوقف السلطان العمل بالدستور عندما شعر بأن مدحت باشا كان ينوي بعد إعلان الدستور اتخاذ سلسلة من الإجراءات التي تهدف- في النهاية- إلى حصر سلطة السلطان العثماني في الجوانب الروحية، وأن يكون لمدحت باشا الإشراف على الجوانب السياسية، وإدارة الدولة، فعمد السلطان إلى إقالة مدحت باشا من منصبه، ونفيه خارج البلاد[٢].

وقد استعان السلطان ببعض رعاياه من أصل عربي لنشر هذه الفكرة، من أمثال جرجي زيدان وفرح أنطون، وبعض المشايخ من أتباع الطرق الصوفية من أمثال «أبو الهدى الصيادي» الذي وضع مؤلفًا قال فيه: إن الخلافة ضرورة إيمانية انتقلت شرعًا من أبي بكر إلى العثمانيين[٣]. ومن واجب جميع المسلمين أن يطيعوه، وأن يكونوا من الشاكرين إذا أصاب، ومن الصابرين إذا أخطأ.

---

(١) مدحت باشا (١٨٢٢-١٨٨٥م) تولى مناصب إدارية وسياسية عدة حتى وصل إلى منصب الصدارة العظمى سنة ١٨٧٠م في عهد السلطان عبد العزيز، ثم تولاه ثانية سنة ١٨٧٦م في عهد السلطان عبد الحميد.

(٢) مدحت باشا، مذكرات، ترجمة: يوسف كمال حتاتة، مطبعة هندية، مصر، ١٩١٣م، ص١٨.

(٣) أبو الهدى الصيادي، داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد، المطبعة السلفية، حلب، ١٢٥٧هـ، ص٥.

كما كان محمد عبده - في المراحل الأولى من حياته الفكرية - من المدافعين عن هذه الجامعة، حيث اعتبر أن الولاء للدولة العثمانية والمحافظة على كيانها جزء من العقيدة الإسلامية وركن من أركانها.

يقول عبده في مقالة كتبها في بيروت سنة ١٨٨٦م: إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكاملة لبقاء صورته، وليس للدين سلطان في سواها، وإنا والحمد لله على هذه العقيدة نحيا وعليها نموت[1].

(ب) تيار الجامعة الإسلامية العربي

هو تيار حاول أن يتحرر من سيطرة الخلافة العثمانية، ونادى بخلافة عربية، وقد بدأ الاتجاه عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، عندما نادى بخلافة عربية عوضًا عن الخلافة العثمانية، تلتها دعوة أخرى قادتها بعض الجمعيات السرية في الشام، وأيدها بطرس البستاني، ثم قاد هذا التيار بعد ذلك عبد الرحمن الكواكبي (ت١٩٠٢م) الذي كان أحد تلامذة الأفغاني، وتأثر به تأثرًا كبيرًا، ولكنه انفصل عنه بتمييزه بين الحركة العربية والحركة الإسلامية، بعدما وصل إلى التمييز بين العربي وغير العربي من الشعوب الإسلامية، وطالب بوحدة المسلمين تحت خلافة قرشية، مؤكدًا أن التاريخ قد أثبت أن الدور الذي

(١) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢، ج١، ص٤٨.

أداه العرب في ظهور الإسلام يعود إلى عبقريتهم، وصلاحيتهم لتمثيل روح الإسلام.

وإن كانت هذه الفكرة قد أخذت في الظهور ابتداءً من مشروع «محمد علي» الذي كان يسعى إلى إنشاء دولة عربية مستقلة في مصر[١] تضم إليها البلاد العربية في إفريقيا وآسـيا[٢].

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ألّف الكواكبي كتابه «أم القرى»، الذي نشره - باسم مستعار - في مصر سنة (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)، انتقد فيه أحوال الدولة العثمانية، وامتدح العرب، وقال بوجوب أن تكون الخلافة عربية، ولا يجوز الاعتماد على العثمانيين في أمر الخلافة، فالجامعة الإسلامية عنده تيار مناهض للأتراك العثمانيين.

ولم يدع الكواكبي العرب فقط إلى الالتفاف حول خلافة إسلامية قرشية، بل دعا الأتراك أنفسهم أن ينضموا إلى بقية المسلمين تحت لواء الخلافة العربية، قائلاً: «إن آل عثمان إذا تدبروا لا يجدون وسيلة لتجديد حياتهم السياسية أفضل من اجتماعهم مع غيرهم على خليفة من قريش»[٣].

---

(١) هناك من المؤرخين من يرى أن مشروع محمد علي كان مشروعًا إسلاميًّا وليس عربيًّا، من أمثال هؤلاء محمد شفيق غربال في كتابه عن محمد علي.

(٢) سامي الكيالي، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره، مطبعة المعارف، مصر، ١٩٤٣، ص٦٠.

(٣) عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، ضمن الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٣١٥.

وأيده في هذا الاتجاه بعض المفكرين، من أمثال الشيخ طاهر الجزائري (ت ١٩٢٠م) وعبد الحميد الزهراوي (ت ١٩١٦م) الذي أعلن في خطاب ألقاه في المؤتمر العربي المنعقد في باريس سنة ١٩١٣م أن الرابطة الدينية عجزت دائمًا في إيجاد الوحدة السياسية، وضرب مثلاً على ذلك بالنظر إلى الحكومتين العثمانية والفارسية، وكيف لم تقوَ رابطتهما الدينية على إزالة خلاف بسيط بينهما، وهو اختلاف على الحدود[١]؛ ولذا طالب أصحاب هذا التيار بخلافة إسلامية عربية بدلاً من خلافة إسلامية عثمانية.

(ج) تيار الجامعة الإسلامية عند الأفغاني

كان تيار الجامعة الإسلامية عند الأفغاني مختلفًا عن التيارات السابقة واللاحقة عليه، فهو وإن عاصر السلطان عبد الحميد، وشاركه في دعوته إلى الجامعة الإسلامية فإنه اختلف معه، وانقلب عليه عندما شعر أنه أبعد ما يكون عن الخليفة الإسلامي الذي يحكم بالشورى.

كما اختلف تيار الجامعة الإسلامية عند الأفغاني عن التيار الذي نادى به الكواكبي بعده، فالجامعة الإسلامية عند الأفغاني غير محددة بالجنس العربي، وربما كان لأصله العرقي دخل كبير في هذا، إذ إنه لا ينتمي إلى العنصر العربي، بل يقال إنه أفغاني أو إيراني؛ ولذا كانت دعوته لجامعة قائمة على أساس الوحدة الدينية والرابطة الإسلامية بين المسلمين بمختلف جنسياتهم.

(١) ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، مرجع سابق، ص٣٤٦.

ومن هنا اختلفت ملامح دعوة الأفغاني إلى جامعة إسلامية عن التيارات الأخرى، وظهرت لديه بملامح خاصة أعطى فيها حقوق المواطنة لأهل الأديان الأخرى، ونتعرف على هذه الملامح في الصفحات القادمة.

ثانيًا: ملامح الجامعة الإسلامية والوحدة الدينية

اختلفت دوافع الوحدة الدينية وأسبابها عند الأفغاني عن السابقين واللاحقين عليه، فقد اختلفت عن الوحدة الدينية التي دعا إليها السلطان عبد الحميد، وأيضًا اختلفت عن الوحدة الدينية التي نادى بها الكواكبي.

١- بواعث الوحدة الدينية

دعا السلطان عبد الحميد إلى وحدة أو جامعة إسلامية لإحكام قبضته على البلاد الإسلامية بعد أن فقد جزءًا كبيرًا من مملكته، إما عن طريق المؤتمر الذي عُقد في «برلين»، والخاص بتسوية مشكلات «البلقان»، أو نتيجة احتلال الغرب لبعض الولايات العثمانية، فقد احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠م، وقبرص سنة ١٨٧٠م، وتونس سنة ١٨٨١م، ومصر سنة ١٨٨٢م.

فكانت دوافع السلطان هي تشديد قبضة الدولة على ما تبقى من ولايات أمام الخطر الأوروبي الزاحف عليها من الغرب، ومد النفوذ الأدبي للخليفة العثماني من كونه خليفة على الولايات العثمانية إلى كونه خليفة لكل المسلمين،

ممن هم خارج حدود الدولة العثمانية – من هنود وفرس وأفغان – لمواجهة أخطار الغزو الأوروبي[١]. فكانت دعوته تهدف إلى المحافظة على ما بقي من أملاكه، ودعوة مسلمي العالم للالتفاف حوله.

أما دعوة الكواكبي لوحدة إسلامية عربية، فكانت بسبب كراهيته الشديدة للدولة العثمانية، التي عانى من استبدادها، وهو في بلاد الشام، مما دفعه إلى الهجرة منها إلى مصر، التي كانت تتمتع ببعض الاستقلال، والحكم الذاتي تحت سيطرة أسرة محمد علي، فدعوته إلى هذه الجامعة بدافع أن تستقل الدول العربية عن سلطة الدولة العثمانية، وتكوين رابطة إسلامية عربية.

أما الأفغاني فقد اختلفت دوافعه إلى الجامعة الإسلامية عن دوافع الآخرين قبله وبعده. حيث رأى أن العالم – في وقته – قد انقسم إلى شرق ضعيف وغرب قوي، أغلبية إسلامية متأخرة يقابلها غرب مسيحي متقدم ومُستعمِر، فدفعته تلك الظروف إلى مقاومة الاستعمار الذي حاول أن يفتت الشرق ليسهل عليه احتلاله، فكان غرضه هو إنهاض الأمة الإسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق بالأمم الراقية، وحل العقول من قيود الأوهام، وتوحيد الشرقيين، فيعود لهم مجدهم[٢].

---

(١) أحمد فهد بركات الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية، مرجع سابق، ص٦.

(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٨٢.

فقد شعر الأفغاني – نتيجة التصادم الحضاري بين الشرق والغرب – بمدى تخلف الشرق أمام تقدم الغرب في العلوم والمدنية، مما أتاح للغرب استعمارهم، بعد أن كان الشرق في مقدمة العالم المتمدين في العصور الوسطى.

فقد حوّل الإسلام الشعوب العربية من حالة تخلف – في عصر الجاهلية – إلى حالة التمدن والعمران، فكانت الشعوب العربية قبل الإسلام، شعوبًا تعيش في ضلالات الجهل، فجاءها الدين «ووحدها وقواها وهذبها، ونوّر عقلها، وقوّم أخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت على العالم... بعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها»[١].

ويستطيع الشرق – في العصور الحديثة – أن يعود إلى سابق عهده وحضارته عن طريق الوحدة الدينية، وإنهاض الجامعة الإسلامية. فقد استطاع الدين الإسلامي من قبل أن يجمع شعوبًا متفرقة تحت مظلته، ويوحد بينهم، ويحولهم إلى أمة من أعظم الأمم في الرقي، وعندما يعودون إلى التمسك برابطة الدين مرة أخرى ستعود لهم حضارتهم من جديد، فقد حولتهم الوحدة الإسلامية من قبل من «أمة كانت من أعرق الأمم في التوحش والقسوة والخشونة، وسما بها إلى أرقى مراقي الحكمة والمدنية»[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٤١.

(٢) المرجع السابق، ص٥٠٥. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة (نسخة القاهرة)، تحقيق: محمد عمارة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ودار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨، مقالة «الأصالة والتقليد»، ص١٩٩.

٢- مصادر الوحدة الدينية

بحث الأفغاني عن مصادر الوحدة الدينية تحت لواء الجامعة الإسلامية، فوجدها متحققة بالعقل والنقل والواقع التاريخي. فمن النقل والعقل تأتي مصادر التشريع الأربعة، وهي القرآن والسنة والإجماع والقياس. في كل مصدر من هذه المصادر ما يؤكد على هذه الوحدة والاتحاد.

ففي القرآن الكريم دعوات كثيرة إلى الوحدة، منها قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران/ ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات/ ١٠]، كما نهى - عن التفرقة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال/ ٤٦].

وهذا ما تؤكد عليه السنة الشريفة أيضًا، كما جاء في قوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(١).

أما المصدر الثالث من مصادر التشريع، فهو الإجماع، فقد بلغ اهتمام الدين بالوحدة مبلغًا كبيرًا عند جعل الإجماع أحد مصادر التشريع «وبلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الإسلامية أسمى درجة في الرعاية الدينية، وجعل

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم ٢٥٨٦.

إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفًا عن حكم الله وما في علمه، وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين»[١].

أما المصدر الرابع من مصادر التشريع، وهو القياس، فيساوي الأفغاني بينه وبين العقل، وهو يحكم أيضًا بضرورة الوحدة؛ لأن العقل يحكم بأن الأمم الكبيرة إذا اعتراها ضعف تطاولت عليها القوى الأجنبية، «ولم تجد بدًّا من طلب النجاة، وهو ما يكون بالتئام أفرادها والتحام آحادها»[٢].

وهكذا يؤكد الأفغاني أن مصادر الوحدة موجودة في الدين، ويدعو معتنقيه للأخذ بها، فللدين فعل السحر على معتنقيه، ويمكن لأي أمر إذا كان مصدره الدين أن يكون له تأثيره الذي يفوق المؤثرات الأخرى، فالدين عنده «وعند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب، ويرسخ في الأفئدة... فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تُدبِّر به بَدَنَها»[٣].

فكأن الضعف والخلاف بين المسلمين عائد إلى ابتعادهم عن الدين وحكمته، فيقول: «كل مسلم مريض ودواؤه في القرآن، وما على طالب الحكمة

---

(١) الأفغاني، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٦٨م، مقالة «الوحدة والسيادة»، ج٢ «الكتابات السياسية»، ص٣٢.

(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٥٢٤. وأيضًا: الأفغاني، فاتحة جريدة العروة الوثقى، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٩.

(٣) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٤٥٦. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة(نسخة القاهرة)، مقالة «النصرانية والإسلام وأهليهما»، مرجع سابق، ص٢٨٣.

إلا أن يتدبر معانيه ويعمل بأحكامه، فهل المسلمون اليوم عاملون بما جاء به محمد ﷺ»؟![1]

وليس الدين والعقل هما ما أثبتا ضرورة الوحدة فقط، بل الواقع التاريخي قد أثبت الوحدة كذلك؛ لأن كل أمة في التاريخ حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، فالدين والعقل والواقع هي مصادر الأفغاني للتأكيد على ضرورة الوحدة.

٣- مفهوم الوحدة الدينية

تقوم الوحدة الإسلامية عند الأفغاني على وحدة الدين، وهي رابطة تُعد من أهم روابط الاتحاد والائتلاف، ويسمي هذه الوحدة بالعصبية أو التضامن، والعصبية عنده تعني «الوصف الذي شكل الله به الشعوب، وأقام بناء الأمم، وهو عقد الربط في كل أمة، بل هو المزاج الصحيح، يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد»[2].

ونلاحظ هنا مدى تأثر الأفغاني بفكرة العصبية عند ابن خلدون- وهو يستشهد به كثيرًا في كتابه هذا- إذ يُعد أهم من تكلم عن العصبية قديمًا، فقد جعلها السبب الأساسي وراء نشأة الدول، كما كتب فصلاً عن ارتباط الدعوة الدينية بالعصبية، عنوانه «إن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم»[3].

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص١٠٦.
(٢) المرجع السابق، ص٥٠٠. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «التعصب»، مرجع سابق، ج٢، ص٤٢.
(٣) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ١٩٧٩م، ج٢، ص٥٢٦.

وقد تقوم العصبية على أسس متعددة، فقد تنشأ بسبب وحدة المكان (الوطن) أو اللغة أو الجنس أو الدين، فالروابط العصبية متعددة، وعندما يقارن الأفغاني بين أنواع العصبيات، يرى أن هناك نوعين من العصبيات هما أساس تكوين المجتمع الإنساني، وتكوين الدول، وبهما أو بأحدهما يخلص لها السلطان، وهما: قوة الجنس، وقوة الدين.

ولا يساوي الأفغاني بين الرابطتين- الجنس والدين- بل يرى أن عصبية الدين أقدس الروابط، ويعدد الأسباب التي من أجلها اختار المسلم رابطة الدين دون بقية الروابط كشعار لوحدته، منها:

- أنه يطمس الاختلاف بين الأشخاص والأفراد المتعددين، ويصل ما بينهم في المقاصد والأعمال.
- يمحو أثر المنافرة بين القبائل والعشائر والأجناس المتخالفة في الأوطان واللغات والعادات المتباعدة.
- يمحو أهواء الشعوب المتضاربة إلى قصد واحد، وهو تأصيل المجد، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم.
- أنه أخلد أثرًا في التاريخ، فالمسلمون جمعتهم جنسيتهم الدينية، وتفوقت على جنسيتهم المكانية، فأعرضوا «على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات، ورفضوا أي نوع من أنواع العصبيات عدا عصبيتهم الإسلامية»[١].

(١) الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «الجنسية والديانة الإسلامية»، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣.

ويفضل الأفغاني رابطة الدين عن بقية الروابط الأخرى؛ لأنها تستطيع أن تجمع الجنسيات المختلفة في رابطة أمتن من رابطة الجنس، فتستطيع أن تجمع التركي بالعربي، والفارسي بالهندي، والعربي بالغربي، ويخاطب المسلمين في كل مكان قائلاً: «هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم، فيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم، فلا توهنوها، ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوها لسطوة العدل»[١].

وكما نقد الأفغاني العصبية الجنسية بين المسلمين كذلك نقد المذهبية الدينية التي قسمت المسلمين إلى مذاهب وشيع، وكان أبرز خلاف حينذاك بين المسلمين، هو ما بين الشيعة وأهل السنة، وهو ما زال مستمرًّا حتى الآن.

وأساس هذا الخلاف يعود إلى اختلاف المسلمين- بعد وفاة الرسول ﷺ- فيمن هو أحق بالخلافة بعده. ذهب أهل السنة إلى تفضيل خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذهب الشيعة إلى تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستمر هذا الخلاف حتى الآن، ويرى الأفغاني أن هذه قضية واهية ذهب زمنها، ويجب أن يزول الخلاف الذي بني عليها؛ ولذا يصيح في المسلمين قائلاً: أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة؟! يا قوم- وعزة الحق- إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يرضى عن العجم- الفرس- ولا عن عموم أهل الشيعة إذ هم قاتلوا أهل السنة أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر. وكذلك أبو بكر فلا

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٣٤.

يرضيه أن تدافع أهل السنة عنه، وأن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مر زمنها، والتي تخالف روح القرآن الآمر أن يكونوا «كالبنيان المرصوص»[1] فهي قضية انتهى زمنها، ولم يعد لهذا الخلاف من أساس، ويكفي أن يقال إن أقصر الخلفاء الراشدين عمرًا تولى الخلافة قبل أطولهم عمرًا.

وقد لاقت فكرة العصبية التي نادى بها الأفغاني معارضة شديدة من بعض الأوربيين، واعتبروها حركة رجعية تنظر إلى الوراء، وتستلهم أفكارًا تعود إلى القرون الوسطى، ورآها البعض الآخر تنطوي على خطر كبير ضد أوروبا بشكل عام، وضد المسيحيين بشكل خاص، وأنها تؤدي إلى تغذية عناصر الحقد والكراهية.

ويفند الأفغاني تلك الادعاءات، ويرى أن دعوته للوحدة الدينية ليس فيها تعصب ضد المسيحيين، بل رأى أن العصبية الإسلامية لم تكن في يوم من الأيام ضد أهل الأديان الأخرى، والتاريخ يشهد بأن الدولة الإسلامية كانت تحفظ ذمم أهل الكتاب، ولم تكره أحدًا على الدخول في الإسلام، وأن ما تدعيه أوروبا من وجود تنافر بين العصبية الإسلامية والعصبية المسيحية يعود في الأساس إلى ما عُرف باسم «المسألة الشرقية»، وهي العراك بين الغرب المسيحي، والشرق الإسلامي، وهذا الصراع ليس بسبب الدين؛ وإنما بسبب الأطماع الغربية في الولايات العثمانية بالبلقان، وما مسألة الدين إلا ذريعة، وإذا

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٢٤١.

كان للضغينة الدينية شيء من الدخل في إيجاد المسألة الشرقية؛ فإنها ليست هي كل أسباب المسألة[١].

ويصف الأفغاني الغرب المسيحي بالتعصب ضد مخالفيه، ويرى أن الإفرنج يبشعون التعصب الديني، وهم أشد الناس في هذا النوع من التعصب، وأحرصهم على القيام به «يتقاربون ويتآلفون ويتوحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين، وإن كان في أقصى الصين أو قاصية من الأرض... يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات.. وليس من نوع الإنسان الذي يزعم الأوربيون أنهم حماته»[٢].

والتاريخ شاهد على أن التعصب الإسلامي كان أقل بكثير من التعصب المسيحي، ويستشهد الأفغاني على ذلك بأمثلة من تاريخ الأمم الغربية في الحروب الصليبية، وأيضًا مما عمله الأسبان بمسلمي الأندلس.

وإذا كان قد حدث بعض الشطط من أهل الدين الإسلامي في الأجيال السابقة، فإنه لم يصل إلى حد الإفراط والإبادة «وإخلاء الأرض من مخالفيهم في دينهم»[٣]، وهو أمر عارض يحدث ثم تعود الأوضاع إلى حد الاعتدال.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٠٠. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «المسألة الشرقية»، مرجع سابق، ج٢، ص٩.

(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٥١١. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «التعصب»، مرجع سابق، ج٢، ص٤٥.

(٣) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٥٠٦. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «التعصب»، مرجع سابق، ج٢، ص٤٣.

ثالثًا: الجامعة الإسلامية والوحدة السياسية (الخلافة)

كان الأفغاني يؤمن بأهمية الوحدة السياسية، وأثرها في جمع الكلمة، وإعادة الوحدة بين المسلمين، فقد حققت الخلافة الإسلامية- قديمًا- وحدة المسلمين تحت راية واحدة، وأراد الأفغاني أن يجدد في عصره ما كان للمسلمين قديمًا من جامعة تحت راية سياسية واحدة، يحكمها خليفة واحد.

ولم يكن الخط الفاصل بين ما هو إسلامي وما هو عربي واضحًا حتى ذلك الوقت، وكانت الدعوة لوحدة إسلامية لا تتعارض مع فكرة العروبة، وهدف الأفغاني الأول هو جمع المسلمين؛ لإحداث يقظة دينية وعلمية، «وتوحيد كلمة الإسلام ولمّ شمل المسلمين في سائر أقطار العالم الإسلامي في سائر أقطار العالم في حوزة دولة واحدة تحت ظل الخليفة الأعظم لا يشاركه في الحكم أحد، كما كانت الحال في أيام الإسلام المجيدة»[١].

وفي البداية التقت أحلام السلطان عبد الحميد مع آمال الأفغاني في تحقيق الوحدة السياسية، تحت ظل الخلافة العثمانية باعتبارها أقوى الدول الإسلامية حينذاك. فبايع الأفغاني السلطان على ذلك، قائلاً: «أما ما رأيته من يقظة السلطان، وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبا وحسن

(١) تشارلز آدمس، الإسلام والتجديد في مصر، مرجع سابق، ص١٥.

نواياه واستعداده للنهوض بالدولة، قد دفعني إلى مد يدي له، فبايعته بالخلافة والملك»[١].

فإذا استطاعت الدولة العثمانية حماية الولايات الواقعة تحت حكمها من العدوان الغربي، فسيؤدي هذا إلى مسارعة بقية البلدان الإسلامية الأخرى لطلب الدخول تحت الحماية السلطانية، والانضمام إلى هذا الحلف الإسلامي، ولا شك في أن إيران سوف تسرع إلى مقام السلطنة العظمى للاتحاد معها، إذ هي في أمسّ الحاجة لشد الأزر، ولصون كيانها من مطامع الغرب.

وليس الفرس فقط هم الذين سيطالبون السلطان العثماني بالانضمام إلى هذه الجامعة الإسلامية، بل ستسارع دول أخرى، مثل الأفغان لطلب الانضمام إلى الولايات العثمانية، وعندما ترى الهند – وهي تملك عددًا كبيرًا من المسلمين[٢] – هذا التحالف بين الدول الإسلامية ستطالب بانضمامها كذلك إلى الجامعة، وتنضم دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى، والسلطة الكبرى.. «ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الإسلامية.. وينهضون نهضة الرجل الواحد؛ للتخلص من ربقة الاستعمار والمستعمرين، ويرجع الشرق للشرقيين»[٣].

---

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٧٣. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «السلطان عبد الحميد»، مرجع سابق، ج٢، ص٢٢.

(٢) كان يعيش في الهند حينذاك ما يبلغ مائة وثمانين مليون مسلم قبل انقسامها إلى دولتين: الهند وباكستان.

(٣) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٣٢٠. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «السلطان عبد الحميد»، مرجع سابق، ج٢، ص٢٣.

وقد حاول الأفغاني أن يحقق الدولة العالمية الإسلامية في صورة دولة واحدة قوية، تجمع دولاً متعددة تنضم إلى جامعة إسلامية، وتحت خلافة واحدة.

وهذا الخلط بين دور الدين في تحقيق المثل العليا، ودوره في تحقيق الوحدة السياسية هو ما دفع محمد إقبال إلى نقد الأفغاني في دعوته لإقامة حكومة إسلامية موحدة، تضم كل الشعوب الإسلامية، وأشار إقبال إلى أن كلمة (إسلام) تؤدي معنى الوحدة، وعاب على الأفغاني أنه أدخل السياسة على الإسلام من غير مدخل(١).

فقد رفض إقبال الجامعة الإسلامية من حيث مدلولها السياسي، ولكنه رضي بها ودعا إليها من حيث كونها إذعانًا لأمر الدين الحنيف، إذ شاء للمسلمين أن يتحدوا مجتمعين على دين واحد، آخذين بأصوله وأحكامه، دون تمييز أوطانه، فليس الهدف هو الوحدة السياسية، بل الهدف الحقيقي هو أن تتوحد قلوب المسلمين، ويتم بينهم التعاون والتكامل بأكبر درجة ممكنة(٢).

لقد نادى الأفغاني بخلافة إسلامية سياسية موحدة، ورأى أن الدولة العثمانية صالحة للقيام بها، ويمكن أيضًا أن يصلح لها أي خليفة مسلم آخر، بشرط أن تتحقق فيه شروط الخلافة كما صورتها العقائد الإسلامية، خليفة عادل يعترف بسيادة الشريعة، ويحكم بالعدل ويلتزم بالشورى في حكمه.

---

(١) حسين مجيب المصري، إقبال بين المصلحين المسلمين، القاهرة، ١٩٨١م، ص٣١٦.

(٢) محمد إقبال، تجديد الفكر الديني، ترجمة: محمود عباس، القاهرة، ١٩٥٥م، ص١١١.

وقد تمنى الأفغاني أن يجد هذا الحاكم المسلم الذي يجمع المسلمين تحت سلطانه بغض النظر عن جنسيته، ما دام يحكم بالعدل، ويحافظ على الشريعة، ولا أهمية للجنسية حينئذ؛ لأن العربي لا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والمسلم في تبدل حكوماته يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها، ما دام صاحب الحكم خاضعًا لشأن الشريعة، وذاهبًا مذهبها.

ولذا رأى الأفغاني أنه إذا أتاح الله للأمة الإسلامية رجلاً قويًا عادلاً- ذلك الرجل إما أن يكون موجودًا، أو تأتي به الأمة- فتملكه، على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي، ويبقى التاج على رأسه إذا بقي محافظًا أمينًا على صوت الدستور، وإذا حنث بقسمه، وخان دستور الأمة «إما أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس»[١].

وكان الأفغاني يظن أن في إمكان السلطان عبد الحميد أن يحقق آماله في خليفة له صفات الخلفاء الراشدين، ومن أجل هذا بايعه بالخلافة، ولكن عندما شعر باستبداده بالحكم تراجع عن هذه البيعة، بل حارب الاستبداد الذي عرّفه قائلاً: إن الاستبداد هو أن تكون أمة من الأمم مقيدة برأي واحد من الناس، لا تتحرك إلا بإرادته، ولا تفعل إلا لرضاه. وهذا ما يرفضه، فهو يطالب بحاكم قوي

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص١١٢. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «مصر بين الاستبداد والشورى»، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٣.

عادل يحكم بالشورى، وليس عن «طريق التفرد بالقوة والسلطان؛ لأن بالقوة المطلقة الاستبداد، ولا عدل إلا مع المقيدة»[(١)].

وهكذا تراجع الأفغاني عن فكرة الوحدة السياسية للجامعة الإسلامية، ونادى بوجود عدد من الرؤساء الوطنيين، يحكم كل واحد منهم بلده وفقًا للشريعة العادلة، ويجمعهم جميعهم وحدة الدين ووحدة مبادئه، ويؤكد هذا قائلاً: لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصًا واحدًا، فإن هذا ربما يكون عسيرًا، ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخرين ما استطاع.

وانتهى الأمر بالأفغاني من كونه يطالب بحاكم واحد يلتف حوله المسلمون في كل العالم إلى عدة حكام لهم دستور واحد هو القرآن وشريعته، وكل حاكم يتولى حكم بلاده على هذه الشريعة، فلا يكون في تعددهم اختلاف بل اتحاد حول المبدأ، فيقول: «لا تحيا مصر ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته، إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قويًا عادلاً يحكمه بأهله»[(٢)].

وهذا التردد الذي ظهر به الأفغاني يجعل من الصعب أن نقرر تقريرًا قاطعًا ما هو تصوره للشكل السياسي للوحدة والجامعة الإسلامية.. هل هي جامعة

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص١١٠. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «مصر بين الاستبداد والشورى»، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٢.

(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص١١٠.

سياسية بجانب كونها جامعة دينية؟ أم أنها جامعة لكل المسلمين تحت مبادئ الشرع، وبالتالي تكون إحياءً دينيًّا؟.

وربما هذا الإخفاق في تحقيق وحدة إسلامية تحت ظل وحدة سياسية كان بسبب ظهور عوامل جديدة لم تكن موجودة في عصور الإسلام الأولى، وهي تنامي الشعور القومي منذ ذاك الحين، حيث بدأ ظهور القومية الطورانية في تركيا، والقومية العربية عند العرب كلٌ على حدة؛ مما أفسد وجود وحدة سياسية تجمع بين المسلمين.

رابعًا: الجامعة الإسلامية والوحدة القومية(١)

لم ينكر الأفغاني أهمية الروابط القومية في تحقيق وحدة الشعوب، بل رأى أن رابطة الجنس لا تقلّ عن رابطة الدين في إحداث التضامن الاجتماعي، فالممالك تتكون بناء على العقد الاجتماعي، وتتماسك بناء على وحدة المعتقد،

(١) القومية في تعريفها تعني الانتماء إلى أمة معينة، والتعلق بها، وهي تقوم على عنصرين: موضوعي، وهو مجموعة الروابط المشتركة التي تجعل من شعب معين أمة بالمدلول العلمي، كالاشتراك في الأصل أو اللغة أو الدين، وعنصر معنوي أو شعوري هو الحالة النفسية التي يولدها قيام تلك الروابط. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، دار نهضة لبنان للطباعة والنشر- بيروت، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، مادة «قومية»، ص١٤٠٨.
تعني القومية عاطفة وأيديولوجية الارتباط بأرض معينة أو وطن معين، وبمصالح هذا الوطن أو تلك الأرض. والدولة القومية مصطلح يشير إلى هيمنة سلطة سياسية بذاتها على مناطق جغرافية معينة تتخذها مجموعة من الأفراد موطنًا لها، ارتكازًا إلى اشتراكهم في المقومات الثقافية والتاريخية، وربما اللغوية والعرقية أيضًا. انظر: معجم المصطلحات السياسية، إشراف: د. عليّ الدين هلال، تحرير د. نيـڤين سعيد، مركز البحوث والدراسات السياسية- جامعة القاهرة، ١٩٩٢م، ص٢٠٦.

فيقول: «لا تتكون الدول ولا يخلص لها السلطان إلا بقوتين: قوة الجنس التي تدعو للاتحاد... وقوة الدين، الذي يقوم مقام الجنسية في جمع الكلمة»[١].

أما عناصر هذه القومية فيحددها الأفغاني في عدد من العناصر، أهمها: عنصر اللغة، فيقول: للإقليم خواص خمس. أما الخواص، فأربع منها تستمد من طبيعة الإقليم، والخامسة تطرأ فتؤثر، وهي: «الدين»، ويليها «اللسان» (اللغة)، و«الأخلاق»، و«العوائد» (العادات)، و«الإقليم» (الطبيعة الجغرافية) وتأثيره على المجموع[٢].

وقد ظهر التردد عند الأفغاني في دور كل رابطة من هذه الروابط وأهميتها، أحيانًا يرفع الرابطة الدينية فوق كل الروابط، ويكتب أن المسلم لا جنسية له إلا في دينه، وأن رابطة الدين من أمتن الروابط.

وفي أحيان أخرى يشير إلى أهمية رابطة اللغة، ويساويها برابطة الدين في اعتبارها من أهم الروابط، وأنها تفوق رابطة الجنسية، أي إن مفهوم القومية عنده الذي يقوم على عنصر اللغة يتفوق على رابطة الجنس الذي يرتبط بحدود مكانية

---

(١) المرجع السابق، ص٣٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص١١٤. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «المسألة الشرقية»، مرجع سابق، ج٢، ص١١.

معينة. يقول الأفغاني: «إن رابطة المسلمين المِلِّية مع رابطة اللسان أقوى من روابط الجنسية»[١].

وتلعب اللغة دورًا خطيرًا في تحقيق الوحدة عند الأفغاني، فهي عنصر جوهري في خلق جماعة بشرية مستقرة، إذ إن الجماعات التي لا تجمعها لغة مشتركة لا يمكن أن تثبت وحدتها، ويؤكد هذا بأن: «لكل دين لسانًا، ولسان دين الإسلام (العربي).. فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط، بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه، وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان، وهو أهم الأركان»[٢].

وأحيانًا يعلي الأفغاني من وحدة اللغة على وحدة الدين، فيقول: إن المسلم أو المسيحي أو اليهودي في مصر والشام والعراق يحافظ كل منهم قبل كل شيء على نسبته العربية فيقول «عربي»، ثم يذكر جامعته الدينية[٣].

ولكن لماذا تخير الأفغاني رابطة اللغة دون غيرها من روابط القومية للاعتماد عليها في تحقيق الوحدة والجامعة؟

---

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٥٢٨. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة(نسخة القاهرة)، مقالة «احتلال مصر ينبه الأذهان»، مرجع سابق، ص٤٨٦.

(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص١٢٢-١٢٣. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «بين العرب والأتراك»، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٠.

(٣) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص١٢١. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «بين العرب والأتراك»، مرجع سابق، ج٢، ص٣١٩.

- ربما كان السبب في هذا يعود إلى أن اللغة هي التي تنتج الآداب، ومن هذه الآداب تأتي الأخلاق، وعليها تتكون العصبية.
- وربما لأن اللغة هي وعاء الفكر، ومظهر الوحدة، وقبلة الفخر والولاء، ثم هي الرباط الذي يشيد الوحدة القومية.
- وربما لأن اللغة الواحدة ستجمع أفراد الأمة في نوع من التعليم المشترك، ولهذا التعليم فائدة في التقارب، ومن هنا نادى الأفغاني بأنه «يجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية اثنان فاثنان يعملان أربعة.. هذا هو الوطن، وهكذا يجب أن يكون التعليم الوطني»(١).
- أما أهم الأسباب فيما نرى فهو أن اللغة العربية هي لغة القرآن، ولا يتم فهم هذا الدين فهمًا صحيحًا دون إتقان لغته، ويستشهد الأفغاني ببعض الآيات التي تؤكد أهمية معرفة اللغة العربية لفهم القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف/ ٢]، وفي موضع آخر: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف/ ٣]، فمن كان عالمًا باللسان العربي، وعاقلاً، وعارفًا بسيرة السلف وما كان من طرق الإجماع، وما كان من الأحكام مطبقًا من النص مباشرة أو على وجه القياس، وصحيح الحديث، جاز له النظر في أحكام القرآن(٢).

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص١٨٢. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «الغرب والشرق»، مرجع سابق، ج٢، ص٧٩.
(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٢٣٧.

ومن هنا عاب الأفغاني على الأتراك عدم تعلمهم اللغة العربية، وجعلها اللغة الرسمية لكل الولايات العثمانية، بل حاولوا ما هو أسوأ، وهو أن تُعلِّم العرب اللغة التركية، وتجعلها لغة البلاد الرسمية، وتوجب على من يتولى المناصب العليا في الدولة أن يتقنها.

ويفند الأفغاني هذا المسلك قائلاً: إن الدولة العثمانية لو اتجهت لتعريب الأتراك لكانت في أمنع قوة وآمن حصن، ولكنها فعلت العكس، «فكيف يُعقل تتريك العرب، وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب، وتسابقت، وكان اللسان العربي لغير المسلمين ولم يزل من أعز الجامعات»(١). فلو استطاع العثمانيون امتلاك رابطة اللغة لتحقق لهم قوة أقوى من قوة رابطة الدين وحده، ولارتبطت مع رعاياها برابطتين: اللغة والدين.

وكأن الأفغاني قد انتهى من دعوته إلى جامعة إسلامية إلى الدعوة لجامعة عربية أيضًا، وربما كان نداؤه هذا إرهاصًا لنشأة هذه الجامعة العربية التي ستقام بعد وفاته بما يزيد من نصف قرن (١٩٤٥م)، أو ربما أثر برأيه هذا على الكواكبي المنادي بجامعة إسلامية عربية.

(١) المرجع السابق، ص٣١٥. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «المسألة الشرقية»، مرجع سابق، ج٢، ص١٦.

خامسًا: الجامعة الإسلامية والوحدة الوطنية

حرص الأفغاني على بيان حقوق المواطنة في ظل ما نادى به من وحدة دينية تتجاوز الأوطان، فالوطن الواحد قد يضم مواطنين من ديانات مختلفة؛ فكيف يعيشون في ظل هذه الدعوة التي تجمع المسلمين في جامعة واحدة؛ هل لهذا مردوده السيئ على المواطنين من أهل الأديان الأخرى المشاركين في نفس الوطن، أم لا؟

وقد حاول الاستعمار في تلك الفترة أن يثير القلاقل بين الأقليات غير الإسلامية في الوطن الواحد، واستمالة النصارى بدعوى عدم مساواتهم مع غيرهم من رعايا الدولة العثمانية من المسلمين، وكان هذا هو أحد أسباب التدخل الاستعماري في تلك البلاد «إذ تذرعت بحجة حماية المسيحيين، أو حماية الأقليات، أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم»[١].

فقد سلكت الدول الاستعمارية في الشرق هذا الأسلوب؛ فادعت أنها تتدخل لحماية الأقليات الدينية، وبدأت بإعطاء المسيحي ميزة تفوق على المسلم، ثم بعد الاحتلال تساووا في الذل والاستغلال. وقد عبّر الأفغاني عن هذا قائلاً: يظهر في بدء الأمر «للمسيحي» ميزة تقدم على «المسلم» بشيء من تافه الوظائف

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص١٧٤.

تنويهًا بكرامة تدينه بالمسيحية، لداعي التنافر- وعدم الاتحاد- وكل ذلك إلى حين، ومن ثم يرجع الاثنان إلى التساوي في المذلة والهوان[١].

يلجأ الأفغاني لعلاج هذا الأمر إلى التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة، ورأى أن الخلاف بين الشرقيين يعود إلى اختلاف أهل الأديان السماوية الثلاثة- اليهودية والمسيحية والإسلام- فبحث في الأديان مبدئها ومنتهاها وأصولها، فتبين له عدم وجود أية اختلافات بين هذه الأديان، فلاح له بارقة أمل «أن تتحد أهل الأديان الثلاثة، مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها، وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطوا نحو السلام خطوة كبيرة»[٢].

وللرد على هذه الادعاءات يقسم الأفغاني الدين إلى قسمين: عبادات ومعاملات[٣]. العبادات يؤديها الإنسان لربه بمعزل عن الآخر، فلا يعارض غيره بها، ولا يعارضه غيره، فلا اختلاف فيها بين دين وآخر، فالأديان الثلاثة «متفقة في الأمور التعبدية بلا أدنى تباين أو تخالف»[٤].

أما المعاملات، فهي شرع بين العموم، يعمل أبناء الطوائف- الأديان- على خير وطنهم، متكاتفين، متعاونين، مرتبطين بروابط المحبة الوطنية، فإذا نظرنا في

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢٧.
(٢) المرجع السابق، ص٩٧.
(٣) المرجع السابق، ص١٨٨.
(٤) المرجع السابق، ص٢٨٧.

المعاملات، وما أُجيز منها في تلك الأديان، وما نهي عنه فيها، نرى أن ما جاء به موسى قد عمل به المسيح، وكذلك محمد، فإنه جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل[١].

وكان الأفغاني يأمل في أن يتحد أهل الأديان، ولكنه فوجئ بطائفة من علماء كل دين تحارب من يحاول أن يقارب بين أهل الأديان، وتصف من يقوم بهذه المحاولة بأنه «قاطع أرزاق المتبحرين في الدين، وهو في عُرفهم الكافر الجاحد المارق»[٢].

فجعل الأفغاني هدفه الأول، وسعيه الدائم هو «جمع شتات أهل الشرق، وإيقاظ الهمم من أهله، والإشراف بهم على الخطر الغربي، المحدق بكيانهم، والآخذ بخناقهم، ليعملوا على جمع كلمتهم»[٣].

وربما كان هدف الأفغاني من تأسيس المحفل الماسوني هو محاربة الخلاف والفرقة بين أهل الأديان الثلاثة، فقد جمع في هذا المحفل بين المسلمين والمسيحيين واليهود، فكان محمد عبده مسلمًا، وأديب إسحق مسيحيًا، ويعقوب صنوع يهوديًا. التقوا معًا من أجل تحقيق هدف واحد، هو «الحرية والمساواة والإخاء».

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨٧.
(٢) المرجع السابق، ص٩٨.
(٣) المرجع السابق، ص٩٩.

وتصف جريدة «التجارة» أحد هذه اللقاءات قائلة: «وانتظم على مائدتها نيف ومائة قائل بالحرية والإخاء والمساواة، معظمهم من وجوه الوطن ونبهائه، والعلماء من المسلمين وغير المسلمين؛ فقام فيهم الرئيس المحترم خطيبًا (الأفغاني).. وصفق الحاضرون ونادوا بأعلى الصوت: فلتحيا الحرية والمساواة والإخاء»(١)، هذا قبل أن ينكشف الستار عن الأهداف الصهيونية من وراء المحافل الماسونية.

والخلاف الذي يحدث بين المواطنين من أهل الأديان المختلفة لا يرجعه الأفغاني إلى الدين، وإنما يرجعه إلى تعصب المتدين لدينه، ويسميه بالتعصب الممقوت؛ ولذا ينادي أهل الأديان أن ينبذوا الخلاف، ويتفقوا على الاتحاد لتحقيق مصالح الوطن، وأن يلتزموا بالتعصب المعتدل.

ويضع الأفغاني شروطًا لهذا التعصب المعتدل؛ هي:

- المساواة، وهذه المساواة متحققة عند المسلمين تجاه أهل الأديان الأخرى، والدليل على ذلك وجود الملل المختلفة في ديارهم حتى الآن، حافظة لعقائدها وعوائدها؛ لذلك نرى أن كل قطر دان بالإسلام، أو دخل في حوزته خيم فوق ربوعه السلام، ورفع أهله في بحبوحة من العدل المطلق، وساد فيه الأمن والأمان، وحصلت المساواة على أصح وجوهها.

---

(١) جريدة التجارة، عدد (١٧)، في يناير ،٢١ يناير ١٨٧٩م.

- حسن المعاملة، إذ لم يشعر أهل الأديان المقيمون في داخل البلدان الإسلامية بالاضطهاد، وهذا ما أكده الأفغاني في ندائه لمسلمي كل الأقطار الإسلامية قائلاً: عليكم أن تتقوا الله في حسن المعاملة، وإحكام الألفة في المنافع الوطنية، بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة(١).
- حفظ العهود، فمن العقائد الراسخة في نفوس المسلمين أن من رضي بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا، فيذكر المصنفون من مؤرخي الإفرنج وغيرهم عدل المسلمين الفاتحين في الرهبان والولدان والشيوخ، ويترجمون وصايا الصديق والفاروق، وسيرة الخلفاء من أمويين وعباسيين، وسيرة قادة الجيوش على تلك السنن وعدلهم ورأفتهم بالأسرى.
- حرية الترقي، حيث إن المسلمين لم يدفعوا أحدًا من مخالفيهم عن التقدم، وسما في دولة المسلمين على اختلافها إلى المراتب العليا كثير من أرباب الأديان الأخرى، فكان ذلك في شبيبتها، ولم يزل الأمر على ما كان.
- حرية الاعتقاد، لم يسلك المسلمون مسلك الإلزام بدينهم، وإجبار أهل الأديان الأخرى على قبوله، وإنما كانت دعوة يبلغ بها، فإن قُبلت

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٥١٢-٥١٣. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «التعصب»، مرجع سابق، ج٢، ص٤٥.

وإلا استبدلوها برسم مالي يقوم مقام الخراج عند غيرهم[١]. فحفظ حرية الاعتقاد لكل المواطنين واجب على المسلمين في ديارهم، فيجب عليهم أن يحافظوا على حق كل مواطن في اختيار عقيدته، وعدم إكراهه على الدخول في الإسلام. ويستشهد الأفغاني على ذلك بالتاريخ الإسلامي، حيث كان «للمسلمين ولع بتوسيع المماليك.. إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الأديان، ويرعون حق الذمة، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه»[٢].

ويستطيع أبناء الوطن الواحد من أصحاب الديانات المختلفة أن يعيشوا في أمان، وأن يتعاونوا في الدفاع عن أوطانهم؛ لذا يرى أننا نحتاج إلى عمل جديد نربي به جيلاً جديدًا بعلم صحيح، وفهم جديد لحقيقة الدين، «وجمع ما تشتت من أهل الأديان، وتوطيد العزم على قبول الموت في سبيل الوطن»[٣].

وهكذا تحول نداء الأفغاني من كونه خطابًا خاصًا بالمسلمين وحدهم إلى خطاب موجه إلى الشرقيين جميعًا، يحفزهم على مقاومة الاستعمار، مؤكدًا أن جميع المسلمين وعموم المواطنين يرون من فروض دينهم السعي إلى محاربة الاستعمار، وإقامة الموانع في طريقه قدر الإمكان، قيامًا بما يوجبه الدين والوطن.

---

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٥٠٧. وأيضًا: الأفغاني، الأعمال الكاملة، مقالة «التعصب»، مرجع سابق، ج٢، ص٤٣.

(٢) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ص٥٠٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٧٩.

فإن الشريعة الإلهية في كل ملة، وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه، والذود عن حوزته، وتبيح الموت دونه[١].

وصارت الوحدة أو الجامعة التي نادى بها الأفغاني غير مقتصرة على رابطة الدين وحده، بل هي رابطة تجمع المسلمين، وتجمع العرب، وتجمع الشرقيين من مختلف الأديان في اتحاد من أجل الاستقلال والحرية، بل إن الوحدة عنده لا تقف عند حدود البلاد الشرقية بل تتعداها إلى وحدة تجمع الشعوب الإنسانية كلها في رابطة واحدة من أجل السلام والمحبة والتعاون.

(١) الأفغاني، الأعمال الكاملة (نسخة القاهرة)، مقالة «زلزال الإنكليز في السودان»، مرجع سابق، ص٥٠١.

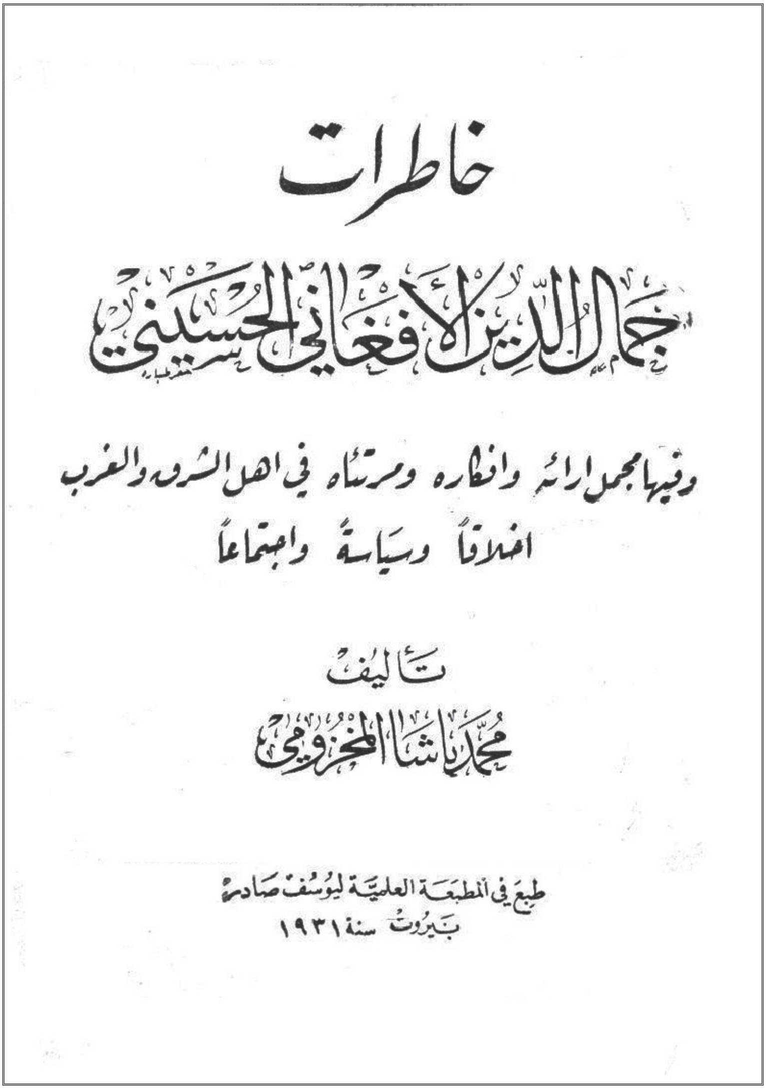

خاطرات

جمال الدين الأفغاني الحسيني

وفيها مجمل آرائه وأفكاره ومرتئاه في أهل الشرق والغرب
أخلاقاً وسياسةً واجتماعاً

تأليف
محمد باشا المخزومي

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر
بيروت سنة ١٩٣١

صفحة الغلاف الداخلي لآخر طبعة للكتاب صدرت في حياة المؤلف.

صورة رسم محمد باشا المخزومي

خاطرات

جمال الدين الأفغاني الحسيني

وفيها مجمل آرائه وأفكاره ومرتآه في أهل الشرق والغرب
أخلاقًا وسياسة واجتماعًا

تأليف

محمد باشا المخزومي

سجلها محمد باشا المخزومي أثناء إقامة الأفغاني في الأستانة، في الفترة من (١٣١٠هـ/١٨٩٢م) إلى (١٣١٤هـ/١٨٩٧م).

وطبعت لأول مرة في عام (١٣٤٩هـ/١٩٣١م).

حول إهداء الكتاب

إهداء المؤلفات، والكتب للملوك، والأمراء، وأعاظم الرجال، عادة جرى عليها المتأخرون من العلماء والأدباء، وقد قلدوا في ذلك المتقدمين مثل الفيروز آبادي، والعلامة الحكيم ابن خلدون – إذ أهدى الأول قاموسه إلى الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن – والثاني تاريخه إلى أمير المؤمنين أبي عبد الله المريني – وغيرهما من جهابذة العلماء ممن نحا نحوهما، ونالوا من الجوائز، والأموال ما يُضَارع تقدير أولئك الملوك لجهود العلماء، وما يلاقونه من المشاق، والمتاعب في سبيل مؤلفاتهم، وليس من غرضنا استقصاء ذلك، أو التبسط فيه – بل قصدنا أن نذكر ما حام حول هذا الكتاب «الخاطرات» من الآراء في سبيل إهدائه – فالملوك في الشرق والحمد لله مشرقة بهم ممالكهم، وآثارهم في تنشيط العلم وأهله، بارزة موفورة مشكورة – وهكذا الأمراء والعظماء – وما منهم إلا من يليق أن يُهْدَى لمقامه كل جليل ونفيس، ولكن لما كان صاحب «الخاطرات» الحكيم الشرقي السيد جمال الدين الأفغاني «رحمه الله» من أرسخ أركان النهضة الشرقية، بل هو واضع أساسها، وحجر زاويتها. نعم هو ممن أنبتته أرض الأفغان، ولكن – كما

سيراه المطالع – كان يهمه الشرق، ويهمه أهله على السواء، وكانت نفسه تذهب حسرات عند كل نازلة تنزل في بلاد الشرق، أو ملمة تلم بأهله، لا فرق عنده في ذلك بين بلاده ومسقط رأسه الأفغان، وبين كنانة الله مصر. ولا بين الأقطار الهندية وبلاد فارس «إيران» على حد قول الشاعر:

نَصَحْتُ ونَحْنُ مُخْتَلِفُونَ دَارَا ... وَلَكِن كُلّنَا في الهَمّ شَرْق

لذلك فقد أجمع الرأي على إهداء هذا الكتاب «إلى الشرقيين» – على تعدد أقطارهم وأمصارهم – غير ملتفتين إلى ما قطعته أيدي السياسة من أوصال هذا الشرق، ولا لما فعلته أيدي الأغراض من فصل حدود متصلة، وتخوم متجاوزة، فقلوب الشرقيين موحدة، وأجزاء الشرق المبعثرة بحكم الضغط ملتحمة. نسأل الله جمع الشتات وتفريج الأزمات إنه سميع مجيب الدعوات.

بيروت في ٢٧ شوال سنة ١٣٤٩ و ١٢ آذار سنة ١٩٣١

المؤلف محمد المخزومي

تمهيد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بعث في كل أمة نذيرًا، وأرسل خاتم النبيين محمدًا سراجًا منيرًا، وأنزل عليه ومن يُؤت الحكمة فقد أُوتي خيرًا كثيرًا، والصلاة والسلام على سائر الأنبياء والمرسلين هداة الخلق إلى الحق وعلى آلهم وصحبهم أجمعين.

إن هذا الكتاب (خاطرات جمال الدين الأفغاني) قد كتبت مواضيعه في دور السلطان عبد الحميد ما بين سنة (١٣١٠هـ/١٨٩٢م) إلى سنة (١٣١٤هـ/١٨٩٧م) - على كمال الاحتراز - بل الخوف من شدة المراقبة، ووفرة الجواسيس، وكثرة الافتراء في ذلك الزمن على الأبرياء خصوصًا على السيد جمال الدين، وعلى من كان يكثر الاجتماع عليه، أو يدخل بيته.

فالمطالع له الآن ربما لا يرى فيه كبير أهمية، ولكن إذا أرجع النظر إلى ما قبل أكثر من ثلث عصر وإلى أن مواضيعه تحررت في الأستانة، وأن تلك الأفكار

والأقوال لم تحور، ولم يطرا عليها أدنى تغيير – يعلم خطر أمرها. كذلك لابد للمطالع أن يرى مواضيع الكتاب غير متسلسلة والسبب في ذلك أنها لم تكن في موضوع أو مطلب واحد، بل هي أحاديث بعضها بُنِي على الحوادث، وبعضها أتى على سبيل السؤال والاستفهام، والبعض الآخر على سبيل الجدل مع آخر، ومنها ما هو عفوًا وبغير مقدمة، فأثبتنا الجميع على علاتها وكيفية صدورها.

على إثر إعلان الدستور العثماني توهم كثير من أصدقائي الذين يعلمون بوجود (خاطرات جمال الدين) أن الزمان قد حان، وآن أوان نشر الكتاب بعد ذلك الطي والخفاء.

واتتني: عدة رسائل من إخواني في مصر، وممن لا معرفة بيني وبينهم من أنحاء الهند يستحثونني على سرعة طبع الكتاب، فما كدت أن أباشر الطبع إلا ورأيت في مقال جمال الدين تحت عنوان «الأحزاب في الشرق» ما ينطبق على حال رجال جمعية الاتحاد والترقي من أثرة، وأنانية، وكذب الأماني التي مَنُّوا الأمة بها وذهبت هباء منثورًا.

فرأى لفيف من الأصحاب خطرًا على الكتاب أن يُعْدَم، وعلى المنتظر أن يُحْرَم. فرأينا التأجيل للوقت الأنسب أولى، وللسلامة أدعى.

مرت سنون ونحن على طبع الكتاب بين إقدام وإحجام حتى كانت سنة (١٣٢٩- ١٩١٢م) إذ أعادت الأصدقاء الكرَّة، في مقدمتهم بعض أرباب الصحف الأفاضل يطلبون نشر الكتاب.

فنشطنا لتلبية الطلب ونشرنا فهرست الكتاب مطبوعًا – وما فرغنا من إذاعته إلا وجو السياسة أخذ يتعكر صفاؤه، ومخاوف بعض كبار موظفي الاتحاديين أخذت تبدو من مواضيع كُتَّاب يعلمون حقيقة أنه لم يُقْصَد به تقريع أشخاص أو تقبيح أعمال هيئات، أو قلب حكومة ما – ثم أعقب ذلك شبوب الحرب الكونية، فاحتلال الحلفاء البلاد، ثم تقطيعها إلى دويلات.. إلخ، فاضطررنا أيضًا بحكم تلك العوامل أن نرجئ النشر ولكن ليس إلى يوم النشر.

وهذه هي أهم مواضيع الكتاب: (المذكورة في الفهرست المطبوع سنة ١٩١٢م). تمهيد ويليه مقدمة من المؤلف مُزْدَانَة برسم السيد جمال الدين، وحاوية ترجمة حياته حتى مَقْدَمِه الأخير للأستانة، ووفاته فيها. وتشتمل على صفاته، وأخلاقه، وتصرفه مع جلسائه، وأوضاعه، وخروجه من بلاد الأفغان بعد أن استوزره الأمير محمد أعظم خان، وهبوطه لمصر أول مرة ومجيئه للأستانة ونفيه منها، وسبب النفي، وهبوطه لمصر للمرة الثانية وما جرى له فيها من حفاوة ونفي، وما أحدثه وجوده فيها. رأيه في الإسرار والإعلان، ورده على من أخذ عليه بأنه جهري لا يكتم سرًّا. سبب تألمه من الشاه وغلظته في مخاطبة الملوك والأمراء. ما خاطب به السلطان عبد الحميد في شأن ناصر الدين شاه العجم، وكيفية طلبه الرجوع عن بيعته للسلطان، ورأيه في السلطان عبد الحميد من حيث الدهاء والذكاء، وما جرى له معه من الأحاديث الهامة في شؤون السلطنة عامة، والأخذ على السلطان عبد الحميد في سيرته الخاصة، وما لاقاه في بلاد إيران

إلى أن نُفي، وصورة نفيه الفظيعة وذهابه إلى أوروبا، وشخوصه إلى لندن بطلب من اللورد ساليسبوري واللورد تشرشل، واستقدامه من هناك إلى الأستانة وهو مَقْدَمه الأخير الذي انتهت فيه حياته رحمه الله.

غرض جمال الدين الأسمى في حياته وما كان يَتَوخَّاه من ضربه في مشارق الأرض ومغاربها. رأيه في الأحزاب السياسية في الشرق خصوصًا. رده على من زعم أن جمال الدين حكمته في لسانه أكثر مما هي من قلبه. رأيه في مصر والمصريين وبيانه صورة الحكم الذي يجب أن تحكم فيه مصر خصوصًا والشرق عمومًا. رأيه في الوطن وفلسفته فيه بالنسبة إلى النوع الإنساني واعتقاده أن التفرد بالسلطة وسوق الأمم على هوى الفرد سيزول من العالم مع بيانه للأسباب. في تأثير فضائل الوفود والفاتحين، والمستعمرين وضربه المثل في العرب في فتوحاتهم وانتشار لسانهم. تفسيره لما أُشْكِل على المؤرخ والشاعر التركي المرحوم ضيا باشا من عدم ترك الأتراك أثرًا بعد أن توغلوا في أوروبا ولم يكن لهم ما كان للعرب في فتوحاتهم، وحجج السيد في ذلك مع إسهاب في الأسباب. في تأثير آداب اللسان. استنتاجه أن ترك الأثر مع التفريط في صَوْن المُلْك وعدم حفظه أدعى للتأثر وليس فيه شيء من الفخر.

في ما اشتهر عن جمال الدين من مزية الإقناع في حالتي السلب والإيجاب والسبب في ذلك. مثال في تأثير كلام السيد في مخاطبه وكيف أنه كان يحمل حتى الخامل على العظائم والجبان على الجسارة. في تكليف السلطان عبد الحميد

للسيد جمال الدين أن يزوجه من إحدى جواري قصره وما جرى له في هذا البحث من أخذ ورد وكيف أنه أَبَى القبول، وكلامه في الحكمة الزوجية (وقد تناول هذا البحث رأي السيد في أمر مساواة المرأة بالرجل وضجة المستشرقين والمتفرنجين في إعادة حقوق المرأة المهضومة). مقابلة جمال الدين لسمو الخديوي (عباس حلمي) واختلاق الجواسيس. فرية مسئلة الدولة العباسية، واهتمام السلطان عبد الحميد بذلك، وما احتمل هذا الأمر الذي أقام وأقعد، وما جرى أخيرًا من مقابلة السيد للسلطان وما دار بينهما من الحديث في هذا الشأن. دعابة المرحوم عبد الله نديم للسيد في بحث الدولة العباسية، وتعريضه(١) فيمن اختلقها في ذلك الحين. إجلال السيد وإعظامه لمقام الخلافة.

رأيه في الإنكليز ووصفه للإنكليزي والعربي، وفلسفته في الحَجْر الشرعي على الفرد السفيه، وكيف أن الغربيين ساعون بتلك المطامع نحو الشرق. رأيه في كيفية الوصول لرفع ما وقع وسيقع على الشرق وأهله من الحجر، وخطر ما يلزم ذلك الأمر من الحكمة والتدبير، وبيان وعورة المطلب، وكيفية تربية الطفل الذي سيكون رجل المستقبل، ويتكون من تكونه أمة صالحة تحكم نفسها وتخلص من حَجْر(٢) الغرب. قوله في الصبر والثبات. إنكار جمال الدين ما نراه من المدنية، ومغالطته باستبداله لفظة الفناء في التنازع عوضًا عن البقاء، وأن العلم الصحيح

(١) تَعْرِيضه: تلميحه. (هذا الهامش يشير إلى إضافة مراجعي مكتبة الإسكندرية للنص الأصلي للكتاب، وسوف يستعمل الرمز (م) لاحقًا للإشارة إلى ذلك).
(٢) الحَجْر: مَنْع التصرف في الأملاك. (م).

إذا وصل إليه العالم فأعظم أثر له أنما يكون بمنع الحروب، التي هي من أكبر الأدلة وأسطعها على توحش الإنسان وله في ذلك براهين وإفاضة. قوله في دعوة الإسلام وكيفية انتشاره وأن الدين لا ينبغي ولا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ولزوم الرجوع إلى التأويل. فيما اشتمل عليه القرآن من تدبير الممالك وأصول الحكومة الشوروية ووظائف الملوك إلخ. والإشارات إلى مقدمات العلوم والفنون الحديثة. فيما سبق إليه العرب من العلوم والفنون. أدلة جمال الدين على أن الكيمياء تتم بالصناعة وأنها ثمرة الحكمة ويقتضي لها تحقيق ورسوخ في عمادات تلك الصناعة وتفنيده[١] لأدلة ابن خلدون. إنكار جمال الدين على من يقول بسد باب الاجتهاد. نفور السيد من قول سني وشيعي وأن لا موجب لهذه التفرقة التي أحدثتها مطامع الملوك وجهل الأمة.

رأيه في مذهب النشوء والارتقاء وأن العرب سبقوا فحققوا هذا المذهب وقالوا فيه صراحة، وذكره (داروين) والدكتور شميل استطرادًا في هذا البحث. رأيه في الاشتراكية (سوسياليست) وأنها لا تخالف الدين بل الأديان تقول بها. قوله حقائق الأشياء ثابتة والإحاطة بها لفرد متعذر والعلم بأسبابها متوزع. قوله أن الحق لا يكون مع الأكثرية على الغالب وأدلته على ذلك. رأيه في الأديان الثلاثة وأنها متفقة في المقصد والغاية. رده على من أخذ عليه قوله أن أصول الأديان واحدة وأنها من المتناقضات في مباحثه.. بحث تصوفي. رأيه في المسألة

---

(١) تَفْنِيده: مُعَارَضَتِه لقضية ما بذكر الحُجَج التي تؤيد عدم الأخذ بها. (م).

الشرقية واختصاره أمرها وتبجيله لفكرة السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم باتخاذ اللسان العربي لسانًا رسميًّا والأخذ بتعميمه، وبراهينه على استحالة مطلب تتريك العرب خصوصًا وأن شواهد التاريخ من الأدلة القاطعة إذ تبرهن أن كثيرًا من الأعاجم استعربوا ولم يسمع أن عربيًّا استعجم، وبالإجمال نتيجة مُرْتَئاه[١] في حل المسألة الشرقية على توسع في الموضوع وتناوله حالات العناصر في المملكة العثمانية من حيث روحها وذكره الأسس الثابتة للأقوام من مدنية ولسان وتاريخ، وما لذلك من التأثير وفيه إفاضة.

ذكره الفرق بين عدل يأتيه الفاتح عن علم وحب بإجراء العدل والأخذ به، وبين ما يأتي من ذلك عن غرور وعزة وإتيان العدل إذ ذاك عرضًا. رأيه في الدول الإسلامية ومحاكمته لما أتوه من الخطأ والصواب، وأسباب ما نراه في الأشياع والأتباع من التقهقر والانحطاط. حديث له عن الهند ومستقبلها وشيء عن سيرة السلطان محمود الغزنوي بفتحه تلك الأقطار. استغرابه ميل الشرقيين في هذا العصر إلى حب التطويل في المقال والتسويف والمماطلة في الأفعال على عكس ما كان عليه السلف وأمثلته على ذلك. رأيه في المستعمرات والمستعمرين وأن الاستعمار لأي دولة مهما تعاظمت قوة واقتدارًا فمستعمراتها إن هي إلا ثوب عارية قابل للاسترداد وأدلته على ذلك. قوله في أن المسلم سواء فيه العربي والأعجمي إنما يعجب بماضيه وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله،

---

(١) مُرْتئاه: مُعْتَقَدِه وما نَادَى به. (م).

وكيف أنه يجب أن يكون مع ما هو عليه من دواعي ومستلزمات التقهقر مثل سلفه الساهر اليقظ والصالح المصلح والحاكم العادل. قوله في الناشئة الشرقية استحساناً واستهجاناً. أمثلته في التقليد النافع وضربه المثل دليلاً بدولة اليابان الشرقية. قوله إن أضعف ما في هذا العصر حق ضعيف لا قوة له وأقوى شيء باطل مبطل قوي يعطل الحق بقوته. نظرته العامة في الإسلام والمسلمين وأسباب ما أَلَمَّ بهم من الانحطاط مع توفر ما في الدين من النهوض وأسباب الرقي على عكس من نهض من الأمم وليس في دينهم ما يحملهم على ما هم عليه من أخذ العدة وأسباب النهضة المشهودة فيهم وفلسفته في ذلك. رأيه في القضاء والقدر والجبر وإفاضته في ذلك جمل مختصرة وأمثال حكمية.

هذه هي أهم مواضيع كتاب خاطرات جمال الدين التي سبق نشر فهرستها المتقدم ذكره والتي سبق القول أنها كتبت قبل أكثر من ثلث عصر، والسبب الذي حمل على تدوينها هو أن المرحوم السيد جمال الدين بعد مَقْدَمه الأخير للأستانة أو استقدامه إليها من عاصمة الإنكليز أوائل عام ١٣١٠هـ. ومكثه فيها إلى أن توفاه الله لم يكن له من الآثار مطبوعًا أو غير مطبوع يجمع ما كان يجول في نفسه من تلك المخدرات من معاني الحكمة التي نزلت عليها آية الحجاب في تلك الديار، وما لاقاه مع شدة عارضته وقوة عزمه، وعدم مبالاته في القهر، ومناهضته المتغلبة من الحكام، وتَحَمُّل الجور منهم في سبيل نهضة الشرق،

وما كان يرمي إليه من سامي الغرض في طلب الحرية الحقيقية وإعطاء العدل حقه بالتوزيع بين طبقات النوع الإنساني.

فكنت من يوم وفد على القسطنطينية ألزم له من الظل في عزلته سهل ذلك عليّ ميله رحمة الله عليه، وقرب الدار والجوار (في محلة نيشانطاش) فكاشفته بلزوم تدوين ما عمله، وما تكنه سرائره من الحكمة، ونافذ النظر وثاقب الرأي لنفع النوع.

فكانت تلك الرغبة مني في بداية الأمر لا يبالي بها كثيرًا، ولا يتلقاها لقاء حسنًا، ولكن في الأخير رَأَى في طلبه حقًّا، ولمح منه للشرق وأهله نفعًا فقَبِل أن يُؤخَذ عنه وأجاز بقوله: سَلْ ما تريد يا شيخ بني مخزوم واكتب ما تسمع واحفظ ما تراه – وقبل كل شيء أَلْفِت نظرك لأمر ربما أنت ملاقيه فخذ له من الحذر عدة، ومن التحمل درعًا – إذا سلمت في كتابة خاطراتي من خطر الطاغية[١] وطواغيته – يعني جواسيس السلطان عبد الحميد – فستصادف من أهل الجمود عنتًا وتخرصًا، وقلبًا للحقائق فلا تبال بهم – فما خلا الكون منهم يومًا ليخلو زمنك، ولا نجا منهم مخلص لتنجو أنت – ولسوف تعثر بأناس دَيْدَنَهم[٢] التنقيد لا حبًّا بتمحيص الحقيقة واستجلائها، وإنما دأبهم وما يرمون إليه أن يقال: قام فقال، وانتقد واعترض. فمثل هؤلاء ربما يخدمون الحق، وينشرون الفضيلة من

(١) وهو لقب ملك الروم.
(٢) دَيْدَنَهم: دَأبَهم وعادتهم. (م).

حيث لا يريدون ولا يشعرون، فأعرض.. عنهم وقل لهم سلامًا.. انتهى قوله بالحرف.

مقدمة المؤلف

قبل الدخول في ترجمة حياة جمال الدين المدونة في متفرق المطبوعات: أقول ما اختبرته بالذات: إنه رحمة الله عليه كان غير مغرور بنفسه، كثير الاستخفاف بكل من كان يخاطبه، بدولتكم، أو سماحتكم، أو كان يطريه بالفلسفة، والتبريز بالحكمة، والتفرد بالخطابة واحتقار الموت وغير ذلك مما هو متصف به حقيقة من المزايا والصفات العالية، وكان يقول: يهمني أن أصل من كل هذه الصفات للطمأنينة القلبية، فقط أنني استطعت في حياتي أن قلت الحق ولم أكتمه لا رغبة ولا رهبة بل جاهرت به، وأني بلغت من الشجاعة مرتبة فعلت معها بعض ما أقول.

وقد ذكرت له يومًا أن بعض أصدقائي[١] من محبيه على البعد يرغبون في الحصول على ترجمة حاله ليزينوا - على اصطلاح أرباب الصحف - أعمدة جرائدهم بها.

---

(١) وهو المأسوف عليه صديقنا جرجي زيدان صاحب مجلة الهلال، وكان طلبه هذا على خلاف ما اعتادته مجلته إذ كانت لا تنشر إلا تراجم مشاهير الرجال بعد وفاتهم، وهكذا جرى وقد بعثت له بترجمة جمال الدين بعد=

فابتسم السيد وقال:

إن العِيَان[١] لا يحتاج إلى تَرْجُمَان[٢]. قل لهم ما قاله فلان عني. وكان داء الحسد من المعاصرين قد تفشى، خصوصًا بعد إقبال جلالة السلطان عبد الحميد عليه، واحتفائه به، فأحبوا أن يضعوا من قدر جمال الدين فقالوا عنه أنه «سرسري» يعني متشرد (تائه في الأرض) وهذا ما يعنيه بالقول عنه.

فقلت لا ينبغي للأستاذ الحكيم أن يضن على أهل عصره بما ينفعهم ولا يضره. قال:

وأي نفع لمن يذكر أنني ولدت سنة ١٢٥٤هـ، وعمرت أكثر من نصف عصر، واضطررت لترك بلادي «الأفغان» مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض، وأُكْرِهت على مُبَارَحَة[٣] الهند، وأُجْبِرت على الابتعاد عن مصر، أو إن شئت قل نُفِيت منها، ومن الأستانة، ومن أكثر عواصم الأرض. كل هذه الأحوال خاطرات[٤] لا تسرني وليس فيها أدنى فائدة للقوم.

=وفاته كما سيأتي ذلك إذ لم يتيسر لي إرسالها وهو حي، أما الهلال فلم ينشر الترجمة كما بعثتها بل نشر قسمًا وأغفل قسمًا وقد أتينا على السيرة بتمامها.

(١) العِيان: الرؤية بالعين. (م).

(٢) تَرْجُمَان: مُفَسِّر. (م).

(٣) مُبَارَحَة: مُغَادَرَة. (م).

(٤) كنت سميت هذا الكتاب بعد أن أخذت بتحريره – (جمال الدين الأفغاني في البلاط السلطاني) فلما سمع مني هذا وأنه عنوان للكتاب نفر قائلاً: إن هذا العنوان ليس لهذا المقال بطبيق. قل خاطرات ولا تزد. فأجبت أني أفعل. ولكن نبهني إلى كلمة (خاطرات) أحد الأصدقاء – وهو من المنهمكين في قواميس اللغة – إذ قال لا يصح أن تجعل عنوان ذلك الأثر المفيد مما تنتقده أهل اللغة لأن خاطرات لم ترد بالمعنى الذي تريده من=

أما القول بأنها لا تسرني – لا بمعنى أني نفيت من البلاد أو سجنت كَلاًّ –لأني أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العتاة «رياضة»، والنفي في ذلك السبيل «سياحة» ، والقتل «شهادة» وهي أسمى المراتب.

فأنا عن نفسي غير راض ذلك لأن الخمول قد قعد بي فلم يوصلني إلى أسمى مرتبة وهي «مرتبة الشهداء»، وحَطَّنِي في مصاف المنفيين من أرض إلى أرض والمسجونين فيها. فما أبعدني في كل هذا عن أولي الهمم، ومن قام بالأعمال الخطيرة «أو المطلب الجَلَل(١)».

مع أن جمال الدين رحمة الله عليه لم يترك عملاً من الأعمال الخطيرة لخير النوع الإنساني عمومًا، والشرقيين خصوصًا، إلا واقتحمه ببسالة كادت أن تخرجه عن الهيئة المتوسطة، وتتجاوز به فضيلة الشجاعة إلى نقيصة التهور، وكان

=جمع، وكتابة آراء وأفكار جمال الدين والأقرب للصواب أن تقول (خواطر) ولا أن تقول خطرات لأنها تفيد الوساوس. فلما كاشفت جمال الدين بذلك تبسم وقال – رحم ا لله الفيروز آبادي حيث قال (خذوا لغتكم من أعجمي) – ورحم الله الفرزدق، وجرير، والحطيئة، حيث قالوا: للمتهوسين بالمتعامل المشهور، القائم مقام ضوابط، وقواعد اللغة، وآلاتها من صرف ونحو اليوم – (علينا أن نقول وعليكم أن تتقولوا). قال: ويعجبني أحدهم إذ مضى بإنشاد قصيدته على مسمع من معارضه، ومهاجيه – فأورد ذكر الجمل مكان الناقة فقال معارضه «استنوق الجمل» ثم ذهب مهرولاً. ذلك شأن أساطين اللغة في إبَّان شبابها، وزهوها، ونضارة بلاغتها – فقل (خاطرات) ولا تبالي بمن فسد لسانهم ولا يصلحون إلا إلى الأجوف، والمهموز. ولا يحسنون جملة تنقر حَبَّة القلب أو تطرب السمع. انتهى. فعملنا بقوله رحمه الله وعنونَّا الكتاب كما ترى «بخاطرات». وقد عُرِف جمال الدين بكثرة أخذه بالقياسي ونفوره من التقيد بالسماعي وسيأتي في غير هذا الموضع «قوله يومًا: سياسة بقروتية في مملكة فرعونية». ولما قيل له في ذلك قال: كيف صح قولهم ملكوت وجبروت هكذا يصح عندي «بقروت» والسلام.

(١) الجَلَل: العَظِيم. (م).

على عِلاَّته[١] حكيمًا خطيبًا، قوي الذاكرة، وكان في ذاكرته سريع الحفظ، سريع الذكر، بطيء النسيان. وإنه ليذكر خطابًا ألقاه ارتجالاً، أو مقالاً أملاه، أو كتبه من سنين بالحرف الواحد، وكأنما يتلوه من كتاب. شديد البعد عن التعصب، نفورًا منه وإن ذكر المسلمين في أكثر مقاله.

ذلك لأنهم العنصر الغالب بأكثريته في الشرق، والملة المسلوبة ممالكها ومقاطعاتها - ولهذا أكثر من إيقاظهم، وتنبيههم وتقريعهم - وإلا فهو أكثر الفلاسفة توسعًا بمعنى المساواة، وميلاً للعمل بها فعلاً بين نوع الإنسان، خصوصًا في الحقوق العمومية التي لا يصح لها معنى إلا بالحرية المعقولة. يهمه الشرق والشرقيين على السواء، وبدون استثناء، مهابًا أكثر مما هو محبوب لأول نظرة، شجاعًا، جريئًا، كريمًا لحد الإسراف، متواضعًا مع الوسط ومَن دونهم لدرجة الذل، متكبرًا على الملوك والعظماء لحد التجبر، حاد الذهن، قوي الحجة، نافذ النظر، يجذب مخاطبه إليه، ويرضخه لبرهانه - ولو لم يكن ساطعًا - له أسلوب خاص في المقدمات تأتي نتائجها بطبعها، عظيم النفس، كبير الهمة، محب لخير البشر، يحمل كل من خاطبه على العظائم، ويذلل لديه المصاعب. صحيح العقيدة، مؤمنًا بالألوهية، شديد التمسك بحكمة الدين، نفورًا من التقليد في المذهب، «مجتهدًا» وله في اجتهاده بعض الغرابة لمخالفته المألوف، من وجهة التفسير - يقدم حيث يَحْجُم[٢] الناس، ويتكلم حيث يسكتون رغبة أو رهبة، متسرعًا

(١) عِلاَّته: أَمْرَاضه. (م).
(٢) يَحْجُم: يَتَأَخَّر. (م).

ببادرات ذهنه، وأكثر آرائه، يتعذر غالبًا إقناعه جدلاً، لأسلوبه الخاص في إبطال الحجة عليه أو التخلص منها غير مكابر بالإجمال، وكثيرًا ما أعطى خصمه الحق، بعد أن يُفْحِمُه[1]، وينبهه ويدله على ما أغفله من الحجج أثناء الجدل، ولكن كان لا يخلو من الحدة لمزاجه العصبي.

---

(١) يُفْحِمُه: يُسْكِتُه. (م).

سيرة جمال الدين

هذا هو السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر من بيت عظيم في بلاد الأفغان يَنْمِي[1] نسبه إلى السيد علي الترمذي المحدث المشهور، ويرتقي إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة (كنر) من أعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام، ولهذه العشيرة منزلة علية في قلوب الأفغانيين، يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف. وكانت لها سيادة على جزء من الأراضي الأفغانية، تستقل في الحكم فيه، وإنما سلب الإمارة من أيديها، دوست محمد خان، وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل.

أما ترجمة حياته، فأصدق من أحاط بها، عن طول خبرة وحسن صحبة فهو الأستاذ المحقق المرحوم الشيخ محمد عبده، وسنذكر ما قاله ونضيف إليه ما علمناه وأغفله هو وغيره من المترجمين. إما رعاية للزمن أو لحكم السياسة.

---

(١) يَنْمِي: يرتفع. (م).

فمما قاله:

يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباين صوره في مخيلات اللّاقِفِين لِخَبَرِه[١] حتى كأنه حقيقة كلية تجلت في كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله، والرجل في صفاء جوهره، وذكاء مخبره لم يصبه وهم الواهمين ولم يمسسه حَزْر الخَرَّاصِين[٢].

وُلِد السيد جمال الدين في قرية (سعد آباد) من قرى كنر سنة ١٢٥٤هـ ١٨٣٩م، وانتقل بانتقال أبيه إلى مدينة كابل، وفي السنة الثامنة من عمره أجلس للتعليم وعني والده بتربيته، فأيَّد العناية به، قوة في فطرته، وإشراق في قَرِيحَتِه[٣]، وذكاء في مداركه، فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها.

تلقى علومًا جَمَّة[٤] برع في جميعها، فمنها: العلوم العربية من نحو وصرف، ومعان، وبيان، وكتابة، وتاريخ عام وخاص، ومنها علوم الشريعة من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول فقه، وكلام، وتصوف. ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية، ومنزلية، وتهذيبية، وحكمة نظرية طبيعية وإلهية.

---

(١) اللاقِفِين لِخَبرِه: المتناولين للخبر بسرعة. (م).
(٢) حَزْر الخَرَّاصِين: تخمين الكذابين. (م).
(٣) قَرِيحَتِه: مَلَكَتِه التي يستطيع بها ابتداع الكلام وإبداء الرأي. (م).
(٤) جَمَّة: كثيرة. (م).

ومنها علوم رياضية، من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك. ومنها نظريات الطب والتشريح.

أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى ما في الكتب الإسلامية المشهورة، واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من عمره.

ثم عرض له سفر إلى البلاد الهندية فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوروبية الجديدة، وأتى بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج، وطالت مدة سفره إليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣هـ فوقف على كثير من عادات الأمم التي مر بها في سياحته، واكتنه أخلاقهم [١] وأصاب من ذلك فوائد غزيرة، ثم رجع بعد أداء الفريضة إلى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الأمير دوست محمد خان المتقدم ذكره.

ولما زحف هذا الأمير إلى (هراة) ليفتحها ويملكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه - سار السيد جمال الدين معه في جيشه، ولازمه مدة الحصار، إلى أن تُوفي الأمير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنًا طويلاً. وتقلد الإمارة ولي عهده شير علي خان سنة (١٢٨٠هـ/١٨٦٤م) وأشار عليه وزيره محمد

(١) اكتنه أخلاقهم: أدرك حقيقتها. (م).

رفيق خان أن يقبض على إخوته، خصوصًا من هو أكبر سنًّا منهم ويعتقلهم، فإن لم يفعل سعوا بالناس إلى الفتنة، وأَلَّبُوهم[١] للفساد طلبًا للاستبداد بالإمارة. وكان في جيش هراة من إخوة الأمير ثلاثة، محمد أعظم، ومحمد أسلم، ومحمد أمين، فانتصر السيد جمال الدين لمحمد أعظم فلما أحسوا بتدبير الأمير ومشورة الوزير أسرعوا إلى الفرار، وتفرقوا إلى الولايات كل منهم ذهب إلى ولايته التي كان يليها من قبل أبيه ليعتصم بمَنَعَتِه[٢] فيها، وطاشت بهم الفتن، واشتعلت نيران الحروب الداخلية. وبعد مجادلات عنيفة، عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه الأمير عبد الرحمن وتغلب على عاصمة المملكة، وأنقذا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن (قزنة) وسمياه على أفغانستان، ثم أدركه الموت بعد سنة، وقام على الإمارة بعده شقيقه محمد أعظم خان، وارتفعت منزلة السيد جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الأول وعظمت ثقته به، فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها (على خلاف ما تعوَّده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكوماتهم) وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الأمير، بالأغلب من ذوي قرابته، ذلك ما حمله على تفويض مهمات من الأعمال إلى أبنائه الأحداث وهم خِلْوٌ من التجربة، عراة من الحِنْكَة[٣]، فساق الطيش أحدهم، وكان حاكما في (قندهار) على منازلة عمه شير علي في هراة، ولم يكن له من الملك سواها – فظن الفتى

(١) أَلَّبُوهم: حَرَّضوهم. (م).
(٢) بمَنَعَته: بأَوْلِيَائِه. (م).
(٣) الحِنْكَة: التجربة والبَصَر بالأمور. (م).

أنه يظفر، فينال عند أبيه حَظْوَة[(١)] فيرفعه على سائر إخوته، فلما تلاقى مع جيش عمه، دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مائتي جندي، واخترق بها صفوف أعدائه، فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون، لولا ما التفت يعقوب خان قائد شير علي فوجد ذلك الغِرّ[(٢)] المتهور منقطعًا عن جيشه، فكَرَّ عليه وأخذه أسيرًا، فتشتت جند قندهار، وقوي جند شير علي، فحمل على قندهار واستولى عليها، وعادت الحرب إلى شبابها وعَضَّد[(٣)] الإنكليز شير علي، وبذلوا له قناطير من الذهب ففرقها في الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم - فبيعت أمانات ونقضت عهود، وجددت خيانات - وبعد حروب هائلة تغلب شير علي، وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن، فذهب عبد الرحمن إلى بخارى، وذهب محمد أعظم إلى بلاد إيران، ومات بعد أشهر في مدينة (نيسابور) وبقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسسه الأمير بسوء، احترامًا لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه، حمية لآل البيت النبوي - إلا أنه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به، والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله. ولهذا رأى السيد جمال الدين خيرًا له أن يفارق بلاد الأفغان فاستأذن للحج، فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد إيران كي لا يلتقي فيها بمحمد أعظم وكان لم يمت - فارتحل على طريق الهند سنة (١٢٨٥هـ/ ١٨٦٩م) بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر، وكان شديد

(١) حَظْوَة: مكانة ومنزلة. (م).
(٢) الغِرّ: قليل الفطنة. (م).
(٣) عَضَّد: أَعَانَ ونَصر. (م).

الرغبة في الإقامة في الهند بغير ظهور، فراسل أحد أصحابه من تجار الأفغان هناك أن يكون ضيفه على أبسط حالات الضيف والمضيف.

ولكن شدة تيقظ رجال الإنكليز، لكل حادثة تحدث خصوصًا في الأفغان إذ ذاك، حالت دون رغبة جمال الدين في أن يأتي إلى الهند على ما يرومه من شكل البساطة، ومخالطة طبقات الهنود؛ لذلك كان اندهاش جمال الدين عظيمًا، إذ رأى أن الحكومة الهندية تستقبله على الحدود استقبالاً فخمًا رسميًّا – وليس عليه أدنى صفة تستلزم ذلك المظهر الرسمي – خصوصًا وأنه لم ير بين ذلك الجمهور أحدًا من معارفه، ولا من استضافه وهو ذلك التاجر البسيط الأفغاني، فقابل تلك الحفاوة بقوله: «مأرب لا حفاوة من كريم».

ولم يسع جمال الدين في ذلك الموقف إلا أن يشكر رجال الحكومة الهندية على احتفائهم به، وطلب أن يذهب إلى بيت صديقه التاجر فأجابوه: «أن الحكومة قد أعدت له نزلاً لا يمكن أن يتخلف عنه لسواه» فرضخ إلى ذلك اللطف إذ علم أن العنف لا يجدي نفعًا مع الضعف.

وأول سؤال ألقي على جمال الدين من الحكومة: ما هو الزمن الذي يريد أن يقيم فيه في الهند؟ قال: لا أكثر من شهرين، فقبلت ذلك الحكومة، ووضعت من موظفيها أشخاصًا يسألون كل زائر عن غرض زيارته وما يريد أن يقوله.

فجاء في اليوم الأول عشرات تمكن المراقبون من أن يسمعوا ما قالوه وما أجاب به جمال الدين، وفي اليوم الثاني، أصبحت العشرات مئات، وفي الثالث والرابع وفدوا جماهير، وما أتم الأسبوع حتى ارتجت أقطار الهند، وهَرَعَت[١] أكابر علماؤها، وراجاتها، وغَصَّت الساحات بالوفود، وبينهم من ليس باستطاعة الحكومة الهندية أن تمنعه من الاجتماع مع جمال الدين، ولا يمكنها بذات الوقت أن ترصد مئات من المراقبين يحضرون ويسمعون ما يدور بين الزائر والمزور.

ولما ضاقت الحكومة الهندية بذلك ذَرْعًا[٢]، جاء عظيم من مأموريها إلى جمال الدين، وعنده أكابر من الرَّاجَات[٣] والعلماء، فخاطب جمال الدين قائلاً:

إن الحكومة الهندية كانت تساهلت معكم للإقامة نحو الشهرين، ولكنها ارتأت أن تتقدم إليكم اليوم بأن حالة البلاد لا تساعد على بقائكم أكثر مما مكثتم.

فأراد الحاضرون أن يحتجوا على هذا الإنذار، وعلت وجوههم أَسَارِير[٤] الغضب، فَأَوْمَأ[٥] جمال الدين بيده إليهم، طالبًا سكوتهم وحال بينهم وبين رجل الحكومة قائلاً:

---

(١) هَرَعت: أَسْرَعت. (م).
(٢) ذَرْعًا: قُوَّة واحتمالاً. (م).
(٣) الرَّاجَات: كلمة هندية تعني الحكام أو الأمراء، وهي جمع الراجا. (م).
(٤) أَسَارير: مَلامح. (م).
(٥) فَأَوْمَأ: فَأَشَار. (م).

إنني ما أتيت إلى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى، ولا أنا على استعداد اليوم لأحدث شغبًا عليها، ولا لأنتقد شيئًا من أعمالها - ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلي، ومصادرتها لزائرين هم أضعف مني يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها، وضعف شوكتها، وقلة عدلها، وعدم أمنها من حكمها، وأنها في حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة الواسعة أضعف بكثير من شعوبها.

ثم التفت إلى زائريه وقال: يا أهل الهند وعزة الحق، وسر العدل، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين «ذبابًا» مع حاميتكم البريطانيين، ومن استخدمتهم من أبنائكم فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم، واستنفاد ثروتكم وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف - لو كنتم أنتم مئات الملايين كما قلت ذبابًا!! لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى، ويجعل في آذان كبيرهم المستر (غلادستون) وَقْرًا[١].

ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود وقد مَسَخَكُم[٢] الله فجعل كلاًّ منكم سلحفة (سلحفاة) وخضتم البحر، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى، لجرر تموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم أحرارًا.

(١) وَقْرًا: ثِقَلاً يضعف السمع. (م).
(٢) مَسَخكُم: قَبَّحكم. (م).

فما أتم جمال الدين كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع، فقال إذ ذاك بصوت عالٍ: اعلموا أن البكاء للنساء، والسلطان محمود الغزنوي ما أتى إلى الهند باكيًا، بل أتى شاكًّا للسلاح، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بثغر باسم.

ونهض مسرعًا مع رجل الحكومة، لكي يذهب معه حيث شاء فقال له: مهلاً الآن فموعد السفر غدًا.

قال جمال الدين: إلى أين تريدون أن أذهب – قال: إلى حيث تشاء بعد أن تُبَارِح[1] الهند.

وفي الصباح سيَّرته من هناك في أحد مراكبها، على نفقتها إلى السويس، فجاء إلى مصر وأقام بها نحو أربعين يومًا، تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين، ومالوا إليه كل الميل كما مال إليهم وسألوه أن يقرأ لهم شرح الإظهار، فقرأ لهم بعضًا منه في بيته، ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر إلى الأستانة.

وصل الأستانة وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقاة الصدر الأعظم عالي باشا، فنزل منه منزل الكرامة، وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق

(١) تُبَارِح: تُفَارِق. (م).

لمثله وهو مع ذلك بزيه الأفغاني- قباء، وكساء، وعِمَامَة عَجْرَاء[١] - وحَوَّمَت[٢] عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه، ودينه وأدبه وهو غريب عن أزيائهم، ولغتهم، وعاداتهم.

وبعد ستة أشهر سمي عضوًا في مجلس المعارف، فأدى حق الاستقامة في آرائه، وأشار إلى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب إليها رفقاؤه ومنها ما أَحْفَظ[٣] عليه قلب شيخ الإسلام لتلك الأوقات، «حسن فهمي أفندي» لأنها كانت تمس شيئًا من رزقه، فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة (١٢٨٧هـ- ١٨٧١م) فرغب إليه مدير دار الفنون «تحسين أفندي» أن يلقي فيها خطابًا، للحث على الصناعات فاعتذر إليه بضعفه في اللغة التركية، فألح عليه، فأنشأ خطابًا طويلاً كتبه قبل إلقائه، وعرضه على وزير المعارف صفوت باشا، وعلى مشير الضابطة «شرواني زاده» وعلى «منيف باشا» وكان من أركان الدولة وعضوًا في مجلس المعارف، فاستحسنه كل منهم وأَطْنَب[٤] في مدحته.

---

(١) عِمَامَة عَجْرَاء: الاعتجار بالعمامة أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئًا تحت ذقنه. (م).
(٢) حَوَّمَت: اسْتَدَامَت. (م).
(٣) أَحْفَظ: أَغْضَب. (م).
(٤) أَطْنَب: أَكْثَر. (م).

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب، تسارع الناس إلى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة، وأعيان أهل العلم، وأرباب الجرائد وحضر في الجمع معظم الوزراء.

فصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة، وألقى ما كان أعده ببلاغة سحرت عقول السامعين فأرسل حسن فهمي أفندي «شيخ الإسلام» أشعة نظره في تَضَاعِيف الكلام(١) ليصيب منه حجة تمكنه من التمثيل به وما كان يجدها لو طلب حقًّا، ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الإنسانية ببدن حي، وأن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن، تأتي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن.

فشبه الملك مثلاً بالمخ الذي هو مركز التدبير والإرادة – والحدادة بالعَضُد – والزراعة بالكبد – والملاحة بالرجلين، ومضى في سائر الصناعات والأعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضَافٍ(٢) واف.

ثم قال: هذا ما يتألف منه جسم السعادة الإنسانية، ولا حياة لجسم إلا بروح، وروح هذا الجسم إما «النبوة» وإما «الحكمة» ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب بل يختص الله بها من يشاء من عباده والله أعلم

(١) تَضَاعِيف الكلام: المراد ما بين الألفاظ الظاهرة من خفي المعاني، ولغويًّا هو ثناياه وحواشيه. (م).
(٢) ضَافٍ: مُفصّل. (م).

حيث يجعل رسالاته. أما الحكمة فمما يُكْتَسب بالفكر، والنظر بالمعلومات، وبأن النبي معصوم من الخطأ - والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه، وأن أحكام النبوات آتية على ما في علم الله، لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها فالأخذ بها من فروض الإيمان. أما آراء الحكماء فليس على الذِّمم[١] فرض اتباعها، إلا من باب ما هو الأولى والأفضل على شرط أن لا يخالف الشرع الإلهي.

هذا ما ذكره متعلقًا بالنبوة، وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الإسلامية، إلا أن حسن فهمي أفندي، أقام من الحق باطلاً، ليصيب غرضه من الانتقام فأشاع أن السيد جمال الدين زعم أن النبوة «صنعة» واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة (وهكذا تكون حجج طلاب العنت) ثم أَوْعَز[٢] إلى الوعاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفًا بالتَّفْنِيد، والتَّنْدِيد[٣].

فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه وإثبات براءته مما رُمِي به - ورأى أن ذلك لا يكون إلا بمحاكمة شيخ الإسلام (وكيف يكون ذلك؟!) واشتد في طلب المحاكمة، وأخذت منه الحدة مبلغها، وأكثرت الجرائد من القول في المسألة - فمنها نصراء للسيد جمال الدين - ومنها أعوان لشيخ الإسلام -

(١) الذِّمم: الضمائر. (م).
(٢) أَوْعَز: أشار إلى. (م).
(٣) التَّنْدِيد: التصريح بالعيوب. (م).

فأشار بعض أصحاب السيد عليه، أن يلزم السكون، ويغضي على الكريهة – وأن طول الزمن، يتكفل بِاضْمِحْلَاَل[1] الإشاعات وضعف أثرها – فلم يقبل، وألح في طلب المخاصمة، فعظم الأمر لدرجة خشي معها الصدر الأعظم على حياته وحياة جمال الدين معًا فأصدر أمره إليه «مكرهًا» بالجلاء عن الأستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب، ثم يعود إن شاء – معترفًا عالي باشا له بفضله، آسفًا على انحطاط أهل الجمود عن فهم الحقائق، عالمًا أن حركة حسن فهمي أفندي في مقاومة جمال الدين إن هي إلا مقاومة لعالي باشا الذي نظر لجمال الدين نظرة كان يرجو معها أن يحله محل شيخ الإسلام لو سمح استعداد المحيط، وقابلية القوم إذ ذاك – ولكن دهاء حسن فهمي أفندي أحبط مسعى عالي باشا، فأهاج رأي «السفطاء» طلبة العلم واستهوى العوام من أهل الجمود – حتى أكره الصدر الأعظم على إصدار أمر جلاء جمال الدين عن الأستانة كما سبق.

أما السيد ففي آخر يوم اضطر فيه أن يبارح الأستانة منفيًّا، أتاه عدة أفراد من العلماء المتنورين يعلنون له أسفهم، وعدم رضاهم عن خطة شيخ الإسلام، حتى أن أحدهم وهو من كبار المدرسين اشتط في خطابه، وتجاوز في الطعن على

(١) بِاضْمِحْلال: بِذَهَاب. (م).

حسن فهمي أفندي وأعوانه إلى ما مس كرامة الدين. فوقف عند ذلك جمال الدين غضبان وقال[١]:

ليس من خطأ أراه أكبر من مس كرامة دين لمجرد عمل يأتيه فرد من تابعي ذلك الدين، وأعتقد أن الهيئة البشرية لا يمكنها أن تستغني عن سلطتين زمنية، وروحية.

كلتا السلطتين ترمي إلى غاية واحدة في الجوهر، والأصل. نعم يمكن أن يطرأ على إحداهما خلل ليس في أصل الوضع - فهذا الخلل يجب العمل على إصلاحه، والوقوف بوجه من أخل، وإرغامه على الرجوع إلى الأصل ثم قال:

السلطة الزمنية بمليكها أو سلطانها إنما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع أهل الشر، وصيانة حقوق العامة والخاصة، وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن، وتوزيع العدالة المطلقة إلى آخر ما في الوازع، والسلطان من المنافع العامة.

---

(١) هذه الشذرة من هذا الكتاب «خاطرات جمال الدين» نشرت في جريدة لسان الحال تحت عنوان «جمال الدين وأهل الدين» وتناقلتها بقية الصحف.

أما إذا أودعت هذه السلطة بيد رجل غِرٍّ، جاهلٍ، عَاتٍ[١] اكْتَنَفَه[٢] قوم من فاسدي الأخلاق، مجهولي الأَعْرَاق[٣]، يلعبون بالمُسَلَّط كيف يشاؤون، ثم يحتجون على الشعب بقولهم:

«مشيئة الملك قانون المملكة!».

هذا القول على تلك الحالة مما يجب على الأمة وقوفها تجاهه، وأن تقاومه بكل ما لديها من قوة.

لأن الحق في هذا – أن إرادة الشعب الغير المكره، والغير المسلوب حريته – قولاً وعملاً، هي قانون ذلك الشعب المتبع، والقانون الذي يجب على كل حاكم أن يكون خادمًا له، أمينًا على تنفيذه.

وكل شعب تلعب به الأهواء، ويتفرق شيعًا وطوائف، وتستحكم من أفراده محبة الذات، والأنانية فيتجرون باسم الأمة تجاه الفرد المسلط، ويستنزفون ثروة المجموع إرضاء له لينالوا بُلْغَة[٤] من عيش.

---

(١) عَاتٍ: شديد الفساد. (م).
(٢) اكتَنَفَه: أَحَاط به. (م).
(٣) الأَعْرَاق: الأُصُول أو الأنساب. (م).
(٤) بُلْغَة: ما يُكْتَفَى به من العيش. (م).

فمثل هذا الشعب يكون كالأنعام السَّائِمَة[١]، أو أضل سبيلاً. ومثل هذا الشعب يصدق عليه قاعدة جور أوجدها المستبدون وهي القول السابق:

«مشيئة الملك قانون المملكة».

ثم قال:

كذلك القول في السلطة الروحية - وأعني بها ما لكل دين من النفوذ المعنوي، على من يدينون به - وهي في بعض مواقفها، أنفذ من قوة السلاطين، ويقظة الشرطة، وعدل الحاكم على منصة قضائه، وأفعل مما ينفذه في بعض الأحيان من القصاص على بينات قد تكون أخطأت مجرمًا، وأصابت بريئًا.

إذا تمكن الدين بحقيقته من نفس، وخلت عن مراقبة السلطان الزمني، فهناك يفعل سلطان الروح ويردعه عن سرقة مال لو سرقه لما شهد عليه أحد، وعن نفس لو قتلها لما تمكن الحاكم الزمني أن يقتص منه.

هذه بعض منافع الروح الدينية، ولا ترى في الأديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشري، بل بالعكس تحضه على أن يعمل الخير المطلق مع أخيه وقريبه، وتحظر عليه عمل الشر مع أي كان.

---

(١) السَّائِمَة: الرَّاعِيَة. (م).

أما وإذا انحرفت وتحرفت هذه السلطة المعنوية عن مواضعها، واختل جوهر وضعها الأصلي، وجب عندئذ الوقوف تجاهها، والعمل بكل قوة لإرجاعها لأصلها.

ثم قال: إذا سار الدين في غايته الشريفة حمدته السلطة الزمنية بلا شك، وإذا سارت السلطة الزمنية في الغاية المقصودة منها وهي «العدل المطلق» فالسلطة الروحية حمدتها وشكرتها بلا ريب. ولا تتنافر هاتان السلطتان إلا إذا خرجتا عن المحور اللازم لها والموضوعة لأجله.

هذه آخر كلمات قالها جمال الدين وفارق على أثرها الأستانة فحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر، فجاء إليها في أول محرم سنة ١٢٨٨هـ/ ٢٢ مارس ١٨٧١م.

مال السيد جمال الدين إلى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها، ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا، فاستمالته مساعيه إلى المقام، وأجرت عليه الحكومة راتبًا مقداره ألف قرش مصري كل شهر، نزلاً أكرمته به، لا في مقابلة عمل. واهتدى إليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم، واسْتَوَرُوا زَنْدَه فأَوْرَى[١]، واستفاضوا بحره فأفاض دُرًّا، وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العلمية في فنون الكلام الأعلى، والحكمة

(١) استَوَرُوا زَنْدَه فأَوْرَى: أحاطوا به طلبًا للعلم فأفاض عليهم من علمه الواسع. (م).

النظرية، طبيعية وعقلية، وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصرف، وعلم أصول الفقه الإسلامي. وكانت مدرسته بيته - من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم - ولم يذهب إلى الأزهر مدرسًا ولا يومًا واحدًا، نعم كان يذهب إليه زائرًا وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة.

عظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم، واستجزلوا[١] فوائد الأخذ عنه، وأعجبوا بدينه وأدبه، وانطلقت الألسن بالثناء عليه، وانتشر صيته في الديار المصرية، ثم وجه عنايته لحل عَقْل[٢] الأوهام عن قوائم العقول، فنشطت لذلك الباب واستضاءت بصائر، وحمل تلامذته على العمل في الكتابة، وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية، فاشتغلوا على نظره وبرعوا، وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه، وكان القادرون على الإجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل.

فنبغ في القطر المصري من تلامذته، كتبة لا يُشَقّ غُبَارُهم[٣]، ولا يُوطَأ مِضْمَارُهم[٤]، وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة، وما منهم إلا من أخذ عنه، أو عن أحد تلامذته أو قَلَّد المتصلين به، ومنكر ذلك مكابر، وللحق مدابر.

(١) استجزلوا: استعظموا. (م).
(٢) عَقْل: حَبْس ومَنْع. (م).
(٣) لا يُشَقّ غُبَارهم: لا يُدْرَكُوا. (م).
(٤) لا يُوطَأ مِضْمَارهم: لا تُبْلَغ غايَتُهم. (م).

هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوا سبيلاً للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذًا بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها، على أن القائلين بهذا القول لم يطلقوه، بل قيدوه بضعفاء العقول، فصار النظر خشية على عقائدهم من الزَّيْغ[١].

أما الثابتون في إيمانهم فلهم النظر في علوم الأولين والآخرين، من موافقين لمذهبهم أو مخالفين، فلا يزيدهم ذلك إلا بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم، ولنا في أئمة الملة الإسلامية ألف حجة تقوم على ما نقول.

ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأي هذا الرجل، وأذاعوا ذلك بين العامة، ثم أيده أَخْلاَط[٢] من الناس - من مذاهب مختلفة - كانوا يطرقون مجلسه، فيسمعون ما لا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون، غير أن هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله.

ولم يزل شأنه في ارتفاع، والقلوب عليه في اجتماع، إلى أن تولَّى خديوية مصر المرحوم (توفيق باشا) وكان السيد من المؤيدين لمقاصده، الناشرين لمحامده، والساعين لتأليف القلوب عليه.

---

(١) الزَّيْغ: المَيْل عن القصد. (م).
(٢) أَخْلاَط: أَوْبَاش. (م).

ولما كان جمال الدين ميالاً بفطرته إلى السياسة، عالمًا في دقائقها. فقد نظر إلى حال مصر نظر الحكيم المدقق، ورأى ما آلت إليه من تدخل الأجنبي وتفاقم أمره يومًا فيوم، فعلم أن لابد من تغير أحوالها، وكان قد انتظم في سلك الجمعية الماسونية، وتبني في المحفل الاسكتلندي.

أما انخراط جمال الدين في الماسونية، وما أحدثه وجوده فيها، إذ كان عاملاً في بدء أمره - وقبل أن يصير من الرؤساء - فنختصره على قدر ما تسمح به الطريقة الماسونية - وإن كان جمال الدين لا يرى في التكتم فضيلة، بل يرى فيه مَعَرَّة[١]، ونقصًا في الهمم.

أول انتقاد انتقده جمال الدين في المحفل، رده على قول أحد الإخوان القائل «إن الماسونية لا دخل لها في السياسة، وإِنَّا لنخشى على محفلنا هذا من بأس الحكومة وبطشها» فنهض جمال الدين وقال:

كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتي المحافل الماسونية.

إذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناء حر، وإذا آلات البناء التي بيدها، لم تستعمل لهدم القديم، ولتشييد معالم حرية صحيحة

(١) مَعَرَّة: أَذَى. (م).

وإخاء، ومساواة، وتدك صروح الظلم، والعُتُوّ[١] والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة.

ثم قال في بحث إجمالي عن الماسونية في ذلك المحفل أي الاسكتلندي ما يأتي:

لا تتم الصورة في الذهن إلا بعد التعريف والوصف، فالإنسان حيوان ناطق، ولكي يتم له التعريف المطلوب، المانع له من اشتراك بعض العَجْمَاوات[٢] الناطقة - عرفوه بصفات أخرى - فقالوا مميز، ضحاك بالطبع إلخ. فتسنى من التعريفات والصفات ما جعل له صورة مخصوصة في الذهن يعرف بها أنه «إنسان».

أما نحن معشر الماسون، فيؤلمني أنني للآن ما عرفت لنفسي بصفتي ماسونيًّا ولا لمطلق الماسونية تعريفًا يجعل لها صورة في الذهن، أو وصفًا ينطبق على من ينخرط في تلك العشيرة.

أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار، عنوان كبير خطير - حرية، مساواة، إخاء - غرض «منفعة الإنسان، سعي وراء دك صروح الظلم، تشييد معالم العدل

(١) العُتُوّ: الاستكبار. (م).
(٢) العَجْمَاوات: ، اللاتي لا تفصح ولا تبين في كلامها، وإن كانت عربية، جمع العجماء. (م).

المطلق» فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية - وهو، همة للعمل، وعزة نفس وشَمَم[١]، واحتقار الحياة في سبيل مقاومة من ظلم.

ثم قال: هذا ما رضيته من الوصف للماسونية، وارتضيته لها، ولكن مع الأسف أرى أن جراثيم الأَثَرة[٢]، والأنانية، وحب الرياسة، والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم، وخضوعًا لشرق عن بعد سحيق، يَعْتَوِرُه[٣] تهديد ووعيد وغير ذلك من الأمور التي ما تأسست الماسونية الحرة إلا لُملاَشَاتها[٤]، واعتبرت من يصدع ويعمل بها من جبابرة الملوك، والحكام أنهم من «الخوارج»، وما يجرون من الأحكام الكيفية «خارجة» وأن أولئك الخوارج فيما يتخبطون فيه من تلك الأعمال هم في الظلمات، وبأشد الحاجة إلى النور.

ثم ذكر أشياء تتعلق في المحفل الاسكتلندي، جاءت حسب أهواء معارضي جمال الدين فلا حاجة إلى ذكرها هنا. ومما قاله مخاطبًا ومودعًا من ترك في المحفل الاسكتلندي: اعتقدوا أيها الإخوان، أن جمال الدين ينكر على نفسه حب الرياسة، ويقول: إن الماسونية أشرف وأرفع من أن تعمل على إيجاد سلطة لرئيس تخدم له بها غاية شخصية، أو منفعة مادية كانت أم أدبية.

---

(١) شَمَم: عُلُوّ وارتفاع. (م).
(٢) الأَثَرة: الاستئثار والتفرد. (م).
(٣) يَعْتَورُه: يُصيبُه أو يُلِمّ به. (م).
(٤) لُملاَشَاتها: لاضْمِحْلاَلها وصيرورتها إلى العدم. (م).

دعوني أكون عاملاً ماسونيًّا نزيهًا، متجنبًا للرذائل، إذ لم يكن حرصًا على شرف شخصيتي؛ فخوفًا من أن تعاب الماسونية بي، فيتخذني الأَغْيَار[١] سهمًا للطعن بها وهي براء منه. وما ذنب الماسونية، إلا أنها قبلتني بين أفرادها دون اختبار صحيح، وأبقت عليّ من غير تنصر.

ومن كلمات جمال الدين في ذلك المحفل أن أحد الإخوان قال في خطاب ألقاه عبارة على طريق المُبَاهَاة[٢] «أن الماسونية تفاخر بقدم عهدها، وثباتها أعصرًا على شكلها وتقاليدها». فرد عليه جمال الدين قائلاً:

«لا أرى أبعد عن الحق من هذا القول، فالماسونية على شكلها هذا وتقاليدها، ليست فقط قديمة العهد بل هي لم تزل في المهد، ولسوف إذا أصرت، وأصر أبناؤها على الوقوف عند حد رموز أكثرنا لا يفقه مغزاها، ولا المراد من وضعها، أنها ستختنق في المهد ولا تدرج منه». ماسونيتكم أيها الإخوان اليوم لا تتجاوز «كيس أعمال، وقبول أخ» يتلى عليه من أساطير الأولين ما يمل ويُخِل في عقيدة الداخل، ويسقط مكانة الماسونية من عينيه.

أنتم اليوم بين رئيس ومرؤوس، تابع ومتبوع، شرق يأمر ومستشرق يرضخ، مال يُجمع، وجزية للشرق تُؤدَّى - وليس من عمل يدل على أدنى أثر من الحياة للماسونية في الشرق.

---

(١) الأَغْيَار: المراد الآخرون ممن ينافسونه أو يناصبونه العداء، جمع الغِيَر، وهو: اسم الواحد للمذكر. (م).
(٢) المُبَاهَاة: المُفَاخَرة. (م).

ومما استغربه الإخوان الماسون من أقوال جمال الدين، أنه طلب في المحفل إسعاف لأحد الإخوان فقال: هل الأخ مريض؟ قالوا: لا. قال: هل هو صحيح البنية؟ قالوا: نعم، ولكنه فقير معوز.

قال: صحة البدن وذُلُّ السؤال، لا يصح أن يجتمعا بإنسان. الماسونية تسعف أخاها إذا سقط في العلل، أو اعترى بعض أعضائه شلل، وتقدمه على مَن سواه من الإخوان في البشرية، فتربي أبناءه إذا مات فقيرًا، وتحسن العناية في تربيتهم.

وفيما عدا ذلك يجب أن ترى أن في الإحسان إساءة، لمن يحب أن يكون في الحقيقة إنسانًا.

هذا بعض ما كان ينتقده، ويقوله جمال الدين في المحفل الاسكتلندي وقد ضاق بآرائه وأفكاره ذرعًا.

وعلم جمال الدين أنه لا يمكنه العمل مع أولئك الإخوان وهم على ذلك الخمول، والتخوف أو الجبن، فأنشأ محفلاً وطنيًا، تابعًا للشرق الفرنساوي، وفي برهة وجيزة بلغ عدد أعضائه العاملين أكثر من ثلاثماية من نخبة المفكرين، والناهضين من المصريين من مريدي جمال الدين من العلماء والوجهاء، وتكرس محترمًا له، وأول عمل عمله، أن صيّر من الإخوان العاملين في المحفل شعبًا، شعبة أناط بها إنذار ناظر «الجهادية» كي ينظر بعين العدل والإنصاف إلى الضباط الوطنيين

الذين تمادى زمان مكثهم في السودان أكثر مما تستوجبه القوانين المسنونة للضباط (وكان القانون العسكري إذ ذاك أن تتناوب الخدمة صنوف الضباط وطنيين، وشراكسة متمصرين) فكان أكثر الضباط المصريين الذين يقتضي استبدالهم بعد سنتين مثلاً في السودان، بآخرين من الضباط الشراكسة «نسبًا» كانوا يقضون أربع سنوات فأكثر ولا يستبدلون، وإن استبدلوا فإنما يرسل مكانهم مصريين ممن لا عَضُد[١] لهم أو مجير من أمير أو وزير.

وشعبة أخرى لإنذار ناظر الحقانية، وأخرى للمالية. فنظارة الأشغال وبقية النظارات والمصالح الأميرية، تلفتهم إلى إحقاق الحق وعمل العدل والإنصاف مع مستخدميهم من الوطنيين (إذ كان الموظف المصري في وظيفة ما إذا تناول خمس جنيهات راتبًا شهريًّا كان غيره من غير المصريين بمثل ذاك العمل والوظيفة، يتناول خمسة عشر أو عشرين جنيهًا).

ذهبت كل شعبة للوجهة التي عُيِّنَت لها، وأدت للنظار ما أُمِرَت به من المحفل بلهجة، وأسلوب، استهجنهما، واستغربهما السامعون، فحصل من جراء ذلك هزة في الأندية، والدواوين، انتهت تموجاتها إلى سراي عابدين والخديوي إذ ذاك المرحوم توفيق باشا، فهاله الأمر، وكان قليل المبالاة بالماسونية، حتى إنه استنكر تكليفه أن يكون أستاذًا أعظم للمحافل الماسونية المصرية الوطنية – وتردد

(١) عَضُد: مُعِين. (م).

في قبول جمال الدين زائرًا، ولكن بعد تلك الحركة أسرع في استزارة جمال الدين، فذهب بعد مماطلة أيام، وتمثل لدى الحضرة الخديوية وبعد تلطيف وتجمل من الخديوي قال لجمال الدين ما معناه «إنني أحب كل خير للمصريين، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح، ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل، جاهل، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة».

قال جمال الدين مجاوبًا «ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص، أن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخَامِل(١) والجاهل بين أفراده، ولكن غير محروم من وجود العالم والعاقل، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفراده، ينظرون به لسموكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد على طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين، وتنفذ باسمكم وبإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم».

هذا أهم ما جرى في هذه المقابلة التي كان فيها سمو الخديوي غير راض وأسر في نفسه البطش في جمال الدين ولكن لم يظهر له شيئًا من ذلك.

---

(١) الخَامِل: الخَفِيّ الساقط الذي لا نباهة له. (م).

خرج جمال الدين من مجلس سمو الخديوي ومضى إلى تنفيذ خطته في المحفل الماسوني، وأخذ يخطب خطبًا تستفز الخامل وتوقظ الغافل وتصير الجبان شجاعًا، والرِّعدِيد[١] أسدًا ضاريًا، وأشار على تلامذته ومريديه بنشر الفصول الناطقة بالحقوق المهضومة لأهل البلاد من المصريين، وكان في مقدمة من كتب الأدباء السوريين وفي مقدمتهم (المأسوف عليه أديب بك إسحق)[٢].

وعلى أثر ذلك بدأت الحركة الفكرية الوطنية في الظهور، وأخذت الحكومة تحتاط لتلك الحركة، وتجامل الوطنيين، وتتقرب من الشعب بالمواعيد الحسنة، وحسن النية، من إنالتهم مجلسًا نيابيًّا - إذا هم حافظوا على السكينة ولم يفرطوا في المطالب الوطنية.

فطلب الأحرار من جمال الدين أن يضع خطة للمجلس النيابي المصري العتيد، وبيانًا واضحًا للشعب كي يسير بمقتضاه نحو انتخاب نوابه فقال:

أيها الإخوان: إن القوة النيابية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لهما فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية، الموهومة، موقوفة على إرادة من أحدثها.

---

(١) الرِّعْدِيد: الجَبَان. (م).

(٢) كان جمال الدين لآخر نسمة من حياته عند ذكر أديب بك إسحق يسترجع ويقول: كان طراز العرب وزهرة الأدب، قضى نحبه في شرخ الشبوبية وعنفوان الفتوة، وترك لنا قلوبًا آسفة وشجونًا فائضة. إنا لله وإنا إليه راجعون.

فعزة الملك ينغصها نهضة الشعب المملوك، خصوصًا إذا هو صادم إرادة مالكه أو أميره - والتاريخ لم ينقل لنا أن ملكًا، أو أميرًا، أو دخيلاً بقوته على شعب يرضى عن طيب خاطر أن يبقى مالكًا اسمًا، وأمته هي المالكة فعلاً، لإدارة شؤونها، وزمام أمورها على مطلق المعنى - وأعظم أماني الشعوب المملوكة، التَّمَلُّص(١) من رِبْقَة(٢) الأجنبي وتحكمه.

ثم قال: سترون عما قريب إذا تشكل المجلس النيابي المصري، سيكون ولا شك بهيكله الظاهري مشابهًا للمجالس النيابية الأوروبية، بمعنى أن أقل ما سيوجد فيه من الأحزاب - حزب للشمال وحزب لليمين - ولسوف ترون إذا تشكل مجلسكم، أن حزب الشمال لا أثر له في ذلك المجلس، لأن أقل مبادئه أن يكون معارضًا للحكومة، وحزب اليمين أن يكون من أعوانها.

قال: تستغربون قولي هذا اليوم، لأن ما نبحث فيه هو أمر تصوري لم يخرج لحيز العمل بعد، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل، ورأيتم كل عضو يفر من أن يكون في حزب الشمال (الناهض والمعارض للحكومة) فراره من الأسد إلى حزب اليمين «إذ ذاك تقولون صدق جمال الدين».

---

(١) التَّملُّص: التَّخَلُّص. (م).
(٢) رِبْقَة: قَيْد. (م).

نعم أكون صدقت، ولكن ليس لي في هذه الفراسة، وفي صدق التصور التصديقي أدنى فضيلة، إذا رجعتم، وعلمتم، أن المقدمات الصحيحة هي التي تنتج النتائج الصادقة.

فمقدمات مجلس نيابي قوته المحدثة له، خارجة عن محيط الأمة، والمحدث له قوة خارجة عن الأمة ومجلسها، يعارضها، منافع متضادة، وهدفان مختلفان. فمثل هذا المجلس لا قيمة له، وكما أنه لا يعيش طويلاً كذلك لا يغني عن الأمة فتيلاً.

ثم قال ضاحكًا ضحكة متألم، سترون أن الذي سيكون نائبًا عن شعب لا أعدد مصائبه ولا أنواع رَزَايَاه[1]، لفقدان حريته بكل معناها - هو الذي كان آله صماء، بيد تلك القوة التي عملت على وصول وطنه ومواطنيه، إلى ما وصلوا إليه.

تعرفونه إذا شئتم أن تتفكروا قليلاً، وإن شئتم وصفه فأنا أقول لكم:

نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهيئات مصركم في زمانكم هو ذلك الوجيه الذي امتص مال الفلاح بكل مساعيه، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همة، ذلك الرجل الذي لا يعرف لإيراد الحجة تجاه الحاكم الظالم معنى ولو كانت من الحجج الساطعة، ذلك الرجل الذي يرى في إرادة القوة الجائرة (كل خير وحكمة!) ويرى في كل دفاع عن وطنه، ومناقشة

---

(١) رَزَايَاه: مَصَائِبُه. (م).

للحساب قلة أدب، وسوء تدبير!! وعدم حِنْكَة! وتهور! وبالتالي، يرى أن كل صفات العزة النفسية، والمقومات الأهلية القومية، مآلها الويل والثُّبُور(١).

وكل ما يدعو إلى الذل، واحتقار القومية، وسحق ما تنمو به حرية الأمة هو من مجالي حكمته العصرية!

هذا مع الأسف الذي أراه سيتكون منه مجلسكم النيابي الموهوم (إذا صحت الأحلام) والذي سيخالف قاعدة كلية، لقواعد فلسفة، أقرت على أن الوجود خير من العدم - فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده.

ثم أخذت الأفكار تتنبه من الوطنيين من تلك الأقوال، والخطب، والفصول التي يبثها جمال الدين ومريديه، وفي كلها ما يدل على نفرة جمال الدين من سياسة بريطانيا العظمى، وانتقاده لها وقد ترجمت وأرسلت إلى جرائد إنكلترا، واهتموا بها كثيرًا حتى تولى المستر غلادستون نفسه أمر الجدال في موضوعها فلما بلغ محفل جمال الدين إلى هذه الدرجة من الأهمية والتأثير داخل الخوف، المستر (فافياني) قنصل إنكلترا الجنرال إذ ذاك، وجمع بواسطة ما بثه من الرقباء في المحفل، والجواسيس، ما أخاف به الحكومة، وأرهب الخديوي، وكان في نفسه أشياء تحذره من وجود جمال الدين في مصر كما سبق في محادثته له.

---

(١) الثُّبُور: الهَلاَك والخُسْرَان. (م).

فأصدر أمره بإخراج السيد من القطر المصري مع تابعه عارف أفندي أبي تراب، ففارق مصر سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م، قاصدًا البلاد الهندية، ولما وصل إلى السويس أتاه بعض مريديه، وقنصل إيران، وبعض التجار، وكل منهم يحمل مقدارًا من المال، عرضوه على السيد جمال الدين وألحوا عليه أن يقبله قرضًا. فأجابهم: «أنتم إلى هذا المال أحوج، والليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب». ثم أبحر إلى البلاد الهندية وأقام بحيدر آباد الدكن، وفيها كتب رسالته في إبطال ونفي مذهب الدَّهريين(١).

ولما كانت الفتنة الأخيرة بمصر «الحوادث العرابية» دُعِي من حيدر آباد إلى «كلكتا» وألزمته حكومة الهند بالإقامة فيها حتى انقضى أمر مصر ، وخمدت الحرب الإنكليزية، ثم أبيح له الذهاب إلى أي بلد شاء، فاختار الذهاب إلى أوروبا، وأول مدينة صعد إليها مدينة لندرا، أقام بها أيامًا قلائل، ثم انتقل إلى باريز، وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات، طلب فوافاه في أثنائها، صديقه الأستاذ العلامة الشيخ محمد عبده، وكانت في مصر جمعية وطنية تألفت من خيار القوم، اسمها «جمعية العروة الوثقى» فكلفته أن ينشئ جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العظمى، وكلف صديقه الأستاذ المشار إليه، أن يقوم على تحريرها ففعل، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عددًا، وقد أخذت من قلوب الشرقيين عمومًا والمسلمين خصوصًا ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ، ولا

(١) مَذْهَب الدَّهريين: هو مذهب كل من اعتقد في قِدَم الزمان والمادة والكون، وأنكر الألوهية والخلق والعناية والبعث والحساب. (م).

تنبيه منبه ذلك لخلوص النية في تحريرها، وصحة المقصد من مدير سياستها في تَحْبِيرِهَا[١] ثم قامت الموانع دون الاستمرار في إصدارها، حيث أقفلت أبواب الهند عنها، واشتدت الحكومة الإنكليزية في إِعْنَات[٢]، وأذية من تصل إليهم حتى في مصر فإنها أصدرت أمرًا وزاريًّا «نوباريًّا» وهو مسطور في العروة الوثقى ونصه:

انعقد مجلس النظار المصري في القاهرة، واهتم في البحث في شأن «العروة الوثقى» ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاضيًا عليها بأن تشتد في منع هذه الجريدة عن دخول الأقطار المصرية وتراقب جولانها في تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البوسطة، يلزمها بالدقة في ذلك، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر أعلنت، أن كل من توجد عنده «العروة الوثقى» يغرم مبلغًا من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهًا – «وهي غرامة جسيمة ربما دعا إليها، عسر المالية المصرية، ببركة تصرف الإنكليز في مصر.

أما نحن فلا نظن أحدًا من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار، بل لا نتوهم في المستوى، والجالس على كرسي الخديوية ميلاً إلى مثل هذا الحكم، ولا يختلج في صدرنا أن مصريًّا من أي مشرب كان سواء فيه المسلم وغير المسلم، بل ولا شرقيًّا، ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه مسحة من العدل. هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولها سعي بل كل السعي لخيبة

---

(١) تَحْبِيرِها: تَحْسِينِها. (م).
(٢) إِعْنَات: إِدْخَال المشقة. (م).

آمال أعدائهم، ولا ترى من مَشْرَبِهَا[١] مدح زيد ولا القَدْح[٢] في عمر فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا، وإنما عملها، سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عمومًا على الصفاء والوداد.

تلتمس من أبناء الأمم الشرقية، أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضَّوَارِي[٣] التي فَغَرَت أفواهها[٤] لالتهامهم، ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طُرُوق النَّاهِب[٥].

هذا منهاج العروة الوثقى، علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها، فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيًّا مسلمًا كان أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره، ولكننا نعلم أن حركات الآمرين في القطر المصري هذه الأيام قهرية، لا يخالطها شيء من الاختيار، والمدير لرَحَى القهر عليهم «هم عمال الإنكليز.

ولا نريد أن نقول للإنكليز أنهم ظلموا في هذا الحكم، فإن الجريدة لم يوجد فيها ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مساتيرهم، وبيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم؛ لأنهم «الإنكليز» وهم الذين إذا أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار،

---

(١) مَشْرَبها: مَيْلَها وهَوَاهَا. (م).
(٢) القَدْح: الطَّعْن. (م).
(٣) الضَّوَاري: كناية عن المستعمرين الذين يغتصبون ثروات الشعوب، ولغويًّا: الوحوش المفترسة. (م).
(٤) فَغَرَت أفواهها: فتحت أفواهها استعدادًا للالتهام. (م).
(٥) طُرُوق النَّاهِب: الإتيان ليلاً للسلب والسرقة. (م).

أسرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة «الضبطية» وعند وصوله إليها، يفتح له الضابط مصحف قرآن، أو كتاب حديث من الكتب المشهورة، ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد، أو حديث مما يدعو إليه، ويسأله: هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث؟ فإذا قال: نعم، قال له: فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا - فإذا أجابه بأنني درويش ملازم العزلة عن الناس، وليس اعتقادي بهذا إلا لأنه كتاب ديني، ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل، يبين فيها رأيه في الآية أو الحديث، فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه، ولم يبدل عقيدته، ولم يبادر بإرسال تحريفه وتبديله، وخروجه عن دينه، إلى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر، بعثت به الحكومة إلى جزيرة «أندومان» نفيًا مؤبدًا.

ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غَاصَّة[1]، بأمثال هؤلاء المظلومين، فدولة الإنكليز التي تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم، وما يمكن أن يهجس في حديث نفوسهم، لا ريب أنها تعد وجود لفظ «الإسلام» في جريدة كافيًا لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيها قدم ثابت، أو تسعى في تثبيته، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصًا علق عليه هذا الاسم من أي جنس كان.

«فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم، وليس يعجزنا إدخال العروة الوثقى في كل بقعة تحوطها السلطة الإنكليزية الظالمة وذلك بعزائم أولي العزم، والإباء والنهضة».

---

(١) غَاصّة: ممتلئة. (م).

ثم ظهرت حادثة المهدي السوداني محمد أحمد وأخذ أمره في الاستفحال واتسع منه لإنكلترا مجال المداخلة في شؤون مصر، بحجة قمع ثورة المهدي السوداني.

فكتب جمال الدين في العروة مقالات يحذر بها الإنكليز، ويلفت نظر كبير وزرائهم إذ ذاك (المستر غلادستون) إلى سوء مصير الجنرال غوردون، واستحالة نجاح مقصد الإنكليز بتلك الوسيلة وأمثالها، وأثبت ذلك بحجج قاطعة وبراهين ساطعة. وسيأتي ذكر ذلك تحت عنوان «عبرة وذكرى».

وقد ثابر جمال الدين على الكتابة في مسألة السودان معددًا خطيئات بريطانيا ووزرائها، مفندًا لأقوال اللورد (غرانفيل) وحجج المستر غلادستون ومبينًا مسيء المصير، من انتهاج تلك السياسة في مصر والسودان، كاشفًا مساتير السياسة، مما أقام أكابر رجال السياسة في العالم وأقعدهم، واضطربت لها أندية لندرا خاصة.

فاضطر اللورد (ساليسبوري) و(شرشل) أن يستدعيا جمال الدين ليسألاه رأيه في المهدي وظهوره إذ ذاك، فشخص إلى لندن واجتمع بهما وهناك أفاض بتوضيح الغوامض وأطلعهما على مواقع الخطأ في سياسة إنكلترا خصوصًا نحو دول الإسلام في الشرق وما تتبعه في مصر ، كل ذلك بحجج قاطعة، ولهجة شديدة ملؤها الإخلاص.

وبعد أخذ ورد، اختصر اللورد ساليسبوري الحديث، ورام تقريب البعيد، فقال لجمال الدين:

«إن بريطانيا تعلم مقدرتك، ونحن نقدر رأيك قدره ونحب أن نسير مع حكومات الإسلام، بمودة وولاء، على قدر ما تسمح لنا به الظروف والأحوال، لذلك تصورنا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه، فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا فيه. إلخ».

فقال جمال الدين: تكليف غريب، وسفه في السياسة ما بعده، اسمح لي يا حضرة اللورد أن أسألك: هل تملكون السودان، حتى تريدون أن تبعثوا إليه بسلطان؟

«مصر للمصريين، والسودان جزء متمم لها، وصاحب الحق، الخليفة الأعظم جلالة السلطان حي يرزق، ولديه من الجيش المادي والمعنوي، ما يتذلل معهما كل صعب وفتنة في الكون الإسلامي وأجزاء ممالكه!».

«إن الإصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله وطرق إدخاله وما تبحث له من الوسائل، فعلى سبيل الاستطراد(١)، والتَّطَفُّل(٢)، ألفت نظرها، ونظر كبير رجالها حضرة اللورد إلى أيرلندا، وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال، ليتسنى لها معه الإصلاح الحقيقي لبلادهم، فلماذا لا تجيبون سؤالهم،

(١) الاستطراد: أخذ المتكلم في معنى، ثم الانتقال منه إلى معنى آخر قبل إتمام الأول. (م).
(٢) التَّطفُّل: التدخل في شئون الآخرين. (م).

وتصلحون أمرهم، وهم أقرب إليكم من حبل الوريد، وبينكم وبينهم من الجامعات[١] ما هو معدوم لكم في مصر، والسودان، وغيرهما من ممالك الشرق إلخ».

فبهت عند ذلك اللورد ساليسبوري، بهتة رجل فوجئ بصدمة لم تكن في حسبانه، ولم يُحِرْ[٢] جوابًا، إذ كان ينتظر من جمال الدين سجود الشكر لسلطان أتاه بدون تعب، ومنصب انتصب له بلا نصب، فقال للسيد كلمات معناها سننظر في الأمر، وودعه بقوله: مصحوب بالسلامة.

خرج جمال الدين من تلك الملاقاة، وأكبر رجال وزارة إنكلترا - ساليسبوري - على غاية النفرة من سياسته - أما الجرائد الإنكليزية فأكثرها اهتم لنظرية جمال الدين ومباحثه خصوصًا من كان مواليًا لقضية الأرلنديين من الإنكليز الأحرار، وبالإجمال ما خرج من لندرا إلا وأنديتها السياسية في شيء من الهرج.

ثم عاد إلى فرنسا وكانت العقبات التي أقامتها الحكومة الإنكليزية ضد العروة الوثقى، قد بلغت مبلغها من الشدة فسدت في وجهها الأبواب واشتدت في عقاب من يذكرها، وبالإجمال فقد ظفرت بريطانيا العظمى بعد أن صرفت كل همها، وهممها في تعطيلها، أن انحجبت «العروة الوثقى» عن الظهور، ولكنها

(١) المقصود بالجامعات هنا: الروابط.
(٢) يُحِرْ: يَرُدّ. (م).

حفظت في الصدور، وما غرسته في الأذهان أخذ ينمو على مهل في معظم بلاد الشرق، وتبدو ثماره على التدريج.

كانت مدة إقامة جمال الدين في باريز، ثلاث سنوات ونيف. منها ما قضاه في نشر العروة الوثقى، ومنها ما نشر فيها تلك المقالات الرائعة في أمهات جرائدها باحثة عن سياسة روسيا وإنكلترا، والدولة العلية ومصر.

ومن أبحاثه تلك الأبحاث الفلسفية وأهمها ، ما جرى له من المباحث مع الفيلسوف الفرنساوي – رينان – في «العلم والإسلام وحقيقة القرآن والعمران» (وستأتي براهين تلك المباحث في أقوال جمال الدين الآتية) أما رينان فقد شهد له بصحة العلم وقوة الحجة، ورجع عن كثير من آرائه في أن الإسلام والقرآن مانعان للحضارة والعمران، وأن ما يرى في المسلمين من الانحطاط، والتقهقر، إن هو إلا من سوء فهم أهل الجمود من رؤساء أهل الدين لحكمته.

كانت مدة إقامة جمال الدين في فرنسا محفوفة بالتجلي والإعظام، من أكثر علمائها، وفلاسفتها، وقد أحلوه من مقاليد العلم والحكمة مكانًا عليًا.

كيفية استقدام جمال الدين إلى طهران وتألمه من الشاه ناصر الدين وغلطته في مخاطبة الملوك والعظماء

بعد أن علم جمال الدين أن لا مقام له في باريز مع كثرة الحفاوة والاحتفاء، عزم على السياحة في البلاد العربية من نجد، فالحجاز، فالعراق. وبينما هو على هذه الأهبة، استقدمه ناصر الدين شاه الفرس على لسان البرق فسار قاصدًا طهران تاركًا سياحته. وفي أصفهان التقى بالأمير ظل السلطان، فأجلّ جمال الدين، وأعظم قدره، وكان هذا الأمير على جانب عظيم من الذكاء والدهاء، فرأى في السيد خير مرشد للشاه ولمملكة الفرس، حتى إذا وصل إلى طهران استقبله الشاه بصدر رحب واحتفاء كبير مع ثناء وإطراء على فضله ونبله، وفوض إليه في الحال نظارة الحربية رسميًّا مع صفة مستشار خاص للشاه، إذ كان لا يقطع أمرًا في المملكة، إلاّ برأي جمال الدين، فقام بأعباء الإرشاد، والنظارة خير قيام، وفي نفس الوقت كانت لهجته شديدة وصريحة بلزوم تغيير كل قديم بَالٍ[1] من إدارة الحكومة الفارسية، وبضرورة الأخذ بإنهاض الأمة، ومشاركتها في حكم ذاتها.

---

(١) بَالٍ: متخلف عفَّى عليه الزمن. (م).

فالتفّ أمراء الفرس، وعلماؤها، حول جمال الدين وأقسموا له أنهم يَصْدَعون[١] بما يأمر به، فأشار بعدم التسرع ولزوم الأخذ بسنن التدريج، غير أن الشاه لَمَّا رأى ما ناله جمال الدين، من علو المنزلة، ونفوذ الكلمة في مملكته، وما سخره من قلوب الأمراء والعلماء - أَوْجَس[٢] خيفة، ودَاخَلَه رَيْب[٣] عظيم واضطرب متخوفًا على سلطانه، فتنكر لجمال الدين، وتغير سير الشاه معه، فأدرك السيد ما في نفسه فاستأذنه في السفر لتبديل الهواء فأذن له، فسار إلى روسيا، وزار عواصمها، من موسكو، فبطرسبرج، فلاقاه أهلها بالتَّجِلَّة[٤] والإكرام لما سبق إلى مسامعهم، من شهرته، واجتمع في بطرسبرج بأعاظم رجالها من العلماء والسياسيين، وهم يعلمون منزلة جمال الدين، إذ كان وزيرًا أَوّلاً لحكومة الأفغان في عهد الأمير محمد أعظم خان، ونشر في جرائدها مقالات ضافية في سياسة الأفغان، والفرس والدولة العلية، والروسية، والإنكليزية، كان لها دَوِيّ[٥] شديد في جو السياسة - أما نُفرَة السيد من سياسة الإنكليز، وتَنْقِيده[٦] لها بالبراهين القاطعة فقد أوسع له في المملكة الروسية مجالاً فأولوه غاية الإجلال والتكريم والإصغاء لأحاديثه، والانتصار لسياسته، حتى أن القيصر دعاه لقصره، وتحادث معه طويلاً وكان كثير الحفاوة به، مُعْظِمًا له، مُصْغِيًا لما يقوله.

(١) يَصْدَعُون: يتكلمون به جَهارًا. (م).
(٢) أَوْجَس: أَضْمَر خوفًا. (م).
(٣) رَيْب: شَكّ. (م).
(٤) بالتَّجِلّة: بالجَلالَة والإعظام. (م).
(٥) دَوِيّ: صوت. (م).
(٦) تَنْقِيده: تمييزه الجيد من الرديء. (م).

بعد تلك الأحاديث الطويلة، سأل القيصر جمال الدين عن سبب اختلافه مع الشاه، فذكر له رأيه في الحكومة الشورية وضرورة اتباعها، وأن الشاه ينفر من ذلك، ولا يحب أن يُقِرّ(١) به.

قال القيصر: «إني أرى الحق في جانب الشاه إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يحكم به فلاحو مملكته».

فأجاب جمال الدين بجرأة وفصاحة: أعتقد يا جلالة القيصر أن عرش الملك، إذا كانت الملايين من الرعية، أصدقاء له، خيرًا من أن تكون أعداء يترقبون الفرص، ويكمنون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام، فعَلَت عند ذلك - وجه القيصر علامة غضب فقَطَّب حاجبيه(٢)، ولم يطل الحديث بعد ذلك مع جمال الدين، بل قام من مجلسه، وودع جمال الدين بغير الشكل الذي استقبله به، إذ كان وداعًا باردًا، ثم أوعز القيصر إلى أكبر رجال بلاطه أن يسرعوا متلطفين بإخراجه من روسيا.

ترك جمال الدين روسيا، وأخذ يجول في أوروبا، وأقام في لندرا أيامًا تلقَّته رجال السياسة فيها، كما تلقّوه في غيرها من العواصم بالإكرام والإجلال، ودعوه إلى مجتمعاتهم السياسية وأنديتهم العلمية، ليروه ويسمعوا حديثه، وكان أكبر همه وأكثر كلامه، في بيان سوء تصرف الشاه في المملكة، واستبداده، وما

(١) يُقِرّ: يُذْعِن. (م).
(٢) قَطَّب حاجبيه: عَبَس. (م).

آلت إليه حالها في عهده، يريد في كل ذلك تمهيد السبيل، لأحرار إيران، وعدم معارضة الإنكليز لهم إذا هم نهضوا لقلب حكومة الاستبداد بحكومة دستورية.

صادف وجود جمال الدين متجولاً في أوروبا فتح معرض باريز سنة ١٨٨٩م فشخص إليها، والتقى بالشاه في (منيخ) عاصمة (باواريا) عائدًا من باريز، فاستزاره واعتذر له عما فرط، وعتب عليه بعدم عودته إلى طهران، وأخيرًا دعاه إلى مرافقته، فأجاب جمال الدين الدعوة وسار مع الشاه إلى بلاد فارس، فلم يكد يصل إلى طهران، حتى عاد الناس، وفي مقدمتهم الأمراء والعلماء، إلى الاجتماع به والانتفاع بعلمه، والشاه لا يرتاب من أمره وأول ما كلَّفه به، أن يُسِنّ[1] ما يراه موافقًا لروح العصر من القوانين (ربما كان ذلك من الشاه بتأثير سياحته في أوروبا) فعمل جمال الدين بهمته المعهودة، فسَنَّ القانون الأساسي لمملكة فارس، لتكون حكومة، ملكية، شوروية، فما أتم قواعد الدستور الكلية، ومواده، واطلع عليه الشاه ناصر الدين، إلا وأعظم الأمر، إذ رأى أن حكمه سيكون مقيدًا، وأن أهل فارس سيكونون أوسع سلطة من الشاه بمجلسهم النيابي.

فقال لجمال الدين:

«أيصح أن أكون يا حضرة السيد، وأنا ملك ملوك الفرس (شهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين»؟

---

(١) يُسِنّ: يَضَع. (م).

فقال جمال الدين:

اعلم يا حضرة الشاه، أن تاجك، وعظمة سلطانك، وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري أعظم، وأنفذ، وأثبت مما هم الآن.

والفلاح، والعامل، والصانع في المملكة يا حضرة الشاه أنفع من عظمتك، ومن أمرائك. واسمح لإخلاصي أن أؤديه صريحًا قبل فوات وقته.

لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت، وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك، ولكن هل رأيت ملكًا عاش بدون أمة ورعية؟

هذا الحديث الصريح من جمال الدين للشاه ناصر الدين جاء مصدقًا لما وشى به الصدر الأعظم وخوَّف الشاه منه بقوله: «إن ما يُسِنّه جمال الدين من القوانين لا يفيد البلاد شيئًا، ولكنه ينزع سلطان الشاه منه، ويعطيه إلى السُّوقَة(١) والفلاحين» وغير ذلك من الوشايات.

فنفر الشاه نفورًا بينًا من جمال الدين، وأعرض عنه، فأحس بهذا التغيير والنفور، فاستأذن بالذهاب إلى بلدة شاه عبد العظيم على بعد عشرين كيلو مترًا من طهران، فأذن له فسار إليها وتبعه جمع غفير من العظماء، والعلماء، والوجهاء، الذين كان يخطب فيهم، ويستحثهم على إصلاح حكومتهم، وما منهم إلا وقد انفعل

---

(١) السُّوقَة: الرَّعِيّة من دون المَلِك. (م).

بخطب جمال الدين الحماسية، وقبلت نفوسهم نزعة الاستقلال، وسرت تلك الروح في البلاد طولاً وعرضًا، وذاع فيها عزم جمال الدين على إصلاح إيران، فخاف ناصر الدين شاه عاقبة ذلك، فأنفذ إلى بلدة شاه عبد العظيم خمسماية فارس، قبضوا على جمال الدين وكان مريضًا فحملوه من فراشه على برذون[١]، وساقوه بصورة فظيعة وعليه دور من الحمى، درجة حرارتها أربعين، ولم يسمحوا له باستراحة دقائق، حتى أوصلوه إلى حدود المملكة العثمانية في ولاية البصرة.

فما شاع خبر نفي جمال الدين على تلك الصورة في إيران حتى قامت قيامة محبيه ومريديه، وثاروا في وجه حكومة الشاه حتى كادت الدماء تجري أنهارًا، والثورة تثور، ولكنها خمدت تحت الرماد، لشدة ما خامر الشاه من الخوف على حياته، واتخذه من الحيطة (كل ذلك لم يغن عن الشاه فتيلاً، لأنه بعد مدة قتل بيد رجل من الفرس قال عند طعنه للشاه - يا لثارات جمال الدين).

أما جمال الدين، فمكث في البصرة، حتى عادت إليه صحته، فشَخَصَ[٢] منها إلى لندرا، وبينما هو مع كبار رجال الإنكليز، في حِجَاج[٣] ولِجَاج[٤]، في أحوال مملكة الفرس، وسوء تصرف الشاه ناصر الدين، وإنذار الإنكليز، بسوء عقبي إمدادهم الشاه وإعانته على عَسْفِهِ[٥] في المملكة الفارسية، ورد عليه كتاب

---

(١) بِرْذَوْن: دابة. (م).
(٢) شَخَصَ: ذَهَبَ. (م).
(٣) حِجَاج: أدلة وبراهين. (م).
(٤) لِجَاج: خُصُومة. (م).
(٥) عَسْفِهِ: ظُلْمِه. (م).

من المابين الهمايوني، بواسطة السفير الكبير رستم باشا في لندرا إذ ذاك، أن يقدم إلى الأستانة، فاعتذر بأنه في شاغل وقتي لإصلاح بلاده ولم ينجح رستم باشا بكل ما بذله مع جمال الدين، ليذهب إلى الأستانة، وبعد أيام ورد كتابان، الواحد إلى السفير رستم باشا، والآخر لجمال الدين وفيهما من الثناء والتحريض، ما جعل جمال الدين أن يترك الرفض ويجيب الدعوة.

أما الكتاب إلى رستم باشا فكان فيه من الشدة والإلحاح من جلالة السلطان عبد الحميد، هذه العبارة «لا يقبل جلالته لكم عذرًا إذا ما أقنعتم جمال الدين بالمجيء إلى الأستانة، ليقابله ثم يعود إذا شاء، منتظرين إشعاركم تلغرافيًّا».

فترك لندرا وقدم الأستانة سنة ١٣١٠هـ وأواخر عام ١٨٩٢م.

وصل جمال الدين إلى الأستانة، وكان في انتظاره، الياور السلطاني، الذي كان أوفد من المابين لاستقباله، فسأله أين الصناديق يا حضرة السيد؟ فقال ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب، قال الياور حسنًا دُلَّنِي إذا أمرت على مكانهم، فأشار السيد قائلاً: صناديق الكتب ههنا (وأومأ بيده إلى صدره) وصناديق الثياب هذه (وأشار إلى جبته).

وقد قال لنا أكثر من مرة «كنت أول عهدي بالنفي أستصحب جُبَّة[(١)] ثانية، وسراويل. ولكن لـَمَّا توالى النفي صرت أستثقل الجبة الثانية فأترك التي عَلَيَّ إلى أن تَخْلَق[(٢)]، فأستبدلها بغيرها».

---

(١) جُبَّة: نوع من الثياب. (م).
(٢) تَخْلَق: تَبْلَى. (م).

ما خاطب به السلطان عبد الحميد بشأن الشاه ناصر الدين

ذهب جمال الدين توًّا إلى المابين وحظي بمقابلة جلالة السلطان عبد الحميد فاستقبله أحسن استقبال، وأكثر من الاحتفاء والاحتفال به، وأدناه منه، وأجلسه بقربه، وكان قد أمر بإعداد وتهيئة قصر له في محلة نيشانطاش وسيّره إليه بعربة خاصة.

أما جمال الدين فكان كما سبق ذكره على غاية من الغيظ من ناصر الدين شاه، ناقمًا عليه، وعلى حكومته الاستبدادية يشغل كل مجلس حل فيه، بالطعن الشديد، وأقبح التنديد، فتقدم سفير إيران برسالة خاصة إلى السلطان عبد الحميد، ليردع جمال الدين عن ذلك الطعن، وفي ذات يوم وجمال الدين في حضرة السلطان رغب إليه بلزوم كف لسانه عن الشاه، وأن يتناسى ما مضى «بعبارة غاية في اللطف وكمال الدعة» وكان في يد جمال الدين سبحة، فجمعها لكفه وقال بصوت جهوري:

«امتثالاً لإشارة أمير المؤمنين، فإني من الآن قد عفوت عن الشاه ناصر الدين».

فأعظم الحاضرون هذا القول، في هذه اللهجة، ولكن جمال الدين لم يبال بإعظامهم، ولا بما تقوَّلوه، لاعتقاده أنه يحق له أن يعفو، وأنه قد عفا عن الشاه.

خرج جمال الدين على عادته من حضرة السلطان إلى حجرة رئيس القرناء، فقال له بلطف: يا حضرة السيد، إن إجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل، واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة، وأنت تلعب في السبحة في حضرته.

فقال جمال الدين: «سبحان الله، إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه، وليس من يعترضه منهم، أفلا يكون لجمال الدين حق أن يلعب في سبحته كيف يشاء!».

أما رئيس القرناء فترك حجرته مهرولاً خائفًا يترقب من هذا الكلام بهذه اللهجة، أن يوشى به إلى السلطان.

أما الإكرام لجمال الدين والاحتفاء به، والإقبال عليه، من قبل جلالة السلطان عبد الحميد فكان عظيمًا، وقد أكثر من الاجتماع به إثر وصوله ساعات في كل يوم وليلة، فلخص تلك الاجتماعات، وما دار فيها من الأحاديث بقوله: «إن السلطان عبد الحميد، لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء، ودهاء، وسياسة خصوصًا في تسخير جليسه».

ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب ويخرج المُنَاوِئ[١] له، من حضرته راضيًا عنه، وعن سيرته، وسيره، مقتنعًا بحجته، سواء في ذلك، الملك، والأمير، والوزير، والسفير، ولكن يا للأسف أن عيب الكبير كبير، والجبن من أكبر عيوب الملوك.

ثم قال: «رأيت من السلطان ارتياحًا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري، وأن الإسلام أول من عمل به في سلطانه (أي الحكم الشوروي وذلك عملاً بحكم النص – وأمرهم شورى ....».

قال: «ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية، ومَرَامِي[٢] الدول الغربية، وهو مُعِدّ لكل هُوَّة تطرأ على الملك، مخرجًا وسلمًا».

وأعظم ما أدهشني – ما أعده من خفي الوسائل، وأمضى العوامل، كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية، ويريها عيانًا محسوسًا – أن تجزئة السلطنة العثمانية، لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوروبية بأسرها.

وهكذا كانت يقظته لدول البلقان الصغيرة التي أحدثتها أوروبا، أُحْبُولَة[٣] لتُضَعْضِع[٤] بها السلطنة العثمانية، وتَتَذَرَّع[٥] بها للتدخل في الشؤون لتقتطع من

(١) المُنَاوئ: المُعَادِي. (م).
(٢) مَرَامِي: مَقَاصِد. (م).
(٣) أُحْبُولة: مَصْيَدة. (م).
(٤) لتُضَعْضِع: لتُخْضِع. (م).
(٥) تَتَذَرَّع: تَتوسَّل. (م).

أجزاء المملكة، جزءًا بعد آخر، وكلما حاولت أوروبا أن تجمع كلمة دول البلقان، للخروج على الدولة بحرب، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه، وتفريق ما جمعوه من كلمةٍ وكَيْد.

فالبلغار مع شدة شَكِيمَتِهم(١)، ودهاء أميرهم البرنس فرديناند، رضخ طائعًا لأمر عبد الحميد، ولبس الشعار العثماني (الطربوش) وافتخر برتبة المشيرية، وانتظم مع مشيري الدولة في حفلة صلاة الجمعة «السلاملك».

أما أمير جبل الأسود نقولاً، فكان أمره مع السلطان عبد الحميد كولد لا يرى الفرج إلا من أبيه.

كان كلما شكا قلة ذات اليد، وطلب كفالة على استقراض زهيد، يرسله له دون عوض ولا سند.

أكثر جهاز ابنته التي زفها على ولي عهد إيطاليا، كان من جيب السلطان عبد الحميد، وهكذا بقية دول البلقان مع ذلك السلطان العظيم الشأن.

ضاقت أوروبا ذرعًا بسياسة السلطان عبد الحميد، وحَيْطَتِه(٢)، ويئست من أكثر دول البلقان، فحولت كيدها بدَسّ الدَّسائس(٣)، وصرفت همتها بالاستغوَاء(٤)

---

(١) شَكِيمَتِهم: أَنَفَتْهُم وقوة نفوسهم. (م).
(٢) حَيْطَته: حَذَرِه وَاحْتِيَاطِه. (م).
(٣) دَسّ الدَّسَائس: تدبير المكائد. (م).
(٤) بالاستغواء: بالإضلال والإغراء بالفساد. (م).

إلى أخف الدويلات حلومًا وأكثرهم غرورًا وطيشًا، وهي دولة «اليونان» فقد بدأت تتحرش بالدولة العثمانية، لتتدهور بالحرب مع السلطان عبد الحميد(١).

قال جمال الدين:

«أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره، وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبا، وحسن نواياه، واستعداده للنهوض بالدولة (الذي فيه نهضة المسلمين عمومًا) فقد دفعني إلى مد يدي له، فبايعته بالخلافة والملك عالمًا

---

(١) بعد أن نظر جمال الدين بعين البصيرة، ووقف على جريان السياسة وما هنالك من الدسائس، جزم بوقوع الحرب اليونانية العثمانية، وقد حصل ذلك، وجمال الدين على فراش المرض، وحصلت النتيجة التي كان ينتظرها من تلك الحرب، وأن أوروبا وما تعمله من المكايد مع السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية ستكون نتيجته - رد الكيد في النحر - هذا ما كان من اليونان وما أمدتها به أوروبا من المدد وما أسعفوها به من المال والعدد، فقد ذهب سدى، إذ لم يمض على الحرب إلا شهران أو أكثر حتى اكتسحت جنود السلطان عبد الحميد سهول، ووهاد، وجبال. ومعاقل «تساليا» و«لاريسا» وفرت طيور أووز اليونان من عقبان الجيش العثماني. فاستجار اليونان بالقيصر إذ ذاك، أن ينقذ آثينا بتوقيف الحرب فاستحقوا خطاب الشاعر لهم:

فَمَـا الحَـربُ بِالأَمْـرِ الّـذِي تَحْسَبُونَه ... هُوَيْنَا إذا اسْتَهْوَت عُقُولَكُم الخَمْرُ

لقد أجاد السيد توفيق البكري، إذ هنأ السلطان عبد الحميد بظفره هذا حيث قال: «وهي أول قصيدة جاءت للأستانة تهنئة بالنصر»:

أمـا ويَمـين اللهِ حلفـة مُقْسِـم ... لَقَد قُمْتَ بـالإسْـلاَم عن كُـلِّ مُسْلِم
ولَـوْلاَكَ بَعْـدَ اللهِ أَمْسَـت دِيَـارُه ... بـأَيْـدِي الأَعَـادِي مِـثْـلَ نَـهْـبٍ مُقَسَّم
لَقَـد سَـرَّ هذا النَّصْـر قَبْرًا بِطِيبَة ... وبَـيْـتًـا ثَـوَى بَـيْـنَ الحَـطِـيمِ وزَمْـزَمَ

ومنها

أَمَـالُ «بلاريسـا» عُرُوش عِـدَاتِـه ... وأَشْـرقَ مِـنْ فَرْسَالَةِ الأَرْضِ بِالدَّم
يَسُـود جِثِـيّ كالأَكَـامِ دَوَافِـعٍ ... بِـحُـمْـرٍ كَـأَشْـبَـاه الـصَّـوَاعِـق رجم

علم اليقين، أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شِرَاك[١] أوروبا، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزأتها، وفي الأخير ازْدِرَادِها[٢]، واحدة بعد الأخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومي، وانْضِوَاء[٣] تحت راية الخليفة الأعظم».

بقي السلطان مستمرًّا على إقباله وإكرامه لجمال الدين، والدسائس والمفاسد لا تؤثر شيئًا، حتى خفّ جمال الدين يومًا وطلب من السلطان لأحد الإخوان المصريين الموجودين في الأستانة (ممن كان يتردد على السيد) رتبة وزيادة راتب، فوعده السلطان بإمضاء ذلك فأتى جمال الدين وبشر الرجل بحصول مطلبه.

مضت أيام ولم تصدر الإرادة السنية بما طلبه، فكتب للسلطان يذكّره ويستنجزه وعده.

ولكن عبثًا انتظر، فَاحْتَدَمَ[٤] جمال الدين غيظًا وأكبر الأمر، وطلب خطًّا أن يؤذن له بِالْمُثُول[٥] (هذه أول مرة طلب بها الإذن للمقابلة) إذ كان السلطان هو الذي يدعو جمال الدين إليه.

---

(١) شِرَاك: مَكَائِد. (م).
(٢) ازدِرَادِها: التِهَامِهَا. (م).
(٣) انْضِوَاء: انْضِمَام. (م).
(٤) احْتَدَم: اشْتَعَل. (م).
(٥) بالمُثُول: بالقيام بين يديه للتحقيق أو غيره. (م).

فما وصل الطلب بالاستئذان حتى أسرع الحاجب (القرنا) يدعو السيد للحضور، فسار وهو يكاد يَتَميَّز من الغيظ[١]، وخشينا سوء العاقبة، من تهور جمال الدين مع السلطان لمطلب تافه.

دخل على السلطان فاستقبله حسب عادته، بوجه طلق بشوش، وجمال الدين بوجه عبوس قَمْطَرِير[٢].

فاستجوبه السلطان قائلاً: «خيرًا إن شاء الله! ماذا حدث مع حضرة السيد؟

قال: «لا شيء إنما أتيت لأستميح جلالتك أن تقيلني من بيعتي لك لأني رجعت عنها».

فانتفض السلطان واهتز لهذا النبأ وقال: «يا سيد! هل افتكرت بما تقول»؟

قال: «نعم بايعتك بالخلافة. والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد بيد جلالتك الحل والعقد، وبإمكانك أن لا تعد، وإذا وعدت وجب عليك الوفاء، وقد رجوتك بالأمر الفلاني ووعدت بأنك تُمضِيه[٣] ولم تفعل».

---

(١) يتَمَيَّز من الغيظ: يَتَقطَّع. (م).
(٢) قَمْطَرِير: غليظ. (م).
(٣) تُمْضِيه: تُنَفِّذه. (م).

عند ذلك سكن غيظ السلطان، وبهت برهة مطرقًا يهز برأسه، يمينًا وشمالاً، ثم قال: سبحان الله يا حضرة السيد، إن أمرًا طفيفًا مثل هذا، يحملك أن تهجم على نقض بيعتي لأجله - أما كان يحسن بفضلك، أن تلتمس لي عذرًا بكثرة مشاغل السلطنة وتذكرني قبل نقض البيعة - سامحك الله وأحسن جزاءك.

ثم أصدر إرادته حالاً بما طلب جمال الدين وآنسه كثيرًا وباسطه.

قال جمال الدين: «الحق يقال أنني شعرت بتسرعي، وعرفت خطاي كما أنني عرفت للرجل كبير فضله وسعة صدره».

وعند خروجه تقدم الحاجب من جمال الدين، وناوله كيسًا من المُخْمَل(١) الأحمر، فيه دنانير، فتردد جمال الدين وقال: «يا حضرة البيك، إن نعم السلطان من قصر وفرش، وخدم وحشم، ومركبة لم تترك مجالاً لمثل هذا المال».

قال القرين «يا حضرة السيد، عطاء السلطان لا يرده إنسان».

فأتانا جمال الدين وبيده الكيس وقص علينا ما جرى، وقال: «عِدّ هذه الدنانير يا شيخ بني مخزوم» فإذا هي خمسماية ذهب عثماني، قال: ماذا نصنع بها؟ قلت: جُبَّتان، والباقي ترصده للسيغار.

---

(١) المُخْمَل: القطيفة. (م).

قال: لما ذكرت راتبًا شهريًّا، ولا ينبغي أن نهتم بالأمر كثيرًا، سوف يظهر الأكفاء لهذه الدنانير فتوزع عليهم. وفي الحقيقة لم يمض شهر حتى وزع المال على أهل الفضل والأدب المُعْوَزِين(١).

هكذا دام إقبال السلطان عبد الحميد على جمال الدين، وهو لا يدخر نصحًا وتنويهًا بالخائنين، والسلطان يعلم من خيانتهم أكثر منه، طالما شكا له أعمالهم، حتى قال يومًا: يا جلالة السلطان، مَلَلْت من تَعَاطِينَا(٢) الشكاية - ومن غيرك صاحب الأمر؟

خذ بحزم جدك محمود، واقصِ الخائنين من خاصتك (الذين يبعدون عن بلاطك، حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات، وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة) خَفِّف الحُجَّاب عنك، واظهر للملأ ظهورًا، يقطع من الخائنين الظهور، واعتقد أن نعم الحارس الأجل ﴿**فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[الأعراف/ ٣٤].

قال: عند ذلك تنفس السلطان الصُّعَدَاء(٣) وقال: «ذكرتني في عهد جدي محمود، وما أبعد الفرق بين محيطي ومحيطه، بين حالة أوروبا في زمانه، وحالتها اليوم، بين رعيته والرعية اليوم».

---

(١) المُعَوزين: المُحَتَاجين. (م).
(٢) تَعَاطِينَا: تَنَاوُلنا للشيء مرة بعد مرة. (م).
(٣) الصُّعَداء: نَفَس طويل يريح النَّفْس من الهم والتعب. (م).

كان الفساد في عصره، منحصرًا في فيئة العساكر (الانكشارية) (يكي جري) فطهرها بالسيف واستبدلها بخير منها، وكان المجموع صالحًا، بعكس ما أنا فيه يا جمال الدين.

ما استبدلت وزيرًا بآخر إلاّ ورأيت من مساوي الخلف، ما أَسِفت معه على السَّلَف - كلما دخلت أمة لعنت أختها - ولا مناص من الصبر، وسأفعل إن شاء الله على التدريج (وكان أمر الله مفعولا).

كلفتك يا حضرة السيد، أن تقبل مشيخة الإسلام فتصلحها، فأبيت واعتذرت، إذ طلبت أن تعمل عملاً أساسيًّا، فتغير معه الشكل الحاضر، وهذا مما لا يسمح به الزمن مع غوائله، فعذرتك بعدم القبول، فاعذرني إذا لم أقدم على التغيير بسرعة، لا تتناسب مع الزمان والمكان».

ولابد من كارثة تحدث فتشغل أوروبا عنَّا، ونغتنم بها فرصة نصلح فيها أمرنا، ونلم شَعَثَنا[١] إن شاء الله.

في الحقيقة أن جمال الدين، لم يقبل ما كلفه جلالة السلطان به من الوظائف والرتب والنياشين، معتذرًا بقوله:

---

(١) شَعَثَنا: شَتَاتنا. (م).

«إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذا راتب، بل بصحيح الإرشاد والتعليم ورتبته ما يحسن من العلوم، مع حسن العمل بالعلم».

أما ما دار من الأحاديث المهمة بين جلالة السلطان وجمال الدين فستأتي في فصول هذا الكتاب.

مكث جمال الدين في الأستانة، زهاء أربعة أعوام، لم تمر منها دقيقة، إلا وأفاد فيها وأرشد، ووعظ، وحذر، وأنذر، وأدى الأمانة حقها، حتى داهمه داء السرطان في فكه الأسفل، وعملت له ثلاث عمليات جراحية، بيد أشهر الأطباء ولم تنجح، فمات رحمه الله في ٧ شوال سنة ١٣١٤هـ/٩ مارس ١٨٩٧م.

نعم كان لفقد جمال الدين في الأستانة رنة حزن وأسف في قلب كل فاضل، وقد مشى في جنازته العلماء، والوزراء، والأكابر، والأفاضل، ودفن في مقبرة في محلة ماشقة[(١)].

وقد رثاه شقيقي المرحوم مصطفى المخزومي بهذه الأبيات ارتجالاً:

---

(١) ومحلة «ماشقة» هذه هي في آخر نشانطاش وفيها قشلاقها المشهور (قشله) وفي أول المنحدر لمحلة «بشكطاش» وقد بلغني أخيرًا أن الفاضل الأميركي الشهير المستر كراين قد عمر الضريح ودفع أكلاف القبر البالغة على ما يقال عشرة آلاف دولار. هكذا تكون الهمم وعلى نسبتها يكون الألم لفقدها منا نحن أهل الشرق إذ لسنا للأحياء من علمائنا وحكمائنا، ولا للأموات منهم.

جَمَــالُ الدِّيــن أَرْدَتُــه المَنُــون ... فـعَـمّ الخَـطْـبُ فـالـدُّنـيَـا أَنِــينُ
إِمَــــامٌ بالعُـــــلُوم وَلاَ خِـــلاَف ... وَفِي شَــرْعِ الأَمِــينِ هـو الأَمِــينُ
هو العِـــلْمُ الذِّي عَمُـــرت بِذِكْـرَى ... فَـضَـائِـلـه الـمحَـافِـلُ والحُـصُـونُ
حَفِيــــدُ مُحَمَّـــــدٍ وكَفَــاه فَخْــرًا ... وهَــلْ بَـعْـدَ الـكِـتَـاب يُــرَادُ دِيـنُ
عَلَـــى خَيْـــرِ الخَلاَئِـــق مِــن آلِه ... تَحِـيَّــات يَـطِـيـبُ بِـهَـا الحَـزِيـنُ
وآلُ البَيــــتِ مَا نُظِمَـــت مَــرَاث ... وَمَــا حَـرَقَـت مَـآقِـيـهَـا العُـيـونُ
تُحِيـــطُ ضَرِيـــحَ مَنْ أَحْيَــا المَعَالِي ... وَمَــن فِي جَـنَّـةِ المَـــوْلَى مَكِـينُ

صفات جمال الدين، ومذهبه، وآماله ومقاصده ومناقبه، وأخلاقه، ومنزلته من العلم

«أما صفاته الشخصية» فهو يمثل لناظره عربيًّا محضًا، من أهالي الحرمين، فكأنما قد حُفِظَت له صورة آبائه الأولين، من سكنة الحجاز، ربعة في طوله. وسط في بِنْيَته. قمحي في لونه. عصبي دموي في مزاجه. عظيم الرأس في اعتدال. عريض الجبهة في تناسب. واسع العينين. عظيم الأَحْدَاق[1]. ضخم الوَجَنَات[2]. رحب الصدر جليل في النظر. هَشّ بَشّ[3] عند اللقاء، قد وَفَّاه الله من كمال خَلْقِه ما ينطبق على كمال خُلُقِه. نافذ اللَّحْظ[4] جذاب النظر. مع قصر فيه فإذا قرأ أدنى الكتاب من عينيه، ولكنه لم يستعمل النظارات. خفيف العَارِضَين[5]. مسترسل الشعر، يَتَسَرْوَل[6] جبة سوداء تنطبق على الكاحلين، وعمامة صغيرة بيضاء.

---

(١) الأَحْدَاق: جمع حَدَقة، وهي سواد مستدير وسط العين. (م).
(٢) الوَجَنَات: الخدود. (م).
(٣) هَشّ بَشّ: فَرِح مسرور. (م).
(٤) نَافِذ اللَّحظ: عميق النظر. (م).
(٥) خَفِيف العَارِضين: قليل شعر الوجه. (م).
(٦) يَتَسَرْوَل: يلبس لِبَاسًا يغطي السُّرَّة والركبتين وما بينهما. (م).

أما مذهبه فحنيفي – حنفي المذهب، وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلدًا كما سبق القول لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية. شديد الحرص والمثابرة على أداء الفرائض في مذهبه، محافظًا على أصوله وفروعه. أما حَمِيَّتُه(١) الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد، يكاد يلتهب غيرة على حكمة الدين ووقاية القائمين بها بحق والأخذ بناصرهم.

«أما آماله ومقاصده» – فيصح القول بأنها انحصرت في مطلب رئيسي، وإليه وَجَّه كُلِّيَته(٢)، وصرف أفكاره، وأخذ على نفسه السعي مدة حياته. ولا نغالي إذا قلنا إن كل ما أصابه من البلاء إنما أصابه في سبيله، وهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الأمة بالأمم الراقية، والدولة بالدول القوية، وحلّ العقول من قيود الأوهام، وتوحيد وجهة الشرقيين فيعود لهم مجدهم، وله حملات هائلة على سياسة بريطانيا العظمى في الأقطار الشرقية. وفي هذا المطلب والمسعى من قصد وآمال، قد انقطع جمال الدين عن المألوف في العالم، فلم يتخذ زوجة، ولا التمس كسبًا.

نعم، إنه لم يتوفق إلى كل ما أراده، ولكنه بث في نفوس الأصدقاء والمريدين روحًا حية، وبذر بذورًا طيبة، انتفع منها الشرق في عاجل ثمراتها، ولسوف ينتفع بالآجل من الغرس إن شاء الله.

---

(١) حَمِيَّته: غَضَبه وأَنَفَتُه. (م).
(٢) كُلِّيَته: أَجْمَعُه. (م).

«مناقبه» – كانت مجالسه لا تخلو من الفوائد العلمية أيًّا كانت، بعيدة من اللّغْو[١]، منزهة عن اللهو، كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم، ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم، ولا يَسْتَنْكِف[٢] من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته تَزَلُّفًا[٣]. وكان ذا عَارِضَة[٤] وبلاغة لا يتكلم إلا اللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية، وإذا آنس من سامعه التباسًا بسط مراده بعبارة أوضح، فإذا كان السامع عاميًّا تنازل إلى مخاطبته باللغة العامة، خطيبًا مِصْقَعًا[٥] لم يقم في الشرق أخطب منه، قليل المزاح، رزينًا، كتومًا لمن استكتمه. كان قانتًا، قليل الطعام لا يتناوله إلاَّ مرة في النهار، ويَعْتَاض[٦] عما يفوته من ذلك بالشاي فيشرب منه مرارًا في اليوم. يدخن نوعًا من السيكار الإفرنجي الجيد. ولشدة ولعه في التدخين وعنايته في انتقاء نوع السيغار لم يكن يركن إلى أحد من خدمه في ابتياعه، فيبتاعه هو بنفسه (قال طبيبه الخاص: إن شدة ولع جمال الدين بالسيغار الإفرنجي وكثرة شربه للشاي وتناوله الطعام مالحًا، كان من مسببات السرطان، ولا أدري مبلغ هذا القول من الصحة).

(١) اللَّغْو: الكلام التافه. (م).
(٢) يَسْتَنْكِف: يمتنع. (م).
(٣) تَزَلُّفًا: نفاقًا. (م).
(٤) عَارِضَة: فصاحة. (م).
(٥) مِصْقَعًا: بليغًا متفننًا في القول. (م).
(٦) يَعْتَاض: يُعَوَّض عما فقد. (م).

«أخلاقه» - أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته. حر الضمير، صادق اللهجة، عفيف النفس، رقيق الجانب، وديع مع حِلْم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمسّ شرفه أو دينه، فينقلب الحِلْم إلى غضب تنقض منه الشهب فبينما هو حليم أَوَّاب[١]، إذا هو أسد وَثَّاب كريم يبذل ما بيده، قوي الاعتماد على الله لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر. عظيم الأمانة. سهل لمن لاَ يَنَه. صعب على من خاشنه. طموح إلى مقصده السياسي الذي سبق ذكره إذا لاحت له بارقة منه، تعجَّل السير بالوصول إليه (وكثيرًا ما كان التعجل علة الحرمان). قليل الحرص على الدنيا. بعيد عن الغرور بزخارفها. ولوع بعظائم الأمور مُعْرِض عن صغارها. ثابت الجَأش[٢]. شجاع، مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه. قد يُسَاق إلى القتل فيسير إليه سير الشجاع إلى الظَّفَر[٣].

إلا أنه حديد المزاج وكثيرًا ما هدمت الحِدَّة ما رفعته الفطنة، ولكنه في آخر سني حياته صار في رسوخ الأَطْوَاد[٤].

فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزًّا أمنع، من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر، وبالجملة ففضله كعلمه، والكمال لله وحده.

(١) أَوَّاب: كثير الرجوع إلى الله. (م).
(٢) ثَابت الجَأش: ثَابت القلب. (م).
(٣) الظَّفر: الغَلَب. (م).
(٤) الأَطْوَاد: الجبال. (م).

«علومه» – أما منزلته من العلم وغزارة المعارف، فليس يحدها بليغ، إلا بنوع من الإشارة إليها. لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خُلِق له. وله قوة على حل ما يَعْضُل[١] منها، كأنه سلطان شديد البطش، فنظرة منه تفكك عقدها، كل موضوع يُلْقَى إليه ويدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتي على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه فتظهر المستور منه.

إذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له في باب التصور والخيال قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع. له لَسَن[٢] في الجدل، وحِذْق[٣] في صناعة الحجة، لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه، وكفاك شاهدًا على ذلك أنه ما خَاصَم[٤] أحدًا إلا خَصَمَه[٥]، ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك، بعد ما أقر له الشرقيون، وبالجملة فإني لو قلت أن ما آتاه الله من قوة الذهن، وسعة العقل، ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء، لكنت غير مبالغ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) يَعْضُل: يُسْتَغْلق. (م).
(٢) لَسَن: بيان وفصاحة. (م).
(٣) حِذْق: مهارة. (م).
(٤) خَاصَم: جَادَل. (م).
(٥) خَصَمَه: غَلَبه بالحُجَّة. (م).

أما قوة ذاكرته، فلا أدلّ عليها، من تعلمه اللغة الفرنساوية في أقل من ثلاثة أشهر، حفظ في خلالها شيئًا كثيرًا من مفرداتها، وصار قادرًا على الترجمة منها، وإفادة مراده بها، بلا أستاذ إلا من علمه حروف هجائها بيومين.

واسع الاطلاع في العلوم العقلية، والنقلية، وخصوصًا الفلسفة القديمة فلسفة تاريخ الإسلام، والتمدن الإسلامي، وسائر أحوال الإسلام والمسلمين، كان يعرف اللغات الأفغانية والفارسية، والعربية، والتركية، والفرنساوية جيدًا، مع إلمام باللغتين الإنكليزية والروسية. كثير المطالعة، لم يفته كتاب كتب في آداب الأمم وفلسفة أخلاقهم إلا طَالَعَه.

نعم لم يتوفق إلى كل ما أراد، وقضى ولم يدون إلا رسالة في إبطال مذهب الدهريين، ولكنه بث في النفوس روحًا حية انتفع الشرق وأهله ببعضها، وسوف ينتفع بأجمعها.

وقبل أن نختتم سيرة جمال الدين، نأتي على ما ذكره أدباء العصر ممن عاصره (في مقدمتهم فقيد الأدب أديب بك إسحق) ونقلته مجلة الهلال مع تصرف حيث قال:

قد تمر القرون وتتوالى الأجيال، والناس على ما ساقتهم إليه الحاجة، من شؤون معائشهم، لا يفقهون غَثَّها[١] من سَمِينِهَا[٢]، ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها، حتى تَتَمَخَّض[٣] الطبيعة، فتلد من أبنائها أفرادًا يَمِيطُون عن أسرارها اللِّثام[٤]، فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين- أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم. ومنهم الفلاسفة الطبيعيون، الذين مزقوا أستار الجهل، وكشفوا غوامض الطبيعة، فمهدوا سبل الاختراع والاكتشاف. ومنهم الفلاسفة العقليون، الذين استطلعوا أسرار الحكمة المستترة وراء تلك النواميس، وبينوا ما أودعه الخالق في خليقته، من المواهب العقلية، والمكتسبات الأدبية، ولكن الطبيعة لا تجود بواحد من أولئك الأفراد، إلا كل بضعة أعصر، فيسير الناس على خطواته أجيالاً، حتى إذا كادوا يرجعون إلى غَيِّهِم[٥]، جادت عليهم بآخر، ينفث فيهم روحًا حية، فيهبّون من رقادهم، ويعودون إلى رشدهم، ريثما يأتيهم ثالث.

---

(١) غَثَّها: رَدِيئَهَا. (م).
(٢) سَمِينِهَا: جَيّدها. (م).
(٣) تَتَمَخَّض: تتهيأ للولادة. (م).
(٤) يَمِيطُون عن أسرارها اللِّثام: يكشفون الأمر ويظهرونه. (م).
(٥) غَيِّهم: ضَلاَلِهم. (م).

هكذا كان شأن العالم، من بدء عمرانه، ومن أولئك الفلاسفة، سوقراط وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة الفرس والعرب من علماء المعقول[١] والمنقول[٢] ممن لا نزال نستضيء بنبراسهم.

ولكن لله في خلقه حكمة لا تدركها العقول، فقد ينبغ في بعض الأجيال أفراد، توفرت فيهم قُوَى الفلاسفة، ومواهب رجال الأعمال، فتحيط بهم آفات تحول دون نمو ما يغرسون، فيكمن في الأرض مدفونًا إلى الوقت المرهون.

ولما كان الإنسان لا يقدر العمل إلا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الأرض، جهل الناس حق قدرهم، كما هو الشأن بفيلسوف الشرق وخطيبه، السيد جمال الدين الأفغاني، إذ نشأ قطبًا من أقطاب الفلسفة، وعاش ركنًا من أركان السياسة، ولكنه لم يتم عملاً، ولا أَلَّف كتابًا غير تلك الرسالة. على أن ذلك لا يحطّ من مقامه وقد رأينا أعظم الفلاسفة (سقراط) مات ولم يدون شيئًا من كلامه، ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودوَّنوها، فتوارثتها الأجيال خلفًا عن سلف، فعسى أن لا نُحْرَم، من مريدي الأستاذ جمال الدين، وتلامذته، من يفعل مثل ذلك. انتهى.

بقي علينا، أن نؤدي الإنصاف حقه بالإتيان على كل مناقب السيد جمال الدين، فنرى له وصفًا، لو سكتنا عنه، سُئِلْنَا عن إغفاله، وهو أنه كان في أكثر

(١) المعقول: عِلْم يبحث في ما اختص العقل بإدراكه من المدركات. (م).
(٢) المنقول: ما عُلِم عن طريق الرواية أو السماع كالحديث الشريف ونحوه. (م).

الأمصار، والعواصم يتوسع في إتيان بعض المباحات كالجلوس في المنتزهات العامة، والأماكن المعدة لراحة المسافرين، وتفرج المحزونين، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار. وكان السيد حيثما حل من تلك المجالس والأماكن، يتحول ذلك الموضع إلى حلقة علم، ومذاكرة أدب، وحلقة درس، يستفيد كل من يسرع إليها، من طلاب الفوائد العلمية، والمقدرين لمنزلة السيد.

هذا الوصف الوحيد الذي ربما عَدَّه عليه بعض حاسديه، نقصًا للكمال وأحبوا انتقاص قدره، من هذا الباب، وقد جهلوا أن الله يحب أن تُؤتَى رُخَصُه كما يحب أن تُؤتَى عَزَائِمُه.

وأيّ غَضَاضَة[١] على المؤمن في أن يُفَرِّج بعض هَمِّه بما أباح الله له.

هذا مجمل ما قيل، وما علمناه من سيرة وأحوال السيد جمال الدين الأفغاني، أتينا به، دفعًا لما افتراه عليه الجاهلون لحقيقته، المُتَخَرِّصُون[٢] تارة بمُرُوقِه[٣] من الدين، وأخرى بضعف اليقين. وهذا يكفي على معتقدنا لذوي اللّبِّ أن تقوم منه لهم حجة على صفاء جوهر جمال الدين ولا تترك للشَّائِنِين[٤] أدنى مجال يجولون به على فضله وما الفضل إلا من عند الله والله ذو الفضل العظيم.

(١) غَضَاضَة: عَيْب ومَنْقَصة. (م).
(٢) المتخَرِّصُون: الكَذَّابُون. (م).
(٣) مُرُوقه: خُرُوجه من الدين بإنكار الإيمان. (م).
(٤) للشَّائِنِين: للمُهِينين المُحَقِّرِين. (م).

رأيه في الإسرار والإعلان

يرى المتأمل في أخلاق وصفات جمال الدين، شيئًا من التناقض – فيراه مثلاً كريمًا لحد الإسراف، وفي بعض الأحيان بخيلاً لدرجة التقطير متواضعًا مع الوسط ومَن دونهم مِن الخَلْق لدرجة الذل. متكبرًا على العظماء لحد التجبر كما ذكر، كتومًا لِمَن استكتمه قيامًا بالأمانة. جهريًّا بآرائه وأفكاره الخاصة، حتى تحيرنا في أمر هذه السَّجِيَّة[1] وفي أمر تأويلها.

لأن من لوازم الحكيم والحكمة «الكتمان» على مذهب الجمهور. فلما كوشف في هذا الشأن قال:

«لا أرى في هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتمانه لازمًا، إلا ما كان في علانيته شَيْنًا[2]، ومَعَرَّة[3]».

«ولا يكون الكمال النسبي في البشر إلا متى كثر إعلانهم وقلّ كتمانهم».

(١) السَّجِيَّة: الخُلق أو الصِّفة الطبيعية في الإنسان. (م).
(٢) شَيْنًا: عَيْبًا. (م).
(٣) مَعَرَّة: أَذَى. (م).

«فدولة تكتم عن أمتها كل أمورها لا خير فيها، ولا هي بالدولة الأمينة من أمانتها، وحسن تصرفها».

ورجل يرى كل شيء يقال له، أو يجب أن يقوله سرًّا مكتومًا لا يُرْجَى إلا نفاقه، وما هو بالرجل الرجل، ولا بشبه رجل (ومن أحب فليُعْلِن).

والمحبة هنا على مطلق المعنى، لكل شيء حق، ومستحسن بالفطرة من أقوال وأفعال وصفات وذات.

«فمن أحب الصدق من القول لا يتكتَّم به، ولا يخشى بأسًا من إعلانه».

«وبالعكس إذا أحب الكذب والكاذب، فخليق به، أن لا يعلن ذلك».

«ومن أحب فاعل الخير، لا يرى حرجًا في إعلان حبه له إلخ».

«أما القبيح من كل شيء، والخوض فيه، فلا يسعه إلا التستر والكتمان».

ثم قال:

«وأحسن ما سمعت في وصف المروءة قولهم: أن لا تعمل في السر ما تستحي منه في العلانية».

«وبعد هذا، فمن شاء فليكتم ومن شاء فليُعْلِن».

قلنا إذن أيها الأستاذ الحكيم: من الأشياء ما ليس بالقبيح ولكنه يجب كتمانه بدليل قوله: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

ثم مسألة الحروب، وتدبير أمورها وضرورة كتمان الرأي فيها، أمر ظاهر لزومه.

قال: «أما الحاجة من حيث هي حاجة فهي (ذل) والذل قبيح من حيث هو، وأقل الناس حوائج أكثرهم جهرًا، وأكثرهم حوائج أكثرهم (كتمانًا). دونكم وقوف إسكندر الكبير على (ديوجينوس) وهو في (برميله) وحصر مطلبه، أن لا يحول بينه وبين شمسه».

«أما القول في الحروب فهي عندي من أقبح ما عمله ويعمله الإنسان في الأرض، وهي وحدها أحق الأعمال بالكتمان لفظاعتها، وأجدرها أن لا تظهر لعالم الفعل».

غرض جمال الدين الأسمى في حياته

قال: «أول نظرة نظرتها في الكون وفشلت بها، أنني وضعت الكرة الأرضية بين يدي، وقستها ببعض الأجرام، فرأيت منها ما يكبر الأرض، بمئات الملايين من المرات، ثم تمعنت فيما حوته من الحيوان الناطق (الإنسان) فوجدته لا يتجاوز الألف وخمسماية مليون تقريبًا، وهو مقدار زهيد بالنسبة لسطح الأرض».

«ثم افترضت ذلك الجرم الذي يكبر عن الأرض بمايتي مليون مرة، وأن الرجل هناك يعيش ألف سنة، وأن ذلك الرجل صاحب أراض واسعة فيه، فتخيل لي أنه يملك من الأراضي ما مساحتها مساحة الكرة الأرضية، وأن أولاد وأحفاد أحفاده، من الممكن أن يبلغ عددهم، إذا ازدوج بمئات من النساء مع طول العمر عدد أهل الأرض هذه، أو ما يزيد. فإذا صح مع هذا الخيال، أن تكون الأرض برمتها مِلْكًا لرجل، في قرية من جِرْم[1] المريخ مثلاً، ونسله عدد أهل الأرض، هل يكون بين أهل تلك القرية الذين هم أبناء رجل واحد، مثل ما هم عليه أهل هذه الكرة من الاختلافات؟!

---

(١) جِرْم: كوكب. (م).

أجابني الخيال: كلا، بل يكون كل أهل القرية آمنون مطمئنون، لا تحاسد بينهم ولا هم يحزنون، يغرسون ويزرعون، ويجنون فيأكلون.

لا يعرفون للحرب معنى، إذ لا ملك عليهم وليس بينهم أُولِي مطامع. ملك شاسع واسع وخيرات مما يشتهون. يعبدون مع أبيهم، صاحب القرية إلهًا واحدًا، خالق الكل ومبدع الكائنات».

قال: «ثم رجعت لأهل جرم الأرض، وبحثت في أهم ما فيه يختلفون فوجدته (الدين) فأخذت الأديان الثلاثة، وبحثت فيها بحثًا دقيقًا مجردًا عن كل تقليد، منصرفًا عن كل تَقَيُّد، مطلقًا للعقل سراحه.

فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان، أن الأديان الثلاثة، الموسوية والعيسوية والمحمدية، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية.

وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق، استكملته الثانية.

وإذا تقادم العهد على الخلق، وتمادوا في الطغيان، أو ساءت الكهان فهم النَّامُوس(١)، أو أنقصوا من جوهره، أتاهم رسول بأَرْفَاد(٢) وتأييد، فأكمل لهم ما أنقصوه، وأتم بذاته ما أهملوه».

(١) النَّامُوس: القانون أو الشريعة. (م).
(٢) بأَرْفَاد: بعَطَاء وصِلَة. (م).

وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير، أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها، وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطى نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة.

قال: وأخذت أضع لنظريتي هذه خططًا، وأخطّ أسطرًا، وأُحَبر[١] رسائل للدعوة، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب، ولا تعمقت في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد، وتفرقهم فرقًا، وشيعًا، وطوائف.

ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان، تلك الهُوَّات[٢] العميقة، وأولئك المَرَازِبَة[٣] الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة حانوت، وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة، ورأس مال تلك التجارات ما أحدثوه من الاختلافات الدينية، والطائفية، والمذهبية، على حد قول الشاعر:

قَدْ يَفْتَح المَرْء حَانُوتًا لِمَتْجَرِه ... وقَدْ فتحت لَكَ الحَانُوت في الدِّين
صَيَّرت دِينَك شَاهِينًا تَصِيدُ بِه ... ولَيْسَ تَفْلَح أَصْحَابُ الشَّوَاهِين

«علمت أن أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة، ونبذ الاختلاف، وإنارة أفكار الخلق، بلزوم الائتلاف، رجوعًا إلى أصول الدين الحقة - فذلك الرجل -

(١) أُحَبِّر: أُحَسِّن. (م).
(٢) الهُوَّات: المسافات البعيدة، جمع الهوَّة. (م).
(٣) المَرَازِبَة: الرُّؤسَاء. (م).

هو هو يكون عندهم قاطع أرزاق المتَّجرين في الدين، وهو هو في عُرْفِهِم، الكافر، الجاحد، المَارِق[١]، المُخَرْدِق[٢]، المُهَرْطِق[٣]، المفرق. إلخ».

ولما انتهى بي العلم إلى ذلك الحد، انقلبت أفراحي بالخيال أَتْرَاحًا[٤]، ورجعت عن نظريتي، والفشل ملء إِهَابِي[٥] وجبتي.

ثم جمعت ما تفرق من الفكر، ولممت شَعَث[٦] التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله، فاستوقفتني الأفغان، وهي أول أرض مَسّ جسمي ترابها، ثم الهند وفيها تثقف عقلي، فإيران بحكم الجوار والروابط وإليها كنت صرفت بعض همتي، فجزيرة العرب، من حجاز مهبط الوحي، ومشرق أنوار الحضارة، ومن يمن وتبابعتها، وأَقْيَال[٧] حمِيَر فيها، ونجد، وعراق، وبغداد وهارونها، ومأمونها، والشام ودهات الأمويين فيها، والأندلس وحمراؤها، وهكذا كل صُقْع[٨] ودولة من دول الإسلام في الشرق وما آل إليه أمرهم فيه اليوم.

«فالشرق الشرق! وقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه، وتحري دوائه، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه داء انقسام

(١) المَارِق: الخارج على الدين. (م).
(٢) المُخَرْدق: كلمة فارسية معربة معناها المُمَزِّق. (م).
(٣) المُهَرْطِق: المتزندق أو من يتبع الديانات الوثنية. (م).
(٤) أَتْرَاحًا: أَحْزَانًا. (م).
(٥) إِهَابِي: جِلْدِي، والمراد أنه اشتد ضيقه ممَّا أصيب به من فشل. (م).
(٦) شَعَث: تَفَرُّق. (م).
(٧) أَقْيَال: ملوك حِمْيَر، جمع قَيْل. (م).
(٨) صُقْع: ناحية. (م).

أهليه وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا، ولا تقوم على هذا القوم قائمة».

نعم عرف جمال الدين بغرضه، وسعيه الحثيث، لجمع شتات أهل الشرق، وإيقاظ الهمم من أهله، والإشراف بهم على الخطر الغربي، المُحْدِق[1] بكيانهم، والأخذ بخناقهم، ليعملوا على جمع كلمتهم، ويأخذ كل ملك، أو أمير في الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه، وتحصينه بالحكم الشوري الدستوري، وتمكينه بما يربط الأقرب فالأقرب، ويقويه بالتحالف والاتحاد حتى يرجع الكل، إلى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى.

هذا مختصر مرتئاه، وكان لا يقنط من الوصول إليه، بدليل سعيه المتواصل، وتحمله أنواع المكاره، والمصائب، والنوائب، في سبيل ذلك المطلب.

نعم كان يراه بعيدًا، ولكن ما كان ليراه مستحيلاً، بل رأيناه يستبشر بكل ضغط، وعسف، وجور، يحصل على الممالك الشرقية من الدول الغربية، ويقول:

«بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة، والأزمة تلد الهمة». وسيأتي تفصيل ذلك في بحثه عن الإنكليز ومصر.

---

(١) المُحْدِق: المحيط. (م).

رأيه في الأحزاب السياسة في الشرق[1]

قال:

الأحزاب السياسية في الشرق نعم الدواء، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء.

نحسن نحن الشرقيون تأليف الأحزاب السياسية، لطلب الحرية، والاستقلال، وكل العالم لنا أصدقاء، ونضطر لتركها والكل لنا أعداء.

والسبب العامل في ذلك عدم التكافؤ في القوى بين الأمة وأحزابها السياسية.

(١) نشرت هذه المقالة في جرائد بيروت.

يقوم الحزب السياسي، بعنصر ضعيف، أو بأفراد قلائل بينهم اللسن[١]، والمحنك[٢]، ويعلنون تفانيهم بخدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد والاستبداد، ويسرون خدمة أنفسهم.

فتتألف على أهل الحزب القلوب، وتجتمع حولهم الكلمة، بسوق الضرورة، وداعي الحاجة، ويستحسن عملهم الغريب، ويهوسهم الدخيل، شأن الحوادث المستجدة، في انقلاب الأمم من طور إلى طور.

فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة، ورفاهًا، وحرية، واستقلالاً، ومساواة، على أوسع شكل، قد لا يمكن حصوله في البعيد الآجل، فضلاً عن القريب العاجل.

فيُوَازِرُون[٣] الحزب بكل معاني الطاعة، والانقياد، والنصرة، والتضحية إلخ.

فإذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة، واستحكم له الأمر، ظهرت هنالك في رؤساء الأحزاب، الأثرة والأنانية، ومد حب الذات عنقه، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة.

---

(١) اللَّسِن: الفصيح البليغ. (م).
(٢) المُحَنَّك: الحكيم الخبير. (م).
(٣) يُوَازِرُون: يُعِينُون. (م).

«فنضطر عندئذ لترك الحزب، وينفرط بالطبيعة عقده، والكل له أعداء».

وضرب لنا عدة أمثلة، منها ما حصل في الأفغان وغيرها وما حصل في حوادث عرابي وحزبه في مصر. إلخ.

ثم قال: لا ينبغي أن يؤخذ من قولي هذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأي والمعنى، فإن الشرق بعد أن أَخْنَى[١] عليه الدهر بكَلْكَلِه[٢]، ومرت عليه زلازل العسف والجور، وأشكال الاستعباد، حتى تأصل في نفوس أبنائه بذور الذل والاستكانة لكل قوي اكتسح بلاده، أن هذا الشرق، وهذا الشرقي لا يلبث طويلاً حتى يهبّ يومًا من رقاده، ويمزق ما تَقَنَّع، وتَسَرْبَل[٣] به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل، فيأخذ في إعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها، المستنكرة لاستعبادها.

على هذا الأساس الاجتماعي التدريجي، لا مانع يمنع الشرقي من الانخراط في الحزب بعد الحزب، ويقبل من المواعيد، ما يصدق وما لا يصدق، حتى يظهر في الشرق ما ظهر في الغرب من أفراد يرون الموت في حياة وطنهم مَغْنَمًا[٤]، والحياة في موت وطنهم مَغْرَمًا[٥].

---

(١) أَخْنَى: مَالَ وأَهْلَك. (م).
(٢) بكَلْكَله: بثقله. (م).
(٣) تَسَرْبَل: لَبِس قميصًا أو غيره. (م).
(٤) مَغْنمًا: فَوْزًا. (م).
(٥) مَغْرَمًا: دَيْنًا. (م).

«حينئذ يكون الشرق قد تَسَنَّى[1] له وجود الحزب الذي هو نعم الدواء من داء استعباده، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أذلة، ويصيرهم، بنعمة الإخاء، والاتحاد، والتعاون أعزة، بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الأمناء، يعملون متضامنين على صالح مجموعهم ونصرة مظلومهم، يأخذون ما لهم من حق، ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون».

(١) تَسَنَّى: تَيَسَّر وتَأتَّى. (م).

رده على من زعم أن حكمته بلسانه أكثر مما هي من قلبه

خالف جمال الدين أهل عصره، بكثير من الصفات، ولو جاراهم وحاكاهم في كل ما هم فيه من المزايا، لما كان له تلك الميزة، ولا نُوِّه بذكره وحُسِب من أكبر حكماء هذا العصر.

كان كما ذكرنا، جهريًّا، متسرعًا ببادرات ذهنه، وآرائه يجهر بها، ولو كان بها كل خطر وضرر.

فزعم الكثيرون من مريديه أن حكمته بلسانه، أكثر مما هي من قلبه، وكاشفه بعضهم بقوله (لا أحد ينكر أن الأستاذ لم يقم نظيره في عصرنا حكيمًا اجتماعيًّا، جاب البلاد، وتحمل جفاء العباد، لمطلبه الشريف، وغرضه الأسمى، ولكن نراه يقول من الحكمة ما لا تنفع قائلها، وتضر في الغالب من قيلت له، فيحمل سامعه على العظائم، ويقتحمها مغرِّرًا بنفسه من غير جدوى، ذلك مما دلنا، على أن حكمته بلسانه أكثر مما هي من قلبه).

فلم يَرُق لجمال الدين هذا القول، وظهرت على وجهه علامات الغيظ وعدم الرضى فقال:

لا ينفع في الشرق لسان، ولا قلب، طالما خلق المالك والمملوك، الأمير والصعلوك، العالم والجاهل، سواء في العالم الصوري.

يرون في الحقيقة مرارة، وفي الوهم حلاوة، وفي الذل الهناء، وفي طلب العلى والعز، الشقاء والعناء.

كل مسلم مريض ودواؤه في القرآن وما على طالب الحكمة إلا أن يتدبر معانيه، ويعمل بأحكامه.

فهل المسلمون اليوم عاملون بما جاءهم به محمد ﷺ أو مقتدون به كما اقتدى به الأصحاب أو التابعون.

أم تقولون أن محمدًا لم يكن حكيمًا حكمته من قلبه تلك الحجة الواهية لِـمُرَضَاء القلوب، وساقطي الهمم، ومتكأ أهل الذل.

يا قوم إن محمدًا جاء نبيًّا مرسلاً، وقبل النبوة كان أَمينًا صادقًا، لم يقنع بأسود بيته، مثل عمه حمزة، وابن عمه علي بن أبي طالب، وأبطال قريش والأنصار. أن يخوضوا وحدهم غمرات الموت في الحروب لمن تحداهم وناهضهم من كفار قريش، بل هو هو، بذاته الكريمة، وقد أفرغ عليه الدروع، وتقلد الصَّارِم

البَتَّار[١]، واقتحم الوَغَى[٢]، فتكسرت ثناياه وتخضب وجهه بالدم، انتصارًا للحق ومقاومة للباطل. علمكم بنفسه وأرشدكم بقوله وفعله.

أين المسلمون اليوم، من شيء من هذا الإقدام وتلك الهمم؟! وأسفاه! بئس الخلف نحن، ونعم السلف من قد سلف. ترتعد فَرَائِصُكُم إذا سمعتم ذكر ما أنتم فيه من غريب الذل، خوفًا من أن تدعوا لنزع نَيْرِه[٣] عنكم، فترجعون إلى بارد القول، وسفيه الرأي، فتطلبون حكمة من قلب لا حكمة من لسان، قتل من كان على هذه الشاكلة من إنسان.

«فندم من تحرش بالسيد وعلم أن قوله الحق».

---

(١) الصَّارم البتَّار: السيف القاطع. (م).
(٢) الوَغَى: الحرب. (م).
(٣) نَيْره: ظُلْمه واستبداده. (م).

رأيه في مصر والمصريين وصورة الحكم الذي يجب أن تحكم فيه مصر خصوصًا والشرق عمومًا

كان جمال الدين محبًّا لمصر وللمصريين، شديد الارتباط بهم، كثير البحث في القضية المصرية، وما آل الأمر من سقوطها بين براثن بريطانيا - ويذكر خطيئات للدولة العثمانية - كان بالإمكان إذ ذاك تجنبها.

ويعد عدم إرسال الدولة جيشًا لتسكين فتنة عرابي من أكبر الهفوات، ومن أعظم الأدلة على سفه السياسة والتفريط.

وكان يقول:

كأن القوة الفرعونية أخذت على الدهر عهدًا أن لا تبرح وادي النيل، فكلما قضى فرعون تقمص بآخر، وكلما انقرضت عائلة فرعونية - ادعت إرثها عائلة، وجاءت ولو من وراء البحار والتصقت بالنسب الفرعوني، ولو بأقل مشابهة من خلق الغطرسة، والتأله على الناس، وكثيرًا ما كان يردد ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف/ ٥٤]... ويقول:

عجيب هو نصيب المنتصر لمصر وللمصريين، إذا مكث بين ظهرانيهم، فموسى خرج منها خائفًا يترقب، متهمًا موشى به من مظلوم نصره على ظالمه، - وفرعون معبود فيها - ويوسف الصديق زجّ في السجن متهمًا وهو لم يأت الفاحشة.

«نعم في النتيجة حصحص الحق وزهق الباطل».

ولسوف تخلص مصر لأهلها إذا هم عملوا بالحزم، وهيئوا ما يلزم من العزم، وما يتطلبه حكم الذات من القُوَى.

ولسوف يفعلون ذلك بعوامل الضغط، والمسك بالخناق، وإذا ما فعلوا واجتمعت الكلمة، وتوحدت الأهواء نحو الغاية حصل البأس.

وإذا لم يضعوا هذا البأس بينهم بسوق التحاسد، أو بفعل الدسائس؛ قل تم الأمر، وفاز القوم ودخلوا في دور الحياة الصحيحة.

لا تحيا مصر، ولا يحيا الشرق بِدُوَلِه وإماراته، إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قويًّا عادلاً[(١)] يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان.

لأن بالقوة المطلقة الاستبداد، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة. وحكم مصر بأهلها، إنما أعني به، الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح. ثم قال:

---

(١) قلنا إن المتداول بين الناس عن لسانك «يحتاج الشرق إلى مستبد عادل» قال هذا من قبيل جمع الأضداد وكيف يجتمع العدل والاستبداد. وخير صفات الحاكم «القوة والعدل» ولا خير بالضعيف العادل كما أنه لا خير في القوي الظالم.

إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب، فأهم هذه الأشياء (الحرية) و(الاستقلال)؛ لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر، والاستقلال كذلك.

بل هاتان النعمتان، إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم، أخذًا بقوة واقتدار، يجبل التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء، أُولِي النفوس الأبية، والهمم العالية.

أما تغيير شكل الحكم المطلق، بالشكل النيابي الشوري، فهو أيسر مطلبًا، وأقرب منالاً، إذ يكفي فيه أحيانًا إرشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه، فيفعله، ويشرك معه أمته ورعيته، ويرى بعد التجربة راحة، وتضامنًا على سلامة ملكه، وعزة بالتفاف طبقات الرعية حول عرشه، بقلوب خالصة مخلصة، وحب صميمي، فيكون للملك الدستوري عظمة الملك.

وعلى نواب الأمة أعباء نوائب المملكة، ودرء المفاسد عنها، والذود عن سلامتها بالأموال والأرواح.

ولكم رأينا من عقلاء الملوك من حكَّم عقله فأرشده إلى استبدال مطلق الملك، بالملك الشوري، فاستراح وأراح.

وهذا هو الشكل من الحكم الذي يصلح لمصر، ولدول وإمارات الإسلام في الشرق.

وبتوضيح وإفصاح:

لا يسلم على الغالب، الشكل الدستوري الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان، ويعظم عليه الأمر، كلما صادمه مجلس الأمة بإرادته، أو غلبه على هواه.

لذلك قلت: (إذا أتاح الله رجلاً قويًّا عادلاً لمصر وللشرق، يحكمه بأهله).

ذلك الرجل إما أن يكون موجودًا أو تأتي به الأمة، فتملكه على شرط الأمانة، والخضوع لقانونها الأساسي، وتتوجه على هذا القسم، وتعلنه له يبقى التاج على رأسه، ما بقي هو محافظًا، أمينًا على صون الدستور، وأنه إذا حَنِث[١] بقَسَمِه وخان دستور الأمة، إما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس.

هذا ما يحسن بالأمة فعله إذا هي خشيت من أمرائها وملوكها عدم الإخلاص لقانونها الأساسي، أو عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستوري قلبًا وقالبًا.

وإلا فالأمير الصالح القريب، أولى من البعيد الغريب.

أما الحكم الجمهوري فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله، وسيأتي بيان ذلك.

(١) حَنِث بقسمه: لم يَبَرّ فيه. (م).

رأيه في الوطن وفلسفته فيه بالنسبة إلى النوع الإنساني واعتقاده أن التفرد بالسلطة وسوق الأمم على هوى الفرد سيزول من العالم

من رأي جمال الدين أن العالم الإنساني، من خصائص هيئته الاجتماعية، أن لا يتيسر للإقليم متى تمصَّر، وتحضَّر، أن يُحْكَم برجل من أهله بغير قهر.

وله على ذلك أدلة ومقدمات نأتي على مجملها.

لما سألناه، لِمَ قال الأستاذ إذا أُتيح للشرق من يحكمه بأهله؟ ولم يقل، إذا أتيح للشرق أو لمصر رجلاً منه، يحكمه بأهله على غير طريقة التفرد بالحكم المطلق؟ قال:

خليق بالإنسان كما أنه نوع واحد أن لا يكون له غير هذه الكرة الأرضية الصغيرة وطنًا - بمعنى أن وحدة النوع، تقتضي وحدة المكان.

فالإنسان طالما لا يمكنه أن يعيش في الماء، فموطنه إذن «اليابسة» ونتيجة هذه المقدمة أن لا يختص ببقعة منها، دون الأخرى لولا أن الحكمة قضت، أن تكون الحواس البشرية، المعروفة خمسًا، وأن يكون للإقليم خواص خمس بها

تميزت الشعوب، والقبائل التي خلقها الله من نفس واحدة، وتقسم المعمور إلى ما يسمونه ممالك وأوطانًا.

أما الخواص فأربع منها تستمد من طبيعة الإقليم، والخامسة تطرأ فتؤثر، وهي «الدين» ويليها «اللسان» و«الأخلاق» و«العوائد» و«الإقليم» وتأثيره على المجموع.

وتحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام ميزة، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم، والذَّود عنه(١)، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم، بل هو غيرهم بمعنى الغَيْرِيَّة(٢) المطلقة.

فمتى تم لقوم من سكان الأرض، أو لأهل إقليم، أو مِصْر تلك الجوامع، أو الخواص الخمس المُمَيِّزة، وحصلت المساواة بها، بين العموم منهم، وتأثروا بمؤثراتها، أصبحت دعوى الكفاءة بينهم ميسورة، وأمر التميز، أو تعين الأفضلية غير ميسور. فإذا أضفنا إلى ذلك الغرور، ورضاء كل إنسان عن نفسه، وتعاميه عن نقص ذاته، وبالإجمال التأله الموجود في البشر كما قال ابن خلدون.

(١) الذَّوْدُ عنه: الدِّفَاع عنه. (م).
(٢) الغَيْرِيَّة: كون كلٍّ من الشيئين خلاف الآخر، مقابل العينية. (م).

علمنا مقدار ما يعانيه الفرد من قوم قد ساوت بينه وبينهم الطبيعة، أن يظفر بالميزة عليهم، ويرضخهم للاعتراف بها بدون توسط القهر والغلب، أو بدون التذرع بالدعوة الدينية للوصول إلى ذلك الغرض.

فإذا امتنع القهر، فلابد من الوفود على القوم (فردًا كان أو جماعة) بشيء غير ما تعودوا عليه من خواصهم الإقليمية، على شرط أن يكون خيرًا مما ألفوه، ليكون الأخذ به أسرع وللبقاء أدعى».

ثم قال لزيادة الإيضاح:

انظروا إلى العالم الغربي ترونه على تقسيماته الحاضرة، واستقلال عناصره بمميزاتهم القومية، لما تساووا على الوجه النسبي بالفضيلة (وأهمها العلم بالواجبات سواء كانت لهم ومعرفة وجوه المطالبة بها أو عليهم والمسارعة لأدائها) انتفى من بين ظهرانيهم أمر التفرد بالسلطة، وسوق الأمة على هوى السلطان.

وسينتفي ما بقي في العالم البشري من هذا النوع من الحكم المطلق على سنن التدريج، ومقتضيات الفطرة.

أصبح الأوروبيون اليوم، والكل في وقت واحد، حاكمًا لنفسه، محكومًا منها بعامل الحكم الشوري، وصارت كل أمة من تلك الأمم في مأمن من أن ترضخها القوى أو المميزات في مجاوريها، فتستهويها للانقياد لها، بالاعتقاد أنها

من طبقة فوق طبقتها، لا بفعل الغلب، ولا بالتشبه والتقليد الأعمى؛ لأن الفرق من حيث الفضائل، وأسباب الرقي نذر يسير، والعمل بما يستحسنه البعض من الآخر غير عسير.

ومختصر القول أن الحكم للعقل والعلم.

ومتى صادفت هاتان القوتان، حمقًا وجهلاً، تغلبتا عليهما.

وهكذا القول في حكم الفرد المطلق، فإنه يكون ويدوم ما دامت الأمة تتخبط في دياجي الجهل.

ومتى فشى العلم في الأمة فأول ما تناهض ذلك الشكل من الحكم وتعمل على التخلص منه. سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

قوله في تأثير فضائل الوفود والفاتحين وضربه المثل في العرب في فتوحاتهم وانتشار لسانهم

قال:

لبيان تأثير الوفود على قوم بأحسن مما ألفوه، وأنه أفعل لوسائل بعد القهر للحكم فيهم، ولترك الأثر بينهم، فيكفي لذلك النظر في ظهور الإسلام وفتوحاته حربًا كان أم صلحًا، وانتشاره في أقل من عصر في أعظم المعمور من الأرض، فقد عم جزيرة العرب، فالشام، فمصر، فالعراقين، فالهند، فأقصى الشرق، حتى فروق الأستانة، وها هو قبر خالد أبي أيوب الأنصاري وجامع القعرية المشهور «بجامع العرب» في محلة «غلطة» من أكبر الشواهد.

نعم إن زحف العرب ورُفُودَهم[1] على البلاد إنما كان لتعميم الدعوة الدينية أولاً، وإلا فأداء الجزية للدخول مع القول في حقيقة المساواة، وللقيام في حفظ كيان المجموع.

وكان من يقبل الإسلام لا إكراه عليه في قبول العادات وتعليم اللسان.

---

(١) رُفُودَهم: عَطَايَاهم وصِلاتهم. (م).

كذلك مَن أدى الجزية فلا إكراه عليه في دينه، وباقي مميزاته، بل يبقى على مألوفه، ومؤثرات إقليمه، وخواصه، ولا خطر على قلب فاتح إسلامي أن يعمم آداب قومه ولسانهم أو أن يتخذ لذلك أقل الوسائل.

ومع ذلك نرى أن كل مَن دان بالإسلام، أو رضي بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر، وارتياح عظيم للتعرب.

والسبب في ذلك، أن وفود العرب حملت معها أخلاقًا فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى المظاهر مثل الأنفة من الكذب، والوفاء بالعهد، ومطلق العدل، وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة، وإغاثة الملهوف، والكرم، والشجاعة وباقي الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة.

وأمر طبيعي ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الأدبية على من لم يتخلق بها.

لأن الإنسان إنما ينفعل بروحه وشعوره، والانتخاب الطبيعي فطري في الحيوان، وأشده ظهورًا ووضوحًا في الإنسان.

لذلك انعطفت قلوب الأمم، على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم، سواء فيه البلاد التي فتحت عَنْوَة[1] ووضعت فيها الحرب أَوْزَارَهَا[2]، أو صلحًا.

---

(١) عَنْوَة: قَسْرًا وغَلَبَة. (م).

(٢) أَوْزَارَها: أَثْقَالَها وآلاَتِها. (م).

وأول مقدمات العادة الاستحسان، ثم المزاولة حتى ترسخ ملكة.

والإعجاب بآداب قوم، باعث على حب التقرب منهم، وأعظم وسائل التقرب التفاهم، فيَتَبَارُون[١] في تعلم اللسان.

هكذا تم للعرب ورسخ لهم في معظم ما فتحوه من الأمصار والبلدان والممالك، آثار أدبية فضلاً عن الآثار العمرانية، من لسان وعادة، وأخلاق ما أمكن استئصالها، بل بقيت رغم أنوف من دال من بعدهم من الدول ومن هيئات الحكومات المختلفة.

فمصر بينما هي هرقلية رومانية، ومقوقسها عامل له فيها، أصبحت في قليل من الزمن إسلامية في الأغلبية، عربية بالصورة المطلقة، في كافة مميزات العرب.

وهكذا القول في سوريا والعراق، وغيرهما بدون أن يبذل في سبيل ذلك التغيير أدنى مسعى، أو يستعمل له أقل الوسائل كما ذكرنا.

نعم إن أكبر حامل، وأفعل عامل، على تَعَرُّب أولئك الأقوام هو الفضائل الأخلاقية، والصفات العالية، التي كانت تأتي بها العرب مع بأسهم وشجاعة أبطالهم.

---

(١) يَتَبَارُون: يتنافسون. (م).

تفسيره لما أشكل على المؤرخ والشاعر التركي ضيا باشا، من عدم ترك الأتراك أثرًا بعد أن توغلوا في أوروبا ولم يكن لهم ما كان للعرب في فتوحاتهم وحجج جمال الدين على ذلك

قال: «جاءني يومًا أديب كبير من أدباء الأتراك وبيده كتيب صغير فيه مفكرات ضيا باشا بخطه، فقرأت ما ترجمته بالحرف:

توغلنا في الفتوحات حتى توسطنا كَبِد[1] أوروبا، ودخلنا (ڤينَّا) واضطررنا للتخلي عنها، وليس لنا ثمة أدنى أثر أدبي أو مادي وهكذا بالاستدلال، سيكون حالنا في بقية تركية أوروبا مثل بلغاريا، والفلاخ والبغدان، والصرب، والجبل الأسود، وغيره من البدان.

إنه ليحزن المؤرخ كلما تكرر قول الشاعر العربي:

إِنَّ آثَارَنَا تَدُلّ عَلَيْنَا فَانظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الآثَارِ

أما العرب ففي كُلِّ ما فتحوه من البلاد، حربًا كان أم صلحًا قد تركوا من الآثار الأدبية والمادية، ما لا يقوى على ملاشاته الأدهار، فالمسلم، أو المسيحي، واليهودي، في مصر، والشام، والعراق، يحافظ كل منهم قبل كل شيء، على نسبته العربية، فيقول (عربي) ثم يذكر جامعته الدينية.

---

(١) كَبِد: وَسَط. (م).

وآثارهم المادية في الأندلس، لا تقلّ عن آثارهم المدنية في باقي الأمصار فهي تنطق بأفصح بيان على مر الدهور أنها حكمت من تلك الأمة.

والأغرب أن التركي، والجركسي، والأرناؤوطي وغيرهم من العناصر يستعرب متى وجد أو سكن في بلاد العرب بأقرب الأوقات، ويمتزج في المجموع حتى تخال أنه (عربي قح).

(وأما في حكمنا فلم نستطع أن نستترك أدنى فئة ممن حكمناهم من الأمم بكمال العدل الإسلامي، والسماح التركي، ولين الجانب) اهـ.

قال جمال الدين:

«لو كان ضيا باشا حيًّا لأزلت له ريبه من حالة قومه الأتراك».

قلنا وكيف ذلك؟ قال:

إن المرحوم ضيا باشا أُشْكِل(١) عليه الأمر، لما اعتقد أن الأتراك قد شابهوا العرب تمامًا، بمعنى أنهم دخلوا في دين الإسلام، وجروا على سننهم بالفتوحات، من حيث العدل ولين الجانب.

ولكن فاته، أن لكل دين لسانًا، ولسان دين الإسلام العربي.

---

(١) أُشْكِل: التبِس. (م).

ولكل لسان آداب، ومن هذه الآداب، تحصل ملكة الأخلاق وعلى حفظها تتكون العصبية.

فالأتراك أهملوا أمرًا عظيمًا، وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه، وأحب أن يعمل بها السلطان سليم، وهي قبول اللسان العربي، لسان الدولة، وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه، ويمشوا على سنن الارتقاء، بعلومه، وآدابه، ومكارم أخلاقه، ومحاسن عوائد أهله.

فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم، بشكل الدين الظاهري فقط، بل بفهم أحكامه، والعمل بآدابه، وذلك ما تم ولا يتم باللسان وهو أهم الأركان.

قامت السلاطين العظام من آل عثمان، بفتوحات جليلة، وعملت خيرات ومبرات جزيلة، وقربوا إليهم من كان في عصرهم من فحول العلماء من المسلمين - وقد تفردوا إذ ذاك بمعرفة اللسان العربي وبعض علومه - وعرف أولئك الفحول قدر اللسان العربي، وغالوا في التقدير حتى أنهم كانوا (على ما قيل) لا يعطون وظيفة علمية إلاّ لمن يحفظ القاموس العربي الفيروز آبادي (وهذا لو صح، غُلُوّ غير معقول) وليس هو من الفائدة في شيء.

بقيت الأتراك في فتوحاتهم على تلك الصورة وفي مجموعهم بداوة صرفة، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة، ولم ينقلوا سواها للبلاد.

نعم إنهم تدينوا بالإسلام على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبد، ولكن على بعد سحيق من فهم معاني القرآن، وآداب اللسان.

والعرب لو كانوا مثلهم، لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثرًا منهم – ولما كان لهم حضارة ولا مدنية، ولَبَقَوْا بداوة محضة، همهم فتح البلاد للاستغلال، وجمع الأموال للرَّفَاهَة[١] والترف، أو البذخ والسرف.

الأمر الذي قضى على الدول التي خلت قبل الإسلام وبعده، التي ما كان ليقضي عليها بسواه.

فالانغماس في السَّفه[٢] والترف، والبذخ والسرف من العوامل الأساسية في حالتي الاضمحلال والانقراض، وأقل نتائجه صرف الهمم عن معالي الأمور، وعدم الاكتراث بما يحتاجه الملك من تعهد بأسباب دوام العمران.

وأشد ما فيه من المخاطر احتقار مطالب الجمهور التي كلما تمادى الملك المُحَجَّب[٣] وعونته المترفين المسرفين في إهمالها والضغط على طالبيها تحتشد الأحقاد في الصدور وتَسْتَحْكِم[٤] منهم النَّفْرَة[٥]، ولا يلبث كل ذلك طويلاً حتى

---

(١) للرَّفاهَة: لسعَة العيش. (م).

(٢) السَّفه: الجَهْل بموضع النفقة. (م).

(٣) المُحَجَّب: الذي جعل بينه وبين الناس ساترًا ومانعًا. (م).

(٤) تَسْتَحْكِم: تَتَمكَّن. (م).

(٥) النَّفْرة: التجافي والبعد. (م).

يظهر في حين لا يرقبه الملك المستبد ولا أعوانه الذين غصبوا حق الأمة وهضموا حقوقهم العامة بصفتهم خاصة.

فالأتراك قد اتفقوا شكلاً مع العرب، والنتيجة من حيث هي نتيجة مؤلمة فواحدة للقومين وللأمتين.

أما فضل العرب بترك الآثار العمرانية والأدبية، فليس له كبير أهمية بالنظر إلى نتائج الأمور ومصيرها كما سيأتي بيانه.

استنتاجه أن ترك الأثر مع التفريط في صون الملك وعدم حفظه أدعى للتأثر وليس فيه شيء من الفخر

قال: إن عدم ترك الأتراك أثرًا بعد أن توغلوا في فتحهم أوروبا، ودخولهم «لـڤيينا» وتخليهم عن تلك الأمصار بدون آثار أدبية أو عمرانية - لا يعد حِطَّة[1] - كما أن بقاء آثار العرب في الأندلس لا يُحْسَب لهم شرفًا، بعد أن استؤصل ظلهم، وزال مُلكهم، وانقرضت دولتهم، بل في معتقدي أنه من أقدس واجبات من استطاع أن يأتي بتلك الآثار، وتجشم لإبرازها وإبداعها تلك المهالك والأخطار والأموال - أن يعد لحفظها في حوزته، وتحت سلطانه ما استطاع من قوة لا أن تَبْقَى أثرًا بعد عين.

والأثر في مثل هذه الحال أدعى للحزن لأنه أفصح من كل بلاغة على التفريط، وأنطق على السفه وعدم الكفاءة من كل حجة وبرهان.

بل أرى أن عدم ترك الأثر على هذا النمط أولى من تركه لعدم التأثر، وإن خالف هذا القياس بعض الأوروبيين.

---

(١) حِطّة: ذِلَّة وهوان. (م).

فالإفرنسيس مثلاً ألف مهرة كتبتهم (شناعات الحرب السبعينية) سنة ١٨٧٠، وصوروا ضعفهم تجاه الألمان، وتدبرهم للأمور، وهفوات قُوَّادهم، وأسباب خذلانهم، وما أتاه عدوهم من الجرائم، والتمثيل - بصورة أفظع من أن يصورها العدو الألماني، فهم يذكرون ذلك ليثأروا ولكن على اهتمام متواصل، لترقّي الأمة، وإعداد ما يستطيعون من قوة.

وأما العرب والترك ففي كل فتوحاتهم، سواء فيه من ترك آثارًا أو لم يترك، فقد تركوا من بعدهم خلفًا من الأبناء يذكرون مجد الفتح ويفتخرون بأعمال آبائهم وأجدادهم! وعن أعدائهم غافلون، وعن واجباتهم لاهون، وإن ذكَّرتهم لا يذكرون، وإن أيقظتهم لا يفيقون، بل هم في غفلتهم راقدون، وعلى القدر كُلّ شيء يحيلون.

ولو عملوا بالقانون الإلهي، وبقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[النجم / ٣٩] لكان أوفر خيرًا للأمة، و(السعي) أدل السُّبل على النجاح، وأحسن ما تُرَبَّى عليه الناشئة.

قوله في تأثير آداب اللسان

قال: أما انتشار اللسان العربي فيما عدا بلادهم، فليس للفاتحين أدنى دخل فيه، ولا اتخذوا له أسبابًا ووسائل، بل إن ما وجد في اللسان العربي من الآداب الباهرة، والحكم والأمثال والمواعظ، ذلك هو الذي أحله من الانتشار هذا المحل.

حتى أن العرب قبل الإسلام وهم في تلك الحالة الجاهلية، والبداوة المحضة، وبعدهم عن كل حضارة، كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك - مثل كسرى أنوشروان - محلاً رفيعًا ويأخذون الجوائز، ويثرون بتجارتهم مع الأعاجم، بآداب لسانهم، وما يجري على ألسنتهم من الحكمة التي تأخذ بمجامع القلب.

هكذا كان الذكاء العربي، الفطري، المتوقد، يناسبه سلاسة اللسان وآدابه.

فكان إذا ظهر بين العرب، حكيم طبيب مثل الحرث بن كلدة مثلاً استطاع بآداب اللسان، وفرط الذكاء أن يُقَارِع[١]، ويُضَارِع[٢] أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدنيته!

وكذلك الشاعر في قبيلته إذا نبغ ولو كان وضيع النَّسَب أجَلَّتْه القبيلة، واعتبرته حامي ذِمَارِها[٣] بأدبه وشعره، وأَغْنَتَه بالمال والماشية.

وأما في الحضارة الإسلامية، وفي دولها، فكثير ممن برع بالأدب فأوصله إلى مرتبة الوزارة، فالإمارة، وأما من أثرى، بأخذ جوائز الخلفاء، والملوك من الأدباء فلا يعدون كثرة.

هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادي، وأما التأثير المعنوي فيكفي أنه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر.

فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير، فحافظت على لسانها محكومة وترقَّبت الفرص، ونهضت بعد دهر فردَّت ملكها وجمعت من ينطق بلسانها إليها، والعامل في ذلك إنما هو اللسان قبل كل ما سواه، ولو فقدوا لسانهم، لفقدوا تاريخهم، ونَسُوا مجدهم، وظلوا في الاستعباد ما شاء الله.

---

(١) يُقَارِع: يَرُدّ الحجة بالحجة. (م).

(٢) يُضَارِع: يشابه. (م).

(٣) ذِمَارِها: ما ينبغي حمايته كالأهل والعِرض. (م).

فيما عرف عن جمال الدين من مزية الإقناع في حالتي السلب والإيجاب والسبب في ذلك

كان جمال الدين من أكابر علماء الكلام، وإمامًا في المنطق، يحب الجدل والحجاج وقد أحاط بضروب السفسطة، ليسلم في جدله من شراكها، قوي الحجة كما ذكرنا، أوتي قوة الإقناع لدرجة يخال الإنسان أنه قادر على الإقناع في حالتي السلب والإيجاب.

والسبب في ذلك هو أن جمال الدين مع حكمته، وسرعة خاطره وتوقد ذكائه، وسعة اختباره للأخلاق البشرية، وكثرة مخالطته الأمم في مختلف الأقاليم، وحصول الملكة له في وجوه المباحث التي كان يطرقها.

فقد أحاط على وجه إجمالي بأخلاق العرب، والترك، والفرس والأوروبيين وعلم أشياء كثيرة عن مرامي القوم وحالاتهم الروحية، وأعظم ما كان يحرص عليه في تتبعاته أن يراقب حسنات كل قوم (ولو لم يحبهم) ويحفظها في ذاكرته، كما يحفظ سيئاتهم وخطيئاتهم.

وهكذا شأنه مع الأفراد حتى مع خادمه، فكان يرقب حركاته وأعماله في كل يوم، فإذا أخذ يذكر حسناته اعتقد السامع أنه الرجل الكامل، ثم إذا أتى على ذكر سيئاته جعله أسفل وألئم خلق الله!

وقد كثر ورود أمثال ذلك في محاضرات جمال الدين ومحادثته وإقناعه مخاطبه في حالتي الاستحسان والاستهجان للشخص الواحد والشيء الواحد حتى توهم البعض أنها من المواهب الخاصة لجمال الدين.

ولما ذكر له ذلك قال:

«ليس في الأمر شيء من المواهب، إذ لكل خط طرفان، ولكل إنسان وجه وقفا، وفيه صفات قبيحة ومزايا طيبة».

«والحكم على الأشخاص والأشياء إنما يختلف باختلاف الزمان والمكان والموقف، ورغبة القائل».

«أمر النبي ﷺ أن يُرْبَط أبو سفيان في خطم الجبل لتمر عليه جيوش الله، فاستحق هذا الإذلال في ذلك الموقف».

ثم في موضعه من قريش وأنه من كبارهم قال بحقه (إن الصيد في جوف الفَرَا[1]).

«ثم لما برز أبو دجانة لقتال كفار قريش، وأخذ يتبع قال ﷺ:

«مِشْيَة يكرهها الله إلا في مثل هذا الموضع».

وهكذا قال (نعم الأدم[2] الخَلّ) تطبيبًا لقلب ذلك الصحابي الفقير، الذي لا يملك سوى الخل، فقدمه طعامًا في دعوة رسول الله، وقال (بئس الأدم الخل) إذ قدمه ذلك الصحابي الموسر.

فكان اختلاف الحكم على الشيء الواحد، لاختلاف الوضع والواضع.

وهكذا يكون الحكم على ما يماثل ما ذكرنا من الأشخاص والأشياء.

ومن صفات جمال الدين أنه كان لا يغالي في المدح ولا يسترسل في الذم والقدح، وله أسلوب كاد أن يكون خاصًا به.

مثال ذلك أنه ذكر في مجلسه رجل من أرباب الصحف المشهورة في مصر، فأوسعه الحاضرون استحسانًا واستهجانًا حتى انتهى الأمر لقول جمال الدين

(١) الفَرَا: بتسهيل الهمز للتخفيف، وهو حمار الوحش، والمراد أن أبا سفيان كحمار الوحش في الصيد. (م).
(٢) الأُدْم: أي شيء يؤكل بالخبز. (م).

ليكون الفصل، فما زاد على أن قال: (هو مثل الهر) ثم سكت فرضي بهذا القول المستحسن والمستهجن، والمادح والقادح[١].

ثم ما مضى وقت طويل حتى أفضى الحديث أيضًا إلى ذكر ذلك الرجل، فأثنى جمال الدين على عِصَامِيَّته[٢]، وإقدامه، وتمنى لو يكون بين المصريين والشرقيين عدة أفراد مثله.

فما وسع من كان حاضرًا في مجلس تمثيله في الهر إلا أن قال: يا أستاذ في الأمس هجوت الرجل واليوم أخذت في مدحه.

فقال بماذا هجوته؟ فذكر عبارة الهر.

قال: نعم قلت ذلك وليس في هذا التشبيه شيء من الهجو، بل يجب أن نكرم الهرة والهر، فالرجل يطوف كالهر ليلتقط الحوادث من منابعها، فيكاشف بها الأمة. ونعم ما اتصف به وما يفعله.

ولقد جرى لجمال الدين بحث وجدل مع كبير من العلماء في قول (ليس في الإمكان أبدع مما كان) فأخذ السيد الوجه السلبي وقال (نعم في الإمكان أبدع مما كان، ها نحن اليوم نعجز بالعين المجردة عن رؤية الأشباح والأجرام البعيدة،

---

(١) القَادِح: الطَّاعن. (م).

(٢) عِصَامِيَّته: اعتماده على نفسه حتى ينال المجد. (م).

ونستعين بالمجاهر والنظارات، فلو كانت عدسات أعيننا أقوى، والانعكاسات النورانية أشد لكان ذلك أبدع مما نحن فيه من ضعف البصر وعدم رؤية البعيد).

فوقف الشيخ وظهر عليه العجز، ولم يستطع لبرهان جمال الدين رَدًّا.

فلما انفض المجلس قال السيد لجلسائه: أخذ الشيخ بالسَّفْسَطة[1] وغلب بها، وكان الغلب له لو قال: إن النظارات إنما فائدتها لرؤية البعيد فقط، وأما إذا استخدمت للقريب فلا يمكن أن يقرأ سطر ولا أن يرى قريب.

وعلى هذا يكون الحق في جانب القول في الخلق (ليس في الإمكان أبدع مما كان).

(١) بالسَّفْسَطة: بالجِدَال والمغالطة. (م).

في تأثير كلامه في مخاطبه وكيف كان يحمل الخامل على العظائم والجبان على الجسارة

أتى رجل من أعاظم أدباء الأتراك وموظفي سفارات الدولة العثمانية إلى منزل جمال الدين، وشكى له حاله، وعدم صرف رواتبه وكثرة التضييق عليه ومؤاخذته بآثاره الأدبية إلى غير ذلك:

فقال له مشجعًا على عادته مع أمثاله:

اعلم أن الدخول من باب الذل لا يثمر غير الذل، ومعشر الشرقيين في الفقر خوف الفقر، وفي الموت خوف الموت.

فاقرع باب السلطان، بمطرقة الاستغناء، وتردى برداء الهمة، وارفع صوتك، واجعل لقدمك موطئًا في بساط الغاصبين من خاصة جلالته، تنل ما ترغب على شرط المواظبة على ذلك (لأن المواظبة والإلحاح أَوْلَى الأمور بالنجاح).

فخرج الرجل من مجلس جمال الدين، وكله حماسة وانفعال لحديثه، شأن كل مَن حادثه السيد، ونفخ فيه من أمثال تلك الروح.

وبالفعل فقد ذهب الرجل للمابين الهمايوني، وكتب ما لا يكتب بلهجة غاية في الشدة - لا يصدق من عرف حقيقة أخلاقه أنها تصدر منه - فعرف جلالة السلطان من نهج الكتابة، ومن الجواسيس التي كانت تأتيه بأسماء كل من زار جمال الدين وتكلم معه، أن تلك الكتابة ليست من كَيْس[١] الكاتب، بل هي من نَفَثَات[٢] جمال الدين، فدعاه للحضور فذهب، وطال مثوله لديه، وذكر له عرضًا وعلى سبيل الشكاية من بعض الذين يحبهم، ويعدهم للمناصب العالية، كيف يتذمرون ويشتكون ولا يصبرون، وذكر اسم صاحبنا مثالاً.

ففهم جمال الدين أن السلطان إنما يريد أن يقول إنك أنت الذي دفعته لمثل ما كتب، وفي الأخير قال: أن الرجل يزورك على ما أظن. أجاب السيد نعم في بعض الأحيان. قال: «إذا رأيته أفهمه أنني زدت في راتبه، وأمرت بصرف ما تراكم له وأنصحه بلزوم الصبر».

فلما خرج من حضرة السلطان لحجرة رئيس القرناء، وجد ذلك الرجل هناك، فبشَّره بالالتفات السلطاني وقال: اسمع مني هذا المثل.

أتى رجل عند آخر فشكى له قلة ذات اليد، وحب الإثراء وحط رحال أمله عنده، كي ينيله مبتغاه أو يرشده إلى السبيل.

---

(١) كَيْس: خفَّة وتَوَقّد. (م).
(٢) نَفَثَات: نِتَاج. (م).

فقال له الرجل: إن في المكان الفلاني كنزًا، فخذ قوسًا وارْمِ سهمًا وحيثما وقع السهم، فاحفر تجد الكنز.

فذهب الرجل وأوصى على قوس قوية، غاية في الصلابة وسهمًا كذلك، وشد الوتر لدرجة كاد أن ينقطع معها، ورمى السهم فذهب بالطبع بعيدًا، وفات المرمى إذ حفر ولم يجد شيئًا فأتى باللائمة على مَن هداه واتهمه أنه غَرَّر به. فقال: وأنت صاحبي لقد شددت الوتر أكثر مما يلزم ولو أرسلت سهمًا بسيطًا بشدة معتدلة، لوقع على ما طلبت.

أما الرجل الأديب فقد أجاب بلطف واختصار: يا حضرة السيد لا أريد من الكنوز أكثر مما وقع سهمي فوقه.

في تكليف السلطان عبد الحميد للسيد أن يزوجه من إحدى جواري قصره وما جرى في هذا البحث من أخذ ورد وكلامه في الحكمة الزوجية، واستطرادًا في المرأة والرجل وهل يتساويان

عاش جمال الدين عزبًا لم يقترن في حياته بامرأة.

وكان كلما شكى له أحد، كثرة العيال، وقلة ذات اليد، يعينه على قدر استطاعته، ويقول له قل (وأثقلت ظهري بالذي خفّ من ظهري).

ففي يوم أرسل السلطان من أعلم جمال الدين أنه سيرسل له جارية حسناء من قصر «يلديز» ليتأهل بها، فامتنع السيد من ذلك وأبى رافضًا ذلك التكليف بقولٍ غريب (سيأتي بيانه).

فقيل له: إنك إذن تحب تأييد مذهب أبي العلاء حيث يقول:

هَـــذَا جَـنَـاه أَبِـــي عَـلَـيّ ... وَمَـــا جَـنَـيْـتُ عَـلَـى أَحَـد

قال: كلا، ولا أعتقد أن مثل هذا القول يصح أن يُعْزَى[1] إلى حكيم مثل أبي العلاء، لأنه ينافي الحكمة، ولا أن يُتَّخَذ حجة أو قدوة.

(١) يُعْزَى: يُنْسَب. (م).

إذ كيف يصح لعاقل أن يعتبر التأهل، والازدواج جناية، وإن قيل أنها جناية معنوية، في بعض نتائجها، كيف يصح لولد صار حكيمًا مثل المعري (ولولا علة وجوده وهو ازدواج أبيه لما برز من العدم) أن يلصق الجناية بأبيه خلافًا لكل عقل ونقل.

ومَن ينكر أن بقاء النوع، واستكمال حكمة العمران، ما كان ولن يكون إلا بالتناسل، والتزاوج.

أما حكمة الزواج وشرطه فقد جاء في القرآن على أوضح وجه وأصرح بيان، إذ قَيَّد مَن خاف أن لا يعدل – بالامرأة الواحدة وترك للمستدل، ولمن يخشى أن لا يعدل حتى مع الواحدة (عدم الزواج) وهذا ما يستنتجه العقل ما دام يحمله العاقل، ويقول به الحق، والعدل.

«أما أنا فمعرفتي بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معاني العدل، وعجزي عن القيام بأمره، دفعني أن أتقي عدم العدل ببقائي عزبًا من أن أتأهل وأكون ظالمًا».

فقال له طبيب موسوي كان من خاصته: فهل تفاديًا من الخوف من عدم العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته؟ فتبسم السيد وقال له:

«إن الطبيعة أحكم منك فهي تدبر نفسها ومن ترك شيئًا عاش بدونه».

عند ذلك قلنا لجمال الدين - تقبل من جلالة السلطان عطاء من المال، فلِمَ لَمْ تقبل عطاءه من الجواري الحسان؟! قال: «أما المال الذي يعطينيه فإني أجد له على اجتهادي أكُفًّا يقومون بأداء الواجب نحوه.

وأما الزواج بالجارية الحسناء فما أنا بالكفء لها، ولست بوليها لأتحرى لها كُفْئًا[١].

ثم قال للواسطة في هذا الشأن:

إذا أصر جلالة السلطان، أو أحب أن يكرهني على هذا الأمر، فلا أظن إلا أنه يحب أن يراني في عداد الخِصْيَان[٢] فيرتاح إذ ذاك من هذا الفضول في الإحسان، فأخبروه أني سأقطع آلة التناسل إذا هو أصر.

ولَـمَّا لم يأخذ الوسيط (وهو من كبار الأغوات) من جمال الدين غير هذا الجواب ذهب مستغربًا مدهوشًا من شكل هذا الرد وصورة الرفض.

وعلى ما نظن أن جمال الدين لم يخطئ في رده ورفضه قبول الزواج الذي إنما كان من السلطان عبد الحميد لمأرب لا حفاوة، إذ كان جُلّ قصده تقييد جمال الدين بغَائِلَة العائلة[٣] ليس إلا.

---

(١) كُفْئًا: نظيرًا أو مماثلاً. (م).

(٢) الخِصْيان: الذين نُزِعَت خُصْياتهم، أي أعضاء الذكورة عندهم. (م).

(٣) بغَائِلَة العائلة: بِدَفْع هَلَكة الجوع عنها. (م).

وبعد أن سكنت الضوضاء التي أحدثها تكليف السلطان عبد الحميد لجمال الدين أن يزوجه. ورفضه على تلك الصورة التي ذكرناها، قيل للسيد: لو فرضنا أنك قبلت تكليف السلطان واقترنت بامرأة، فما هي الخطة التي كنت ترسمها لقرينتك، وما رأيك في مساواة المرأة بالرجل؟

قال:

إنه ليسرني إذ صار فرضكم بأمر زواجي (نفلاً)[١] - أو في حقيقته (لغوًا)[٢] وتخلصت من الخُطَّة[٣] والخُطَط والخُطُوط[٤].

أما أمر مساواة المرأة بالرجل، والحجاب وهتكه، وحقوق المرأة إلخ، فقد قَرَع[٥] آذاني مرارًا، وقرأت في هذا الموضوع مقالات ورسائل، ولكن لا أكتمكم أنني لم أعثر في كل ذلك على مقال صريح، أو تحديد لمطلب المساواة، أو على بيان الغاية من هتك الحجاب، أو الفائدة التي تترتب عليه، أو تأتي من ورائه. وعندي لا مانع من السُّفُور[٦] إذا لم يُتَّخَذ مَطِيَّة[٧] للفجور.

---

(١) نَفْلاً: زِيَادة. (م).
(٢) لَغْوًا: ما لا يُعْتَدّ به. (م).
(٣) الخُطَّة: التدبير المحكم. (م).
(٤) الخُطُوط: المراد هنا المكاتبات والمراسلات التي يقوم بها لدفع أمر الزواج عن نفسه، جمع خَطّ، وهو فن تحسين الخطوط وتجويد الكتابة. (م).
(٥) قَرَع: طَرَق. (م).
(٦) السُّفُور: كَشْف الوجه وعدم التحجب. (م).
(٧) مَطِيَّة: وَسِيلة. (م).

ولا أظن أن ضجيج بعض الناشئة في الشرق، والمتفرنجين منهم يقصدون بطلبهم مساواة المرأة مع الرجل (في التكوين) ذلك لأنه ممتنع بل مستحيل.

فإذا صح هذا الامتناع من هذه الوجهة فلا مناص من أن تبقى المرأة كما هي مرأة تكوينًا والرجل رجلاً.

وأما إذا قصدوا المساواة من حيث المواهب الفطرية فهذا أثر الاكتساب فيه ضعيف ، فالشاعر والشاعرة إذا كان في فطرتهما حسن التصور وسعة الخيال مع صفاء في السليقة، برعا في الشعر.

وإن لم يكونا كذلك وانصرفا إلى أوزان الخليل تعلمًا واكتسابًا من فاعلات وفاعلات، وفاعل وفعول، فلا يخرجا إلا وازنًا ووازنة.

أما ما بقي من العلوم التي تحصل للإنسان بالتعلم على نسب مختلفة بحسب القابلية الفطرية، من طب وهندسة وفلاحة وصناعة إلخ، ففي انهماك المرأة ودخولها مُعْتَرَك[١] هذه الصناعات نظر.

فالمجتمع الإنساني إنما قام على دعامتين، أو يقوم بالمجتمع عاملان المرأة والرجل.

---

(١) مُعْتَرَك: موضع الزِّحام والتنازع والغلبة. (م).

فلنأخذ الرجل ونبحث في تكوينه، وخَلْقِه وتركيبه، فنرى في أعضائه ووجوده ما ليس في الامرأة، ولا حاجة للتفصيل والرجوع إلى علم التشريح، وكذلك في المرأة وتكوينها ما ليس في الرجل.

وفي كلا التكوينين من ناقص وزائد لا يُعَدّ بالنظر إلى الفطرة لا نقصًا ولا كمالاً.

لأن الطبيعة أحكمت صنعها في ذلك، وأجادت في تكوينها.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون/ ١٤].

يرشدنا ذلك التباين في تكوين العاملين إلى وجوب اختلاف عملهما بما لديهما من معدات وآلات التكوين، ليتم من ورائهما عمل صحيح بالنتيجة، وبناء مستجمع لوازمه.

قال: ثم إذا أخذنا ما يحترفه الإنسان من الصنائع، وما يتوخَّاه من ورائها، فلا نراه يخرج في كل ما يتحمله من مَضَضَ[١] التعلم، ومزاولة العمل عن كسب القوت له ولعياله، ولا يقال عائلة إلا إذا تشكلت من رجل، وزوجة، وأولاد.

وبديهي أن أبسط أنواع القوت وهو الخبز، يحتاج ليصير خبزًا عشرات العمال، منهم من يعالج الأرض بالحراثة، لتصلح لبذر القمح، وأبقار، وسائس،

---

(١) مَضَض: وَجَع. (م).

ومساس (ويلزم له الحداد، والحداد يلزمه أعوان) ومطحنة، وطاحن و...و...و... إلخ، حتى يصير دقيقًا، فتعجنه المرأة وتخبزه في التَّنُّور[١] أو يخبزه الفرّان، فإذا شاركت الامرأة الرجل في الصناعات (وهي لا تكون إلا خارج البيت) فمن يدير أو يدبر مملكة البيت؟ ومن يربي الطفل؟ ومن يخط في لوحه الصقيل، رسوم الشجاعة، والفضيلة والإقدام غير المرأة، ومن يربي أقيال الملوك في أخلاقهم، غير تلك الملكة وهي المرأة. اللهم إذا أرادت أن تبقى ملكة، لا أن تبقى ملكة ملكًا في آن واحد.

ليس من يحط من قدر المرأة، ويمتهن خلقها، ويدهورها لدركات الابتذال إلا ذلك الطائش المغرور الذي يغريها على ترك مملكتها (بيتها)، وأن تزاحم الرجل في شقائه بجلب العيش الذي فرضنا أنها أفادت بعض الفائدة المادية فيه، وعاونت به، لا شك أن الخسارة تكون من وراء تركها المنزل، وتدبيره، والطفل وتربيته أعظم بكثير من تلك المنفعة التي لا تبقي على الأخلاق، ولا تفسد إلا الأنسال والأعراق.

أما رفع الحجاب فما رأيت لمن قال بلزومه، وخطب فيه أو كتب أنه ذكر أقل نفع له، أو فائدة تأتي من ذاته أو من ورائه، والذي أراه أن الحجاب ستار إذا رفع طفرة، وفجأة، إنما يظهر على الغالب من تحته شناعات الخلاعة، والتبرج، واستهوان الفجور، وعدم المبالاة بالرقابة العامة. ولو اقتصر النساء على الاكتفاء

(١) التَّنُّور: نوع من الكوانين يُخْبَز فيه. (م).

بالسفور ولم يتخذ كما قلنا مطية للفجور لما كان في الأمر ما يحتاج لأخذ ورد. ولكن إذا رأين للسفور متممات لا تتم إلا خارج البيت فهناك الطامة وفواجع الطفرة واختلال التوازن في أعمال الشريكين.

ثم قال: رحم الله أبا الطيب المتنبي فإنه لو وجد في زماننا ورأى ما نراه من المتبرجات من شرقيات مقلدات للغربيات، وغربيات بائحات، وشرقيات ورائهن سائحات، وبتسفلهن عاملات، وبشططهن وإسرافهن، آمرات فاعلات، ومن الأخلاق الطاهرة (أخلاق البداوة السالمة الصحيحة) عاريات مارقات، أظنه إنما كان يرى في أخلاق نسوة (نسل الأنكلوسكسون) مجمل أخلاق البداوة، ومحاسنها، وصفاء عيش من يعمل بها، ولرأى في أكثر نسوة من سواهم، تلك الحضارة السافلة.

ولا أدري ماذا كان يسمح له الخيال الشعري أن يزيد على قوله:

حُسْنُ الحَضَارَة مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَة وَفِي البَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوب
أفدِي ظِبَاء فَلاَةٍ مَا عَرَفْن بِهَا مَضْغَ الكَلاَمِ وَلاَ صَبْغَ الحَوَاجِيب
وَلاَ بَرَزْن مِن الحَمَّامَ مَائِلَة أَوْرَاكُهُن ثَقِيلاَت العَرَاقِيب

قيل لجمال الدين، إن الذين يطلبون مساواة المرأة بالرجل، ودخولها في معترك الحياة من كل وجهة، إنما يحملهم عليه ما يقرأونه في سيرة نساء المسلمين في الصدر الأول، وأن السيدة عائشة ركبت الجمل، وشجعت في الحرب، وبرزت،

وخطبت إلخ. كذلك نساء الصحابة كن يرافقن الجيش، ويخضن المَعَامع(١) ويخدمن الجرحى وإلخ.

قال: غريب ما يقولون وما يدعون أن ركوب السيدة عائشة الجمل، ومرافقة نساء الأصحاب الجيش، كل ذلك حالات استثنائية لا يصح أن تتخذ قاعدة، تجري عليها النساء في كل حين.

أما ركوب السيدة عائشة الجمل، فقد تنبأ عنه المصطفى ﷺ وذكر ذلك المركب الخشن، وأنها ستنبحها كلاب حوشب «الحديث» وليس فيه أدنى فخر لتتشبه به بقية النساء.

بقي علينا ذهاب نساء الأصحاب لساحات الحروب، وخدمتهن الجيش، وهو أمر مستحسن، للتي لم يكن لها زوج مقعد، أو والد، ووالدة، وأطفال.

لأن الجهاد وهو فرض، فقد استثنى منه المُعِيل(٢)، واشترط فيه إجازة الوالدين، وأن خدمتهما، أولى من الذهاب للجهاد إذا هما لم يأذنا (كما ورد في الحديث، وسيرة الأئمة).

هذا شأن الرجل فما بالك بالامرأة.

---

(١) المَعَامِع: شدائد الحروب، جمع مِعْمعَة. (م).
(٢) المُعِيل: كثير العيال. (م).

نعم إذا لم يكن للمرأة مانع من الموانع، أو كان زوجها، أو ابنها، أو أقاربها في الجيش، وذهبت للخدمة، بنية صالحة، وذيل طاهر، عدّ لها ذلك فضيلة وحسنة.

وبالاختصار - كما سبق القول - أن تلك حالات استثنائية، لا يصح أن يؤخذ منها، مساغًا أو جوازًا للمرأة أن تبارح بيتها لتتشبه بالرجل في خوض المهالك والمكاره، وفطرة الله قد أغنتها عنها، وكفتها شرها.

وما أسقمه رأيًا، وأبعده عن الصواب، أن تبرز المرأة لتقتل أو تقتل، والشاعر قد قسم لها قسمها:

فقال:

كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الغَانِيَاتِ جَرّ الذِّيُول

كان السيد جمال الدين، هشًّا، بشًّا، طلقًا، يتدفق كالسيل في كل ما كان يلقيه من محاضرات، ويخوض فيه من المواضيع المختلفة، إلا في موضوع (مساواة المرأة بالرجل)، فقد رأيناه نكدًا، كارهًا للخوض فيه، عصبيًّا، نفورًا منه.

ولكن لـمَّا علم أن لَفِيف مريديه [(١)] مصممون على استطلاع رأيه، وأن تجنبه لهذا البحث لا يرجعهم عن متابعة الاستطلاع، عند ذلك تربع وقال:

---

(١) لَفِيف مريديه: جموع مريديه. (م).

ما عندكم في هذا الموضوع من الغوامض، التي تحبون استجلاءها

قيل: قال الأستاذ (للهيئة الاجتماعية دعامتان، أو يقوم بالمجتمع عاملان المرأة والرجل).

والمفهوم الظاهر أن هذين العاملين هما بمنزلة الشريكين في الحياة فإذا ارتقى أحدهما وجب أن يرتقي الآخر، أو على الأقل أن لا يقف الواحد في سبيل الثاني.

فالرجل تدرَّج في أدوار، وارتقى من طور إلى طور حتى وصل إلى ما وصل إليه من مدنية، وحضارة، وعلوم، وفنون. والمرأة وقفت جامدة، خاملة، يعمل في تمادي جمودها، وخمولها، وعدم نهوضها الرجل، ويقيدها الرجل، ويقتل مواهبها الرجل، تارة بدعوى الدين، وأخرى في عدم كفاءتها من حيث التكوين. مع أن دعوى التكوين، والمواهب من قوة جسم وصحة عقل، ما كانت على نسبة واحدة، في الرجال كافة، ليصح أن يحكم على تجرد النساء منها، فكم رجل يُعَدّ بألف، وكم ألوف تمر بلا عداد.

وما جاز وجوده في الرجال من هذا القبيل، لا يستحيل وجوده في النساء بل هو من الممكنات، خصوصًا وقد أتى على المرأة حين من الدهر كانت فيه مع الرجل في مستوى واحد، وأما التكوين في أمره الرئيسي، من رأس، ودماغ، وإرادة، وتمييز ليس فيه تباين، أو تغاير، أو تعدد، بمعنى أن الرجل ليس له رأسان،

وللمرأة رأس ونصف، أو نصف رأس، أو في الأول أربعة آذان وفي الثاني أقل من ذلك. والذي نراه من التفاوت، إن هو إلا من حيث التربية وشكلها، وإطلاق السراح للرجل وتقييد المرأة في عدم البراح من الخدر، وحصر مواهبها في ذلك المضيق. ثم انقطع الكلام وساد السكوت، فقال جمال الدين:

هل لكم ما تقولون غير هذا؟ قلنا: لا، غير إلفات نظر الأستاذ إلى حالة المرأة في الغرب خصوصًا في الأمة (السكسونية) التي يعجب السيد بتربيتها، ويمتدح أدب المرأة فيها وحشمتها.

قال: دخلتم في هذا الموضوع على السفسطة من باب واسع، والتوى عليكم القصد، بل عكستم القضية (ربما من حيث لا تريدون) ذلك لأنكم تطلبون للمرأة أمرًا من المساواة بالرجل، ولا تفقهون لفائدتها معنى، ولا للمقصود حصرًا، ونتيجة، وإليكم البيان:

قلتم أن الرجل، تدرج، وتطور، وارتقى حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم، وأن الرجل والمرأة كانا في زمن من الأزمان في مستوى واحد، وأنه ليس في تكوينهما ما يمتاز به الواحد عن الآخر.

فإن سلمنا لكم في هذا وجب أن ننظر إلى عوامل ارتقاء الرجل، والمؤثر فيه. فإن قلتم أن الرجل قام بنفسه بدون مساعدة آخر – ولا تأثير للتربية عليه – سألتكم ما الذي منع المرأة أن تجري مع الرجل حيثما جرى، وتأخذ من التدرج،

والتطور، والارتقاء، ما أخذ به الرجل، وكلاهما في مستوى واحد، وتكوين واحد؟ والقوة التي تزعمونها في الرجل، وأنه قيد المرأة بها، لم توجد فيه دفعة واحدة، بل أتت بالطبع على سبيل التدريج وسننه. ثم رأيت غيركم من المطالبين بحقوق المرأة المهضومة على وهمهم، والآخذين بناصرها، لتتساوى مع الرجل يهيمون في مجاهيل التاريخ، ويبحثون عن المرأة في زمن الرومان، ومن قبلهم، أو بعدهم، ويعيدون ذكرى عصر «شيوع المرأة»، وأن الولد ما كان ليعرف أباه، بل كان يرجع إلى أمه في نسبه قهرًا، وضرورة، بالنسبة إلى ذلك الشيوع القبيح.

أقول «قبيحًا» ولعل المتحمسين للمرأة يرون ذلك الشيوع «حسنًا» ويرومونه، ويسعون من طرق خفية للعودة إليه، ولكنهم لا يستطيعون به جهرًا، أو يخجلهم الحق الذي لا يجدون له سترًا، ولا لنوره إطفاء.

نعم يذكرون عصر الشيوع، وكأني بهم يريدون أن يستنتجوا منه أن المرأة كان لها منه مقامًا، ولكنه «غير كريم» إذ كان الولد يرجع بنسبه لأمه، والمسيطر عليه وعليها خاله (بئس ما يستنتجون، وساء ما يقولون).

أرشدنا العقل أن الإنسان في تطوره إنما كان يترك ما يضره، ويقبل ما ينفعه، ويأخذ بالأنسب، والأصلح صناعة، وأخلاقًا، واجتماعًا.

انتقل الإنسان من العصر: «الظري» - العصر الصواني - إلى العصر الحديدي، لمنفعة رآه فيه.

فهل يعقل اليوم أن يترك الإنسان الحديد، ويرجع القهقري إلى الصوان يتخذ منه سلاحًا، وآلات على ضعف أثره، ومحدودية نفعه؟ كلا.

وعلى هذا يصح القياس والقول، بعدم نفع الرجوع إلى حالات تلك الأعصر، التي ما تركها الإنسان إلا لأنه رأى خيرًا منها، ومن ذلك شيوع النساء، وعدم طهارة الزواج، ولَوْث[1] الزناء، والسفاح، وما يجره من ويلات العلل والأمراض الجسدية والروحية. يخطئ ويضل الصراط السوي، من قال أو يقول أن الرجل قام، أو يقوم بنفسه لا في عصر الهمجية، ولا في عصر الحضارة والمدنية، بل إن الذي ساعده، في كل أدوار الحياة، ويساعده، ويخط في لوحه الصقيل، منذ طفوليته، خطوط الفضيلة، أو الرزيلة - إن هي إلا «المرأة».

فالرجل في آثاره، وجراثيم غذائه، وبالخطوط الأولى التي ترسم فيه، هو صنع الأم «المرأة»، مدين للأم «المرأة»، تلميذ الأم «المرأة» صالحًا نشأ أم طالحًا.

فإذا علمنا أن للمرأة ذلك التأثير، وأن عليها القيام بذلك الواجب، وتحمل أثقال ذلك العبء - الذي لا يمكن أن يقوم به غيرها - كيف يصح أن يُسْلَب منها ذلك الحق، أو أن تُدْعَي لتركه، أو أن تُسَاق إلى ما لا يعنيها ويضر بالهيئة الاجتماعية، ويقلبها رأسًا على عقب.

---

(١) لَوْث: وَسَخ. (م).

إني لا أرى في الذين يقولون بمساواة المرأة في الرجل وإشغالها بما خُلِق له، هو، ولم تتكلف به الأم «المرأة» - إلا أنهم يحاولون نقض حكمة الوجود، الذي إنما صار وجودًا، وكونًا، وهيئة بوجود العاملين «المرأة والرجل».

يريدون أن يرجعوا، ويدغموا الاثنين بواحد، وبصريح القول ينتهون بنتيجة ما يطلبون، إلى أن لا يكون في الكون إلا رجلاً، أو امرأة. هذا إذا حصلت المساواة بين الاثنين، وتجارَيَا في العمل. يعني أن يصير كل منهما طبيبًا، صيدليًّا، مهندسًا، فلاحًا، خياطًا، نجارًا، حاكمًا مبعوثًا، قائدًا، إلخ.

ومتى وصل المجتمع الإنساني إلى هذا الحد، فمن أين نأتي بالأم «المرأة» مربية الرجال، ومرضعة الفضيلة لهم، وهي في ذلك الشغل الشاغل الذي يستغرق كل وقت الرجال، ولم يجدوا في أقل صنعة يحترفونها متسعًا لهم، أكثر من جلب القوت، وسوقه للبيت لتعالجه المرأة، فتغذي به رجلها، وطفلها.

أما عمل المرأة، وواجباتها في بيتها، ونحو زوجها وأولادها، فأهم بكثير من صناعات الرجل مهما دقت، وعظمت، وجلّ نفعها. وأن أكبر فاضلة من النساء، إذا هي قامت ببعض واجبات المنزل، وتدبيره، وحسن تربية الطفل، تكون قد رجحت على أكبر الرجال علمًا وعملاً.

لأنه كما سبق القول (ليس غير المرأة من يهيئ للمجتمع رجالاً) وهذه المرتبة السامية للمرأة لم يكن ليهيئها الرجل للمرأة، لأنها أسمى منه – بل هيئتها لها الطبيعة، وحرمت الرجال من أن تنالها.

تلك المرتبة هي أسمى من كل ما تتوهمها المرأة في الرجل من المهن والصنائع، ولا تنحط المرأة إلا إذا هي تساوت مع الرجل بها.

ومختصر القول «أن قوة المرأة في ضعفها، وفضل الرجل في قوته وأن يكون تجاه المرأة ضعيفًا، وفي مذهبي أن تبادل النوعين بالمزيتين خروج عن حكمة الفطرة، ومغالبة للطبيعة» أ هـ.

مقابلة جمال الدين لسمو الخديوي عباس حلمي واختلاق الجواسيس مسألة الدولة العباسية، واهتمام السلطان عبد الحميد وما احتمل هذا الأمر

وفد على الأستانة سمو الخديوي عباس حلمي الثاني، وشهرة جمال الدين في مصر بالغة مبلغًا عظيمًا، وزادها خطابه على إخواننا المصريين (الذين جاءوا معه) وقد دعاهم جلالة السلطان لحديقة يلديز فوقف جمال الدين خطيبًا واستهل خطابه بقوله:

«أحسنتم صنعًا إذ أتيتم لزيارة خليفتكم جامع شتات الممالك الإسلامية، منقذ تراث الشرقيين، من اغتيال المغتالين، وشره الطامعين، إلخ».

وكله حث على الارتباط بمقام الخلافة، وتحريض على النهضة، وتَعْرِيض[1] بالمخاطر الحَائِمَة[2] حول الممالك الإسلامية ببلاغته المعروفة، وتلك الطلاقة الخاصة به.

---

(١) تَعْرِيض: تلويح أو إشارة، وهو خلاف التصريح. (م).

(٢) الحائمة: التي تطوف حول الشيء. (م).

فرغب الخديوي في مقابلة جمال الدين وطلبها، ولما كان هذا الأمر يحتاج إلى إذن من السلطان، وصدور إرادة سنية فيه. استُؤذِن فأبى، بل ألح بالواسطة على جمال الدين أن لا يفعل وتخوف كثيرًا، من هذه المقابلة وأراد أن لا تتم.

أما جمال الدين فقال لواسطة الخديوي في حجرة رئيس القرناء جهرًا، وعلى مسمع من الملأ الموجود:

«كضيف فإنني أسير المضيف جلالة السلطان في منزله، ولكن لي مسرح كل يوم في (الكاغدخانه)، وهو محل نزهة مشهور) كان ينتابه السيد في أكثر الأيام، ويكرر الرحمة على أبي الطيب المتنبي وينشد بيتًا له:

وَمَا فِي طِبِّهِ أَنِّي جَوَاد أَضَرّ بِجِسْمِهِ طُولُ الجَمَام[١]

وبينما جمال الدين يومًا في ذلك المحل، على ربوة منفردًا، إذ قدم الخديوي عباس، وسار نحو السيد راجلاً، فردًا، تاركًا عربته، ومهمنداره[٢] بعيدًا - ولما تقابلا افتتح الخديوي الكلام بالتحية قائلاً: «السلام عليكم» وبعد المبادلة بها قال السيد: مَن أخاطب؟ فأجابه: «مُحِبّكم عباس حلمي».

(١) الجَمَام: الراحة. (م).
(٢) مهمندار: لفظ فارسي معناه المسئول عن استقبال ضيوف الدولة وتدبير إقامتهم. (م).

وذكر ما له من المحبة و الحرمة عند سُموّه، إذ أنه ولا شك من أكبر حكماء الشرق في العصر، ويفتخر الشرقيون بمثله، وهكذا عبارات ثناء، وتودد، وتلطيف لجمال الدين.

واختتم الحديث بأن سموه يحب أن يراه زائرًا مصر في أيامه، مكررًا ذكر ما له في القلوب من المحبة العظيمة.

ولم يدر بينهما شيء لا ضمنًا، ولا صراحة مما يكون له أدنى تماس مع السياسة.

ولكنها فرصة للجواسيس، ربما يبخل الدهر أن يأتي بمثلها (سمو الخديوي عباس حلمي - وجمال الدين الأفغاني - منفردان على ربوة يتحادثان!!).

فانهالت محررات الجواسيس «الزورنالات» على السلطان، وأهمها وهو الذي أقامه وأقعده «أن جمال الدين قد تعاهد، وتحالف مع الخديوي على أن يؤسس له دولة عباسية!! وأنه قد طلب تأمينًا من الخديوي بعد أن يتمم له الأمر، أن لا تكون عاقبته، كما كانت عاقبة أبي مسلم الخراساني مع العباسيين، وأن سوريا الجغرافية لمن حكم مصر بمنزلة اللازم والملزوم، وهي مفتاح العراق»، وهكذا اختلاقات، وتخرصات(١)، وترهات(٢) كانت خير ذريعة، لتناول الأموال

---

(١) تَخَرّصَات: أكاذيب. (م).
(٢) تُرُّهَات: أباطيل. (م).

من سراي يلديز، وباب رزق جديد لمن عيشهم موقوف على الافتراء، والوشاية بالأبرياء - إذ كان بالتهويل على السلطان - ولو برجل سائح بسيط، يجسمون أمره ويصورون من وجوده مضرات، ومصائب، تأتي للدولة منه، وتتناول في نتيجتها شخص السلطان وعرشه، فيأخذ لذلك من الحيطة، ويبذل في سبيله من الأموال ما يحير العقول!

وأخذت تتوالى الوفود من المابين على منزل جمال الدين بنغمات مختلفة، منها لوم بشكل توبيخ مع عتب، ومنها إسناد خيانة بما عمله، ومنها أن تحالفه هذا مع الخديوي، يعد نقضًا لبيعته للسلطان إلخ.

والغرابة أن كل ما كان يقال في هذا الشأن، يذكر بصورة ثبوت صحة الخبر عند السلطان، وأنه لا ريب في حصوله - وأنها وقعت الواقعة ليس لوقعتها دافعة - وجمال الدين في كل تلك الأوقات، كان رابط الجأش، أكثر مما رأيناه في سائر الأحوال - يضحك ولا يجاوب حتى يؤدي الرسول بلاغه - ولا يزيد على القول له: «هل لك ما تقول غير هذا؟ فإن قال: لا، ترجم له بالتركية ما قاله هارون الرشيد «هنيئًا لمن ما عرفناه، لأن من عرفناه وقربناه أطرنا نومه، وأطلنا يومه» ويقول له «أطار نومكم وأطال يومكم» ويزودهم بعبارة «أنني سأتحادث إن شاء الله مع السلطان بأمر هذه المختلقات».

وبينما خلق المابين، وكبار المقربين، والجواسيس في هرج[١] ومرج[٢]، وأخبار غضب السلطان على جمال الدين، تلوكه الألسنة، بأشكال غريبة، وصور عجيبة صدرت الإرادة بحضور جمال الدين للقصر السلطاني، فللمثول.

والسلطان عبد الحميد كما أنه كان من أقدر ملوك زمانه سياسة – على ما مر بيانه – وأحدّهم ذهنًا، وأوفرهم ذكاء، ودهاء، فهو ألينهم عريكة[٣]، وأكثرهم تواضعًا، وأقدرهم على خَلْب لُبّ[٤] المخاطب، باللطف، والمجاملة، وكظم الغيظ، فهو ولا شك لو صرف كل مواهبه لخير المملكة – وطرح الجبن جانبًا – لفاق سائر ملوك عصره، ولأوصل الملك لأعلى ذرى المجد.

فلما اجتمع به أقبل جلالته عليه، بأكثر من العادة، وهشّ له وبشّ، وأدناه، وحادثه طويلاً، بأمور كثيرة لا تخرج عن كونها تؤول لذاته، إذ كل مهم في الملك لا يكون بالنتيجة عائدًا لحفظ حياته، وتقديس إرادته، فليس هو من الأهمية في شيء.

حتى إذا انتهى الحديث من كل ما أراده السلطان ظاهرًا، وأوهم أنه سيبارح المكان، قال: هيه! اجتمعت مع حضرة الخديوي في الكاغدخانه؟

---

(١) هَرَج: اختلاط. (م).
(٢) مَرَج: قلق. (م).
(٣) عَريكة: طبيعة. (م).
(٤) خَلْب لُبّ: سَلْب عَقْل. (م).

أجاب نعم تلاقينا هناك قال: «قد ألح الخديوي كثيرًا بطلب هذه المقابلة وما فهمت لهذا الإلحاح سببًا، أو معنى - فأي علاقة بينكما؟ وقد أزعجوني بكثرة الزورنالات - وأكثرها من الصادقين المجربين عندي الذين يتحرون لي، صحيح الأخبار، وصادقها، لذلك تأسفت جدًّا حتى كدت لا أصدق أنك تأتي بمثل هذه الأعمال.

قال جمال الدين: وأي الأعمال أنكرها مولانا السلطان عليّ؟ فتناول السلطان من بين يديه، ومن جيبه عدة ظروف بمظروفاتها وقال:

هذه كلها على اتفاق بأنكما قد انفردتما، لوحدكما، وتحادثتما بالمسطور فيها ودفع إلى جمال الدين تلك الظروف.

قال: فتناولتها تأدبًا ولم أقرأها استخفافًا لعلمي بما حوته، وتضمنته من الأَرَاجِيف[١]، والأكاذيب.

فكرر السلطان عليه بقوله:

«تفضل بمطالعتها وبعده نتحادث».

(١) الأَرَاجِيف: الأخبار الكاذبة المثيرة للفتنة. (م).

قال له: لا حاجة لمطالعتها، فالأمر ينجلي، وينتهي إذا اقتنعتم وصدقتم، بأنني كنت مع الخديوي في ذلك المحل بمعزل عن الخلق، وعلى انفراد – ليس معنا ثالث.

قال: نعم.

قال جمال الدين: هل كان مع الخديوي غير مهمنداره؟ أجاب: لا.

قال: هل سمع أحد منهم ما دار بيني وبين الخديوي، وكتب لجلالتكم؟ أم الكاتبون غير من كانوا موجودين؟!.

فعند ذلك، أطرق السلطان برهة ثم بحث عن مظروف، فوجده وقرأه وقال: أن حسني باشا (وهو مهمندار الخديوي) يذكر فقط أنكما انفردتما بعيدًا عنه ولم يفهم ما دار بينكما.

قال جمال الدين عند ذلك: فهل برهان أسطع، وحجة أقوى من هذا على بطلان هذه الأرجوفة، ودحض هذه الفرية[1] مع أني أقسم لك بعزة الحق أنه لم يدر بيني وبين عباس حلمي خديوي مصر شيء من هذا أصلاً.

---

(١) الفِرْيَة: الكَذِب. (م).

عندئذ قال جلالته: صدقت وآمنت، وما هذه إلا اختلافات، وفساد، ودسائس (فلان[١]) قهره الله وقبحه، وأطال بسوء الدعاء عليه.

أجاب جمال الدين: «كل هذا حسن في بابه، ولكن لماذا انزعج السلطان وأزعج لهذه الأكاذيب.

وما كان أغنى جلالتكم عن الحالين، وقد علمتم مصادرها ومواردها.

قال: «ما كنت بالمصدق لولا هذه الكتابة، فإنها جعلت في نفسي أشياء، ودفعتني للاهتمام، وإن كان الآن قد سرى عني بعض ما وجدت لاعتقادي صحة ما قلت».

وناولني رقعة فيها بيتان من الشعر (في معنى أرجوفة الدولة العباسية) وهما:

شَـادَ الخِلاَفَـةَ فِي بَنِـي العَبَّـاس عَـبَّـاس لَـكِـن نَـعْـتِـه الـسَّـفَّـاح
وَلأَنْـتَ خَيْـرُ مملـك ستُشَيِّـدُهَـا بـالـبِـشْـرِ يَـا عَـبَّـاس يـا صَـفَّـاح

(١) كان السلطان عبد الحميد يرتاح إلى إلقاء التفرقة بين مقربيه ووزرائه، ويعمل على إيغار صدور بعضهم على بعض كي لا يتفقوا، فيناله من السوء ما نال عمه المرحوم السلطان عبد العزيز، ولو انتفع ملك من الحذر لكان السلطان عبد الحميد أولى الملوك بالانتفاع من ذلك ولكن «ما منع حذر من قدر».

فقال جمال الدين: لا حول ولا قوة إلا بالله «تخرصوا» وتقولوا، واستنبطوا من الانفراد أنواعًا من البهتان تحتمل الصدق والكذب، وشيئًا ربما أن يقال، وهو من الممكنات.

ولكن أمر النظم فإنني ما نظمت في حياتي شعرًا عربيًّا قط - لا عن ترفع - ولكن لعدم وجود السليقة الشعرية بي، وعدم مقدرتي عليه.

قال: فأمن جلالته أيضًا أن الحديث مفترى، وأنه على كمال الأمنية منه، وأن الخديوي من أعظم المخلصين له، وأنهما بعيدان عن كل تلك المُخْتَلَقَات(١).

قال السيد: ما وسعني لغيظ لم أكظمه من اهتمام السلطان بمثل هذا البهتان، وهذه الاختلاقات والأراجيف، المضرة في حَيْثِيَّة(٢) الخلافة، وعظيم خطرها، ورفعة شأنها - مع معرفتي دناءة مختلقيها، ومرتبيها، وهو يدعو عليهم بشر الدعاء كالعجوز الدَّرْدَبِيس البَتْرَاء(٣).

ليسمح لي جلالة السلطان أن أذكر مثلاً حضرني الآن قال: قل.

فقال: إن أحد الأمراء استزار رجلاً في قصره فلما جاء الرجل وجد على باب القصر كلبًا هائلاً، عقورًا، يجرأ على الأسود وربما افترسها، فهرّ عليه، ونبح،

---

(١) المُخْتَلَقَات: المُفْتَرَيَات. (م).
(٢) حَيْثِيَّة: مُسَوِّغ. (م).
(٣) الدَّرْدَبِيس البَتْرَاء: المَرْأة العجوز التي انقطع خيرها. (م).

وتحفز للوثوب فخاف الزائر وأحجم عن الدخول. في أثناء ذلك أشرف الأمير من نافذة القصر، وأهلَّ بالزائر، وسهل، واستعجله بالصعود إليه.

قال أيها الأمير كيف الوصول إليك؟ وهذا الكلب العقور المدهش باسط ذراعيه، فاغر فاهه. انهره، أو آمر من يمنعه عني.

قال الأمير: أنا من هذا الكلب أخوف منك! وهكذا أظن حالنا يا صاحب الشوكة» أ هـ.

قلنا لجمال الدين: ماذا أجاب جلالته على هذا المثل؟

قال: تبسم عن غير رضى، وكان وقت الانصراف قد حان، فنهض وودع على أن أعود إليه في الغد من كل بُدّ[١].

(١) بُدّ: مَفَرّ. (م).

دعابة السيد عبد الله نديم في بحث الدولة العباسية وتعريضه فيمن اختلقها في ذلك الحين

في أثناء هذا القصص، كان المرحوم السيد عبد الله نديم حاضرًا في الخلوة التي كان جمال الدين يسميها «الجلوة»، فقال: ليتك عندما صرح السلطان بأن هذا الفساد صنع فلان ذكرت له دسائسه، واستكتابه الأَغْرَار[1]، وتغنيه بهذين البيتين:

هي الخِلاَفَة أَرْجُوها وتَرْجُونِي   فَقَدْ تَرَبَّع فِيهَا مَن هُو دُوني
يا غَوْثُ يا جَدُّ قَدْ آن الأَوَان   فَأَيْن وَعْدُكُم في خَان شَيْخُوني

فغضب عند ذلك جمال الدين، وانتهر القائل وقال أعوذ بالله أن أكون من المنافقين، أو أن أفعل ما أنكره على الغير، أو أن أكون همازًا مشاءً بنميم.

ما هذا الهذيان في هذا الزمان؟ وفي أي مقام جليل، خطير

هم يتلاعبون؟

---

(١) استكتابه الأغرار: اتخاذه كُتَّابًا ممن لا بَصَر لهم ولا تجربة. (م).

خلافة عظمى، وإمامة كبرى!

لَقَــد هَزُلَــت حَتّى بَــدَا مِن هُزَالِهَا   كُلاَهَا[١] وَحَتّى سَامَها[٢] كُلُّ مُفْلِس

الخلافة! كفالة لله في خلقه، فأين أحلام أولئك العجزة من مقام الإمامة، والخلافة، وما تتطلبه من الشروط، والصفات أين؟

الخديوي بظروفه، وما أحاق، وأحاط بمصره، هو عندي أعجز من السلطان عن تصريف أمور الخلافة، والقيام بأعبائها على ما يلزمها من مزايا، وشروط أهمها الاستقلال.

نعم لو تخلصت مصر من بَرَاثِن[٣] بريطانيا وتسنَّى لعباس - مع ذكائه وتطلعه - أن يكون له همة محمد علي الكبير، ومضاء إبراهيم، وسخاء إسماعيل لوقع من الخلافة على ما يرجوه.

ولكن أين الولاية الخاصة، لأمير المؤمنين اليوم في ممالك الإسلام؟ وأين المؤمنون، الملتفون حول خليفة الرسول المصطفى ﷺ؟ وأين الحرية المطلقة للخليفة في تصريفها على وجه الشريعة، أو السير على سيرة الراشدين؟ وأين القوة التي يدفع بها إذلال، أو استعمار، أو استعباد المسلمين في بلادهم، وممالكهم، وديارهم؟

---

(١) كُلاَهَا: جمع كُلْيَة، والمراد من شدة هزالها بانت كُلاَهَا. (م).
(٢) سَامَهَا: عَرَض السلعة للبيع. (م).
(٣) بَرَاثِن: مَخَالِب، والمراد شوكتها وقوتها. (م).

وأين؟! وأين؟! فلا حول ولا. قال: أما الرجل ويعني به «السيد أبو الهدى الصيادي» فهو خير عربي صحب السلطان، وقد دَرَأ[١] شرًّا، واستدر ما استطاع من الخير لقومه. وفي الرجل هزة هاشمية، وخلق كريم، وهمم وشمم لا ينبغي أن يناله طعن الطاعنين، ولا أدل على فضل الرجل من قياسه مع غيره من العرب الذين انسلوا إلى السلطان ودخلوا في خدمته «وبضدها تتميز الأشياء» «رحم الله الجميع».

---

(١) دَرَأ: دَفَع. (م).

رأيه في الإنكليز ووصفه للإنكليزي والعربي وفلسفته في الحَجْر الشرعي على الفرد السفيه وشكل تطبيقه اليوم على أهل الشرق من الغربيين

قال أبتدئ بوصف الإنكليزي على أقصر الطرق «فهو قليل الذكاء، عظيم الثبات، كثير الطمع، والجشع، عنود، صبور، متكبر».

والعربي أو الشرقي كثير الذكاء، عديم الثبات، قنوع، جزوع قليل الصبر، متواضع.

يثبت الإنكليزي حتى على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره.

والشرقي لا يثبت على الصواب، ولا على طلب حقه.

فيفوز الأول في خير النتائج، بفضيلة (الثبات).

ويخسر الثاني كل حق برذيلة (التلون وعدم الصبر).

ولذلك فأكثر ما ورد في القرآن ذكر الصبر ولزومه مثل قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ ...﴾ [آل عمران/ ٢٠٠].

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ . . .﴾[الرعد/٢٢]، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ . . .﴾[الحجرات/٥]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة/ ١٥٥]. إلخ.

كل هذا يدل صراحة على أن الأمة العربية خصوصًا، والمسلمين عمومًا أحوج إلى الصبر، والثبات من كل ما في الأخلاق المؤدية للسعادة البشرية.

فتراهم يستهويهم الوعد الكاذب عن علم، ويرضون به، إذا كان الموعد قريبًا.

ولا يصبرون على الوعد الصادق إذا كان أمده بعيدًا.

فيخسرون في الحالين، ولا يستثمرون غير الفشل.

أما المصريون، والشرقيون عمومًا، سواء كان لقاء الإنكليز أو غيرهم من دول الغرب فمثلهم مثل رجل مثرٍ ترك من الأموال والأملاك ما هو معلوم بعضه ومجهول أكثره، وخلف ورثة على غاية السرف والتبذير.

وبمثل تلك الحالة من مورِّث ووارث نرى الشريعة قضت بوضع الحَجْر على الوارث السفيه، المبذر، واعتبرته قاصرًا، غير مختار، ولا حر للتصرف بملك، ومتروكات مورثه.

نعم وقع الشرقيون بما ترك لهم من الميراث تحت حكم المبذرين، والمسرفين، والسفهاء وقضى على الشرق وأهله (تداول الأيام) أن يكون الحاكم، وواضع الحجر عليهم، هو الغرب.

إن الفرق ظاهر بين وضع الحَجْر على الوارث المسرف من الحاكم الشرعي، وبين حكم الغرب بوضع حجره على الشرق وأهله.

لأن الحجر الشرعي يمكن رفعه بإثبات صلاح سيرة الوارث» وتبين حقه بإرجاع حرية تصرفه بمال مورثه.

أما حجر الغرب فهو مما لا تؤثر فيه بينات على الرشد، ولا تعمل فيه عوامل قولية، وحجج منطقية ليرفع حجره.

والسبب أن الغرب في الحقيقة ليس من مصلحته إصلاح سير، ولا إصلاح سيرة المسرف المبذر، لترجع إليه حقوقه، بل من أقصى أمانيه أن يتمادى الشرقي في غيه، وإسرافه لكي يطول عهد الحجر - ومع تمادي الزمن - أن يتم بعد الاستعمار، التملك، والاستعباد.

فما لبث الشرقيون في السفه، والسرف - ونتيجتهما عدم الكفاءة لتولي حكم أنفسهم - يلبث حكم تلك الوصاية.

ما من دولة غربية، تطرق باب مملكة شرقية إلا وتكون حجتها إما حفظ حقوق السلطان، أو إخماد فتنة قامت على الأمير، أو إنفاذ نصوص الفرامين، أو غير ذلك من البهتان، والخَتْل[١]، والخداع، وواهي الحجج.

فإذا لم تكفِ تلك الأضاليل للبقاء، تذرعت إما بحجة: حماية المسيحيين، أو حماية الأقليات، أو حقوق الأجانب، وامتيازاتهم، أو حرية الشعب، أو تعليمه أصول الاستقلال، أو إعطاء الشعب حقه تدريجًا من الحكم الذاتي، أو إغناء الشعب الفقير بالإشراف على موارد ثروته وإلخ. فالشعب الشرقي الخامل يرى في هذه المواعيد الخلابة، ما قاله الشاعر:

مَا زَالَ يُغْدِقُ آلَاءَ وَيَشْفَعُهَا　　بِمَا يَفُوقُ أَمَانِي النَّفسِ بِالعِظَم

فيرتاح إلى تلك المواعيد، ويرضخ إلى حَجْر الغربي، ويقدم في كل يوم نوعًا من الطاعة، وشكلاً من الإكرام، ورضوخًا لأوامر فيها أنواع الضرائب، يتسابقون متهافتين على التعبد له (ولا تهافت الفراش على لهيب النار).

يفعلون ما يأمر به الغربي، ويؤدون كل ما يطلب في بادئ الأمر على مضض يكتمونه ويغالطون أنفسهم، (إنها حالات وقتية، أو سحابة صيف عن قريب تقشع).

(١) الخَتْل: الخِدَاع عن غفلة. (م).

ويرجعون معللين أنفسهم أن الغربيين سيفون لهم بوعدهم، وينالون تلك الأماني، إذ يتركونهم بعد إسداء نعمة التعليم لهم «شعبًا حرًّا، مستقلاًّ بإدارة شؤونه، مختارًا بوضع ضرائبه، عالمًا بإيراده ومصرفه، منتقيًا من أبنائه حكامًا، من أنزههم نفسًا، وأحسنهم سيرة وسيرًا، وأصدعهم بالحق قولاً وفعلاً.

هذا ما يتعلل به الشرقي. وأما ما يفعله الغربي فهو:

برنامج يحمله من بلاده في محفظته، ثم ينقله إلى ذاكرته، وحافظته مسطور فيه:

شعب خامل، جاهل، متعصب، أراض خصبة، معادن كثيرة، مشاريع كبيرة، هواء معتدل، نحن أولى بالتمتع بكل هذا.

وللوصول إلى الاستيلاء الممتع يضع خطة، وهي أولاً:

إقصاء كل وطني حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية.

ثانيًا: «تقريب الأسقط همة، والأبعد عن المناقشة، والمطالبة بالحق.

ثالثًا: الدخول على البلاد بتفريقها طوائف، وشيعًا فتؤثر طائفة على الأخرى ولو بأمور طفيفة تافهة، حتى تستحكم النفرة من بعضهم فيضعون بأسهم بينهم.

وهكذا من باب الوظائف ليس فقط يجعلون الطائفة الواحدة تنازع أختها من الطوائف، بل يجعلون أبناء بيت واحد ينازع بعضهم بعضًا.

كل هذه حالات تزيد الوصي جرأة، وتماديًا في الحكم الكيفي، وغلّ أيدي الشعب، ورجاله المخلصين عن النهوض بالوطن، والتخلص من ربقة الاستعباد، وفك أغلال الحجر.

وهذا المطالب من فك حجر، واستقلال لا تتم إلا بالأخذ بأفعل العوامل مثل ترقية الهيئة بالعلم الصحيح، والوقوف على مواضع الضعف ومعرفة الواجبات لهم وعليهم، وكيفية الوصول للمطلوب، والدخول من الأبواب لأخذ حق الضعيف من القوي.

وأهم من جميع ما ذكر اتفاق الكلمة، وجمع الأهواء المختلفة.

قلنا يا أستاذ:

مثال الحجر، والفلسفة فيه، ووجه الشبه والمشبه به، وما حواه من الحكمة، كلها أقوال جليلة، وآراء خطيرة حسنة الرُّوَاء[1]. ولكن وصف الدواء بتلك الصيغ التي يصفها طلبة المدارس، لا نظنها توصل للمكان المقصود ولا تفي بالغرض المطلوب، خصوصًا ومعظم الشرقيين في ظلمات الجهل، وأنهم قد غلبوا

(١) حسنة الرُّوَاء: حسنة المنظر. (م).

على أمرهم (على نتيجة اجتهادكم) وكثر بين ظهرانيهم القوَّال وندر الفعَّال وعزَّ العثور على قول يمكن العمل به.

وإلا لو قلنا أن الملايين من الخلق لو تعلموا، وتهذبوا، وتفقهوا، وعلموا الواجبات، وكانوا على اتحاد حقيقي (لغلبوا الألوف!) هذا أمر بالبداهة معروف.

وإنما السر كل السر، والإرشاد كل الإرشاد (بالإفصاح عن سبل الوصول إلى الغاية عمليًا، وإمكان تطبيق النظريات فعلاً).

قال: «تطلبون الدواء، والداء دفين في جسم الشرق وأبنائه، مستحكم منهم، يعز، ويتعذر على الحكيم النطاسي، أن يصف الدواء الناجع، أو الشافي، والواقي، لاعتقاده أن المريض لا يتناوله بل ربما يعمل بعكس ما يشير به الطبيب اليوم ولو علم ذلك المريض أن في الامتناع من الدواء (الموت الزؤام) وهذه حالة الشرقيين في مختلف الأقاليم.

لدى أهل الشرق دواء سريع التأثير في الشفاء، لكنه عظيم الخطر، مفزع للجبناء منهم، وقد وصفه حكماء الشعر من العرب بقولهم:

عِـشْ عَزِيــزًا أَوْ مِـتْ وَأَنْتَ كَــرِيمُ   بَـيْنَ طَعْنِ القَنَا[1] وَخَـفْـقِ البِنُود
لاَ يَسْـلَمُ الشَّــرَفُ الرَّفِيعُ مِنْ الأَذَى   حَتَّى يُـرَاق عَلَى جَـوَانِـبِـه الـدَّم

---

(١) القَنَا: الرماح. (م).

هذا النوع من الدواء توارثه الغربيون، وعملوا بكل معانيه، فتسنى لهم به من العظمة، والاستطالة، والحكم بالشرقيين ما نراه محسوسًا، مشهورًا، وبين أيدينا، ومن خلفنا.

أما الشرقيون وقد وجدوا في هذا الدواء الشافي والواقي مرارة، ومشقة وقتية، وعناء - فاطّرحوه، ونبذوه جانبًا ورضوا من مجد باذخ ومسلك مُسْبَطِر[١] (بعير، ووتد!) قد لا يملكونها اليوم تمام الملك. فحق عليهم قول الشاعر:

وَلاَ يُقِيم عَلَى ذُلٍّ يُرَادُ به   إِلاَّ الأَذَلاَّن عير الحيِّ والوَتَد

قال: إن هذه الأنواع من المعالجات في الشرق إذا كنت أرى منالها اليوم بعيدًا؛ ذلك لسقوط الهمم، وخَوَر[٢] العزائم، وتفرق الكلمة، والاستسلام للخمول، وبعد النفوس في معظم الشرقيين عن مرامي العزة النفسية، وحرمانهم من لذة ما تنبسط به الروح عند نوال المَنْعَة[٣] القومية، والحرية الحقيقية، وما في عزة الحاكم الفرد من الحَوْل، والطَّوْل بقوة مجموعه (ولو كان صعلوكًا) على الجمهور المحكوم ذلك الجمهور الشرقي اليوم المستكين للمهانة، والخاضع للقوة الموهومة التي يتخيَّلها هولاً هائلاً، أو غولاً آكلاً.

ثم قال: «الناس في الموت خوف الموت وفي الذل خوف الذل».

---

(١) مُسْبَطِر: مُنْبَسِط. (م).
(٢) خَوَر: ضعف. (م).
(٣) المَنْعَة: القوة. (م).

أما وأنتم تطلبون دواء يسهل على الشرقيين تجرعه فأقول: بلى، نحتاج إلى عمل جديد، نربي به جيلاً جديدًا، بعلم صحيح، وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان الأول، على الأجساد والأرواح وهو «الدين» وجمع ما تشتت من الكلمة من أهل الأديان، وتوطيد العزم على قبول الموت في سبيل حياة الوطن.

يقوم بذلك جمعيات يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم الأبية عهدًا أن لا يقرعوا بابًا لسلطان، ولا يُضَعْضِعهم[1] الحَدَثَان[2]، ولا يثني عزمهم الوعيد، ولا يغرهم الوعد بالمنصب، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب، بل قوم يرون في المتاعب والمكاره - بنجاة الوطن من الاستعباد - غاية المَغْنَم، وفي عكسه المَغْرَم.

قلنا: نعم ما وصف الأستاذ إذا قيد الله، ويسر للأمة أفرادًا يقومون بتلك الغايات الشريفة، ويكون في نفوسهم ذلك الإباء، فلا يقرعون معه بابًا لسلطان (ولو استقرعهم) ولا يهرعون لمنصب.

وإن هم فعلوا فلا يغفلون عن الوفاء بالعهد، ولا ينقضون الميثاق.

ولكن أين هم؟

أجاب: «يقولون الحاجة أم الاختراع، وقال المصطفى ﷺ «اشتدى أزمة تنفرجي»».

---

(١) يُضَعْضعهم: يُخْضعهم. (م).

(٢) الحَدَثَان: نوائب الدهر ومصائبه. (م).

فالأزمة تلد الهمة، ولا رجاء من المستضعف إلا إذا يئس، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك.

وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج، سنة الله في خلقه:

ومَهْمَا ادْلَهمّ[١] الخَطْبُ لاَبـدّ يَنْجَلِـي وأَظْلَمَت الدُّنيَا فَـلاَبُـدّ مِن فَجْرِ

نعم لابد لذلك النسيم الذي حمل معه أجزاء فردية الحياة، والنشاط، والنهضة، ومرّ على أعرق الأمم في الجهل، ولما استنشقته هبَّت من رقادها، ودوّخت ممالك الأرض، واستفتحتها، وملأتها عدلاً، ذلك النسيم الذي جعل في العراق هارونًا ومأمونًا، وفي الشام، والأندلس، وسائر المشرق دولاً، ودَهَّاقِين[٢]، ودهاة، ومن فحول العلماء جَهَابِذَة[٣]، وأَسَاطين[٤].

أكرر وأقول «نعم» لابد لذلك النسيم بعد أن سرى عن تلك الممالك، والبقاع، فهبطت في مهاوي الذل، وأصبح نشاطها خمولاً، وعلمها جهلاً، وملكها أثرًا بعد عين، لابد وأن يعيد الكَرَّة ويمر على الشرق مرة أخرى فتنشط له العقول،

---

(١) ادْلَهَمّ: اشتد الظلام. (م).
(٢) دَهَّاقين: تُجَّارًا. (م).
(٣) جَهَابِذَة: خُبَرَاء بغوامض الأمور. (م).
(٤) أَسَاطِين: المبرزون في العلم. (م).

وتقوى به العزائم، وينفتح لاستعادة المجد المجال وتظهر من زوايا الخمول فحول الرجال إن شاء الله.

ثم استطرد وقال:

كما علمنا أن معدات المرض، وجراثيمه في الشرق، قد أتت من مطامع الغرب (ودخلت إليه من باب خمول الشرقيين) تنحصر في أمور رئيسية سبق التنويه بذكر بعضها، مثل إقصاء أصحاب العارضة، والأحرار الحقيقيين وإلخ.

كذلك يجب أن نعلم أن عوامل غريبة مهلكة تبدو في أول مظهرها خفيفة الوطأة، سهلة المأخذ، لا ضرر من التسامح بها وهي:

أسلوب عجيب لإضعاف لغة القوم، والتدرج بقتل التعليم القومي، وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس في لسانهم العربي، أو الفارسي، أو الأورد والهندي وإلخ، آدابًا تُؤثَر ولا في تاريخهم مجدًا يُذْكَر.

وأن المجد كل المجد لذلك الشرقي الخامل أن ينفر من سماع لغته، وأن يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها.

وأن ما تعلمه من الرطانة الأعجمية هي منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية؟!

قال: ولقد شاهدت، وسمعت من مثل هذه المضحكات، المبكيات عدة أشخاص من زَعَانِف الشرقيين[1] وقد وقفوا على منابر الخطابة، يتذلقون إلى طالبي الرزق في بلادهم من الغربيين فأنكروا على قومهم، ولسانهم كل فضيلة، وتغنوا بجمل غربية، ورطانة أعجمية، حشوها المدائح التي ربما تكون أوصلتهم إلى بُلْغَة من عيش عند ذلك المكتسح لبلادهم، ولسوف ينبذ من كان مثلهم مكانا قصيًّا، فلا الأجنبي يحميه، ولا الوطن يحويه.

لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمي، وتحيي آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم، وتنسج على منوالهم.

وهذا كله يتوقف على تعليم وطني يكون بدايته «الوطن» ووسطه «الوطن» وغايته «الوطن».

ويجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية، اثنان فاثنان، يعملان أربعة، فلا تستطيع المذاهب، أو الطوائف أن تدعيها خاصة، ولا أن تحاول نقضها.

هذا هو الوطن، وهكذا يجب أن يكون التعليم الوطني.

(١) زَعَانِف الشرقيين: رُذَال الناس. (م).

رأيه في كيفية الوصول لرفع ما وقع وسيقع على الشرق وأهله من الحجر وخطورة ما يلزم ذلك الأمر من الحكمة والتدبير وبيان وعورة المطلب

قال: لا يفوتنكم أن نهوض الأمة المحجور عليها، لفك حجرها بإثبات كفاءتها وترقية مجموعها بالعلم الصحيح، والأخذ بأسباب المهيئات لحكم ذاتها ليس كما تظنونه بالأمر السهل، فهو سيصادف عقبات كَؤُود[1]، ينبغي التفكر بها مليًّا، وإعداد قوة عظيمة من الحكمة، والدهاء والسعي الحثيث لتذليلها.

فالعالِم ولو كان «أعزلاً» فهو بعلمه «كمي[2] مِخَشّ[3]» - والجاهل وإن كان مخشًّا فهو بجهله «أعزل».

وهكذا القول في الأمة - خصوصًا في زماننا هذا - زمن الاستعمار.

أو كما قلت يا شيخ بني مخزوم في رياضك المصرية - زمن «تحرير الأرقاء وإسارة الأحرار».

---

(١) كؤود: شاقة صعبة. (م).

(٢) كَمِيّ: عالمٌ يقيه العلم السوء كما يقي السلاح المقاتل. (م).

(٣) مِخَشّ: ماضٍ جريء. (م).

أقول للشرقيين تأملوا كيف تحفظ الدول ثغور مستعمراتها من إدخال الأسلحة، والأجزاء النارية إليها، وكيف يشددون النكير، وينزلون أصرم العقوبات على من فعل ذلك.

والحكمة في هذا ظاهرة، وهي تخوف المستعمرين من استعمال تلك القوى ضدهم.

ولو أمنوا من عدلهم فيمن يحكمون من الأهلين، أو فيما استولوا عليه من الأمصار لما تخوفوا كل هذا التخوف، ولا أخذوا من التحوط كل هذا الاحتياط، وسَنُّوا له أصرم القوانين.

والعلم لقوم، أو لأمة قد سهل الحَجْر عليها - محض جهلها - ليس بأقل هولاً، أو أخف دهشة، وتأثيرًا من إدخال السلاح لمستعمرات المستعمرين أو الأوصياء على ثروة الشرقيين وبلادهم (لسرفهم وجهلهم).

فالغربيون ولا ريب يمانعون (بطرق خفية) ترقية الشرقيين لأنفسهم على طريقة وطنية خاصة بهم، ويعرقلون مساعيهم (بأشكال نصح غريبة) ولا يسهلون وسائل تهذيب أخلاق مجموعهم - بل يعملون على العكس - وبالإجمال لا يمكنونهم من التوسل فيما يؤول لوصولهم للحكم الذاتي بأساليب غاية في المكر، والمغالطة، والسفسطة، والاستعانة ببعض أهل البلاد على ذلك (وهم الأسقط همة).

فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح موت لحكم الغرب فيهم، وفك الحجر عنهم والعكس بالعكس.

إذن فلابد من تمام اليقظة، والعمل بكمال الحكمة من الشرقيين للوصول إلى الغاية بدَأْب(١) متواصل، وهمم لا تفتر، وعزائم لا تكلّ.

أما الرجال، والكهول، ومن شَبَّ منهم عن دور التعلم - واستقام على عوج فيما تلقفه - هؤلاء تقومونهم بالمحاضرات، وفتح نواد وطنية، للاجتماع، واختلاط أبناء الطوائف مع بعضهم، وإراءة طرق العمل للنهوض بالوطن، على طريق الخطب، والمثال الحسن، والتذكير والتحذير.

(١) دَأْب: عَادَة ومُلاَزَمة. (م).

رأيه في كيفية تربية الطفل الذي سيكون رجل المستقبل

قال: أما الأطفال والصبيان فأحسنوا للأول تربية المرأة، وأما الثاني (وهم الصبيان) فأغلقوا في وجوههم مدارس الحكومة، وافتحوا لهم أبواب المكاتب الأهلية.

لأنه لو سلم برنامج دروس مدارس الحكومة من سموم تُدَسّ في الدسم للوطن، لا تسلم من ضرر ما تشحنه فيها من علوم قد لا يحتاجها المتعلم في عمله، وفنون لا فائدة متحققة لمن تلقاها، ولكنها بلا ريب تترك التلميذ عليل الجسم، فيخرج عليل العقل، أليفًا للنظر في الكتب، خياليًّا، وهامًّا، نفورًا من العمل، جامدًا فيما تعلم، بليدًا في كل ما يحاوله من العمل.

أما «الوطنية» أو «حب الوطن»، فهو الداء الذي تخشاه المدارس الأميرية أو من كان تحت سلطة الأوصياء «الأجانب» منها، فتحرم ذكر ما يؤول للوطن كيلا تصاب الطلبة بالعدوى منه، وتعم بالنتيجة البلوى عليهم.

أما الطفل، فيجب أن تتعهده الأم رضيعًا، فطفلاً بكمال الاعتناء الصحي، ليكون صحيح الجسم صحيح العقل، ثم ترضعه حب الوطن مع تدريجه بالعلوم اللازمة، وعدم إطفاء نوره الفطري، بتعليمه الكذب، وتحبيب العمل إليه، وتمرينه عليه مع رعاية سنه.

وبالاختصار تجعلون المدارس الأهلية الوطنية دور علم وعمل، ولتكن تلك المدارس بعيدة من مزدحم الخلق، وفاسد الهواء، فسيحة الأرجاء، متنسقة تقسيم البناء، فكما يكون فيها غرف لتلقين العلوم، هكذا يكون فيها أماكن لمزاولة العمل.

وكلما دخل دماغ التلميذ شيء من العلم، أُجْبِر أن يعمل بأعضاء جسده شيئًا من العمل، فيعمل بالحدادة مثلاً، والنجارة، وبالبناء في المدرسة مع رفاقه، ويعاني تربية الحيوانات فيها، فيحتلب الأبقار، ويصطنع الجبن، ويستخلص السمن والزبدة وغير ذلك مما ينفعه جسديًّا وإذا خرج من المدرسة أفاده ماديًّا.

ويكفي إذا خرج على ما ذكرنا أنه يخرج رجل علم وعمل، لا رجل غطرسة، وعجرفة وكسل، كَلٌّ على أهله، يكثر به وبأمثاله العدد، ولا ينتفع بهم أحد.

أما الدين فعلى قسمين: قسم عبادات، وقسم معاملات.

فالعبادات يؤديها الإنسان لربه بمعزل عن كل أحد، فلا يعارض غيره بها، ولا غيره يعارضه؛ إذ لكلٍّ وجهة هو مولّاها، والله رب العالمين لا رب اليهود فقط، ولا النصارى فقط، ولا المسلمين فقط، وهو الذي خلقكم من نفس واحدة.

وأما المعاملات، فهي شرع بين العموم، يعمل أبناء الطوائف على خير وطنهم متكاتفين، متعاونين، يشتغلون في المدرسة أخدانًا، ويخرجون منها إخوانًا، يحملون بين أفئدتهم شعور الولاء والإخلاص، لا يحل ما ارتبطوا به من روابط المحبة الوطنية قرب ولا بعد، ولا ينسون عهد الصبا وذكراه، بل يكونون في جسم الوطن كأعضاء الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له المجموع من الجوارح، كيفما ساروا، وأينما حلوا، فلا يرون إلا وحدة من سماء، وأرض، وماء، وحب لوطن واحد، لا تبلبل ألسنتهم مختلف اللغات، ولا تشتت كلمتهم تباين النزعات، ولا تفعل فيهم أهواء أُولِي الغايات من أرباب تلك المدارس والمعاهد، أو إن شئت قل تلك المصايد وإن كان منها بعض النفع.

قوله في الصبر والثبات

قلنا: إن الأستاذ قال في مقدمة هذا البحث أن الإنكليزي: يثبت حتى على الخطأ إذا تسرع به وقاله، أو باشره، وبفضيلة ثباته يظفر، ويصل لغايته بنتيجة الثبات.

مع أن ثباته لو فرضناه، أو كما فرضه الأستاذ كان على الخطأ، فما معنى ظفره، وفضيلته بالثبات على غير الصواب؟ وهل في ربحه بالقوة المجردة غير الخسران؟

قال: إن الفضائل التي نجلها ومنها الصدق، والكرم، والشجاعة، وباقي الهيئات المتوسطة لم تكن لتحصل للفرد، أو للأفراد إلا بمزية الثبات عليها.

فلا يمتاز الرجل بصفته «صادقًا» إذا لم يثابر على الصدق ويُعْرَف به في سائر تقلبات الظروف والأحوال، وإلا فصدقه مرة أو مرتين لا يؤهله للاتصاف بالمعنى المطلق لفضيلة «الصدق – والصادق».

وهكذا القول في الكرم والشجاعة وباقي الفضائل، فلا يتسنى للمرء الاتصاف بها إلا بالثبات عليها.

فالثبات إذن عقد الواسطة للهيئات المتوسطة من كل فضيلة، أو رذيلة، ولا يمكن الاتصاف بأحدهما إلا بالثبات.

وهذا زهير بن أبي سلمى يقول:

مَنْ يَأتِ يَوْمًا عَلَى عِلاَّتِه[1] هَرِمًا يَلْقَى السَّماحَة مِنْه والنَّدَى خُلُقا

قال: وقد سمعت حكاية يعزونها للجنيد وهي:

أن رجلاً كان دَيْدَنُه السرقة وقد قطعت يده في الأولى، ثم قطعت الثانية في السرقة الثانية، فثابر على فعل السرقة برجله فقطعت، فثابر فقطعت رجله الثانية، فسرق بلسانه فقُطع، إلى أن استحق القتل فصُلِب، فمر عليه الجنيد فقَبَّل جسده، فقيل له «تُقَبِّل جسد لص مصلوب؟ قال: إنما أفعل ذلك لثباته!».

فسواء صحت هذه الحكاية - أو الأسطورة - أو لم تصح، ففيها ما يدل على معقول «فضيلة الثبات» من حيث هي.

وما أعلاه قدرًا، وأجله فضلاً إذا كان الثبات على ما يحسبه البشر فضيلة، وكان في الحقيقة من الأنواع النافعة للإنسانية التي يحصل بها تخفيف الآلام

(١) على عِلاَّته: على كل حال. (م).

الكثيرة في هذه الحياة القصيرة بالمعاونة، والمساواة، والإخاء الطيني الذي سترجع إليه كل هذه الهياكل البشرية عودًا كما بدأها خالقها: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات/ ١١] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت/ ١٩].

ثم قال: لو أخذنا ذلك اللص (الذي أفضى به الثبات على السرقة إلى القتل بعد قطع أهم أعضائه وأوصاله) طفلاً، وتعاهدناه على ما سبق بيانه، وهذبنا حيوانيته بالعلم الصحيح، والوسط الصالح، والمثال الحسن - وفيه ما فيه من ذلك الاستعداد الفطري للثبات - فأي عظيم من رجال الفضيلة كان يضارعه أو يفوقه.

مثلاً لو تعلم الفنون الحربية مع فطرة ذلك الثبات، أفما كان يكون عند أصحاب التيجان من أكبر قُوَّاد الكتائب، وأفرس الفرسان؟

نعم، ولكان من أكبر القتلة المبجلين المحترمين؛ لأنه لا ينقص عند أهل النظر من يعرف فن الحرب قولاً إلا الثبات في موطنه.

فالهزيمة والغلبة لا تتم إلا بفرار الجبان من فرد أو جيش، أو بالثبات منهما لبضع دقائق.

أما القول في الشرقي أنه لا يصبر، ولا يثبت اليوم تجاه أقل مقاومة، ولا يتحمل أدنى صعوبة، فهذا لا يحتاج إلى برهان؛ إذ حالة الشرق وأهله وما نراه في ممالكهم من الرزايا، والنوائب أعظم دليل قام بنفسه عليهم في معترك هذه الحياة، والتنازع فيه على الفناء!

إنكار جمال الدين ما نراه من المدنية ومغالطته باستبداله لفظة الفناء في التنازع عوضًا عن البقاء وأن العلم الصحيح إذا وصل إليه العالم فأعظم أثر له إنما يكون في منع الحروب التي هي من أكبر الأدلة وأسطعها على توحش الإنسان

قال جمال الدين أكثر من مرة «تنازع الفناء».

فقيل له: إنما يريد الأستاذ أن يقول «تنازع البقاء».

قال: كلا، بل تنازع الفناء.

لأن البقاء الذي لا يعتريه فناء، ليس في تنازع، ولا نزاع.

وكل ما نراه من حيوان، أو نبات، أو جماد فهم يسيرون في كل ثانية نحو الفناء، ولو بتبدل الشكل، وفنائه بالتحول.

والتنازع الذي نراه قائمًا بين الحيوان والنبات، إنما هو على أشياء تفنى في النتيجة.

وطالما المنتزَع، والمنازِع، والمنزوع منه سواء في المصير إلى الفناء، فكان الأصح أن يقال «تنازع الفناء».

قلنا: وهل اصطلاح العالم المتمدن على هذا التعبير خطأ لهذه الدرجة حتى يستبدل، ويضع لفظة «البقاء» مكان «الفناء»؟

قال: ما تعنون بالتمدن، أو العالم المتمدن؟

قلنا: الرقي النسبي بالمكتسبات العلمية، والمادية.

فأمة الإنكليز مثلاً، والفرنسيس، والألمان، والأمريكان، ومن ماثلهم من الأمم، هم مدنيون، متمدنون بأفرادهم ومجموعهم.

قال: لا يقدّر الفرد، ولا تقدّر الأمة، ولا تقدّر الأشياء، ولا تقدّر المكتسبات العلمية إلا بنسبة ما يترتب على ذلك من الفائدة.

فلنأخذ من ذكرتم من الأمم المتمدنة، ومكتسباتهم العلمية، وما صنعوه، وعملوه، وكسبوه، وربحوه، وما ترتب على ذلك، وما حصل من المنافع، والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات، والمدنية، والثروة، ثم نعدد ما رأينا.

هل رأينا غير مدن كبيرة، وأبنية شامخة، وقصور مزخرفة، ومعامل ينسج، ويصنع فيها القطن والحرير، بأصباغ كيماوية مختلفة ألوانها، ومعادن، ومناجم، واحتكار تجارات أتت لهم بثروات، وكنوز؟!

ثم هل غير التفنن باختراع المدافع المريعة، والمدمرات، والقذائف، وباقي المخربات القاتلات للإنسان تتبارى تلك الأمم الراقية، المتمدنة اليوم؟

ثم لو جمعنا كل ما في ذلك من المكتسبات العلمية، وما في مدنية تلك الأمم من خير، وضاعفناه، أضعافًا مضاعفة، ووضعناه في كفة ميزان، ووضعنا في الأخرى الحروب وويلاتها. لا شك أن كفة المكتسبات العلمية، والمدنية، والتمدن هي التي تنحط وتغور.

وكفة الحروب وويلاتها هي التي تعلو وتفور.

فالرقي، والعلم، والتمدن على ذلك النحو وفي تلك النتيجة إن هو إلا جهل محض، وهمجية صرفة، وغاية التوحش؟!

قال: وعندي أن الإنسان اليوم هو أحط درجة من إنسان الجاهلية حتى ومن الحيوان النَّاهِق[١].

لأنه ربما يكون للإنسان في دوره الأول في حروبه الوحشية وعوامل الجاهلية معذرة في طلب الحاجيات للحياة بسهم، وقوس، وسيف، وسمهري.

وقلما تفعل تلك المعدات في قتل النفوس، إذا قيست بما لدينا اليوم من المدمرات، والأسباب المهلكات، وباقي المعدات.

---

(١) النَّاهِق: الذي يخرج صوته من حلقه كالحمار. (م).

نعم لدينا كل ذلك نعده ونستعمله ليس للحاجيات بل لأدنى صور الكماليات.

أما كون الإنسان أحط من الحيوان النَّاهِق (لعدم استفادته من حقيقة العلم، أو العلم الحقيقي) فأعظم أدلته الحروب.

خذ أدهش الحيوانات المفترسة، وأسمّ الحشرات القتالة، فلا ترى بين تلك الأنواع ما تشاهده من حين لآخر، ما بين «الإنسان».

هل رأيت، أو سمعت أن ثلاثماية ألف أفعى، وقفت تجاهها مثلها، وتقلبت بينهم الأنياب واقتتلوا، أو قتلوا بعضهم بعضًا؟ أو العقارب؟.

أو هل وقفت الأسود صفوفًا، وتناهشت لحوم بعضها بعضًا، وسالت دماؤها؟ أو الحمير فعلت مثل ذلك؟ كلا ثم كلا.

إذن، فالإنسان في مدنيته الحاضرة، وفي مكتسباته العلمية، والأدبية، والعملية، وفي بذل ثمرات سعيه في سبيل الحروب، أو استثمار ثروته منها، وفي مرضاة موقدها، أو رضائه عنها، ووقوفه فيها تلك المواقف التي لا تقفها الحيوانات، ولا الحشرات - فهو أحط منهما - وليس ثمة مدنية، ولا علم، بل جهل، وتوحش.

ثم قال: قرأت في القرآن أمرًا تغلغلت في فهمه روحي، وتنبهت إليه بكليتي وهو: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة/ ٣٠].

فاندهشت الملائكة لهذا النبأ، ولهذه المشيئة الربانية؛ إذ علمت أن ذلك الخليفة سيكون الإنسان، وأن ذلك الإنسان – الخليفة – سيصدر منه مُوبِقَات[1]، وسيئات، أعظمها، وأهمها أنه «يسفك الدماء».

فقالت بملء الحرية، المتناسبة مع الملأ الأعلى وعالم الأنوار والأرواح، الذي لا يصح أن يكون هناك شيء من رياء ونفاق ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ . . .﴾[البقرة/ ٣٠].

ووقفت الملائكة عند هذا الحد من الطعن في الإنسان ولم تذكر باقي السيئات من أعماله؛ إذ رأتها لغوًا بالنسبة لهذين الوصمين – الفساد وسفك الدماء – لذلك برزت بهما حجة، واتخذتهما برهانًا على إعظام جعل الإنسان (خليفة) وفيه ذلك الاستعداد للعمل بالرذيلتين.

وهنا أول ما يتبادر للذهن أن قول الملائكة هذا أتى اعتراضًا على المشيئة الربانية، وفيه من عدم التأدب مع الله ما فيه، وهم أَوْلَى الخلائق بالتأدب، ومعرفة عظمة الخالق، وقد جاء في حقهم أنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم / ٦].

ومتى صح هذا كان الأقرب للصواب أن الملائكة أرادت أن تعلم ما أعده الله لصون الإنسان (وقد جعله خليفة له في الأرض) عن الفساد وسفك الدماء.

(١) مُوبِقَات: مُهْلِكَات. (م).

يدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...﴾ [البقرة/ ٣٣].

وبأبسط المعاني أن الله تعال أفهم الملائكة أنكم علمتم ما في خليفتي في الأرض وهو الإنسان من الاستعداد لعمل الفساد وسفك الدماء، وجهلتم ما أعددته لصونه، وصرفه عن الإتيان بالنقيصتين المذكورتين، ألا وهو «العلم».

فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ . قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ . قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة/ ٣١-٣٣].

فلا تَثْرِيب[١] على من يقول أن الله أراد بهذا أن يقول للملائكة: «أيتها الملائكة إنني قد عَلَّمْت آدم (خليفتي في الأرض) علمًا جهلتموه أنتم».

وأن بذلك العلم يُصَان الإنسان، ويُكَفّ عن الفساد، وسفك الدماء، فلا يحدث من خليفتي ما خشيتموه، وأعظمتم أمره (وذلك الصون للإنسان حصره بالعلم).

---

(١) لا تَثْرِيب: لا لَوْم. (م).

وجاء في القرآن تعظيم قدر العلم الصحيح (لا ما نراه من القشور فنسميه علمًا) بمثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر/ ٩]، ومثل ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت/ ٤٣].

فترى حكم المساواة في القرآن قد جاء عامًّا بين الناس، إلا في هاتين الآيتين إذ منع في الأولى (المساواة بين العالم والجاهل) وفي الثانية (أن يكون غير العالم عاقلاً).

فمما تقدم يُفهَم أن العلم الصحيح الذي يمكن للآدمي أن يصل إليه هو العلم الذي به ينتهي الإنسان عن الفساد في الأرض، وسفك الدماء.

والعلم الذي لا يصون الإنسان عن هذين النقصين ليس هو بالعلم الذي تعلمه آدم ليَدْحَض(١) حجة الملائكة على أنه سيفسد، ويسفك الدماء، بل هو يناقضه ويشهد على ذلك النقيض ما نشاهده اليوم في أوروبا، والعالم المتمدن مما جعل رُقِيِّهم النسبي في المكتسبات العلمية نقيضًا للبرهان.

ولابد أن يصل العالم الإنساني إلى درجة من حقيقة العلم يمتنع بها عن إراقة دماء بعضهم بعضًا، وليس بين القاتل والمقتول لا نزاع ولا خصام، حتى ولا تعارف بالوجوه بغير صفوف القتال، يساقون للمزاجر لإرادة ملك، مسرف

(١) ليَدْحَضْ: ليُبْطِل. (م).

مغرور، أو تهويل أفراد يقبضون على زمام الأحكام، ويسوقون الخلق للقتل كالأنعام، يغتنمون فرصة الحرب ليكنزون من ورائها الذهب والفضة.

ثم قال: إن الإنسان لتعروه الدهشة عندما يرى أفراد الأمة يسوق بعضهم بعضًا للثُّكْنَات(١)، فصفوف القتال، وجُلُّهم غير راض عنها بل نافرًا منها؛ إذ يعلم أن من ورائها يُتْم الأطفال، وموت الشيوخ، وهتك الأعراض.

يهولون عليهم، ويستهوونهم باسم «الوطن».

والوطن بقاع من الأرض - ولو أنصف الناس بعضهم بعضًا لوسعتهم - وما فضل الأرض إلا أنها تتحمل أثقال البشر يمرحون فوقها، ويقتتلون عليها وهم لها في الأخير تاركون، وإلى جوفها داخلون، فما أحرى بالإنسان أن يعيش مع أخيه فوق أَدِيمِهَا(٢) - وهو رفات العباد - بصحيح الإخاء، وشيء من الهناء ريثما يدرك الجميع الفناء.

ومما يزيد في الدهشة والحيرة، أن الحروب وويلاتها لا يحتاج في توقيفها وإبطالها إلاّ توقف الأمة عن إجابة الداعي إليها، وطلب الرجوع إلى العدل المطلق مع تحكيم الإنصاف المحض، فإذا فعلت ذلك كل أمة (ولو أهاجها ملكها، أو هَوَّل عليها أميرها، أو وزراؤها، ورؤساؤها) فبمن يقاتلون؟ والأمة محجمة عن الحرب،

(١) ثُكْنات: مراكز الأجناد وراياتهم. (م).
(٢) أَدِيمِهَا: وجه الأرض. (م).

لا ترضى بالقتال، وتطلب تحكيم العقل والعدل. وهل يرى المسيطرون غير ترك الطمع مخرجًا من ذلك الموقف الحرج؟ وهل يستطيعون غير ترك الضعفاء يأخذون حقهم بقوة الحق؟ بلى، لا ينقذهم غير ذلك.

نعم، إن عدم إجابة الأمم لداعي الحرب، واتفاقها على تحكيم العقل والعدل فيما فيه يختلفون هو الذي يكفي البشر شر الحروب والقتال، ويجعل الخلق في سلام دائم، وهناء مقيم.

هناك يصح أن يقال: إن البشر أو بني آدم قد تعلموا، وحصل لهم مكتسبات علمية، أو على اصطلاحكم «تمدنوا!» ليس بمعنى أنهم تركوا القفر، وعمروا المدن وسكنوها، كلا، بل بصحيح العلم الذي إنما يكون له قدرًا على نسبة ما يترتب عليه من الفائدة.

ثم قال: وأعظم ما يبعث على الأمل في إبطال الحروب إذا ارتقى العالم الإنساني في حقيقة العلم، وعَمّ طبقاته، إنك لو أخذت اليوم عموم عساكر بريطانيا، وتخيلتهم حقيقة مثل «نيوتون» و«درون» وغيرهما، وفرنسا مثل «باستور» وأمثالهم من باقي الأمم فهل يقفون صفوفًا للاقتتال لعدم احترام سفير، لأن كرسيه وضع في المأدبة الملوكية في غير الموضع الذي يريده. وهل يريقون دماء ميئات الألوف من تلك الأنفس الزكية لذلك، أو لأجل بقعة من الأرض يطمعون بضمها للمملكة، أو ليستعمرونها.

قال: لا أظن! ولا تظنون ذلك، ولا هم يفعلون.

قوله في دعوة الإسلام وكيفية انتشاره وأن الدين لا ينبغي ولا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ولزوم الرجوع إلى التأويل

قيل لجمال الدين بعد أن انتهى من إفاضته في بحث الحروب ولزوم إبطالها على نحو ما سبق:

إذن ما معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ ...﴾ [الأنفال / ٦٠].

وآية السيف التي نسخت ثلث القرآن تقريبا؟

والأمر الصريح في الجهاد؟

قال: هنا فرق عظيم بين ما نراه من الحروب اليوم وبين الجهاد في سبيل الدعوة الدينية - والقصد منها إرجاع الخلق إلى الحق - ذلك الجهاد الذي ما عمل به الإسلام فورًا، واعتباطًا من غير تدريج.

جاء محمد ﷺ بالإسلام والقرآن بعد أن تقدمه موسى عليه السلام بالتوراة. وعيسى عليه السلام بالإنجيل.

فلم يمض على بني إسرائيل دهر طويل بعد موسى حتى تلاعب الكهنة والكتبة، والفريسيون[١] بأحكام التوراة، وبكثير من أساسات النَّاموس المُوسَوِيّ[٢] فجاء عيسى مصلحًا ما اختل، ومداويًا ما اعتل، ومتممًا لما أنقص من ذلك الناموس - وأدلى بالإنجيل - وفيه وفي التوراة «الهدى» وما يلزم للخلق من الإرشاد!

ولكن لم يمض كذلك حين من الدهر حتى ظهرت الاضطرابات الدينية والفرق - من صائبة ويعقوبية وغيرهما - وساء الكثير من الناس فهم أقوال المسيح الروحانية العالية، والتصوفية المحضة.

وظهر في العرب ما هو أشد وطأة إذ استَفْحَل[٣] بينهم أمر عبادة الأوثان وطَمَّت[٤] الضلالة، والغواية، وعمَّت الأعمال البربرية عموم القبائل العربية حتى لم يستثن منها فريق ولا قبيل.

---

(١) الفريسيون: هم إحدى فئات اليهود الرئيسية كانوا يؤمنون بخلود النفس وقيامة الجسد ومعاقبة الإنسان في الآخرة غير أنهم حصروا الصلاح في طاعة الناموس، وادعوا وجود تقليد سماعي عن موسى ورثه الخلف عن السلف. (م).

(٢) النَّاموس المُوسَويّ: شريعة موسى عليه السلام. (م).

(٣) اسْتَفْحَل: قوى واشتد. (م).

(٤) طَمَّت: كَثُرت. (م).

تلك الأعمال التي تقشعر منها الأبدان، كَوَأْد - دفن - البنات أحياء وما أشبه، وباقي الضلالات من العبادات، وتعدد الآلهة من هبل أكبر، وعزَّى واللات، ومناة، وغير ذلك.

فجاء محمد ﷺ رسولاً مصدقًا لصحيح التوراة والإنجيل - داعيًا إلى الله، وتوحيده، مرشدًا للخير أمينًا - بشريعة سمحاء تكفلت لعموم الخلق بكل سعادة مادية، ومعنوية - مُقَبِّحًا للشرك بالإله، والمشركين به، مظهرًا بطلان ما يعبدونه من دون الله - بقرآن معجز، وحجج بالغة - مثل قوله، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد/ ١٦].

ثم قال:

أما آية السيف فقد قلتم أنها نسخت على وجه التقريب (ثلث القرآن) وهذا الثلث إنما كان كله لطف، ويسر، وأمر بالمعروف، ودعوة إلى وحدانية الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، ومُبَاهَلَة[1]، وتحدي، وجدال بالتي هي أحسن. ينطوي تحت كل هذا مطلب واحد وهو توحيد الله وعبادته، وترك عبادة الأوثان، وقبول الهداية، واستئصال الضلالة. حتى إذا ما ذهب كل ذلك اللين، واللطف،

(١) مُبَاهَلَة: مُلاَعَنة. (م).

والدعوة بالحكمة، والمواعظ الحسنة عبثًا – في سبيل قبول الهداية – وفيه نفع شامل.

وبرز المخالف مصرًّا على الضلالة، مقاومًا – وفي ذلك ضرر عام للمجموع – عند ذلك وقف الإسلام في وجه المشركين من العرب، وأنذرهم بأنه لا يقبل منهم إلا «الإيمان» بالله وحده، وتحطيم «الأوثان».

وما أشد ما لا قاه محمد ﷺ ومن آمن به من كفار قريش، ومن عشيرته، ومن عموم العرب من أنواع الاضطهاد، والاستهزاء، والعذاب مما يطول شرحه وما هو معلوم عند العموم.

أما أهل الكتاب (وهم الموسويون والعيسويون[١]) فقد خيرَّهم الإسلام أحد أمرين:

إما الاشتراك بأداء الجزية وفيه صلاح الأمر الدنيوي للكافة، والمقصد الأعلى من هذا صون النفوس، وعدم سفك الدماء، بقليل من مال يؤخذ فيصرف في المنافع، والمصالح، وفي تعزيز قوة المجموع، وكذلك يدخل به مع القوم إلى ساحة مساواة حقيقية – له ما لهم وعليه ما عليهم – (ولا إكراه عليه في دينه بل يكون مصانًا في شعائره، وأصول عباداته، وعاداته من كل أذى).

(١) الموسَوِيُّون والعِيسَوِيُّون: أتباع موسى وعيسى عليهما السلام. (م).

وإما أن يختار الإسلام فيشارك القوم في العاجل من دنياهم، وسلطانهم، وفي كل ما حوته أخراهم من نعيم مقيم، وجنات تجري من تحتها الأنهار.

والغرض الأسمى في الحالتين - كما ترى - هو عدم سفك الدماء ووقاية ذلك البناء الإلهي من الهدم جذافًا، بل تجسم فيه طلب الهداية لعبادة إله واحد، وتأسيس العدالة، وتوزيع الحق بمطلق المعنى.

لذلك ترى أن كل مصر، أو قطر دان بالإسلام، أو دخل في حَوْزَتِه[١] خيَّم فوق ربوعه السلام، ورَتَع[٢] أهله في بُحْبُوحَة[٣] من العدل المطلق وساد فيه الأمن والأمان، وحصلت المساواة على أصح وجوهها، ونمت الخيرات بينهم، وفاضت البركات باعتراف كل منصف غربي مثل اللورد (اسبنسر) و(كارليل)، وغيرهما ممن قالوا الحق ونطقوا بالصدق.

وهذا كله لا يشبه بصورة من الصور حروب أهل المدنية الغربية الحاضرة التي يشب ضِرَامُهَا[٤] لتوسيع نطاق البلاد بالإلحاق، أو بالاستعمار وبالنتيجة استعباد العباد تحت تلك الوسائل.

---

(١) حَوْزَته: جَمَاعَته. (م).
(٢) رَتع: تَنَعَّم. (م).
(٣) بُحْبُوحَة: وَسَط كل شيء وخياره. (م).
(٤) ضِرَامُها: لَهِيبُها. (م).

ويتوهم الكثير ممن لا وقوف لهم على الحقائق، أو من يكابر بالمحسوس، أن انتشار الدين الإسلامي فيما انتشر فيه من الأمصار، والأقطار إنما تم بعامل القهر، والسيف، وسطوة الجيوش. ولكن إذا نظرنا إلى الحقيقة بعين الإنصاف رأينا أن من ظهور الإسلام في مكة إلى الهجرة للمدينة «يثرب» إلى أن عم الإسلام جزيرة العرب بأسرها، لم يحصل بغير غزوات معدودة، وسَرِيَّات[١] محدودة، بطش الإسلام بها في الكفار من قريش كوقعة بدر، وأحد، وحنين، فذلت أشد القبائل العربية، ودانت بالإسلام وعم الفتح باقي الجزيرة، وتناول اليمن بدون قتال، بل بالدعوة والإرشاد فقط.

ثم إذا أخذنا ما تجمع للخليفة الأول أبي بكر، وللخليفة الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه من الجيوش وما بعثوه من المجاهدين، وعلمنا أن مجموع الجيوش الإسلامية في العهدين لم يتجاوز الأربعين ألفًا، وقسنا ما دخل من الممالك في حوزة المسلمين، ومن دان بالإسلام (من قطر الشام، وفلسطين، فحلب، فالعراقين، فمصر وممالك الفرس، وغيرهم إلى جدران الصين، تبين وتحقق لنا أن عمل الجهاد بالسيف لم يكن ليذكر في جانب الدعوة بالحكمة، والأخذ بالعدل المطلق، والمثال الحسن، والقدوة الصالحة) وما فتح من البلدان، والأمصار صلحًا أكثر بكثير مما فتح عنوة وحربًا. وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[الأنفال/ ٦٠] ليس لسفك الدماء كما يظهر من صريح الآية بنهايتها

(١) سَرِيَّات: قِطَع من الجيش. (م).

حيث قال: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال / ٦٠] فالأمر بإعداد تلك القوة لم يكن ليقصد منها إلا «الإرهاب» فقط ليتقي بها سفك الدماء. وليخشاها طلاب الحروب، ويمتنع قتل النفوس.

فتوفير العُدَد والعَدَد، وإرصاد القوة على مطلق المعنى إذا كان القصد منه «الإرهاب» وليس سفك الدماء كما هو الظاهر والواقع، فهي أفعل الوسائل لمنع الحروب.

«فمولتيكي» قائد الألمان قال ما معناه (أبطال الحرب لإبطال الحرب). والقرآن جاء بذات المعنى قبله بألف وثلاثماية عام بدليل ما مر من حصر القوة بمطلق معناها للإرهاب فقط.

فالقرآن وتعاليمه، ودين الإسلام ومَن دَانَ[١] به، والسيرة المحمدية ومن عمل واقتدى بها من الأصحاب لو أمكن للناس أن يعملوا بها، لتوفرت لديهم السعادة وأنواع الخير، ولخف عنهم كثير من الويل والشر.

أقول هذا - وعزة الحق - وأنا غير متحيز، ولا منتصر للإسلام عن غير هدى، ولا يداخلني بمعتقدي هذا أدنى عامل من عوامل التعصب.

---

(١) دَانَ: انقاد وطاع. (م).

لذلك أقول، ثم أقول القرآن القرآن، وإني لآسف إذ دفن المسلمون بين دِفَّتَيْه(١) «الكنوز» وطَفَقُوا(٢) في فَيَافِي الجهل(٣) يفتشون على الفقر المُدْقع(٤)!

خالفوه في كل ما أمر، وعملوا عكس ما قال، حتى كأنما القرآن أمرهم بالاختلاف، وحذرهم من الائتلاف، وحثهم على انتقاضهم على أنفسهم، وتشتت كلمتهم، وأن لا يعتصموا بحبل الله جميعًا، بل يتفرقوا ليفشلوا وتذهب ريحهم؟!

أو كأنه قال: لا تتدبروا معاني القرآن لتفهموا، وتعملوا بما يؤول لخير دنياكم قبل أخراكم.

وكيف لا أقول وا أسفاه! وإذا نهض أحد لتفسير القرآن فلا أراه إلا يهيم بباء البسملة ويغوص! ولا يخرج من مخرج حرف صاد الصراط حتى يهوي هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية مع استكماله الأمرين على أتم وجوههما.

عَمَّ الجهل، وتفشى الجمود في كثير من المتردّين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة والقرآن بريء مما يقولون.

---

(١) دفَّتَيْه: جانبيه. (م).
(٢) طَفَقُوا: أَخَذُوا. (م).
(٣) فَيافي الجهل: الجهل الواسع الممتد الذي لا نهاية له، وفيافي: صحاري واسعة لا ماء فيها. (م).
(٤) المُدْقِع: الشديد. (م).

أثبت العلم كروية الأرض، ودورانها، وثبات الشمس دائرة على محورها. فهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لابد من أن تتوافق مع القرآن والقرآن يجب أن يجلّ عن مخالفته للعلم الحقيقي، خصوصًا في الكليات.

فإذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات، اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة، ورجعنا إلى التأويل؛ إذ لا يمكن أن تأتي العلوم، والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة، وهي في زمن التنزيل مجهولة من الخلق، كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود.

ولو جاء القرآن، وصرح بالسكة الحديدية، والبرق، وما تفعله الكهربائية من الغرائب وغير ذلك - لضلت الناس، وأعرضت عنه، وحسبته كذبًا.

لذلك نراه قد جاء بالإشارة إلى كل ما هو حادث اليوم، وما هو ممكن أن يحدث في مستقبل الزمن، مع مراعاة عقول الخلق، وتقريب الأشياء للأذهان عن طريق نظرهم، وقابلية فهمهم.

فيما اشتمل عليه القرآن من تدبير الممالك وأصول الحكومة الشورية ووظائف الملوك إلخ. والإشارات إلى مقدمات العلوم والفنون الحديثة

نعم، إن تدبير الممالك وصونها من سلطان أو ملك يطغى بقوته بالحكمة، وحسن الرأي، وأصول الحكومة الشوروية، والمشاورة، ودعوة الأمة للتداول، ووظائف الملوك، ومساويهم، وما يحدثونه إذا دخلوا بعساكرهم للمدن، والقرى من المفاسد، وإذلالهم أعزة القوم، وصلاحية الملوك في إعلان الحرب بعد أخذ رأي الأمة، وأصول مفاوضة الملوك مع دهاقين المملكة، والأشكال النافعة من التجسس، ومعرفة أحوال الممالك المجاورة وغيرها، كل ذلك مسطور في القرآن - في سورة النمل - بأصرح عبارة، وبآيات وجيزة.

وإليك البيان:

غضب سليمان عليه السلام على الهدهد إذ تفقده ولم يجده، فلما حضر قال: جئتك من سبأ بنبأ يقين - (غير مُلَفَّق، ولا مَشُوب[1] بكذب كما تفعل أكثر الجواسيس مع الملوك والحكام) - ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن

(١) مَشُوب: مَخْلُوط. (م).

﴿كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل / ٢٣] - دينهم ومعتقدهم - ﴿وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل / ٢٤].

فلم يتسرع سليمان بقبول نبأ الهدهد بل قال ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل / ٢٧]. ثم أعطاه كتابًا ليوصله، وأوصاه أن يترقب عن بعد ما يفعلون.

فلما جاء الكتاب إلى ملكة سبأ جمعت فورًا مجلس الأمة و﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل / ٣٢].

وبعد أن تداول مجلس الأمة (الوزراء اليوم مثلاً) واستخرجوا إحصاء من سجلاتهم بما عندهم من المعدات الحربية، أعلنوا الملكة وأنبأوها أنه في إمكانهم محاربة سليمان بما توفر لديهم من القوة إذا هي وافقت على إعلان الحرب ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل / ٣٣].

فقالت ما معناه: إن للحرب ويلات فلا ينبغي أن نتسرع بإعلانها بل نحاول درأها بما أمكن من التدابير، والوسائل السلمية والتودد، واللين إلى غير ذلك عسى أن نتخلص، ونخلص البلاد من رزايا دخول الملوك بعساكرهم وما يحدثه ذلك ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل / ٣٤] - ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل / ٣٥].

وكأنها أسرت في نفسها قائلة: إذا قبلوا الهدية، علمت أن مطمع سليمان بالمال وليس للإيمان بالله وتوحيده.

فرد سليمان الهدية، وتحفز لإخراج الملكة وقومها أذلة بالحرب وأراد أن يريها ما لديه من القوى، وما تسخر له من رياح يمتطيها[١] وتجري بأمره (طيارات) مثلاً، وسرعة نقل الأخبار والأشياء بأسرع من البرق (التلغراف اللاسلكي) مثلاً.

وجدنا في ذلك القصص أن بتلك الواسطة التي توفرت لسليمان، وبها نقل عرش بلقيس من سبأ إلى القدس قبل أن يرتد إليه طرفه جاءت صريحة بالعمل مبهمة عن الآلة العاملة؛ إذ لم يكن بالإمكان للقرآن أن يصرح بشكلها أو باسمها لبعد ذلك عن الأذهان في ذلك الحين.

وكذلك لو جاءنا القرآن بنقل الأخبار بالفضاء وشرح لنا ما فهمناه اليوم لما صدقنا ذلك لو لم نره (باللاسلكي).

وهكذا العلم لا يعجز عن إحداث ما نظنه اليوم مستحيلاً، وإبرازه مرئيًّا، فالبشر في الهيكل الترابي قد تحدد له ما يستطيع عمله به، وإنما في قوة روحه، وبحبوحة عقله، لا ندري إلى أين يصل، وأي المستحيلات اليوم لا يمكنه أن يجعلها ممكنة، فنراها بسيطة بعد أن كنا نعظم تخيلها.

---

(١) يمتطيها: يركبها. (م).

وفي قصة الهدهد إشارة دقيقة جدًّا وهي: عندما أراد سليمان استحضار عرش بلقيس استعرض ما عنده من وسائط النقل السريعة، وأربابها، واستبرزهم ما عندهم من ذلك ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل / ٣٩]. فرأى السيد سليمان عليه السلام ذلك بطيئًا فلم يَرُق له. فتقدم عند ذلك غيره و﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل / ٤٠].

فعلمنا من تلك الإشارة، أو الصراحة أن واسطة نقل الأشياء بسرعة لا يتخيلها وهمنا اليوم، كانت علمًا مدونًا بكتاب، وله أرباب، وذوي رسوخ فيه، وتمكن، وقدرة عليه على غير طريقة الأرواح التي يتم لهم بها خاصة التطور.

وها علماء عصرنا اليوم قد انتبهت إلى عمل الروح، واستخدامها بالتنويم المغناطيسي (اسبيرتيزم) و(هبنوتيزم) هذا العلم إذا لم يتوقف البحث فيه بل سار متقدمًا بالتجارب، والتَّمحِيص[1] لا يبعد أن يأتينا من المدهشات والغرائب بما لم يكن بالحسبان، بل ربما يحقق لنا ما سبق القرآن بالإشارة إليه كما ذكرنا.

أما كروية الأرض وهي من الحقائق العلمية فقد أشار إليها القرآن بقوله ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات/ ٣٠] والدَّحي بلغة العرب (البيض) أو الشكل البيضي، وهو الكروي أو الأقرب إليه.

---

(١) التَّمحِيص: الاختبار. (م).

فهذه الإشارة تكفي لتتفق الحقيقة العلمية مع القرآن، أو نرجع بالتأويل ليتفق القرآن مع الحقيقة العلمية لا أن يختلفا.

وأما ثبات الشمس، وأنها تدور على محورها، فقد أشار إلى ذلك بقوله ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ...﴾ [يس/ ٣٨] والجري والدوران بمعنى واحد، وكذلك المحور والمستقر - فلا تثريب على من يستنتج أن الشمس تجري على محور لها - هذا إذا كانت الحقيقة العلمية ما ذكرنا (من دوران الشمس على محورها) فالقرآن يكون قد أشار إليها وما خالفها.

ووصل علماء الفلك بالبحث إلى أن الأرض والشمس كانتا جِرْمًا وَاحِدًا ثم انفصلت الأرض كرة كما هي اليوم وكان السَّديم[1] إلى آخره.

فإن تقرر هذا كحقيقة علمية فإنا نرى في القرآن ما لا يخالفها، بقوله ﴿كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾[الأنبياء/ ٣٠].

وإذا نظرنا مثلاً في علم الثروة رأينا أن كثيرًا من المتأخرين قد ادعوا وضع قواعده الكلية، ونَوَّه بذكر أفرادهم لبراعتهم بفن الثروة، ومن أعظم تلك القواعد وجوب جباية العشر وقت حصاده، وما ينطوي تحت ذلك من أموال يؤخذ عنها (رسوم) عند وجودها، وأن من فوائد ذلك سهولة أداء الزارع ما عليه من الحق في وقت الحصاد وإلخ.

(١) السَّدِيم: الضباب الرقيق. (م).

فنرى أن القرآن قد سبق أولئك العلماء في فن الثروة، وجاء بتلك القاعدة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام/ ١٤١].

وهكذا ترى في القرآن إما إشارات إلى كليات العلوم وقواعدها، وإما بصراحة، وقد يطول الشرح في تتبعها كلها فاجتزأنا بهذا القليل عن الكثير، وتركنا لطالب المزيد التتبع.

ومما أشغل العلماء كيفية فناء العالم، والصورة التي يتم بها فتتبعثر الأرض.

وغاية ما وصلوا إليه أن الفناء الأرضي، وقيامتها، إنما يتم باختلال النظام الشمسي، وبالزلزال.

وعلى هذا نرى القرآن قد أشار بل صرح بذلك بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج/ ١] - وبقوله ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة/ ١-٢].

أما الإشارة إلى اختلال النظام الشمسي فقد قال في بحث الساعة وعلاماتها ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف/ ٤٧] أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي، وإذا ما حصل ذلك فلا

شك يختلف ما عرف من الجهات اليوم فيصير الغرب شرقًا والجنوب شمالاً ، وبذلك الخروج عن النظام الشمسي وما يحدثه من الزلزال العظيم، لا شك تتبعثر أجزاء الأرض لبعدها عن المركز، وتنسف الجبال نسفًا، وتتحول براكين هائلة، وبالنتيجة تخرب الكرة الأرضية ويعمها الفناء بما فيها من حيوان وتقوم القيامة والله أعلم.

فيما سبق إليه العرب من العلوم والفنون

قال جمال الدين: أخذ المنصفون اليوم من علماء الغرب بالاعتراف للعرب ببعض الفضل بما سبقوا إليه - كالجبر - وهو من موضوعات العرب وواضعه «أبو السمح».

والجاذبية، والمركز[1] لم يكن المكتشف لهما (اسحق نيوتون) مع الاعتراف بفضل الرجل.

وكذلك التحليل والتركيب[2]، واكتشاف الفوسفور[3] واستحضاره واستحضار الأوكسجين من حجر المغنيسيا[4]، ووصفهم لغاز الأوكسجين

(١) اكتشفها أبو بكر بن بشرون من الجيل الثالث للهجرة، وعرفها بقوله عند ذكر مركبات الكيمياء «قوة حاسة قابضة منعكسة إلى المركز الأرض».

(٢) وكذلك التحليل والتركيب من مكتشفات بن بشرون من تلميذ أحمد بن مسلمة المجريطي الذي عاش في الجيل الثالث وذكر ذلك في رسالته لأبي السمح في الكيمياء الموجودة في مقدمة ابن خلدون تحت تعبير «الحل والعقد».

(٣) اكتشفه بن بشرون كذلك في الجيل الثالث للهجرة - والمؤرخ الألماني «هفر» في كتابه تاريخ الكيمياء يقول صراحة: أنه وجد في المكتبة الملوكية رسالة ترجمت إلى اللاتيني لبشير من علماء العرب الموجود قبل أعصر يعرف استحضار الفوسفور من الأدرار ويسميه «الياقوت الجمري الاصطناعي».

(٤) وهو من مكتشفات ابن بشرون وعرفه بخاصته في الرسالة المار ذكرها لأبي السمح وتعبيره عنها (بروح حساسة أي غاز).

والدلالة عليه بخاصته أنه غاز حساس، وكذلك الأيدروجين وخاصيته، وأن الواحد منهما لحاسته يطفئ الأجسام الملتهبة، ويصعد مرتفعًا، والثاني يلهبها وهو أحط من الأول.

وحامض الأزوت[١] - وحامض الكبريت[٢] - والكبريتي وغيرها من عمادات مباحث الكيميا كل ذلك من مكتشفات العرب.

وكان الأساتذة في علم الكيمياء للجيل الثالث للهجرة أحمد بن مسلمة المجريطي، وتلميذه بن بشرون، وأبي السمح وقد تقدمهم مثل جابر بن حيان الحراني، ومن بعدهم زكريا أبو بكر الرازي وغيرهم.

---

(١) حامض الأزوت وهو من مكتشفات جابر بن حيان الكوفي ولم يستطع الغربيون إنكاره أو ادعاءهم اكتشافه. وجابر عاش في الجيل الثاني للهجرة وفي العصر الثامن للميلاد يعني قبل ألف ومائة سنة تقريبًا.

(٢) اكتشفه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المولود في مدينة (الري) في بلاد العجم سنة ٢٤٦ وتوفي سنة ٣٢٩ وعرف استحضاره وذكره في كتابه (الحاوي) في فن الكيمياء باسم (روح الزاج) وأنه بتقطير (زاج قبرس) التي هي (كبريتيت الحديد) يستحصل حامض الكبريت الذي هو أهم الحوامض وألزمها وأنفعها في الصنائع.

أدلة جمال الدين على أن الكيمياء قد تتم بالصناعة وتفنيده لأدلة ابن خلدون

قيل لجمال الدين: أن المجريطي، وتلميذه بن بشرون، وأبي السمح ورد ذكرهم في مقدمة ابن خلدون في بحث الكيمياء، فما رأي الأستاذ في هذه الصناعة؟

قال: أما أحمد بن مسلمة المجريطي، وهو من انتهت إليه الرياسة في مختلف العلوم في الأندلس (في الجيل الثالث للهجرة وما بعده) فما كذب في قوله «أن الكيمياء ثمرة الحكمة» وأنها «تتم بالصناعة» أي يتم عمل المعادن الخسيسة وترفيعها للذهب، أو الفضة (صناعة).

أقول هذا لا تقليدًا للطغرائي، ولا لأني عانيت هذا الأمر، أو أشير على أحد أن يعانيه، أو يولع به، وليس ذلك لاستحالته كما يتوهمون بل لعدم توفر أسبابه العلمية، والفنية، وعدم وجود الأستاذ فيه - وشغف الخلق في معدن الذهب معلوم - الأمر الذي يذهب معه كل عقل، ودربة.

فيحاول المولع لاقتطاف ثمرة الحكمة بمحض الجهل، والتخبط بتجارب وأمور لا تثمر إلا الخيبة.

أما براهين ابن خلدون في إنكاره على المجريطي وابن بشرون قولهما بصحة الكيمياء، وموافقته لأستاذه - التلفيفي - وحكمهما باستحالة صحتها (الكيمياء) - لم يكن بالاستناد منهما إلى علم - بل جلّ برهان ابن خلدون وأستاذه - أن رسالة بن بشرون في الكيمياء من قبيل الألغاز، ومعانيها لا تكاد تبين! مع أن الرسالة بكافة ألفاظها، ومعانيها صناعية محضة، وفنية صرفة.

وعلم الكيمياء له اصطلاحات خاصة يفهمها من يعاني، ويدرس ذلك العلم.

ولما كانت الكيمياء ثمرة الحكمة والعلم كما صرح به المجريطي - كان فهم ما يكتب في شأنها عويصًا - يحتاج إلى تحقيق في النظر، وممارسة في العمل.

ولم يدّع ابن خلدون أو أستاذه التلفيفي أنهما عانيا هذا الفن ولا هما فنَّدا ما ورد في الرسالة عن طريق علمية، أو أتيا بالحجج والبرهان.

بل غاية ما قالاه كما سبق (أن الرسالة لما كانت من قبيل الألغاز أو لا تكاد تبين فهي إذن لا تتم - يعني الكيمياء - إلا بالسحر أو بأرفاد مما فوق الطبيعة).

مع أن الرسالة كما قدمنا صناعية، فنية صرفة تنطبق في معانيها على فن الكيمياء الحديث - المأخوذ بدون شك عن جهابذة العرب - أولئك الأعلام الذين وصلوا من كل فن إلى الغاية منه خصوصًا فيما نحن في صدده (الكيمياء).

ولابد أن يأت زمن - إن دام الحال على هذا المنوال - من البحث والتنقيب والتجربة، أن يتوصلوا إلى فهم حقائق هذا الفن الجليل واقتطاف ثمراته.

قلنا أن علم الكيمياء قد أخذه الأوروبيون عن العرب بشكل ناقص لغريب اصطلاحاتهم فيه، والتزامهم التعمية بأكثر مباحثه لأنه لم يكن قصدهم منه ترقية الصناعة، وإيجاد الأصباغ، والأجزاء الكيماوية على نحو ما فعل الأوروبيون بعلم الكيمياء، بل كان غرضهم (العرب) عمل الذهب بالصناعة ومع كون أوروبا لم تعتن، ولم تهتم إلا بقشور ذلك العلم وهي مقدمات لنتيجة، فقد قامت تلك القشور لدى الغربيين مقام تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب بدليل ما انتفعوا بها في شعبات الصنائع والتجارة.

ثم إن ابن بشرون - في رسالته لأبي السمح - قد دَلّ بإشارة، وبتعبير خاص على المادة التي يمكن بها العمل، وهي ما يسمونه باصطلاحهم (الحجر الفلسفي أو المكرم، أو حجر الحكمة) - وأنصف كل الإنصاف بقوله: أن معرفة المادة وحدها لا تفي بالغرض المقصود، ولا تثمر إذا لم يتمكن طالب ذلك العلم من معرفة عمادات تلك الصنعة - ومنها «التحليل والتركيب» - هذه الصراحة

في أساس فن الكيمياء وجدت مسطرة في رسالة ابن بشرون العربي قبل الجيل الثالث للهجرة وبعده، وعلماء أوروبا يدعون بدون محاشاة أو مبالاة، أن المعلم لا فوازيه هو أول من تنبه فأثبت التحليل، والتركيب!

نعم إن ابن بشرون لم يذكر بلسانه العربي لفظة «تحليل» و«تركيب» بل قال «الحل» و«العقد» – وهو الأصح فنًّا وفهمًا.

ثم ذكر ابن بشرون بعد التحليل والتركيب – أو بعد الحل والعقد عمادًا آخر – وهو التقليب وفسره بقوله تقليب الشيء من جوهره إلى جوهر غيره ارتقاء – قال «فالتراب يستحيل نباتًا، والنبات حيوانًا، وأن أرفع مواليد النبات أدنى طبقات الحيوان – سلسلة تنتهي عند الإنسان إذ هو آخر الاستحالات الثلاثة ونهايتها إلخ».

وقد ذكر في معرض التحليل، والتركيب – أو الحل والعقد، قائلاً: إننا لو أخذنا مادة مركبة وحللناها ثم أعدن تركيبها (وهو ما يسمى اليوم في علم الكيمياء الحديث «أصول سانتاز» يستحيل أن ترجع تلك المادة إلى ما منه تركبت – لتبادل أجزائها الفردية، واتحادها مع بعضها على القانون الفني – الذي كان بلا ريب معروفًا عند علماء العرب.

وقد صرح ابن بشرون أيضًا بإمكان حصول جسم، مستقيم، معتدل بالتفاعل الكيماوي طبعًا.

وهذا هو المفهوم اليوم عند من درس مقدمات الكيمياء، وعلم - (أن الأساس مثل «البوتاس» مثلاً) إذا تعامل مع حامض الأزوت فعلى التدريج تذهب خاصة الأساس وخاصة الحامض - ويحصل هناك جسم معتدل ليس هو بالأساس ولا بالحامض ويسمونه «ازوتيت البوتاس» لا يؤثر على الترنسول، ولا على ما هو أشد منه إحساسًا.

هذا نوع من أنواع ما يسمونه علماء العرب الأقدمين «التقليب» فمن لم يدرس ذلك الفن، ويعلم أصوله - يتوهم لا شك كما يتوهم بعض المغاربة الطوافين في الأرض، الذين يُمَوِّهُون[1] على السُّذج من الخلق (بعلم الكيمياء) ويفهمونهم أن «التقليب» عبارة عن قص أوراق على شكل الدينار، والدمدمة عليه، وحرق البخور، والعزائم - فتنقلب الورقة دينارًا!

فأين هذا من أقوال ومقاصد ابن بشرون وأستاذه المجريطي، اللذان وصلا بلا ريب إلى الغاية، والثمرة المطلوبة من هذا الفن.

ثم ذكر بعد التقليب - عمادًا آخر هو «التنشيف».

وهذا العماد غاية في الأهمية - ويكفي أنه لا يتم الأمر بدونه مع استكمال شروط العمادات الأخر.

---

(١) يُمَوِّهُون: يُزَيِّنُون الباطل في صورة الحق. (م).

وقد ثبت في الفن الحاضر أن التنشيف، أو التجفيف فعلى أنواع.

فمن المواد ما يسمونها صابونية لا يمكن تنشيفها بالهواء، ولا بالشمس، ولا بالحرارة – لأنها لو وضعت على حرارة مهما كانت درجتها خفيفة، أو معتدلة، أو شديدة (وهي تحت تماس الهواء) فلا تجف – لتواصل امتصاصها ما في الهواء من الماء.

فلذلك يراجعون في معالجتها أنواعًا كثيرة من أصول التجفيف، أو التنشيف.

منها ما يضعونه في ناقوس من زجاج ضمنه حوض فيه حامض الكبريت الصرف – وفوق الحوض أو الإناء تلك المادة التي يراد تنشيفها – فتوضع على لوح من زجاج تُطلى أطرافه بمادة لزجة يوضع عليها الناقوس لمنع الهواء من الخارج.

وبتلك الطريقة يمتص حامض الكبريت ماء الهواء ورطوبته (لشدة حرصه على الماء، وبالتالي يمتص ما في المادة من ماء، ورطوبة، فيحصل تجفيفها.

والنوع الثاني للتجفيف – وهو وضع المادة تحت مخلية الهواء وتوالي استعمالها حتى تجف وتنشف.

والنوع الأخير وهو لم يذكر فيما طالعته من كتب الكيمياء الحديثة، وإنما وجدته في كتب القوم (أي علماء العرب) وكان ذكرهم له من قبيل الإشارة إذ

قالوا بعد البحث فيما للحرارة والبرودة من تأثير – ذلك البحث الدقيق – بقولهم «مادة[١] حساسة» استحضارها يكون من برادة النحاس بعد إخراج سواده حتى يصير نحاسيًّا، ومعاملته بحامض الكبريت (الزاج) إلخ.

ولا نرى هذا الوصف ينطبق على غير الحامض الكبريتي الذي يعمل بواسطته الثلج اليوم لشدة برودته بتبخره السريع. ثم ذكر من العمادات التنقية لمنع المادة من الفساد وتطهيرها من دنسها، وإخراج آفتها منها.

وهذا معروف بالفن الحاضر «بالتطهير» ومواد التطهير كثيرة منها: الكحول الصرف والأوكسجين (مولد الحموضة) وقد رجحوه على الكلور لحفظه المادة العضوية من غير تخريب، ويفيد بالتبييض أكثر من فائدة الكبريت أيضًا.

ثم ذكر «التَّكْلِيس[٢]» في عداد العمادات المهمة، فمن التكليس ما يتم بالاحتراق تحت تضييق الهواء النسيمي ومنه ما يحصل بتفاعل الحوامض. إلخ.

فمن هذا كله نعلم أن علم الكيمياء لا يمكن الحصول عليه إلا بالتعلم الصحيح، والنظر الدقيق، والتجارب المتمادية عند فقد الأستاذ، وبالإجمال فالكيمياء صنعة من أدق الصنائع، وفن من أجل الفنون، ولا ريب أنه ثمرة العلم والحكمة (كما قالوا حقًّا).

(١) كذلك في رسالة أبي بكر بن بشرون لأبي السمح في مقدمة ابن خلدون في (علم الكيمياء).
(٢) تَكْلِيس: تسخين مادة مثل كربونات الكالسيوم تسخينًا شديدًا مدة طويلة لتحويلها إلى مادة حرارية. (م).

إن ابن مسلمة المجريطي، وتلميذه أبا بكر بن بشرون قد صرَّحا بأن معرفة الحجرِ، أو المادة التي يمكن العمل بها غير كافٍ وحده إذا لم تكن المعرفة تامة بتلك العمادات التي هي روح تلك الصناعة.

وابن خلدون لم يدع، ولم يقل أنه عثر على المادة، وأتقن هذه العمادات «كما سبق القول» بحسب الأصول الفنية، وأنه جربها على ما يتطلبه العلم ولم (ينجح) ليصح إذ ذاك إنكاره ويكون قوله حجة على إبطالها، وإخراجها من عداد الصناعات وأنها لا تتم إلا بالسحر، أو بأَرْفَاد[1] بعالم مما فوق الطبيعة أو بالنفوس الخيِّرة، أو الشريرة - وما كانت حجته على هذا القول إلا أنه وجد الرسالة من قبيل الألغاز كما مر ذكره، وهكذا وافقه أستاذه التلفيفي وليس لهما من برهان غير أنهما وجدا معانيها «لا تكاد تبين»!.

فيا ترى لو أخذ ابن خلدون أو أستاذه التلفيفي كتاب الكيمياء الحديث اليوم ورأى (ك١/٤) وأن ذلك معناه حامض الكبريت أو (ذي ٢ ك) (أنه كبريت الزيبق).

وهو لم يدرسه أو يعاني ذلك الفن، أو يأخذه عن أهله بالتعلم - لا شك كان ينكر ذلك ويقول أنه ليس بعلم، بل أحاجي، وألغاز، وأضاليل بحروف

(١) أَرْفَاد: صلات. (م).

مقطعة وأرقام، أو كان يقول أنها من قبيل السحر لأنها لم تبن له واضحة، ولا لأستاذه التلفيفي كما تظهر بسائط الأمور.

ثم أن ابن خلدون قد صدّق بحالومية أحمد ابن مسلمة المجريطي وهي:

طماغس بعد أن يسواد وغداس توفنا غادس» وقال: أن تلك الكلمات، والأسماء الأعجمية إذا تلاها الإنسان قبل النوم بعد رياضة، وصدق توجه فإنه يرى بها ما يحب أن يراه مما تطوق نفسه لمعرفته.

وقال ابن خلدون أيضًا «أنه رأى بها مراء غريبة كانت نفسه تتشوق للوقوف عليها» – وبالنتيجة – قد قال بصحتها «وأن التجربة قد أثبتتها إلخ».

مع أن تلك «الحالومة» لا تنطبق على علم بأصول، ولا على فن يحصل بالمزاولة، والممارسة، أو ما يقوم عليها برهان عقلي.

من الغريب أن يصدق ابن خلدون مثل هذه الحالومية (وربما يكون تصديقه حقًّا) وينكر علمًا مثل الكيمياء الذي لم يقف على حقيقته أو يثبت وقوفه عليه، ولم يعان أمره، واصطلاحاته، مع اعترافه بأن الكيمياء صناعة غريبة المنحى، بعيدة التناول عن جيل البداوة، مفتقرة إلى صحة النظر، والتدقيق في علوم من تقدم من اليونان القدماء، والكلدانيين قبل جابر بن حيان الحراني.

ثم قال جمال الدين: هذا ما رآه ابن خلدون، وهذا ما ارتأيته في هذا المطلب.

ولا يصح أن يرتاب المنصف بأن ابن خلدون من مفاخر الأمة، وأنه أغزر العلماء مادة، وأدقهم نظرًا، وأصحهم قياسًا، وأنفاهم للخرافات عن الدين، وأسرعهم أخذًا بالمعقول، وأكثرهم ردًّا للباطل من القول، وأبعدهم عن التقيد بالمألوف عن غير علم بالفائدة – وبالإجمال – فالعالم عالة على فضل ابن خلدون في حكمة التاريخ إذ هو الواضع لها ولا منازع.

إنكار جمال الدين على من يقول بسد باب الاجتهاد

عرف جمال الدين باستنكافه، ونفوره من التقليد من غير تمحيص، فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال، ويرد الضعيف منها، ويجتهد للاستنباط للأَوْلَى، ويتناول الأقرب للصواب، وما يقبله العقل.

ذكروا يومًا في مجلس جمال الدين قولاً للقاضي عياض، واتخذوه حجة واشتد تمسكهم بذلك القول حتى أنزلوه منزلة الوحي بأنه لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه - فقال جمال الدين: يا سبحان الله إن القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله، وتناوله فهمه، وناسب زمانه - فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه، وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الأئمة؟

وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس (هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم) قد أطلقوا لعقولهم سراحه فاستنبطوا، وقالوا، وأدلوا دلوهم

في الدِّلاء[١] في ذلك البحر المحيط من العلم، وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع جيلهم، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان.

فقيل: يفهم من قول الأستاذ أن القاضي عياض أو من تقدمه من الأئمة إذا قالوا قولاً جاز لمن بعدهم أن يقول ما يترآى له سواء أكان مخالفًا أو موافقًا، ولا يخفى أن مثل هذا القول يحتاج إلى الاجتهاد، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود، لتعذر شروطه.

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال:

ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟! وبأي نص سُدّ باب الاجتهاد؟! أو أي إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه بالدين؟! أو أن يهتدي بهدي القرآن، وصحيح الحديث، أو أن يجدّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية، وحاجيات الزمان وأحكامه؟ ولا ينافي جوهر النص.

إن الله بعث محمدًا رسولاً بلسان قومه (العربي) ليفهمهم ما يريد إفهامهم، وليفهموا ما يقوله لهم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم/ ٤] وقال:

---

(١) الدِّلاء: هي التي يُسْتَقى بها، جمع الدَّلْو. (م).

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف / ٢] وفي مكان آخر ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف / ٣].

فالقرآن ما أُنْزِل إلا لِيُفْهَم، ولكي يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه، وفهم أحكامه، والمراد منها.

فمن كان عالمًا باللسان العربي، وعاقلاً غير مجنون، وعارفًا بسيرة السلف، وما كان من طرق الإجماع، وما كان من الأحكام مطبقًا على النص مباشرة، أو على وجه القياس، وصحيح الحديث، جاز له النظر في أحكام القرآن، وتمعنها، والتدقيق فيها، واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس.

ثم قال: لا أرتاب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد ابن حنبل وعاشوا إلى اليوم، لداموا مجدّين، مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكمًا من القرآن، والحديث، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم، ازدادوا فهمًا، وتدقيقًا.

نعم إن أولئك الفحول من الأئمة، ورجال الأمة اجتهدوا، وأحسنوا (جزاهم الله عن الأمة خيرًا) ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن، أو تمكنوا من تدوينها في كتبهم، والحقيقة - أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر، وتحقيقهم، واجتهادهم - إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم، والحديث الصحيح من السنن، والتوضيح إلا كقطرة من بحر، أو ثانية من دهر «والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده» وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

نفور جمال الدين من قول سني وشيعي وأن لا موجب لهذه التفرقة التي أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة

قال: ظهر لآل البيت النبوي في أوقات، وأزمنة مختلفة أحزاب وشيع – فمنهم من ضل (كالمؤلهة) وهم من يقولون بألوهية علي بن أبي طالب – ومنهم (المفضلة) و(الغلاة) في محبة أهل البيت، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال «يهلك فينا أهل البيت اثنان، محب غالٍ وعدو قالٍ.

أما المفضلة من الشيعة وهم يقلدون في المذهب الإمام جعفر الصادق وهو من أكابر فقهاء أهل البيت – فهذا الجمهور من المسلمين لمجرد تقليدهم للإمام جعفر، ومغالاتهم في حب الآل، وتفضيلهم للإمام علي – لا يجب أن نخرجهم من عداد المسلمين، ونجسم أمر هذه الفروق في الفروع، ونجعلها واسطة للتفرقة، وللنزاع، فللخصام، فللاقتتال. تلك الأمور التي سهل وجودها جهل الأمة، وسفه الملوك الطامعين في توسيع ممالكهم.

فالملوك من السنيين هَوَّلوا، وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة، وعزويات عجيبة على شيعة أهل البيت ليتسنى لهم بذلك تحزيب

الأحزاب وتجييش الجيوش ليقتل المسلمون بعضهم بعضًا (بحجة الشيعة والسنية) وجميعهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ وعلى آله.

أما مسألة تفضيل الإمام علي، والانتصار له يوم قتال معاوية، وخروجه عليه - فلو سلمنا أنه كان في ذلك الزمن مفيدًا، أو ينتظر من ورائه نفعًا لإحقاق حق، أو إزهاق باطل - فاليوم نرى أن بقاء هذه النَّعْرَة(١)، والتمسك بهذه القضية التي مضى أمرها وانقضى مع أمة قد خلت، ليس فيها إلا محض الضرر، وتفكيك عُرَى(٢) الوحدة الإسلامية.

ثم قال: لو أجمع أهل السنة اليوم ووافقوا المفضلة من الشيعة (من عرب، وعجم) وأَقَرُّوا، وسلَّموا بأن على بن أبي طالب كان أَوْلَى بتولي الخلافة قبل أبي بكر - فهل ترتقي بذلك العجم؟! أو تتحسن حال الشيعة؟!

أو لو وافقت الشيعة أهل السنة - بأن أبا بكر تولى الخلافة قبل الإمام على- بحق - فهل ينهض ذلك بالمسلمين، السنيين، وينشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل، والهوان، وعدم حفظ الكيان؟!

أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة؟! ومن هذا الموت قبل الموت؟!

---

(١) النَّعْرَة: العصبية. (م).
(٢) عُرَى: رِبَاط وثيق. (م).

يا قوم – وعزة الحق – إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يرضى عن العجم، ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة، أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر، وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم، «والناس أبناء ما يحسنون».

وكذلك أبو بكر، فلا يرضيه أن تدافع أهل السنة عنه، وأن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مر زمنها، والتي تخالف روح القرآن الآمر أن يكونوا «كالبنيان المرصوص».

أما قضية التفضيل فلو استحقت البحث بعد تلك الأجيال لكفى أن يقال لحل إشكالها «أن أقصر الخلفاء الراشدين عمرًا تولى الخلافة قبل أطولهم عمرًا».

فلو تولي الخلافة بعد النبي ﷺ علي بن أبي طالب – لمات أبو بكر، وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الإسلام، والمسلمين بما استطاعوا أن يخدموه به – رضوان الله عليهم أجمعين – حكمة الله في خلقه – وإن أكرمكم عند الله أتقاكم.

رأيه في مذهب النشوء والارتقاء وأن العرب سبقوا وقالوا في هذا المذهب، وذكره الدكتور شميل استطرادًا، ومذهب درون

سئل جمال الدين عن البيت المشهور لأبي العلاء المعري:

وَالّـــذِي حَـــارَتْ البَرِيَّـــة فيـــه حَـيَـوانٌ مُسْتَحْدَث مِــنْ جَمَاد

هل يقصد المعريّ في هذا البيت من الشعر ارتقاء الحيوان من الجماد؟ ويوافق مذهب درون في النشوء والارتقاء؟ ذلك المذهب الحديث الذي أوجده درون وأقام علماء الأرض وأقعدهم؟ أم قصد المعري معنى آخر، وتماس اتفاقًا، أو عرضًا مع أهل مذهب النشوء والارتقاء.

قال: لا أغالي، ولا أبالغ إذا قلت ليس على سطح الأرض شيء جديد بالجوهر والأصول.

تبتكر في الكون محدثات، وتحدث أمور، وتقرر علوم - تُؤخذ ويُعْمَل بها أجيالاً - ثم تطرأ عوامل مختلفة، تندثر بها تلك المحدثات، وتُجْهَل تلك العلوم إذ يحجبها الخفاء، وتحفظ أحيانًا بعض رُفَات[1] آثارها (طبقات الأرض)، وكذلك

---

(١) رُفَات: حُطَام وفُتات من كل ما تكسَّر أو بَلِي. (م).

ما يحدث من عظائم الأمور، قد تذهب مع جيلها وربما يبقى شيء من أثرها في خرائب أهلها. وهكذا القول فيما يزهو، وما يتمحص ويتقرر من العلوم عند أجيال مضت، قد تموت مع أربابها أو تُمْحَى بمحو ما أودعت فيه من الكتب والأسفار.

فالسعيد من الخلف من يعثر على أثر من آثار السلف فينتبه بكليته إليه، ويعمل على بعثه من موته، إما بإخراجه من الخرائب، وإما بنقب طبقات الأرض، وإما بمناجات أرواح قائليه وفاعليه.

وهكذا يعيد الإنسان الكرة على قديم مبتكرات الأسلاف من المحدثات، والأمور العظيمة، والعلوم والفنون الغريبة (عندنا اليوم) وذلك بسوق غريب، وعوامل عجيبة تعمل في عقل الإنسان في سائر الأزمان.

بينما الإنسان اليوم سائر في البحث، والتجربة يقصد أمرًا فإذا هو (عرضًا) يعثر على نتائج لم تكن بحسبانه، فينشط لها عقله، ويصرف إليها همته ولا يزال يكد، ويجرب، ويجد، حتى يتيسر له وضع أساس الاكتشاف، أو الاختراع أو تقرير قواعد كلية، لعلم، أو فن.

أما مقصد أبي العلاء فظاهر واضح، ليس فيه خفاء - فهو يقصد بالنشوء والارتقاء - أخذًا بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب وقد مر ذكره ولا بأس من إعادته: إذ قال أبو بكر بن بشرون في رسالته لأبي السمح عرضًا في بحث

الكيمياء أن التراب يستحيل نباتًا، والنبات يستحيل حيوانًا، وأن أرفع المواليد هو الإنسان «الحيوان» وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها.

وأن أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات - وهي أدنى طبقات الحيوان - سلسلة تنتهي عند الإنسان إلخ.

فإذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الأساس - فالسابق فيه علماء العرب وليس «درون» مع الاعتراف بفضل الرجل، وثباته، وصبره على تتبعاته، وخدمته «للتاريخ الطبيعي» من أكثر وجوهه، وإن خالفته، وخالفت أنصاره في مسألة «نسمة الحياة» التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى لا على سبيل الارتقاء من سعدان، فالإنسان أو من الزوابع المائية. أو أن البرغوث سيكون بعد ألوف أو ملايين من السنين فيلاً عظيمًا - لأننا نرى اليوم في البرغوث ما يشبه خرطوم الفيل - وغير ذلك من المباحث التي دونتها في رسالة «نفي مذهب الدهريين» رَدًّا على درون وأشياعه، وأرى إغراقًا في نسبة الإبداع، والابتكار للنشوء والارتقاء، والانتخاب الطبيعي له.

ولو قال بذلك مثل «بخنر» و«هكسلى» و«سبنسر» وغيرهم من علماء الغرب ممن لو جاز ترك مناقشتهم فلا يسعني أن أمر على ذكر حكيم شرقي انخرط مع من ذكرت من العلماء ممن أيدوا مذهب «درون» وأخذوا بناصره، وهجموا على مألوف الشرقيين بقواعد ذلك المذهب - فمن حيث الجهر بمعتقد

يعتقده الإنسان أنه اعتقاد صحيح ولو خالف الجمهور - فالدكتور شميل له في نشر مذهب «درون» وتحمله أعباء المكفرين له (عن غير علم وتحقيق) يعد لشميل فضل، ولكن لا أرى الدكتور شبلي قد تخلص مع جرأته الأدبية، وبعض رسوخه في الفلسفة من وصمة التقليد الأعمى لعلماء الغرب - وبمعنى أوضح - أنه أراد أن ينتصر لدرون، وأن ينشر مذهبه رغم أهل الأديان، وفي ذات الوقت عارض أستاذه، وصاحب المذهب المنتصر له.

إذ لا يخفى أن القصد من مذهب الماديين الوصول إلى أن الإنسان تدرج من الحيوان، وأعظم دليل لهم ما يرى في السعدان والقرود وأعلى أنواعه «الأورانغ أوطان» من الذكاء والحركات وتركيب الأعضاء.

ثم أنهم نظروا في أجنة ذوات الفقر ومنها - الإنسان - فرأوه يمر نموه بدرجات الحيوانات التي دونه حتى الأحفورية أو السابقة لها. إلخ.

ولكي يتوصلوا إلى جحود خلق الإنسان بتقويمه الحسن هذا، رأيناهم يركضون وراء الأَحَافِير[١]، ويغوصون في طبقات الأرض وإمامهم في مذهب النشوء والارتقاء هو «درون» بلا شك، وهذا الحكيم لما وصل إلى النقطة الجوهرية وهي (موجد نسمة الحياة) فلم يسعه إلا أن قال «أن الخالق هو الذي نفخ نسمة الحياة في الأحياء» وهذا قوله بالنص الواحد: «إني أرى أن الأحياء التي عاشت

(١) الأَحَافِير: بقايا الحيوانات أو النباتات التي عاشت في الأزمنة الجيولوجية السابقة ثم تحجرت. (م).

على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة!» ا هـ.

إن قول «درون» هذا ينفي ظهور الحياة على سبيل طبيعي ولكنه لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين، وأنكروا على «درون» هذا القول واتهموه بالخوف من أهل دينه، وقالوا إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصًا بل ينقضه من أساسه لأن الغاية كما ذكرنا من مذهب الطبيعيين «إنكار الخالق» وإسناد الأعمال إلى الطبيعة.

هذا مقام الحيرة لمريدي مذهب «درون» فإما أن يكون إمام مذهبهم «درون» قال قوله السابق عن علم وتحقيق، وفيه كما قالوا نقض لأساس المذهب، وإما أن يكون الخوف الذي اتهموه به من أهل الأديان حمله على الجهر بهدم أساس مذهب الطبيعيين.

وبالنتيجة يريد الدكتور شميل، والأستاذ «برن» وغيرهما أن يوافقوا «درون» إذا أصر على إنكار «الخالق» ويخالفوه إذا أقر بوجوده.

وبالاختصار أن كلما جاء في مذهب الطبيعيين من حصر الأحياء بأنواع قليلة، وتفرع الكثير منها وعنها كل هذا لا يضر التسليم به كما أنه لا يفيدهم أن الحياة وظهور الأحياء نتيجة لقوى طبيعية، نعم إذا أمكنهم إثبات التولد الذاتي كان لأقوالهم معنى ولمذهبهم مستندًا.

هذا الذي رأيت ما يؤاخذ به الحكيم شبلي الشميل وقد خالف إمامه وأستاذه «درون» وفيما عدا ذلك فإني أقدر الشميل قدره في دقة بحثه، وتحقيقه، وجرأته على بث ما يعتقده من الحكمة، وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم.

أما جمال الدين فكان يعلم ما بيني وبين الدكتور شميل من الولاء، وقد ظهرت عليّ علائم المسرة لتقديره الرجل، ولكن ساء ذلك أحد إخواننا المصريين فقال: يا أستاذ إنني وجدت في الدكتور شميل «غرورًا» فأجابه السيد: أن الذي رأيته في الشميل لم يكن «غرورًا» ولكنه «عزة النفس»، والذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان.

وقليل العلم، السفسطائي، المُدَلِّس[١] فيجمع عليه الطَّيَالِسة[٢] الخضر، ويخرّون له إلى الأذقان، ويعتبرونه بمظهره العالمي لا العلمي، ويبجلونه لبذل طعامه، وعظيم داره.

والدجَّالون كثيرون في كل قطر ومصر، وفي كل آن وزمان.

قيل للسيد: إذا لم يكن لعلماء العرب في مذهب النشوء والارتقاء غير تلك الشذرات، والعبارات الوجيزة، فهي لا تفي بالمقصود بل يصح الاستشهاد

(١) المُدَلِّس: المُخَادِع. (م).
(٢) الطَّيَالِسَة: شال أو وشاح يضعه بعض العلماء والمشايخ على الكتف، وعادة يكون أخضر. (م).

بها على أن القوم فهموا من هذا المطلب كليات فقط، ولم يعيروها اهتمامًا استحق منهم أن يفردوا لها بحثًا، أو كتابًا خاصًّا يتكفل باستيعاب ما يلزم ذلك المذهب من الأدلة، واستجماع البراهين!

فقال: هاتوا مكتبة بغداد، والأندلس والقيروان، وما ترجم في عصر الخلفاء العباسيين، وما حقق علماء العرب من المباحث، وما ألفوه من الكتب الفلسفية، والطبيعية، والكيمياء. وبعد ذلك طالبوني وألزموني الحجة بعدم استيفاء أولئك العلماء مواضيع ما نرى من المباحث في العلوم، والفنون الوافدة إلينا عن طريق الغرب اليوم.

ودعوا العصر الجليدي يستحوذ على قارة أوروبا مرة أخرى، ويدور الدور الفلكي بمفعوله، وتأثيره ويجعل الحياة في ذلك الإقليم متعذرًا كما كان أولاً، وانظروا إذ ذاك إلى نهضة الشرق - خصوصًا متى تغير شكل الحكم في أهله - فترون الشرق قد عاد مشرقًا بالعلماء، زاهرًا بحقائق العلوم، مثبتًا، مقررًا لكل ما هو نافع ويصلح أن يبقى أثرًا. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران/ ١٤٠].

أما الانتخاب الطبيعي، فهو في جيل البداوة وفي حضارة الإسلام أمر معروف، ومعمول به سواء أكان في انتخاب الزوجات من النساء، وتحري النجيبات من الأمهات فيخطبون بناتهن، وفي ذلك أقوال مأثورة - كالقول «خذ لابنك خالا» أي زوجة يكون لها من الصفات الطيبة، وحسن الخُلُق والخَلْق

والمزايا ما لإخوانها - حتى إذا جاء الولد يكون فيه من الوراثة عن طريق أمه ما يشبه أخواله من موجبات الفخر - وكذلك عن طريق الأب - فيشبه الأعمام - فيفتخر، أو يمتدح، فيقال فلان معم ومخول. أو في تحسين نسل الخيل.

وأما حرص العرب على الانتخاب الطبيعي - في تحسين الحيوان - فأمر مشهور، إذ البدوي إلى اليوم يطوف البَرَارِي[1]، والأمصار ليجد إلى فرسه جوادًا من جياد الخيل، ويحرصون على حفظ أنساب الخيل، حرصهم أو أكثر من حرصهم على أنساب البشر. قال وبالاختصار: علم قليل مفيد في الصدور يعمل به خير من علوم كثيرة في الكتب مسطورة ولكن لا يعمل بها.

(١) البَرَارِي: الصَّحَارِي. (م).

رأيه في الاشتراكية (السوسياليست) وأنها لا تخالف الدين بل يقول بها

كان مجلس جمال الدين يجمع أهل المذاهب المختلفة، والمَشَارِب[1] المتباينة، فيضطر أن يخاطب كل إنسان على حسب عقله، واستعداده، ويراعي معتقداتهم ما أمكن، ويخوض مع المعطلة، والماديين وغيرهما من لاهوتيين متعصبين. يأتي على ذكر الفلاسفة وما قالوه في كتبهم مع توضيح مذاهبهم، وذكر حججهم، ومنتهى ما وصلوا إليه من البراهين.

ذلك ما حمل الكثيرون أن يذهبوا بالحكم على جمال الدين مذاهب شتى - تارة ينظرون إليه بنظر المارق من الدين، وطورًا أنه ديني متعصب. ومن حال جمال الدين هذه تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة من الإلحاد إلى رأيه، وأذاعوا ذلك بين العامة وأيدهم أَخْلاَط[2] من الناس من أُولِي المذاهب المختلفة الذين كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون، ثم

(١) المَشَارِب: الميول والأهواء. (م).
(٢) أَخْلاَط: أَوْباش وَسِفْلَة. (م).

يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون، ويتبجحون بالتلمذة عليه، وينسبون ما أشربوا من الكفر إليه «كما سبق ذكر ذلك في سيرته».

على أن المباحث التي كان يدور بها لسانه أثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد من ذكرنا من المعطلين، والماديين، إنما كان المراد منها إظهار حقائق النِّحَل بمعزل عن الاعتقاد بها، والجنوح إليها، بل مع تعقيبها بالرد عليها، وإقامة الحجج على بطلانها.

وهكذا اجتهاده في بعض أحكام القرآن، وتفسير بعض الأحاديث، واستنباط الأحكام من سيرة السلف.

من أمثلة ذلك أن أحد كبار الأدباء وكتبة الأتراك كان يغشى مجلس جمال الدين (وجمال الدين يحترمه لذكائه وحسن أدبه) وكان أشد الناس حرصًا على الاقتباس من آراء السيد من سائر من حضر، أو تتلمذ عليه في ذلك المحيط.

أما الرجل فكان شديد الولوع بآداب الأمم الغربية، كثير الإعجاب في نهضتهم الاجتماعية، وتوزيع أعمالهم، وإعطاء كل فئة(١) من المجموع قسطًا من الاشتراك في صالح الهيئة.

---

(١) فِئَة: طائفة. (م).

فقال لجمال الدين: يا حضرة السيد، إن خير ما في أوروبا من النهضة هو (السوسياليست) «الاشتراكية» وهذه النهضة هي التي ستؤدي حقًّا مهضومًا لأكثرية من الشعب العامل.

فإذا كان الدين الإسلامي «أو المشيخة الإسلامية» يقاومان مذهب الاشتراكيين، فأرى هناك ثُلْمَة[١] لا تسد بسهولة، وخللاً يجب ملافاته بالحكمة فما رأيكم؟

فقال جمال الدين: إن ما تراه الاشتراكية في الغرب، وما تَتَوَخَّاه[٢] من المنافع بذلك المذهب، في شكله الحاضر، وأسسه وتخبط واضعي مبادئه، كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية، ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع.

«الاشتراكية الغربية» ما أحدثها، وأوجدها إلا حاسة الانتقام من جور الحكام، والأحكام، وعوامل الحسد في العمال من أرباب الثراء الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم، وادخروا كنوزهم في الخزائن، واستعملوا ثروتهم في السفه، وبذلوها في السرف، والتبذير، والترف على مرأى من منتجها، والفاعل العامل في استخراجها من بطون الأرض، ومن ترابها وإلخ..

---

(١) ثُلْمَة: فُرْجَة المكسور والمهدوم. (م).
(٢) تَتَوَخَّاه: تقصده. (م).

وبالاختصار ثمرات عمل العمال بكل أنواع حاجة العمران.

فكل عمل يكون مرتكزًا على الإفراط لابد أن تكون نتيجته التفريط.

أفرط الغربيون (الأغنياء) بنبذ حقوق العمال، والفقراء وراء ظهورهم، فأفرط العمال بمناهضة أهل الثروة، وغاصبي حقوق الأمة - بالمناصب ومسببات الجاه - فلا قاعدة دينية يرجع إليها، ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع، لذلك أصبح أمرهم في الاشتراكية «فوضى» ولسوف ينعكس أمرها.

«أما الاشتراكية في الإسلام» فهي ملتحمة مع الدين الإسلامي، ملتصقة في خلق أهله منذ كانوا أهل بداوة، وجاهلية.

أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة، وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية كذلك من أكابر الصحابة أيضًا - وإليك البيان:

أما أن الاشتراكية من خلق البداوة فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم، ومواساته لأهل قبيلته وعشيرته، ولا أعد كثيرًا من ذلك بل أَجْتَزِئ[1] بمن اشتهر منهم - مثل حاتم الطائي في السنين المجدبة وكيف أنه نحر أعز ما لديه

(١) أَجْتَزِئ: أَكْتَفي. (م).

(وهو فرسه) ذلك لمجرد مجيء امرأة من أقصى قبيلة طيء إذ قالت له: يا حاتم قيل لنا إن عندك لحمًا عَبِيطًا[1] فأتيت بصبيتي.

فقال: صدقتِ، ثم نحر فرسه، وأشعل ناره (تلك العلامة التي كانت كدعوة للمجموع يعلمون منها أن هناك طعام) فيأتون لمكان الدخان في النهار، ولشعلة النار ليلاً، ويشتركون جميعهم في المأكل دون أدنى مِنَّة لصاحبها، لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور، والمثري كُلّ على نسبته وما لديه من سعة.

هكذا فعل حاتم مع من قصدته وأطفالها، وبمن رأى النار ويَمَّم نحوها من أهل جِوَاره وقبيله.

وقد تواتر الخبر بأن حاتم لم يذق من ذلك اللحم شيئًا مع كونه قَرِمًا[2]، سَغْبًا[3].

وهناك رجل آخر من رجال العرب وهو «طلحة الطلحات» كان شأنه أن كل أعزل معدم يأتيه، يقول له: «دونك الفرس، والرمح، والسيف فعسى أن تكتفي بهم ذل السؤال، وإن لم تفعل، ولم تحسن العمل بهم فلا أرشدك الله ولا أغناك.

(١) عَبِيطًا: سَالِمًا من الآفات. (م).
(٢) قَرِمًا: كثير الاشتهاء إلى اللحم. (م).
(٣) سَغْبًا: جوعان. (م).

يقال أن ذلك الرجل (طلحة) المثري بالخيل والسلاح جهز على المنوال المذكور ألف فارس ولم يبق عنده إلا ما أعطى لواحد منهم.

فكان كل فارس ممن جهزهم طلحة إذا أتاه غلام سماه طلحة فلم يمض كثير من الزمن إلا وكان في تلك القبائل من أسماء أبناء أولئك الآباء ميئات من ذلك الاسم فسمي «طلحة الطلحات».

هذا مثل من الاشتراكية قبل الإسلام ومنه يعلم أن الثروة كانت ولا تزال موجودة في الأفراد ولكن حسن استعمالها، وجعل نصيب للآخرين فيها يجعل الاشتراكية أمرًا مقبولاً، وصفة ممدوحة؛ إذ لا أنانية، ولا أثرة، ولا استطالة على الفقير بخيول مُطَهَّمَة(١) يستأثر بها، ولا بطعام شهي يلتذ به مع لفيفه، ولا ببناء شاهق يسكن فيه، بينما موجد، ومسبب، ومهيء تلك النعم كلها – ذلك العامل الفقير الذي يسكن كوخًا حقيرًا نصف أعضائه، وأبنائه في خارجه عرضة لصَبَّارَة القُرّ(٢)، وأُوَارَة الحرّ(٣) – لا يملك من القوت خبزًا كافيًا، ولا من الملبس ما يستر به تمام العورة.

هذا ما عليه اليوم أهل الثروة، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية، وفي نفيرهم روح الانتقام، والإفراط في المطالبة بحقهم، يقابله التفريط

---

(١) مُطَهَّمَة: حَسَنَة الخَلْق. (م).
(٢) صَبَّارَة القُرّ: شدة البرد. (م).
(٣) أُوَارَة الحرّ: شدة الحرّ. (م).

في زجرهم، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق، ولسوف يتفاقم الخطب، وتعم من جراء ذلك البلوى في الغرب ولا يسلم منها الشرق.

«أما الاشتراكية في الإسلام» - فهي خير كافل لجعلها نافعة مفيدة، ممكنًا الأخذ بها لأن الكتاب الديني وهو القرآن أشار إليها بأدلة كثيرة منها:

أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين) فيعلم أن للخلق ربًّا واحدًا وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء.

ويرى، ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب، والغزاة، ومن يتولى إمرتهم، وقيادتهم، فخاطبهم آمرًا، ومعلمًا، ومدافعًا، ومبينًا حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد، وتلك المساعي نصيبًا؛ إذ قال ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال/ ٤١] هذه آية باهرة أوجبت على من يسعى مجاهدًا، ومخاطرًا بحياته أن يكون مشتركًا معه بنتيجة غزواته وغنائمه - ما لم يكن مشتركا فعلاً - فأعطى أولاً «لله تعالى» نصيبًا ومرجع ذلك النصيب لعباده، ثانيًا «للرسول»، ثالثًا «لذوي القربى» وهم لا شك من المستضعفين الذين إنما قعدوا عن الاشتراك في الجهاد، والسعي وراء الغنائم، لعلل تختلف أشكالها، وأنواعها،

ولكن الدين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيبًا من مساعي أولئك الأشداء، الأقوياء المجاهدين، الخائضين غمرات الموت إلخ.

كل ذلك نراه مبنيًّا على حكمة الاشتراك، ولبث حكم هذه الآية جاريًا، وكان الرضاء به شاملاً لمجموع المسلمين، من مجاهد، أو قاعد عن الجهاد لعلة، فبدأ بالدرجة الأولى بعد الله ورسوله بذوي القربى من المجاهدين على درجاتهم (ممن ينظر بحاجات أولاد المجاهدين وعَيْلَتِهم[١] عند تغيبهم) وعطف على من دونهم في المرتبة الثانية ممن ليس لهم في المجاهدين أقرباء، فقال «واليتامى» ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال «والمساكين»، ثم رأى أن يأخذ نطاقًا أوسع فقال «وابن السبيل» أي عابره، فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلاً ولا أنفع.

ثم جاء بموضع آخر من الكتاب مقرعًا لمن يكنزون الذهب والفضة ثم حَبَّذ[٢]، وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف، والإطعام ولو كان بهم خصاصة.

وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول في آيات القرآن تترى.

فلننظر هل عمل بهذا القانون وما كانت نتائج العمل به.

---

(١) عَيْلَتهم: تَكَفُّلُهم. (م).
(٢) حَبَّذ: حَبَّ. (م).

نعم إن الإخاء الذي عقده المصطفى ﷺ بين المهاجرين والأنصار لهو أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولاً وعملاً.

فالمهاجر من المسلمين إنما استطاع أن يفر بدينه راضيًا بهجره بلده، وترك مسقط رأسه، ومفارقة أهله وذويه، والخروج من ماله ومقتناه مسرورًا أن يصل لدار الهجرة سالمًا.

والأنصاري، وهو في بلده مع آله وذَوِيه وماله قبل راضيًا مسرورًا أن يشارك أخاه المهاجر بكل معنى الاشتراك.

حتى لو تطلع الإنسان منا اليوم، وأشرف على تلك الأرواح الطاهرة لرأى من مجالي الاشتراك روحًا وجسدًا ما ينبهر له عقله، ولصح اعتقاده أن عمل الدين وتأثيره في تلطيف الكثافة الجسمانية لا يضارعه مؤثر، أو عامل آخر على البشرية، ولرجعوا إليه لو كانوا يعقلون.

ثم قال: «لما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادئ، لها طرفان (وخير الأمور أوساطها) رأى الشارع الأعظم أن تنعم فريق من قوم، وشقاء فريق آخر في محيط واحد، وبمَسَاعٍ ليس بينها وبين مساعي الآخرين كبير تفاوت – مما لا يتم به نظام الاجتماع – وكان النبي ﷺ (بالمؤمنين رحيمًا) فجاءه عن طريق الوحي – وهو نتيجة تمحيص نَزَعَات[1] النفس البشرية، وما عسى أن ينجم من

(١) نَزَعَات: مُيُول واتجاهات. (م).

المضار أو المنافع لها – فوضع للدين أركانًا خمسة ومن تلك الأركان «فرض الزكاة» في المال، والرِّكاز[١] والأنعام. إلخ.

ثم أضاف إليها كما سبق «غنائم الحروب» فأخذ منها قسطًا بمقدار الخمس – ثم بعد ذلك حرض على بذل «الصدقات» وحرم «الرِّبَا» بنكتة غاية في الحكمة: وهي – أن لا يؤكل الرِّبا أضعافًا مضاعفة – وهو ما وقع عليه التحريم، ولكي يكون للإمام مخرج إذا قضت المصلحة بالتسامح للحكم بجواز الرِّبا المعقول الذي لا يثقل كاهل المديون، ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال، ويصير أضعافًا مضاعفة – وفَرَّق صراحة بين احتيال المرابين، المتلبسين بالدين، الذين يتظاهرون بالتجنب عن الرِّبا – ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مئة درهم يجرون عقد بيعها مع المشتري المضطر بثلاثمائة درهم، وحقيقة هذا الفرق إن هو إلا نصيب الرِّبا وعينه وإنما يجعلونه عن طريق البيع، ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الرِّبا التي حظرها عليهم الدين.

وإليك بعض ما جاء بهذا الشأن بالقرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ

---

(١) الرِّكاز: ما أوجده الله في الأرض من المعادن في حالتها الطبيعية، وهو في الغالب ذو قيمة اقتصادية لاحتوائه على مواد نافعة. (م).

وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة/ ٢٧٥- ٢٧٦].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران/ ١٣٠].

أما ما جاء في الحث على الصدقات فكثير، كقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة/ ٢٧١].

وقال ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة/ ٦٠] وقال ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود/ ١١٤] وأمثال ذلك كثير في الكتاب، والحديث - حثًّا، وتحريضًا على البذل، ومؤاساة الفقراء، وأهل العَوَز[١] - درأ لمفاسد أرباب المطامع، وسدًّا لعوامل حسد الحساد لأهل الثروة والنعيم إلخ.

أما الثروة فتختلف بكميتها منماية إلى ألوف، وملايين من دنانير، ولكن لا تختلف بكيفيتها بمعنى - أن رجلاً يملك ماية دينار بين قوم لا يملك أفرادهم إلا دراهم معدودات، فيمكن صاحب تلك المئة أن يظهر بمظهر الثراء، ويأخذ من

(١) العَوَز: الاحتياج. (م).

التنعم حظًّا نِسْبيًّا، ويلفت أنظار قومه ويدعوهم لحسده – هذا إذا تمادى الأثرة والأنانية ولم ينل قومه منه رشاشة فضل على حد قول زهير بن أبي سلمى:

مَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ وَيَبْخَلُ بِفَضْلِه عَلَى قَوْمِه يُسْتَغْنَى عنه ويُذْمم

ولقد قلنا عن زمن الجاهلية وعصر البداوة ما فيه الكفاية، مختصره: أن أعظم مثرٍ كان يتساوى في مسكنه، ومأكله، وملبسه مع أفراد قبيلته وعشيرته – فلا تتحدث نفس من ذلك المجموع بأدنى حاسة من الحسد، أو داع يدعوه إلى الانتقام.

ثم جاء الإسلام فكان أكبرهم منصبًا وهو الخليفة لرسول الله يعمل بسيرة نبيه من الاكتفاء بالقليل من العيش، والكفاف منه، ومجالسة الفقراء، ومشاركتهم بكل معنى الاشتراك في مظاهر الحياة الدنيا ونعيمها. لقائلٍ أن يقول: إن شظف العيش في زمن النبي المصطفى وخلفائه كان يدعو بطبيعة الأمر إلى عدم التحاسد.

فنقول: إن الفتح الإسلامي في زمن أبي بكر الصديق بلغ من الممالك مبلغًا عظيمًا، وجاء بالمغانم الكثيرة، ومع ذلك لا نرى أن وضعية الخليفة أبو بكر قد تغيرت، ولا مظاهر وزرائه، وقواده تبدلت، ولا شكل حياة من أثرى من متجرة العرب قد ظهر فيهم شيئًا يلفت نظر حاسد، أو يجعل في نفوس غيرهم أقل غصة.

ولا ريب أن الفتوحات في زمن الفاروق عمر بن الخطاب قد امتدت فصارت أوسع نطاقًا، والمغانم أعظم وفرًا. والنفوس البشرية مع هذه العوامل قل ما تنجو من تطلع للسرف، والترف، ومهيئات الاستطالة، والأنانية (وقد توفرت أسبابها) وبالفعل، ورغمًا عن قرب العهد بسيرة الشارع وخليفته أبي بكر، وتمسك الفاروق بسيرتيهما – فقد أتته الأنباء الصادقة ممن بثه لمراقبة سير، وسيرة عماله بأنه قد فشت لعامل مصر (عمرو بن العاص) وعامله في دمشق (معاوية بن أبي سفيان) وغيرهما من العمال في العراق وغيره هيئة بذخ، وسرف، وثراء، فخشي معه حصول ميزة الأكاسرة لأولئك الأفراد من العمال الخادمين للجموع، ويصرفون سلطان الحكم، ونفوذه بغير وجوه الحق فتدب النفرة على سبيل التدريج إلى نفوس الأمة من حكامها، وبالأخير، تنقبض تلك النفوس عن الطاعة الاختيارية، وتفقد الثقة ويضعف الإيمان ويتزلزل البنيان، ويعم البلاء (والعياذ بالله).

فأسرع الفاروق لملافاة ذلك الخلل بتقريع عماله بأخشن الأقوال عظة وتحذيرًا، وقتلاً للغرور، فخاطب عامله في مصر بقوله: «إلى العاص بن العاصي، ما أقطعتك مصر طعمة لك ولقومك»، وبمثل قوله له «لا تبالي أن تحيا أنت ومن معك، أن أموت أنا ومن معي»، وبمثل قوله «متى كان ابن العاص في مثل ما بلغني عنه من ثراء ودور، وقصور، وبما معناه إلخ».

وهكذا خاطب عامله في الشام معاوية بن أبي سفيان، وهدَّده بأن يجتنب غطرسة هرقل، وتعاظم الأكاسرة والقياصرة.

ولم يكتف بما قاله بل أرسل معتمدًا وبيده أمرًا مَبْرَمًا[١] أن يُشَاطِر[٢] كل عامل بمُقْتَنَاه[٣] من ثروة ومتاع، حتى أن ذلك المعتمد أخذ فردة نعل العامل وترك له الأخرى.

هذا درس عملي، وعَلَني لملأ المسلمين، أفهم فيه الفاروق الحاكم، والمحكوم عدم سَوَاغِيَة[٤] الأثرة، والاستطالة، وعمل بذلك على محو دواعي الحسد من الصدور فعلاً.

فلننظر ماذا فعل عمر بن الخطاب بما صادره من أموال العمال؟ وماذا صنع بمغانم كسرى وقيصر؟ وماذا ظهر على تلك الخليفة من آثار عظمة الملوك، والأمراء، سواء كان في مسكنه، أو ملبسه، أو مأكله؟

ظهر عليه مع كل ما توفر لديه، أن لباسه كان أحقر ما يلبسه الفقير في الأمة (ومرقعيته مشهورة في تواريخ الأمم، وأن فيها مع رقع الأقمشة رقعة من أدم أي من جلد).

(وأما مسكنه) فكان يقضي سحابة يومه في سقيفة حقيرة يدخل إليها مطأطأ الرأس، ينظر في شؤون الخلافة، ويقضي وقت استراحته في البقيع «جبانة الأموات».

---

(١) مُبْرَمًا: مُحْكَمًا. (م).
(٢) يُشَاطِر: يُنَاصِف. (م).
(٣) سَوَاغِيَة: إباحة وإجازة. (م).
(٤) بمُقْتَنَاه: بمُدَّخره. (م).

(وأما مطعمه) فكان خبز الشعير الغالب عليه، بينما كان يطعم الأيتام، والأرامل، والمستضعفين من المهاجرين والأنصار خبز البر، والسمن، والتمر وينيلهم كل ما كان مناله عزيزًا إلا لأهل الثراء إذ ذاك.

هكذا كان يشاركهم مع نعيم الأغنياء ولا يشترك معهم فيه - فضلاً عن بذل المال للمحتاجين، وفرض الفروض لهم من بيت المال، وإعطاء الجوائز لمن كان له، أو لآبائه سابقة في الإسلام، بعشرات الألوف، وميئات الألوف كل على حسبه.

فأهل الإسلام مع تَمَحُّض[١] سلطان الحرية فيهم، لم يروا في سيرتي الصديق والفاروق رضي الله عنهما ما يدعوهم إلى أقل تذمر، أو تململ، أو تفكر بمناهضة لسلطانهما، أو تَأَلُّب[٢] على قلب أشكال حكمهما، وإمرتهما، أو إحداث شغب يُعَرْقِل[٣] مساعيهما في الفتوحات، بل كانوا يبذلون النفس والنفيس في طاعة الخلفاء تأييدًا لشوكة الإسلام، وتعميمًا لعدل الشريعة السمحاء.

هذا كان موقف الخلفاء، وحال الأمة معهم؛ ولذلك تجلى العدل المطلق في الأحكام، والتزم الحكام للتقيد به قولاً وعملاً.

---

(١) تَمَحُّض: تَخَلُّص الشيء مما يشوبه. (م).
(٢) تَأَلُّب: تجَمُّع. (م).
(٣) يُعَرْقِل: يُصَعِّب. (م).

وهكذا مضى زمن خلافة الفاروق، وجاء زمن خلافة عثمان بن عفان وفي خلالها ظهرت أثرة خاصة للأمويين تذمر منها الهاشميون، وأكثر القرشيين، وفي مقدمتهم أبناء الصديق والفاروق، ومن كان على رأيهم إلخ.

في زمن قصير من خلافة عثمان تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيرًا محسوسًا، وأشد ما كان منها ظهورًا في سيرة، وسير العمال، والأمراء وذوي القربى من الخليفة، وأرباب الثروة، بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تُدعى «أمراء» وطبقة «أشراف»، وأخرى أهل «ثروة، وثراء، وبذخ»، وانفصل عن تلك الطبقات طبقة العمال، وأبناء المجاهدين، ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحَمِيَّة(١)، والسابقة في تأسيس الملك الإسلامي، وفتوحاته، ونشر الدعوة. وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طرز الحياة، والذي أحدثته الحضارة الإسلامية؛ إذ كانوا مع كل جريهم، وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين إلى العمال، ورجال الدولة، وقد فشت العزة، والأثرة، والاستطالة، وتوفرت مهيئات الترف في حاشية الأمراء، وأهل عصبيتهم، وفي العمال وبمن استعملوه، وولوه من الأعمال إلخ.

فنتج من مجموع تلك المظاهر التي أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين، والمستضعفين في المسلمين، تكون طبقة أخذت تتحسس بشيء

(١) الحَمِيَّة: الغَضَب والأَنَفَة. (م).

من الظلم، وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص، ومن سيرتي الخليفة الأول والثاني أبي بكر وعمر.

كان أول من تنبه لهذا الخطر الذي يتهدد الملك، والجامعة الإسلامية – الصحابي الجليل «أبو ذر الغفاري» فجاء إلى معاوية بن أبي سفيان وهو في الشام، وخاطبه بوجوب الرجوع إلى سيرة السلف، وبتقليل دواعي السرف والترف، وعدم التمادي في مسببات الحسد، والعمل على نزعها من العاملين من رجال المسلمين – وذكر مواعظ كثيرة، وعَدَّد أخطارًا جَمَّة من وجود طبقة فقيرة، عاملة مفكرة في المسلمين – يَكْتَنِفُها[1] شَظَف[2] العيش وقلة ذات اليد بين ظهراني قوم – أكثرهم ممن لا سابقة لهم في الإسلام ولا لآبائهم، ولا من الصفات المحمودة، ولا من المجهودات أو المميزات العلمية والجسدية، ما يوليهم أو يعطيهم حق ما هم فيه من النعيم، وطيب العيش والرخاء (غير محض الانتماء والإدلاء بولاء لآل حرب وعُمَّالهم).

فأجابه معاوية بما معناه «يا أبا ذر إن ما تقوله هو الحق، ولكني ليس في استطاعتي الرجوع – لا إلى سيرة الصديق وسيره – ولا إلى العمل الذي كان يعمله الفاروق.

---

(١) يَكْتَنفُها: يَحُوطُها. (م).
(٢) شَظَف: شِدَّة العَيْش. (م).

وغاية ما في إمكاني الحث على بذل الصدقات، والقول اللين إرشادًا وعن طريق الوعظ لتخفيف دواعي الحسد وغير ذلك فلا سبيل إليه.

قال: يا معاوية، قد نصحتك والدين النصيحة؛ فاحذر أنت والخليفة عثمان مَغَبَّة(١) ما أنتما عليه، وذهب من مجلس معاوية مغاضبًا.

واجتمع مع طبقة المتألمين والمتذمرين من المسلمين وقص عليهم من سيرة السلف أشياء، وأطلعهم على ما قاله عامل الشام معاوية بن أبي سفيان، وأَرْدَفَهَا(٢) بإعلانه مشاركته لهم في كل ما يتحسسون به قلبًا وقالبًا. وبمختصر القول أنه شجعهم على النهضة والمطالبة بحق صريح لهم اهتضمه جماعة بغير وجه شرعي، ولا باجتهاد إمام سلف.

فكان من وراء عمل أبي ذر هذا أن حصل شيء من التهيج، والانفعال النفسي ما خشي معه معاوية وأعوانه سوء المصير.

فجمع معاوية كيده، واستنجد دهاءه، وبعث لأبي ذر ليلاً بألف دينار - فقبلها أبو ذر - وفي الحال بادر لتفريقها على الفقراء والمعوزين من المسلمين.

---

(١) مَغَبَّة: عَاقبَة. (م).
(٢) أَرْدَفَها: أَتْبَعَهَا. (م).

وفي ثاني يوم أرسل معاوية رسولاً (بتعليم منه في الإرسال الأول وفي البعث الثاني) وقال «يا أبا ذر أنقذني من عذاب معاوية، فإن الألف دينار لم يرسلها إليك وإنما غلطت.

فقال أبو ذر: والله لم يبق معي من دنانيره ولا دينار، فليمهلني حتى آخذها ممن وزعتها عليهم من المستحقين في المسلمين، وعلم معاوية صدقه وضاق به ذرعًا، فكتب إلى الخليفة عثمان مستجيرًا من إلقاءات أبي ذر، وما أحدثه من التأثير في النفوس، فأجابه مستسرعًا إرسال أبي ذر إليه، فأرسله، ولما تقابل مع عثمان لم يسمع منه أكثر مما سمع من معاوية، وأنه لا يمكنه أن يفعل ما فعله الفاروق مع العمال من مصادرة ما عندهم من الثروة، ولا أن يرجع ما كان من حالة مجموع المسلمين في عهدي الصديق والفاروق، إلا عن طريق الحث على بذل الصدقات والإحسان فقط.

فقال أبو ذر: «يا عثمان أما تذكر حديث رسول الله (ومعناه إذا وصل البناء إلى سلع.. واستعلى في المدينة.. وفشت إلخ).

وجبت الهجرة، أو كما قال في مكان آخر: «يا عثمان إن النبي ﷺ أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعًا». (وهو جبل في المدينة).

فها قد استعلى بناؤك، وبناء قريبك معاوية، وأعوانكما – فأستودعك الله – تاركا لك، ولمن استعملت من العمال «أعمالكم» والله من ورائكم محيط.

فألح عثمان على أبي ذر – أن لا يفعل – فقال أبو ذر: إن رسول الله أولى أن يُتَّبَع.

وبالفعل قد هاجر أبو ذر من المدينة.

كان في عمل أبي ذر هذا أنه قد أخذ بمحض النصح لخليفة المسلمين إذ ذاك «عثمان» وبنصح «عماله»، وبالدفاع عن حقوق المسلمين كي لا تتكون طبقة اشتراكية يكون رائدها «الانتقام».

بل دعاهم إلى العمل بنص القرآن، والاقتداء بمن طبق ذلك النص عملاً من الخلفاء كأبي بكر وعمر.

هذا مختصر ما علم به الدين الإسلامي من الاشتراكية المعقولة، النافعة للمجموع الإنساني، وما عمل به أكبر خلفاء الإسلام.

وكل اشتراكية تخالف في روحها وأساساتها اشتراكية الإسلام – التي سبق ذكرها – فلا تكون بنتيجتها إلا ملحمة كبرى، وسيل الدماء ولا سيل العرم من الأبرياء، ومن تخريب لبناء لا يشاد عليه شيء ينتفع به أحد من الخلق.

نعم يستفيد من يلوك بلسانه كلمة الاشتراكية، ويجعلها أحبولة صيد، وهي كلمة حق يراد بها الباطل.

أكرر القول أن اشتراكية الإسلام هي عين الحق – والحق أحق أن يتبع اهـ.

قوله حقائق الأشياء ثابتة، والإحاطة بها لفرد متعذر والعلم بأسبابها متوزع بين المجموع على نسب متفاوتة

قال: إن كل الحوادث لابد وأن تقترن في آن حدوثها مع سبب لها، ملازم غير مفارق، ويختلف الخلق في معرفة ذلك السبب، ويتفاوتون على نسبة علمهم بالأسباب، والمسببات، وإرجاع كل علة لمعلولها، وكل سبب لمسببه، وحادث لمحدثه.

فالحوادث عند الجاهل منسوبة للصدفة على الغالب، وهي أهون المراجع للتعليل عنده.

فإذا سقطت صاعقة مثلاً على شجرة كبيرة في خلاء من الفضاء، يقول بالصدفة حصل نوء شديد، ورعد، وبرق، ومطر غزير، وبالصدفة التجأ زيد لتحت تلك الشجرة، وبالصدفة سقطت عليه تلك الصاعقة.

هذا ما يقوله من لا يفقه معنى لزوم السبب للحوادث.

وأما من يعلم والعلم متفاوت، ودرجات، فيعلم أن مهب الرياح وشكل الكرة الأرضية، وما فيها من معترضات الجبال، وأوضاعها في الشمال، والجنوب،

والشرق، والغرب، والمضايق، وتأثيرها عند هبوب كل ريح منها، والأحراش، والأشجار، إلخ.. كل هذه الأشياء من مسببات الأمطار بعد أن تجلب السحاب، وتسوقها الأرياح، وتحدث العواصف - وهي من مسببات الصواعق - لأنها لا تحدث إلا من عاصفتين متضادتين يتكون عند اصطدامهما والاحتكاك شرارة كهربائية هي «البرق» ويليها هزيم «الرعد» وهو صوت الصدمة.

فإذا عرفنا بعض أسباب المطر، والبرق، والرعد، ورجعنا إلى التجاء الإنسان لتحت الشجرة علمنا أن السبب فيه - محبة الذات - الأمر الفطري في الحيوان.

وحب البقاء، والتذرع بالوقاية، والمحافظة على الحياة، أظهر ما يكون في الحيوان الناهق من حينما يدب ويدرج منه في الإنسان.

خذ مثلاً الأفعى والجرز، فقد رأيت أكثر من مرة جرزًا قابلته أفعى، فعمد الجرز فورًا إلى عود من الأرض، ووضعه في فمه بشكل مستطيل، بارز عن شِدْقَيْه[(١)] واستقبلها على ذلك الوضع، فكانت كلما دارت لتبتلعه أدار ذلك الواقي له وهو العود فيتعذر عليها بلعه، وكثيرًا ما مَلَّت من مداعبته ويئست من ابتلاعه لما تحرَّاه، وأوجده بسوق الفطرة من أسباب الوقاية؛ فانسلّت ومضت.

والإنسان في تحري أسباب البقاء في هذا العالم الفاني بصورته - والباقي في جوهره - إنما يتحرَّى ما يتحراه الحيوان من أسباب الوقاية والحياة.

---

(١) شِدْقَيْه: جَانِبَيّ فَمِه. (م).

فإذا رأيناه يلتجئ عند العواصف، والأمطار لتحت الشجرة، فليس ذلك صدفة، بل عن سائق، وقصد، وغاية، وكل ذلك يرجع لحب الذات للوقاية، وحفظ النفس.

أما الصاعقة؛ فالقوة الموجودة في الأشجار لجذبها أمر مبسوط مع ما ذكرناه في كتب الحكمة الطبيعية وغيرها مما يدرس في المدارس، فليس في سقوطها شيء من الصدفة.

وهكذا القول في كل ما هو جارٍ، وفي كل حادث على وجه الأرض له سبب، وإن خفي.

فالصدفة - لعدم معرفة الأسباب - عند الجاهل «كثيرة»، وعند العلم، والعالم «قليلة»، وعند القدرة الإلهية «معدومة» لا وجود لها ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف / ٨٤].

والعلم، أو التسلسل بمعرفة تلك الأسباب، فمتوزع بين البشر، يضيق ظرف العمر الإنساني عن استيعابها، واستيفائها، ولولا أنه ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل / ٧٠] لأمكنه أن يعلم أسباب حوادث كثيرة، ولكن ما فات الفرد بالنسبة إلى قصر عمره الطبيعي من التتبع، يتلافى إكمال ذلك النقص النسبي من يأتي بعده من أفراد النوع.

وكل ما وصل إلينا من العلوم – مع خدمة ألوف الرجال لها متعاقبين من علماء محققين – وعلى مدى الأجيال العديدة – لم تزل بالنسبة إلى الحقائق الثابتة فيها «علومًا ناقصة» أو هي في حقيقتها «قشور» لتلك العلوم في غايتها وحقيقتها.

فعلم الطب مثلاً – ووجوده ملازم لوجود الإنسان لضرورته – مع كثرة من خدمه من فحول الرجال في مختلف الأجيال، لم يزل ناقصًا بدليل أن أمراضًا كثيرة وقف علماء الطب عند حد العجز عن وجود دواء لها شاف، حتى جاء من الأواخر من وجد الدواء ومَحَى من سطور كتب الطب (هذا الداء لا دواء شاف له، ولا واق).

وما يدرينا أن الدواء الشافي لكل داء موجود أما في النبات أو في المعادن، أو في قوي الطبيعة وأسرارها، ولكن نقص العلم وعجز فهم الرجال جعله مخفيًّا لعدم الاهتداء إليه اليوم.

وهكذا القول في الكهربائية. فخواصها، ومظاهرها، عرفه الأقدمون بشكل بسيط في العصر «الظري» وهو عصر الحجر الصواني.

فكانوا يستعملون منه سلاحهم؛ إذ يحددونه فيجعلونه ذا حدٍّ ويستورونه بالقدح زنادًا فيوري.

وعلماء اليوم يقولون أن الأصل في المادة الحركة، ومنها تتولد الحرارة، ومنها يتولد النور.

فهذه الأصول كما قدمنا كانت ولم تزل عند الأقدمين وعند أهل البادية اليوم معروفة على أبسط حالاتها. فيعالجون حجر صوان بالاحتكاك فتتولد منه حرارة، فنور، فنار، ويستغنون لك عن عيدان الإنارة بوضع قطعة صوفان عند القدح وخروج شرارة من الحجر، فتلتهب، فيضعونها على الهشيم فيشتعل.

نعم، إن هذا العمل ساق البدو، وأهل الأعصر الخالية إليه لضرورة، ولم يكن بالعلم المدون لتحصل منه فائدة كبيرة.

وأهل هذا العصر مع كونهم استفادوا من توليد الكهربائية، علموا مظاهرها، واستخدموا قوتها، ولكن كنه الكهربائية حقيقتها، وطريقتها أو كيفية تجمعها في المادة لم يزل مجهولاً غير معلوم، وهذا الجهل لا يقدح ولا ينفي أن حقائق الأشياء بَتَّة[١]، والإحاطة بها للفرد متعذر، حتى أن العلم ببعض سلسلة أسباب الحوادث متوزع بين البشر.

قال: ويعجبني في بحث الحركة والحرارة ما قاله أبو بكر بن بشرون قبل أكثر من ألف عام أن الحركة هي الأصل في توليد الحرارة، وللحرارة خاصة نقل الأشياء وتحركها. والكون بما فيه من رطوبة ويبس ليس لهما إلا البرودة، والحرارة،

---

(١) بَتَّة: قاطعة. (م).

فالبرودة تُيبس الأشياء وتعقد رطوبتها، والحرارة تظهر رطوبتها وتعقد يبسها. والمرجع الكلي في الأشياء، الحرارة المنبعثة عن الحركة وهي أصل الحياة، ومتى فقدت حرارة الكون تعذرت الحياة أو فقدت» ا هـ.

ثم تفكر وقال:

إن في خلق الإنسان، وفي عقله من القوى الغريبة والأسرار العجيبة ما يدهش العقل، ولقد أصاب الشيخ الأكبر بقوله «أيحسب الإنسان أنه جرم صغير وفيه انطوى العالم الأكبر».

نعم إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض، وخفي من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته؛ فيرى ما كان من التصورات مستحيلاً قد صار ممكنًا وما صوّره جموده، وتوقف عقله عنده بأنه «خيالاً» قد أصبح «حقيقة».

لبث الإنسان يقلب طرفه في الفضاء وطبقات الهواء، يتجادل عقله مع النسور، والعقبان محلقة، ويهب لمجاراتها واللحاق بها ثم يقعده الجمود، ويريه ذلك مستحيلاً فيرجع إلى الوراء.

والعقل وهو معتقل بذلك الجمود يحاول فك قيده ليسير إلى الأمام.

وهكذا كان موقف عقل الإنسان مع الحيتان، وأسماك البحار، يناجي نفسه ويقول: إن عندي من القوى وفهم الأسرار ما ليس في الحيتان والعِقْبَان[١]، فلم لا أفعل فعلهما، وأجري جريهما؟

وعندي إذا ظفر العقل في هذا العراك والجدال، وتغلب إقدامه على الأوهام، واستطاع فك قيوده، ومشى مطلق السراح، لا يلبث طويلاً إلا ونراه قد طار بأسرع من العقبان، وغاص في البحار يسابق الحيتان، وسَخَّر البرق بلا سلك لحمل أخباره، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره كأنه عن قاب قوسين أو أدنى.

وهل يبقى مستحيلاً إيجاد مطية توصله للقمر أو الأجرام الأخرى، وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الإنسان في مستقبل الزمان؛ إذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة التي ما وجدت إلا للإنسان، وما وجد الإنسان إلا لها[٢].

---

(١) العِقْبَان: طيور من العِتَاق. (م).

(٢) وقد تم اليوم أكثر ما قاله جمال الدين، وكان العلماء إذ ذاك يحاولون ويجربون في أوروبا تسخير الفضاء للطيارات، والبحار للغواصات.

قوله: إن الحق لا يكون مع الأكثرية أحيانًا

قال: وجود بعض المجموع الإنساني على شيء، والاعتقاد به، لا يفيد أحيانًا معنى أنه على الحق، خصوصًا إذا كان رائده وقائده مطلق التقيد بالمألوف والتقليد الأعمى بدون حجة ولا برهان.

فالحقائق من دين ومذهب، وقواعد علمية وفنية، ما ظهرت واستقرت وتدونت، وانتشرت إلا بواسطة أفر اد قلائل، وقد قاومها المجموع بأشد ما لديه من قوة ووسائل القهر.

فجوبيتار «إله الآلهة» ما تجرأ على الكفر به أحد في عصر التعبد له، وكانت الكهنة مع مجموع الشعب تنزل على من يكفر به آيات العذاب وأنواعه، واليوم يعدون من يكفر بجوبيتار وألوهيته مؤمنًا.

ثم جاء «موسى» وكفر بألوهية فرعون، وكان الإيمان بالله عند مجموعهم يُعَدُّ كفرًا، واليوم الأمر بالعكس.

ثم جاء عيسى، وليس من يؤمن به غير ذلك النفر القليل من الحواريين – ومع تصريحه أنه أتى ليتمم الناموس لا لينقصه، فكان المجموع من اليهود في أورشليم من ألد الخصوم وصلبوا من تبعه، وتفننوا بأنواع عذابهم. واليوم ترى تعاليم المسيح في القدس «مكان الاضطهاد» وفي بيت لحم «محل الولادة» وفي أكثر المعمور من الأرض، يُدَان بها ويعمل على نشرها.

ثم جاء محمد – وكانت شيعته أفراد قلائل، ومن آمن به يعدون على الأصابع، وهم: «طفل» – وهو علي بن أبي طالب – و«امرأة» – وهي خديجة الكبرى بنت خويلد – ومن الرجال «أبو بكر».

وكان المجموع من قومه أشد المقاومين لدعوته وجحد نبوّته، وكان من يؤمن بمحمد ﷺ عرضة لأنواع العذاب، وموضع السخرة والاستهزاء.

واليوم ترى ميئات الملايين من الخلق تدين بدين محمد، وأكثر مجموع العالم يحترم، ويدين بتعاليم الثلاثة – «موسى» – و«عيسى» – و«محمد».

بعد أن كانت أتباع الثلاثة شراذم، بل أفرادًا قلائل في بدء أمرهم.

ولو لم تكن تعاليمهم محض خير، وموافقة لروح البشر والإنسانية، لما أخذ التكاثر من تابعيهم رغم مقاومة المجموع، ورغم الاضطهاد، والقتل، والاستهزاء، والنفي، والصَّلْب، وكل أنواع العذاب حتى صاروا أممًا، وفتحوا ممالكًا، وصار

لأولئك الأفراد والشَّرَاذِم[1] دولاً، وجانبًا يخشى، وبأساً يتقى، ومدنية، وحضارة لا تفنى.

وهكذا ينبغي أن نعلم أن كل تعليم إذا كان حقًّا في ذاته - ولو خالف المألوف، وكانت أنصاره قلائل - فمن الحكمة أن لا يُمْتَهَن لقلة الأشياع والنصراء، أو لكثرة جماهير المخالفين، والمقاومين له في بادئ الأمر، بل يجب أن يُنْظَر إليه بعين البحث، والنقد الصحيحين.

فإن تبين منه نور حق، وكان الناظر ضعيف الهمة، لا يجرأ على مناصرته، ومظاهرته، فليصبر حتى تكثر الأعوان، ولا يسارع لمجاراة الكفران به.

فكم مضطهد للمسيح لم يلبث حتى اعتنق دينه، وجاهر بتعاليمه، غير مبالٍ بالقتل، وأنواع العذاب.

وكم عربي نَاهَضَ محمدًّا، ثم خاض بعد إيمانه غمار الحروب، واستبسل في سبيل دعوته، وطاب له الموت حبًّا بنصرته.

والدعوة لطلب الحرية في فرنسا - وهي دعوة، ومطلب حق - كم صادف أهلوها من المحن، وكيف استحرّ[2] فيهم القتل، وسالت الدماء، واليوم فالعالم يقدرهم، ولسوف يقتدي بهم.

---

(١) الشَّرَاذِم: الجماعات القليلة من الناس. (م).
(٢) استَحَرّ: احْتَدَم. (م).

وهكذا دعوى الاشتراكية على ما سبق ذكره وبيانه – وإن قل نُصراؤها اليوم – فلابد أن تسود في العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح، ويعرف الإنسان أنه وأخاه من طين واحد، أو نسمة واحدة، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع، وليس بتاج، أو نتاج، أو مال يدخره، أو كثرة خدم يستعبدها، أو جيوش يحشدها، وغير ذلك من عمل باطل، ومجد زائل، وسيرة تبقى معرة لآخر الدهر.

ثم قال: مخالفة المألوف أمر عظيم، وما يحتاجه من الجرأة، وعلو الهمة، أكبر وأعظم.

لا تصدق أن أحدًا من البشر يمكنه تخطي المألوف، ومخالفته بسهولة؛ فهناك عقبة كؤود، وهوة هائلة لا يذللها، ولا يجتازها إلا فحول الأبطال، ونوابغ الرجال، إما بالأرفاد، أو بالحكمة وعظيم الهمة.

وأعظم مزايا الأنبياء (عليهم السلام) اقتحامهم مخالفة أقوامهم وما كانوا فيه من ضلال، ومساوئ أحوال بما يعبدونه، ويتعاملون به، ويألفونه من قول، وفعل، وعادة.

ولو لم يكن لهم إلا تلك المزية (وأنصفهم من يجحد، وينكر، رسالاتهم، ونبوّاتهم)؛ لأعظم من شأنهم، ولوجد فضلهم كبيرًا.

فموسى (وقد بطش بفرعون، وأخرج بني إسرائيل من مصر على الرغم منه).

والمسيح وهجومه على هيكل اليهود، والفريسيون في أوج عظمتهم، وسلطة ناموس موسى في يدهم – وهو في أجل تعاليه.

فسفَّه أحلامهم، ودخل هيكلهم، وكسَّر صناديقهم، وخرَّب ما يتجرون به وقال: «بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة للصوص».

وكذلك محمد، فقد كسر الأصنام، وأذل اللاة، والعزى، ومناة، واستأصلهم فعلاً، وأَبَى قبول الملك من قريش، ونهض لإعلاء كلمة الحق، واستسهل في سبيلها كل اضطهاد، وحرب، وطعن، وضرب.

وخالف كل مألوف لقومه غير معقول. وبدأ به بنفسه، وباشره بذاته، وطبقه على الأقربين من عشيرته. مثل نفي التجارة بالرِّبَا، وعدم التعامل بها. فحطّ الرِّبَا، وأنزله من أموال أقاربه– من عمومة، وخؤولة – وكان لهم من ذلك أموال طائلة.

وهكذا التبني؛ إذا كان الرجل من العرب يتبنى ابن الآخر «والنبي» قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يدعى زيد بن محمد، فلما أُوحِي إليه ﷺ أن ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب/ ٥] الآية، فقد دعاه إلى أبيه «حارثة».

وهذا من المخالفة للمألوف عند العرب في المكان الأعظم. ففعله بذاته، وكان خير قدوة لترك كل مألوف غير معقول، وأمثال ذلك كثير.

رأيه في الأديان الثلاثة وأنها متفقة في المبدأ والغاية

الناس تجاه الأديان الثلاثة - الموسوية، والعيسوية، والمحمدية - وكتبها، لابد أن يكونوا أَحَد رجلين، إما رجل يعتقد أن رجال الأديان الثلاثة قد أرسلهم الله وأوحى إليهم التوراة، والإنجيل، والقرآن. والقصد من إرسالهم إرشاد الخلق إلى الحق، وإِرَاءاتِهم[1] الصراط المستقيم في الأمور التعبدية، من بيان الحلال، والحرام، وصون مصالح العباد بما شرعه لهم من الشريعة، وإلزامهم العمل بها، وبالإجمال؛ بيان مشيئة الله لما يريده من خلقه، وما يريد أن تكون خليقته عليه.

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قصد الله إلا واحدًا، ومشيئته واحدة. وكتب الوحى، وما أنزله على الرسل لابد وأن تكون متفقة في المقصد والغاية، ولا يصح التباين في جوهرها، لا أن تخالف بعضها بعضًا.

فلننظر إلى الأمر الرئيسي الذي جاء في التوراة من أمر العبادة، وما أراده الله من عباده هناك، فنرى أن الله قد نادى موسى من جانب الطور وكلمه قائلاً:

---

(١) إِرَاءاتِهم: رؤاهم وبصائرهم، جمع إراءة. (م).

إني أنا الله لا رب سواي اعبدني أنت وبني إسرائيل» ومختصر ما ورد فيها أن طاعة الله، وعبادته، والعمل بما يبلغه الرسول، كل ذلك له في الآخرة ثوابًا، وسعادة سرمدية، فضلاً عن عاجلة الدنيا.

والإنسان بسوق الحب الذاتي لا يريد، ولا يحب أن يعتقد أنه سيذهب سُدَى بعد الموت؛ لأن الاعتقاد بذلك مزعج للنفس، مقبض للروح، فهو يرجو بعد الفناء الظاهري أن يبعث، ويكون له معادًا، وأن يحيى حياة أبدية.

ثم لننظر ما جاء في الإنجيل – وما قاله المسيح – فنرى أنه قال: «بما معناه – أعطيتني سلطانًا على كل جسد لأعطي حياة أبدية لكل من أعطيته وهذه الحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته».

فالعيسوية هي ناموس جاء متممًا مكملاً لما قبله من التوراة، كما قال المسيح «جئت لأتمم الناموس – لا لأنقضه» إلخ.

ثم إذا نظرنا إلى المحمدية نرى القرآن مشحونًا بتوحيد الله، ولزوم طاعته وعبادته بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦ﴾ [الرعد/ ٣٦] و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة/ ٢] و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة/ ٥].

هكذا ترى الأديان الثلاثة متفقة في الأمور التعبدية بلا أدنى تباين أو تخالف.

ثم ننظر في المعاملات، وما أجيز منها في تلك الأديان، وما نُهِي عنه فيها.

نرى أن ما جاء به موسى، أو ما أمره الله به من الوصايا، قد عمل بها المسيح، ولم ينقض، أو ينقص منها شيئًا.

وكذلك محمد؛ فإنه جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

قلنا: إن الناس تجاه الأديان الثلاثة، وكتبها أحد رجلين، رجل يعتقد بالوحي، ويؤمن بالأنبياء والرسل، ورجل يجحد الوحي ولا يؤمن بالأنبياء، ولا بإرسالهم من عند الله.

أما الرجل المؤمن؛ فقد بحث ودقق، وطبق كتب الأديان الثلاثة على بعضها كما مر، فلم يجد فيها أقل تباين، بل وجدها متفقة في المقصد والغاية.

وأما الرجل الكافر، ومنكر الوحي فيقول: إن الكون مع حوادثه من حيث حقيقتهما ليس فيهما شيء جديد.

وما نراه جديدًا، فإنما هو في شكل الإِبْرَاز[1]، وصورة الإلقاء والتلقي.

---

(١) الإِبْرَاز: الإِظْهَار والتبيين. (م).

فيأتي في قرن من القرون أولي بصيرة، ولُبّ، ودهاء؛ فيعلمون تعليمًا بشكل خاص، وصور معلومة عندهم - تأخذ من نفوس الخلق كل مأخذ، ويتعبد لها إذا وضعت في شكل تعبدي، أو يعمل بها إذا أفرغت في قالب تعليمي.

فالتعليم بتوحيد الله وتقديسه معروف عند قدماء المصريين قبل موسى بأجيال.

والتثليث من تعاليم الوثنيين. وقد قال فيثاغورس- الفيلسوف اليوناني قبل المسيح بخمسمائة عام - إن موسى وعيسى ومحمدًا، هم رجال عقلاء حكماء امتازوا عن وسطهم، وجمعوا من معتقدات الأقدمين قواعد وأقوالاً - وضعوها في كتب لا يعقل أن تكون من إله السماء.

ويقول ذلك المنكر: أنه لو سلمنا أن في كتب الأديان شيئًا من النفع، فهو لا يوازي مضار ما نراه بين أهل الدين نفسه، والأديان من الاختلاف، والتنافر والمشاحنة، والبغضاء. ولو كانت من الإله حقيقة لجعلهم يتفقوا عليها ولا يختلفوا، ثم يستحيل أن يكون فيها ما يرى من الخرافات إلخ.

قال جمال الدين: هذا غاية ما عند الجاحد، المنكر من القول والحجاج.

والمطلوب منه في موضوعنا هنا - ليس الإيمان بالوحي، وبالأنبياء- بل - إذا كانت كتب الأديان الثلاثة متفقة بالتعاليم الجوهرية، وفي المقصد والغاية -أم لا؟

أما اتفاقها، وعدم تخالفها فقد ثبت، ولا يستطيع أحد جحوده، وإنكاره.

وأما ما يراه المنكر، ونراه نحن أيضًا، من اختلاف أهل الأديان فليس هو من تعاليمها، ولا أثر له في كتبها، وإنما هو صنع بعض رؤساء أولئك الأديان الذين يتجرون بالدين، ويشترون بآياته ثمنًا قليلاً ساء ما يفعلون.

رؤساء الأديان، وما أنفعهم إذا صلحوا، وما أضرهم إذا فسدوا.

فالأديان في أصلها وجوهرها وازع عظيم، ودواء نافع مفيد لكثير من أمراض البشر، هذا إذا أحسن الأطباء (وهم هنا رؤساء الأديان) عدم خلط ذلك الدواء بالضار من الأجزاء، وراعوا قابلية العقول قبل الأجسام، وأعطوه منه بقدر معلوم، بقول مفهوم، وبيان معقول.

قال: سألني أحد نواب الهند عن أشياء يعتبرها شبهات - كادت أن تخل في عقيدته الإسلامية، وتريبه في إنزال الكتاب - أهمها: إذا كان القرآن كلام الله وقوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة/ ٣٣] حقًّا.

فلم الإسلام في هذا العصر في أعظم دركات التقهقر، والانحطاط، وعلى خلاف صراحة الآية - وأطال في القول حتى إذا انتهى - قلت له:

اعلم أن كل دين يجب أن يكون حقًّا.

فالإسلام اسم ومسماه الحق. فلو أتاك رجل اسمه «عالم» وهو في حقيقته جاهل، هل تنكر لمجرد الاسم وعدم انطباقه فضل المسمى؟ وتقول لأن اسم هذا الرجل «عالم وهو جاهل» إذن لا فضيلة للعلم.

ولو أتتك الملايين باسم الإسلام - كما هو الحال في هذا العصر - وهم لم يقوموا بحق المسمى من الحق، هل ينبغي لمجرد مخالفة الإسلام أن ينكر فضل المسمى، وهو حقيقة «الإسلام»؟ كلا.

لذلك قال الله تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة/ ٣٣].

ولم يقل: ومن تسمى بدين الإسلام ليظهره. إلخ. على أن الإسلام، ومن دان به من المسلمين لما عملوا بحق الدين - ظهروا ظهورًا طبّق الأرض نورًا، وملأها عدلاً.

فالظهور للحق وللحقيقة - وليس للإسلام اسمًا مجردًا.

وما تراه اليوم في المسلمين من التقهقر ليس من حقيقة دين الإسلام.

بل من جهل المسلمين «حقيقة الدين».

وفي هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة/ ٣٣] ما يفهمنا أن هناك كل من بعض».

فالأديان في مجموعها هي «الكل» وأجزاؤها «الموسوية» «والعيسوية» «والإسلام». فمن كان من هذه الأديان كلها على الحق فهو الذي يتم له «الظهور والغلبة».

لأن الظهور الموعود به الدين إنما هو «دين الحق» كما قلنا، وليس دين اليهود، ولا النصارى، ولا الإسلام إذا بقوا أسماء مجردة، ولكن من عمل من هؤلاء بالحق فهناك «الدين الخالص».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر/ ٢-٣].

رده على من أخذ عليه قوله إن أصول الأديان واحدة وإنها من المتناقضات، وبحث تصوفي

قال: إن أمر التصوف لم يكن في المسلمين فقط، بل رجال أديان الكتب السماوية كانوا على حقيقة من التصوف في المعنى، واختلاف في صور الألفاظ وشكل الإلقاء، أو الفهم الذي يريده الرئيس، أو المسيطر أن يُحَوِّر[1] به المعنى على حسب ما يرتئيه نافعًا، ومفيدًا، وموافقًا للغرض في حينه.

فآيات التصوف في التوراة أكثر إغلاقًا مما في الإنجيل.

مثل قوله «إسرائيل ابني البكر». فاليهود مع وجود هذه الآية في التوراة ما ذهبت، ولا اعتقدت أن الإله له ابنًا، أو يجوز عليه ما يجوز على البشر من أشكال التناسل، والولادة أو الزوجة، والولد.

ومثل هذه الكلمات، والأقوال لا يسعنا إلا أن نقول أنها «تصوف» أو ألفاظ لمعان حقيقتها غير ظاهر ألفاظها.

---

(١) يُحَوِّر: يغيِّر. (م).

وكثيرًا ما تأتي أقوال المتصوفة على صورة من الإِبْهَام[١] – بالنسبة لبعد ما بين منظورهم بالبصيرة، والحس الروحي، وبين ما يرى من الأشياء المحسوسة – ولها قوالب ألفاظ مألوفة تدل على معناها. بعكس المرئي، والمشاهد في الحس الروحي، ومَوَاجِد[٢] أهل التصوف الذوقية، التي يقصر ما لدينا من الألفاظ عن تصويرها والدلالة عليها. فالتصوف يجب أن نفهمه – أنه مذهب حكماء، وعقلاء «تريضوا» أي هذَّبت، ولطَّفت جسمانهم الرياضة – وكثر منهم النظر في الأشياء، والتطلع إلى حقائقها، وفهم كُنْهَهَا[٣] عن طريق الحس الروحي، والانفعال في النفس المتعلقة في الجسم موقتًا. فهم فيما كانوا يرون، ويقولون في مواجدهم ومشاهدهم، وذوقهم –أما أن يراه من كان من غير طبقتهم – غير معقول وغير مفهوم – وأما أن يسيء فهم معناها إذا أخذه على ظاهر لفظه.

كان بحث جمال الدين في التصوف، وفي أن الأديان الثلاثة متفقة في المقصد والغاية، وأن غرضها تعليم التوحيد، وأن تعمل لخير الإنسان – في محفل حافل في بيته – وكان من جملة الحاضرين طبيب السيد «وهو موسوي» – فبعد أن انفض المجلس قال الطبيب: «يا أستاذ إن النصرانية لا تعلم التوحيد، بل أساسها قائم على التثليث، بعكس الموسوية والإسلام.

---

(١) الإِبْهَام: الغموض. (م).

(٢) مَوَاجد: ما يُصادف القلب ويرد عليه دون تكلف وتصنُّع من فزع أو غمّ أو رؤية معنى من أحوال الآخرة. (م).

(٣) كُنْهَهَا: حقيقتها. (م).

والإنجيل طافح بمثل أقوال المسيح «أنا في الآب والآب فِيّ» ومثل قوله: أيها الآب مَجِّد ابنك ليمجدك ابنك أيضًا.

فقال جمال الدين: إن المسيح عليه السلام وضع أساس تعليمه والغاية من مجيئه، أن يكمل الناموس لا أن ينقضه، وناموس موسى بني على التوحيد، فلا يصح نقض ذلك الأساس، وإن ورد في بعض الأقوال ما يخالف في ظاهرها ذلك الأساس، وجب الرجوع إلى التأويل كما قدمنا، وأن لا يرمى أي دين بالضعف والوهن.

وأما أمثال قول المسيح «أنا في الآب والآب فِيّ» فقد ورد عنه قوله أبي وأبيكم «وكلهم أبناء الله يدعون». وفي التوراة كما ذكرنا جاء «إسرائيل ابني البكر» وهذه الأقوال كلها تصوف محض.

وورد في كلام أهل التصوف من المسلمين أقوال مغلقة – مثل قول الشيخ الأكبر، محي الدين بن عربي، والخواص، والجنيد، والحلاج، والجبلي، وبن مشيش والسهر وردي والبكري وغيرهم – وإليك أمثلة من ذلك.

يقول الشيخ الأكبر في بعض صلواته «اللهم يا من ليس حجابه إلا النور ولا خفاؤه إلا شدة الظهور أسألك بك في مرتبة إطلاقك عن كل تقييد، التي تفعل فيها ما تشاء وتريد وبكشفك عن ذاتك بالعلم النوري، وتحولك في صور أسمائك وصفاتك بالوجود الصوري.

وقول السيد البكري: نعم العبد الذي به كمال الكمال، وعابد الله بالله بلا حلول ولا اتحاد، ولا اتصال ولا انفصال. قال:

ترون هذه الكلمات المتناقضة ظاهرًا - إنما أراد نفي الحلول الذاتي فأتى لذلك بنفي الحلول أولاً - وإلا كيف يعقل لو بقينا على مفهوم الظاهر من معنى الكلمات أن المتصل بالوقت ذاته يكون منفصلاً.

فمعاني التصوف، وإن كانت مغلقة في الغالب، لا يفهمها إلا أصحاب الذوق والمواجد، ويعسر على غيرهم تناول فهمها، فلا بأس من التقريب في التأويل لينتفي غير المعقول.

وخير مثال يقرّب للعقل المفهوم في مثل هذه الحال والأقوال «المرآة» التي تمثل الشيء تمامًا - فيفتح بهذا المثال بعض مغلقات ما ذكر من كلام المتصوفة - فإذا قابلت المرآة الشمس، رأيتها في المرآة، ولا يَعْتَرِي[1] الإنسان أدنى شبهة أنها «الشمس» على غير طريقة الحلول في المرآة، ولا على صورة الاتحاد أو الاتصال أو الانفصال.

وحقيقة ذلك المرئي من الشمس إنما تجلى في المرآة «لشفافيتها» وبتلك الشفافية حصل ذلك الانطباع على تلك الصورة، على غير حلول ولا ولا إلخ.

---

(١) يَعْتَرِي: يَغْشَى. (م).

ومن الأمثلة - قول ابن مشيش - «وأنشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى، ولا أسمع، ولا أجد، ولا أحس إلا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي وروحي سر حقيقتي وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن...» إلخ.

وقول الحلاج: «ما في الجُبَّة غير الله!»[(١)].

ثم قال: إذا علمنا أن تجلي الشمس في المرآة حصل لشفافيتها - هكذا تجلي الذات في خلقه عندما تتلطف الكثافة الترابية، الجسمانية، وتشف الروح، وتتمكن - من اتصالها بعالمها - ترى من الذوق في الشهود - ما لا يسعه إلا التعبير بالمتناقضات ظاهرًا كما تقدم وليس ثمة تناقض.

وكلام المسيح عليه السلام - إن هو إلا غاية في التصوف - ولا يصح حمله، أو فهمه على صورته الظاهرية، وإلا لانتفض أساس الناموس الموسوي - الذي إنما أتى ليتممه فلا يصح أن تنزل التوراة على موسى من عند الله «بالتوحيد» وينزل الإنجيل من عند الله على عيسى «بالتثليث».

وصريح أقوال المسيح في جوهر الاعتقاد أكبر دليل على صحة ما نقول من أن الأديان الثلاثة متفقة في المقصد والغاية.

---

(١) ما في الجُبَّة غير الله: عبارة شهيرة من عبارات المتصوفة يُرَاد بها حلول الإله في أجساد الخلق، وتسمى نظرية وحدة الوجود. وقُتِل بسببها الحلاج على الزندقة. (م).

المسألة الشرقية ومرتآه في حلها، وتبجيله لفكرة السلطان محمد الفاتح، والسلطان سليم باتخاذ اللسان العربي لسانًا رسميًّا والأخذ بتعميمه

مختصر المسألة الشرقية – هي عراك بين الغربي، والشرقي – وقد لبس كل منهما لصاحبه درعًا من الدين. فالغربي تذرع بالنصرانية – والشرقي بالإسلامية. وأهل الديانتين كالآلة الصَّمَّاء[1] بأيدي محركيهما.

فالقائمون بالنصرانية يسخِّرون الدين لأجل الدنيا، ويحسنون أمر دنياهم وما تتطلبه مظاهر الحياة.

والعاملون بالإسلامية، يسخِّرون الدنيا لأجل الدين، وإذا هم لم يعملوا بأحكامه يخسرون الدين والدنيا معا.

إن فتح القسطنطينية – تلك العاصمة العصماء – من قبل السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٦ – ٨٥٧ هـ هي التي ولَّدت الحقد في الملوك المسيحيين ضد المسلمين وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها لمناصبة الدولة

---

(١) الصَّمَّاء: لا تسمع. (م).

العثمانية، وتعمل على إذلالها، وتضعضعها، وإخراجها من فتوحاتها الأوروبية بكل وسيلة، وفي كل سَانِحَة[١] وفرصة.

والأكثر في الحروب، والتغلب، والانتصار فيهما إنما يكون بالقوة وبالعلم، ولو أن الدولة العثمانية راعت من يوم أسست، أو من يوم ما استقلت به سنة ٦٩٩ وراقبت حركات العالم الغربي، وجرت معه حيثما جرى في مضمار المدنية، الحضارة، وقرنت إلى فتوحاتها المادية - القوة العلمية - على نحو ما فعلت اليابان أقله.

نعم لو فعلت ذلك لما كان ثمة مسألة شرقية، أو لما ظهر ذلك التباين الذي لا يثبت معه الحكم طويلاً - وهو تحكم الجهل بالعلم - أو «حكومة جهل تحكم حكومات علم» ولا يتسنى اليوم للسيف المجرد أن يحكم بأمة يدافع عنها مدافع العلم. وما مسألة الدين إلا ذريعة تظهر بعد استكمال القوة للوصول لتلك الغاية وهي دفع الجهل، والحكومة الجاهلة عن الحكم بأمة عالمة لها تاريخها ولسانها وآثارها، ولو كانت بالية.

وإذا كان للضغينة الدينية شيئًا من الدخل في إيجاد المسألة الشرقية، والاحتفاظ بها، فإنها ليست هي كل أسباب المسألة، بدليل أن سلاطين آل عثمان فتحوا، وتوغلوا، وضموا الممالك كانوا يدينون بالإسلام.

(١) سَانِحَة: خاطرة. (م).

ومن دخل في ملكهم، وتحت سيطرتهم كانوا نصارى وأشد تمسُّكًا بالنصرانية مما هم الآن. فلو كان أمر الدين هو الباعث على هذا الحقد والمناهضة، لكان الأولى أن يظهر إذ ذاك، وعدم ظهوره، بل رضوخ الطوائف، والإمارات النصرانية للحكم العثماني الإسلامي أكبر دليل على أن مسألة الدين لم تكن هي وحدها الفاعلة في أمر المسألة الشرقية التي امتدت، وستمتد إلى غير تركيا، وستعم كل قارة وكل حكومة تتفق في شكلها وحكمها وتفريطها مع حكومة تركيا.

إذا تفحصنا عوامل تغلب الدول الإسلامية على الحكومات النصرانية لوجدناه منحصرًا «في القوة - والعلم».

وهكذا يَدُول[١] أمر الدول انتصارًا وانكسارًا.

والدول المسيحية اليوم إنما يغلبون الحكومات الإسلامية بالعلم - مصدر القوة - وينغلب المسلمون بالجهل - مصدر الضعف.

علم الأتراك يوم تسنَّى لهم فتح الممالك «علم الحروب وتعبية الجيش»، وجهل الأوروبيون ذلك، ولم يضارعوهم فيه؛ فانتصر الأتراك، وانكسر الفرنجة.

التزم الأتراك والسلاطين العظام منهم جانب الدين وكان على منصة المشيخة الإسلامية علماء أعلام، وفقهاء، وأجلاء عالمون، عاملون بحقيقة،

(١) يَدُول: ينتقل من حال إلى حال. (م).

وأحكام الإسلام. يصدر السلطان، وأكابر دولته عن رأيهم وينزل على حكمهم، فعدلوا في الرعية، وأمنوا من دخل في ذمتهم، وسهلوا لهم الصعاب، وحافظوا على جامعاتهم من دين، ولسان، وعادة، فرضخ المستعمرون من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم، بالنسبة لجهل غيرهم في تلك الأعصر.

فظل النصارى في طاعة العثمانيين - وظلوا في كل المعاني رعية لهم - ما دامت تلك المؤهلات والصفات في الفريقين - القوة والعلم في الحاكم - والضعف والجهل في المحكوم.

حتى إذا انعكس الأمر، وبان الجهل مصدر الضعف في الأمة الحاكمة وظهر العلم مصدر القوة في الأمم المحكومة - نهضت للتخلص من ربقة الاستعباد لمن دونهم في العلم - واستبسلت في الرجوع لحكم ذاتها بذاتها.

وقد سهل عليهم كل صعب في هذا السبيل - إقرار الدولة لهم على جامعاتهم الكبرى من دين، ولسان وتاريخ، تلك النعمة التي كانت وتكون على الدولة أكبر نقمة - ولا مناص لها من تحمل أعباء ذلك - وهي سنة الوجود؛ لأن الأمم المحكومة إذا تيسر لها المحافظة على جامعاتها من دين، ولسان وتاريخ - ولم تستحيل، وتنحل في غير عنصرها - فهي أرقب الناس للفرص وأعلق الخلق بإعادة مجدها، وتجديد، وإعادة سيرتها الأولى.

ولن يثنيها أشد العوامل عن المطالبة بها. وتزداد نشاطًا، وتستمد قوة معنوية كلما آنَسَت(١) من حاكمها المستهين بها استطالة(٢) بغير حق، واستهضامًا(٣) لحقها بغير وجه مشروع وبقهر ليس له من الإنصاف نصيب، وبقتل يحيى ميت العزائم.

ثم قال: ومن ينظر إلى تاريخ الدولة العثمانية ونشأتها لا يتمالك نفسه من الإعجاب بنشاطها، وكثرة ما فتحته من الممالك، وأخضعت لسلطانها من الأمم.

ويأخذ به الاستغراب كل مأخذ - من تفريطها، وعدم جريها مع أحكام الزمن - وحرمانها نفسها، ومن دخل في حكمها من الأمم أن تجري وإياهم في ميدان الحضارة، أو أن يبقى لها أثر من الآثار في تلك الممالك والأمصار.

نشأت في الجيل السابع للهجرة، أو آخر القرن الثالث عشر للميلاد بآسيا الصغرى. فاستخلص السلطان عثمان الأول ما بيد السلجوقيين من الملك وهو القسم الشرقي ومشوا على ما بيد الروم من القسم الغربي.

وقد حول العثمانيون أنظارهم وصرفوا قوتهم، وهمتهم إلى شبه جزيرة البلقان تلك البقعة الغريبة في وضعها الجغرافي - إذ وقعت في أقصى الجنوب الشرقي من أوروبا - وإلى جانب آسيا. وبعد انقسام المملكة الرومانية إلى شرقية وغربية. كانت شبه جزيرة البلقان في المملكة الشرقية - وفيها غير تركيا، اليونان،

(١) آنَسَت: أَبْصَرت. (م).
(٢) استطالة: اعتداء. (م).
(٣) استهضامًا: انتقاصًا. (م).

والصِّرب، والبلغار، ورومانيا، والجبل الأسود- ولكل من هؤلاء الأمم عنعنات، ومطامع، وعروق وأنساب، ونزعات طائفية، واختلافات مذهبية وأميال سياسية – كانت معها البلقان في سائر الأعصر مهد الفتن، والقلاقل – ولا تزال كذلك، وسيعم بلاء البلقان أهله – ويتعدى إلى ما سواه من الممالك.

لأن كل دويلة من هذه الدويلات الصغيرة تطمح في تكبير حَوْزَتِها[١]، وهذا الكبر لا يتم إلا بتصغير جارتها، أو بابتلاعها ومن وراء هذه المطامع في حكومات البلقان وابتلاع بعضهم بعضًا – الدول الضخمة كروسيا والنمسا ومن ساعد على استقلالهم – وإخراجهم من الحكم العثماني وهم بمساعدة البلقانيين على الاستقلال إنما يريدون أن يبتلعوه ويمتلكوه جزءًا بعد جزء – وستكون الحجة عنصر السلاوي، والصقلبي – وكانت الحجة من قبل تخليص النصرانية من الحكم الإسلامي، والصحيح قوي يحاول اقتناص، وابتلاع الضعيف.

ثم قال: هذا بحث يطول. ولنعود إلى ما كنا فيه من النظر إلى ما ترك العثمانيون من الأثر فيما افتتحوه من الممالك.

افتتح السلطان مراد الثاني بلغاريا سنة ١٣٨٢م وبقيت تحت حكم العثمانيين وفي حوزتهم نحوًا من أربعة أجيال والبلغاريون قوم أشداء وأصلهم من المغول مثل المجر والفنلنديين، نزحوا من جهات قازان في روسيا أوروبا ونزلوا

---

(١) حَوْزَتها: حدودها ونواحيها. (م).

بلاد البلقان في الجيل السابع للميلاد - وهي من أول نشأتها ألفت الاستقلال وحافظت على مكانتها - وكانت دولة البيزانطيين تخشى بأسها - ثم أخذت في التقهقر فافتتحها الروسيون، ثم ناهضتهم وأعادت استقلالها في القرن الحادي عشر، ثم دخلت في حوزة الروم وصارت جزءًا من المملكة الرومانية الشرقية ثم استقلت ثالثة. ولم يفقد البلغاريون استقلالهم أربعة أجيال إلا مع العثمانيين، وماذا فعلوا مع البلغار في مدى تلك الأجيال وأي أثر عثماني تركوا في بلغاريا؟ لا شيء. بلى، تركوا لهم جامعاتهم الكبرى من دين، ولسان، وتاريخ يسيرون مع الحضارة والمدنية مع السائرين، وحكامهم الأتراك من القاعدين مكتفين بالفخفخة، والغطرسة، والفخر بالأسلاف.

هذه أربعة قرون، وبلغاريا تحت حكم العثمانيين - وهي لا تزداد إلا انحطاطًا حتى إذا ما صارت إِيَالَة[1] ممتازة بموجب معاهدة برلين - نهضت، وقطعت شوطًا بعيدًا في الحضارة، والعمران، والترقي - وصار لها جانبًا يخشى حتى من الدولة العثمانية.

أما الصرب فهي أيضًا من فتوحات مراد الثاني سنة ١٣٨٩، وبقيت كذلك في حوزة العثمانيين أكثر من أربعة قرون - وقد حاولت التخلص من حكم العثمانيين مرارًا - وآخر ثورة قام بها الصربيون دامت أربعة عشر عامًا نال

(١) إِيَالَة: وِلاَيَة. (م).

بها الصربيون من الباب العالي نوعًا من الاستقلال. وسنة ١٨٧٨ استقلت تمامًا بمقتضى معاهدة باريز، ولحقت بجارتها بلغاريا.

وكذلك اليونان فقد أخضعتها الدولة العثمانية مع من أخضعت من ممالك البلقان وظلت في حوزتها وتحت حكمها إلى سنة ١٨٢٩ فاستقلت بمناصرة أوروبا وبعد حروب طويلة دامت سبع سنين، واشتركت فيها العمارة المصرية بقيادة إبراهيم باشا إذ أرسلها محمد علي باشا الكبير إلى الموره. الأمر المعروف.

أما ورمانيا وكانت في القرن الثاني عشر عبارة عن إمارتي فلاخيا، ومولدافيا وقد خضعوا للعثمانيين وكانوا يؤدون الجزية من سنة ١٣٩٢ إلى سنة ١٧١٦. ثم بعد ذلك دخلوا تحت سلطة الحكم العثماني، ثم احتلت روسيا البلاد وأعادت لهم امتيازاتهم التي كانت لهم وخسروها من سنة ١٧١٦، ثم كانت ثورة سنة ١٨٦٦ وانتهت باختيار الرومانيين البرنس شارل دي هوهنزلرن الألماني.

ثم قرر مؤتمر برلين استقلال الولايتين «المعروفتين بالفلاخ والبغدان» استقلالاً تامًّا ودعاهما باسم رومانيا، وفي سنة ١٨٨١ جعلت الإمارة مملكة ونودي بأميرها ملكًا.

أما الجبل الأسود – وله من اسمه نصيب – فهو مقاطعة صغيرة، جبلية وعرة، لا تزيد مساحته عن ٣٦٣٠ ميلاً مربعًا وسكانه مايتين وسبعة وأربعين ألفًا – وهم من العنصر الصقلبي – وأكثرهم فلاحون رعاة – على غاية من شقاء

العيش - هذه الإمارة الحقيرة قديمة العهد بالاستقلال ولم يرضخها، ويفتتحها من العثمانيين إلا ذلك السلطان العظيم سليمان القانوني الذي وصلت السلطنة العثمانية في عصره إلى منتهى المجد والعظمة.

ولما كان الجبل الأسود على ما ذكرنا من الفقر والوعورة، وأهله أُولي بأس وشدة، واستبسال في الدفاع عن استقلالهم، فكانت الدولة تعد الجبل من ولاياتها، والجبليون من حين لآخر يجاهرون بالعصيان حتى إذا حملت عليهم جيوش العثمانيين يتظاهرون بالرضوخ. وهكذا من سنة ١٥٢٦ إلى زمن البرنس نقولا «وهو ملك الجبل الحالي» ظل معترفًا بسيادة الدولة إلى سنة ١٨٦٢ ثم جاهر بالعصيان والتمرد حتى إذا كان مؤتمر برلين «ذلك القضاء المبرم» على الدولة فقد أعلن استقلال الجبل الأسود والتحق بإخوانه أمراء شبه جزيرة البلقان، وتخلصوا من حكم آل عثمان.

هذه هي شبه جزيرة البلقان التي افتتحها العثمانيون - وبقيت في حوزتهم وتحت سلطانهم الأجيال - فماذا أحدثت في تلك الممالك من آثار العمران؟ وماذا تركت في تلك الشعوب من الذكرى؟ وماذا أعدت من الحزم والرأي والتدبير لبقاء تلك المقاطعات، والإمارات في حوزتها؟ وإذا كان الجواب «لا شيء».

حينئذ يضطرنا الإنصاف إلى أن نقول: أن الدولة العثمانية في فتوحاتها، وما شاهدناه من تفريطها، لم تكن لتحسن الاستعمار بل بقيت سدًّا منيعًا للأمم

المحكومة منها يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية في مدنيتها وعلومها وصنائعها. شعوب من ذكرنا من ممالك البلقان يزيدون عن السبعة عشر مليونًا. ولكل أمة ومملكة، جامعات ومميزات، من تاريخ، ودين ولسان، وعادات وأخلاق، وهي في كل هذا على طرفي نقيض مع العثمانيين الأتراك، فلو أخذت الدولة بالحزم بعد الفتح، وعملت بصائب الفكر والرأي، لعلمت أن بقاء تلك الممالك في حوزتها يحتاج لإيجاد جامعات تجمعها مع شعوبها فتعمد إلى وسائل تعميم لسانها - بإحداث دور علم وغيرها - حتى إذا استطاعت، وتسنى لها في ظرف جيل، أو جيلين أن تعمم لسانها. كان لها إحدى العوامل الكبرى للبقاء، ولعدم سرعة الانفصال والتفكك. إذ يكونوا أتراكًا باللسان مثلاً. أو بالدعوة الدينية كما يفعل اليوم دول الاستعمار ببث المبشرين من الإنجيليين الرهبان، وبتشييدهم «دور العلم».

فإذا انتشرت الدعوة الدينية، وقبلتها الأمة المستعمرة اشتركوا بجامعة ثانية، وهي اللسان، والدين، فكان الارتباط أشد، وأوثق.

وهكذا إذا فازت على مدى أربعة أجيال، أن تعمم الجامعات التي لها بين تلك الشعوب؛ اشتدت عُرَى الاتحاد وانتفى التَّغَايُر(١)، وأسباب النفرة. أما والدولة العثمانية لم تفعل في ممالك البلقان ما ذكرنا، ولم تفكر فيه فضلاً عن أن تسعي إليه

(١) التَّغَايُر: التَّمَايُز. (م).

فكان خروج تلك الممالك من حوزتها، واستقلالهم، أمرًا محتمًا وقوعه لا مرد له ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح / ٢٣].

ثم لننظر في فتوحات الدولة للممالك الإسلامية من مصر، والشام فحلب فبغداد وتونس وسائر الممالك العربية. فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة، والحروب. وكان لجامعة الدين التأثير العظيم في قبول الحكم العثماني، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها، وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد الفاتح، أو السلطان سليم بأن يتخذ اللسان العربي - وهو لسان الدين - لسانًا رسميًّا، وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك؛ لكانت في أمنع قوة، وآمن حصن من الانتقاض، والخروج عن سلطانهم. ولكنها فعلت العكس، إذ فكرت بتتريك العرب وما أسفهها سياسة، وأسقمه من رأي، لأن تدين الأتراك بالدين الإسلامي - على جهل باللسان العربي - جعل لهم في القلوب منزلة - ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين.

فما قولك لو تعربت، وانتفى من بين الأمتين، النعرة القومية، وزال داعي النفور والانقسام «بالتركي وبالعربي» - وصاروا أمة عربية - بكل ما في اللسان من معنى، وفي الدين الإسلامي من عدل، وفي سيرة أفاضل العرب من أخلاق، وفي مكارمهم من عادات.

لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورًا، وجمع شتات الممالك الإسلامية تحت لواء سلطان عادل هُمَام مثل الفاتح، أو السلطان سليمان، أو السلطان سليم غير عسير.

ولكن مع الأسف عدم قبول فكرة السلطان الفاتح، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربي – خطأ بيّن – لا يضارعه إلا توغل العثمانيين في أوروبا، وشبه جزيرة البلقان، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة.

لأن المستعمرة مهما عظم موقعها، وطاب هواؤها – لا يصح أن تتخذ قاعدة، أو عاصمة الملك؛ لأسباب أهمها: أن المستعمرة «كما سيأتي بيانه» كالثوب العارية قابل للاسترداد، والممالك لا تسقط ولا تتبعثر أجزاؤها إلا من ضعف السلطان في عواصمها، وبسقوطها.

ومنها بعد المستعمرة على الغالب عن مجموع القوة، وإحاطتها بأعداء الملك وأعوانه إلخ.

انظر، هل ترى دولة أوروبية جعلت عاصمة ملكها في غير قلب مملكتها، وفي غير مكان نشأة تلك الأمة؟

فالإنكليز لم يجعلوا عاصمتهم – مع سعة ملكهم – إلا جزيرة بريتاينا وفي قلبها مدينة «لندن» وهي الجزيرة التي سكنها البريتانيون في دور توحشهم.

والفرنسيس في باريس، قلب بلاد الغاليين.

وهكذا بقية الدول؛ لأنه على تقدير ذهاب المستعمرات كلها وانتقاضها، فإنه يبقى من البلاد ما كان لهم ملكًا خاصًّا.

وعلى هذا جرى الخلفاء الراشدون، فمقرهم كان المدينة وهي قلب البلاد العربية محاطة بقوة العرب من سائر الجهات.

ثم الأمويون في الشام.

ثم العباسيون في بغداد، والعاصمة أنشأها المنصور إنشاء، وكان في ملكهم من المدن ما هو أطيب هواء، وأمنع موقعًا من بغداد، ومع ذلك فلم يستبدلوا العارية بالملك الصرف.

نعم إن فتح القسطنطينية فيه من الفخر للفاتح ما لا يمحوه الدهر، خصوصًا بعد أن حاوله الأمويون وبعثوا بالجيوش تحت قيادة يزيد، ومعه خالد أبو أيوب الأنصاري صاحب المقام المعروف بالسلطان أيوب ولم يظفروا، ثم العباسيون واكتفى الرشيد ومن بعده بأخذ الجزية من ملكها، وغيرهم من ملوك الإسلام - ولم يظفر بالفتح - وبمعنى الحديث الشريف «لتفتحن القسطنطينية فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش» إلا ذلك الفاتح العادل الكبير السلطان محمد طيَّب الله ثراه.

ولا أرتاب أن فتح القسطنطينية لو تيسر للأمويين أو للعباسيين – لما جعلوها عاصمة ملكهم، بل جعلوها كما جعلوا غيرها من الممالك مستعمرة – تتقوى المملكة بجباية الأموال منها – وفوضوا أمر إدارة شؤونها لأحد الدهاة منهم كما فوضوا مصر، والأندلس، والسند، وبخارى، وبلاد الفرس وغيرها للمقتدرين من العمال – وهذا هو الحزم، وغاية الصواب.

وأما شبه جزيرة البلقان – فإن كان في ظاهر أمر فتحها من الأتراك ما يدل على القوة والبأس – فإنها في حقيقة الأمر كانت مصدر بَلْبَال[١] الدولة، وإضعاف قوتها إذ لم تسكن فيها القلاقل، والفتن، ولم تفتر الدولة من تجييش الجيوش، وإراقة الدماء في سبيلها – كل ذلك – وبالنتيجة كان البقاء في البلقان غير مضمون – بل كان استقلال ممالك البلقان مجزومًا فيه من كل عاقل.

قال: ولقد سمعت من المرحوم عالي باشا ذلك الصدر الأعظم – الكبير العقل، النافذ النظر وهو يعتقد أن داء البلقان سوف يضعف جسم الدولة، وسوف تضطر مكرهة على التخلي عن البلقان – بعد خسارات مادية، ومعنوية لا يمكن تعويضها. وأنه وجد طريقة للتخلص من البلقان مع حفظ شرف الدولة، والاستعاضة[٢] عنه بمبالغ جسيمة يمكن إصلاح بقية المملكة بها. وتعزيز قوتها في آسيا، وأفريقيا.

(١) بَلْبَال: شِدَّة الهَمّ والوساوس. (م).
(٢) الاستعاضة: أَخْذ البَدَل. (م).

ويا للأسف كيف أن هذا الرجل الكبير لم يتوفق لتحقيق هذا الفكر السليم، والعمل الذي فيه كل خير - وكان أمر الله مفعولاً.

فلو فعلت الدولة، وأخذت برأي عالي باشا، وغيره من حكماء الوزراء أو بالذي تصورته لها من أنها تتخذ بغداد عاصمة ملك - ومقر الخلافة. وعندها الدجلة، والفرات، والخابور، والبصرة وشط العرب - ذلك النيل الذي يفيض كل أربعة وعشرين ساعة مرة. وتلك السهول الخصبة التي على جانبي، وضفتي ذينك النهرين العظيمين - والتي مساحتها عشرة أضعاف أراضي مصر، على أقل تعديل، وأعظم منها خصبًا، وأكثر إنباتًا.

ثم قال: رحم الله محمد علي باشا ذلك الأمي الكبير - نابغة رجال أعصار، وأجيال فقد طوي تحت جبته هممًا تُدَكْدِك[١] الجبال - وقلبًا يقدم به على هائل الأعمال. وتحت عمامته دماغًا فعالاً، وعقلاً جوالاً، وبصرًا نافذًا، وفكرًا ثاقبًا ورأيًا صائبًا.

بلغ الرجل من حدة الذهن، وفرط الذكاء، والدهاء، وبعد النظر - أنه بعد أن حسن خراب مصر تحسينًا بينًا، ونظَّم ما اختل من أمورها، واستنهر[٢] النيل للقناطر الخيرية، ومنها يجري في الجداول والترع.

---

(١) تُدَكْدِك: تهدُّها وتُسَوِّيها بالأرض. (م).

(٢) استنهر: اتخذ لمجرى النيل موضعًا مكينًا. (م).

عرض على الباب العالي والتمس من السلطان أن يُعِيضَه[١] بالبصرة عن مصر. وأنه يعد إسعاف هذا المسؤول – منة، وفضلاً فتأمل؟

هذا الرجل العظيم – لو لم يعلم يقينا أن البصرة خير من مصر – لما طلب ما طلب. هذه هي البصرة – وأما الموصل «ذات الربيعين» فما شئت عنها فقل.

ثم إذا علمنا أن المسافر من بغداد في عصر الرشيد كان يمشي في ظل الأشجار حتى يبلغ غوطة دمشق – ومصب نهر «قويق» في حلب. ثم إذا اتجه من هناك للشمال ورأى سيحون وجيحون يجريان في سهول أطنه. وفي الجنوب عند دمياط، ورشيد، والإسكندرية يصب النيل المبارك – وأن كل تلك الممالك، والأمصار، والأنهار – هي ملك خاص للمسلمين – لا ينازعهم فيه منازع إلا أولو القوة من أهل المطامع – ونزاعهم بالختل والخداع، وبالحيلة والمكر ليس إِلاَّ.

فلو أنصف الأتراك أنفسهم، وأخذوا بالحزم – واستعربوا – وترأسوا ذلك الملك، وعدلوا في أهله – وجروا على سنن الرشيد، أو المأمون – على الأقل – ولا نقول – على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين.

فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة؟ أو أعز جانبًا؟ وأمنع حوزة من؟ ولكن مع الأسف – أن إخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير «الحرب» وهم فيما عدا ذلك، وفيما يختص في شؤون العمران أقل روية، وعملاً

(١) يُعِيضَه: يُبْدِلَه. (م).

من سواهم - يسوءني وأنا ممن يحبهم - وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربي، وأن يستعربوا.

وازداد تأثرًا إذا أراهم يرتكبون خطأ أفضح - وهو جريهم وراء تتريك العرب واستبدال اللسان العربي - لسان الدين الطاهر، والأدب الباهر، وديوان الفضائل والمفاخر، باللسان التركي»!

وذلك اللسان الذي لو تجرد من الكلمات العربية، والفارسية - لكان أفقر لسان على وجه الأرض - ولعجز عن القيام بحاجيات أمة بدوية، ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة - لما رأينا للأتراك شعرًا يقرأ، أو منثورًا يفهم، أو بيانًا يترجم عن جنان - وهو في حالته هذه - إذا وزن مع لسان من الألسنة الحية - تجده قد خف وزنًا، وانحط معنى.

فكيف يعقل تتريك العرب - وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب، وتسابقت - وكان اللسان العربي لغير المسلمين - ولم يزل - من أعز الجامعات وأكبر المفاخر - فالأمة العربية هي - «عرب» قبل كل دين ومذهب - وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان - ما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان. ثم قال: لقد كاشفت السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضيع في خلوات عديدة - فكان يسمع بكل إصغاء ولكنه في النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له - وفهمت من أوضاعه، وأسارير وجهه - أنه لا يعتقد أن قبول اللسان العربي، وفكرة الفاتح

والسلطان سليم بذلك - صوابًا - وكذلك لا يحب أن يعترف أن توغلهم في أوروبا وفتح شبه جزيرة البلقان كان خطأ - نعم أن زمن العمل قد مضى، وانقضى - وكان الحزم في إخراج تلك التصورات لحيز العمل - والدولة العثمانية إبان عزها واستكمال قوتها، وبأسها - أما اليوم فالأمر للقوة، والطاعة على الضعيف وليس باستطاعة عبد الحميد أن يفعل ما كان بإمكان السلطان الفاتح، أو السلطان سليمان، أو السلطان سليم أن يفعله. قال: فحولت وجهي عن ما لا يمكن إلى ما يمكن وفيه وقاية ما بقي من أملاك السلطنة العثمانية في غير أوروبا.

فقلت للسلطان عبد الحميد - أتأذن في تقديم لائحة في تصوراتي، لتحسين حال المملكة، والتحوط بصونها من مطامع الأعداء؟ قال:

لا أريد أن تكتب شيئًا من ذلك، إذ لا أحب أن يطلع أحد على ما يدور بيننا، بل قل لي ما تشاء أن تكتبه بكل حرية، وصراحة، فأنا لك من السامعين.

قلت: أيعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية - ترسل إليها الولاة من الأستانة مثل باكير باشا، ومحمد باشا اليدكشي، وأمثالهما - لجمع الأموال من غير وجهه، وتوزيعها على رجال الدولة هنا «الأستانة» فقط على ما هو مشهور، وغير خافٍ على جلالتكم. هل هو خير لمصر، وأهلها، وللسلطنة، أم جعلها خديوية كما هي قبل الإنكليز خاضعة للدولة، ومن الأجزاء المتممة للسلطنة - يأتمر خديويها بأمركم، والعساكر المصرية عثمانية تسرع لتلبية الأمر

باللحاق مع جيوش السلطان - وبكل المعنى رعية، خاضعة، طائعة؟ فتفكر مليًّا، وحول وجهه نحو النافذة عني - حتى ظننت أن الحديث قد أساءه، وأنه لا يحب الخوض فيه، ولا العود إليه - وإذا هو بغتة قد التفت، وتوجه بكليته إليّ - وكأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحا بالقوة».

وقال: لو قلنا أن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية - ثم ماذا؟

قلت: يا مولاي، إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية ومساحة أملاكها في آسيا فقط ستماية وواحد وستين ألف ميل مربع (ومساحة بريتانيا وأيرلانداماية وعشرين ألف ميل فتأمل!) فتبدأ بالبعيد منها، والمطموع فيها - مثل طرابلس الغرب فتجعلها خديوية - ثم إلى ولايات بغداد، فالبصرة، فالموصل فتجعلها خديوية. وإلى بيروت وسورية وحلب مع القدس فتجعلها خديوية، ثم إلى جزائر بحر سفيد وكريد مع أدرنه وسلانيك فتجعلها خديوية، ويشترط عليها تعزيز العمارة البحرية قبل كل شيء.

ثم الحجاز فتجعل خديويها - الأقدر من الأشراف الهاشميين اليوم، والأحسن سيرة. ثم اليمن وخديويها يكون الإمام الزيدي.

أما الأناضول وولاياته قونيه، أنقره، آيدين، أطنه، قسطموني، سيواس، ديار بكر، بتليس، أرضروم، معمورة العزيز، وآن طرابزون، فتقسم إلى ثلاث خديويات -

يكون لكل خديوية منفذًا بحريًّا – الواحد على البحر الأسود أما في سيواس، أو صامسوم – والثاني في بروسه، والثالث في أزمير – وبلاد الألبان – وهي ولايات قوصوه، ويانيه، وأشقودره، ومناستر، فتجعلها خديوية أيضًا – هذه يا مولاي عشر خديويات بل عشرة ممالك كل واحدة منها – أعظم موقعًا من اليونان، وأكبر مساحة، وأخصب أرضًا، وأنشط قومًا، وأرجح عقولاً. وما يقعدهم عن اللحاق بمن انفصل عن السلطنة العثمانية، أو التفوق عليهم – إلا شكل الحكم، وقيود، وأغلال المركزية القاتلة للهمم، الموهنة للعزائم.

ومن يرسل لتلك الولايات من الولاة اليوم – أحد رجلين – أما الخامل، البليد، المرتكب – وهمه جمع المال، وتوسيع الخراب.

وأما الرجل النشيط، العاقل – وليس له من الأمر شيء – إلا الاستئذان من الباب العالي لترميم جسر في بغداد مثلاً سقط منه حجران أو أكثر – فلا يصدر الإذن إلا بعد أشهر، أو أعوام، وبعد أن يكون طغيان النهر قد جرف كامل الجسر.

هذه الخديويات يا مولاي – أول من تفوضها إليهم، أهل بيتك من أمراء آل عثمان – فتخلصهم من القعود مع النساء، وتربية الخصيان – فيحسِّن بالضرورة كل منهم ما تولاه من أجزاء السلطنة، ومصير ذلك التحسين، والخير إليه ولأسرته ويكون مع كل أمير – وزيرًا فاضلاً، أمينًا.

ثم لا أرى مانعًا يمنع من العهد ببعض الخديويات إلى من عرف من الوزراء، بالإخلاص والهمة، ورجاحة العقل - ومن غير الوزراء أيضًا - وجلالة السلطان إذا شاء وفتش عنهم - وجدهم في غير حاشيته - الذين يدخلون على بلاطه، ولحضوره، ويحشون آذانه بالباطل، ويمنعون عنه كل حقيقة، ويقصون عن قربه كل فاضل.

ثم قال: وقد رأيت السلطان - وهو على تمام الإصغاء لما أقول - قد تَقَطَّب[(١)] وجهه، وعلته كآبة امْتِعَاض[(٢)] وحزن. فقلت:

يا مولاي؟ وعزة الحق، وبولائي لأمير المؤمنين ونصحي للمسلمين أن ما ساقني لما قلته إلا الإخلاص، والحرص على ملكك، والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية. التي ليس لجمع شتاتها، وتوحيد كلمتها إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة.

وجلالتك ترى أن أجزاء السلطنة أخذت تتفكك، الجزء بعد الآخر فصار من الواجب نظم الممالك، وأجزاءها بسلك من النظام، أوثق، وأشد وأحكم. وما وجدت ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذي قدمته. ولما انتهيت هز السلطان رأسه، وتناول لفافة من التبغ، أسرع في تدخينها وقال:

---

(١) تَقَطَّب: عَبَس. (م).
(٢) امْتِعَاض: غَضَب. (م).

ماذا تركت يا حضرة السيد للسلطان، وما أبقيت لتخت آل عثمان؟

قلت: يبقى جلالة مولاي السلطان - ملك أولئك الملوك، وينضم إلى العرش العثماني عشرة عروش غير عرش مصر. ثم متى نهضت تلك المقاطعات، والخديويات، وأخذت نصيبها من الرقي والعمران وصارت «مثلاً» خديوية العراق مثل خديوية مصر، ثروة، وانتظامًا - لا شك في أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى، للاتحاد معها، إذ هي في أمس الحاجة لشد الأزر، ولصون كيانها من مطامع الغرب، الموجه نحو عموم دول الشرق.

ثم ما أسرع الأفغان - للانتظام في ذلك السلك. سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى، والسلطنة الكبرى.

ثم ومتى تم ذلك - وسيتم إن شاء الله - هل تقعد أهل الهند، وراجاتها وأمراؤها، والماية وثمانين مليونًا من المسلمين، عن نصرة الخليفة الأعظم، واللحاق لشد ساعد إخوانهم، ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الإسلامية في الشرق، وعن هندهم أيضًا، أو ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار، والمستعمرين، ويرجع الشرق للشرقيين - وما ذلك على الله بعزيز.

قال: أما السلطان عبد الحميد فكان سيء الظن - لا يأمن أحدًا - ويسيء الظن في كل أحد. فقال لي:

يا حضرة السيد هل اجتمعتم بإسماعيل كمال بك في هذه الأيام؟

فانتقلت بسرعة إلى ما يرمي إليه السلطان - وهو أن إسماعيل كمال بك كان قد كلِّف، أو تعين لولاية طرابلس الغرب، وطلب توسيع صلاحيته، وأن يكون له الحق في عقد قرض لتحسين، وإصلاح الولاية وغير ذلك، وقد سمعته من بعض الزائرين، وليس من نفس الرجل.

أجبت: يا مولاي أعتقد أنني لا أسخر ضميري لجد العرب «إسماعيل بن إبراهيم الخليل» إذن - فما أبعد إسماعيل كمال - أن يُسخِّرني، أو أن أُسَخَّر له.

وما اتبعت فيما عرضته على جلالتكم - إلا داعي النصح والإخلاص.

فلم يرد السلطان جوابًا على ما ذكرته، وسردته، بل قال مثلاً تركيا «آت اسكداردن كجتدي». ومعناه «أن الجواد اجتاز اسكدار» وهو مثل يضربه الأتراك «لما فات من الأمر» ولا حيلة فيه.

ثم تنفس جمال الدين الصعداء وقال: هذا ما كان مني في هذا الشأن - يا شيخ بني مخزوم - وهذا ما كان من السلطان عبد الحميد - سلطان العثمانيين، وخليفة المسلمين - الذي تعنو له وجوه ما يقرب من الثلثماية مليون - ينتظرون من هذه الدولة هبة ليحيا بها حقهم، ويموت، ويهلك باطل غيرهم.

كيف لا تذهب النفس حسرات – وأكبر سلطان في المسلمين – هذا موقفه من الجمود عن قبول النصح، والإصلاح، والمحافظة، أو المطالبة بصريح حقه في أجزاء سلطنته – روح الممالك الإسلامية «باب الحرمين – مصر».

وفي صون مصر في حوزة الملك الإسلامي – وكشف الإنكليز – صون للممالك العثمانية – وغلق لكل بلية مهيأة في المسألة الشرقية.

وعزة الحق؟ إن ما كتبته عن حق مصر، وما استنهضت من الهمم وما حذرت به من سوء المصير – لو تُلِي على الأموات لتحرَّكت أرواحهم، ولرفرفت على أجداثهم، ولأحدثت لأعدائهم أحلامًا مزعجة، ومَرَاء[١] مريعة.

كاد أن لا يخلو سطر من «العروة الوثقى» إلا وفيه ذكر «مصر» ولا براهين، وأدلة على ظلم الإنكليز إلا ويتمثل في «مصر». ولا خوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية إلا ونراه من التهاون في أمر «مصر». ذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له في جسم الأمة الإسلامية والعرب عمومًا نُغُول[٢]، وبعروقها اتصال.

ولا يفوتن أهل الشرق العلم بأن كل مدينة، وكل مقاطعة إسلامية شرقية هي بمنزلة «مصر» وإن لم تسقط تحت حكم أهل المطامع اليوم فالشراك لها

---

(١) مَرَاء: صُوَر مُنْعَكِسَة كما تظهر في المرآة. (م).
(٢) نُغُول: جُرُوح أصابها فساد. (م).

منصوبة والسقوط «والعياذ بالله» قريب. إلا إذا نشطت العقول، وعملت أولو العزائم، ولَـمَّت الأمم الشرقية شَعَثَها[١]، ووحدت كلمتها - وطلبت حفظ ملكها بأسبابه، وعِزَّة الحرية، والاستقلال، بمؤهلاتها.

ما قرعت آذان المسلمين، والشرقيين عمومًا بالحجج القاطعة، وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوسًا - إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد، وأقصر طيَّات المسافة في الذل والمهانة، لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية، وله من الزمن ما يؤجل معه سقوطه، ويلمّ، شعثه، ويمد بعضهم لبعض يدًا، عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم.

ولكن يا للأسف! إن مبدأ تدهور ممالك المسلمين في الشرق - كان من شاهق عظيم - لا يمكن للحكيم الوقوف في سبيل سقوطه وهو في وسط الانحدار - أو بقربه من نقطة المركز - ذلك الشاهق العظيم - شاهق حكمة الدين؟ وإذا كان انحطاط الأمم مرضًا - وله سير معلوم - فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير - بل غاية ما يمكنه الإتيان بالملطفات، والمسكنات - حتى ينتهي السير ويبلِّ العليل، ويدخل في دور النقاهة - هذا إذا لم يمت - وكان في موته راحة. ولميت مع الأموات - خير من ميت الأحياء! ولقد أحسن من قال:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحِ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا المَيِّتُ مَيِّتُ الأَحْيَاء

---

(١) شَعَثَها: تَفرُّقَها. (م).

ثم سألني السيد – إن كان عندي «العروة الوثقى» متفرقة، أو مجموعة أحبته – كلا – وإنما قرأت منها قديمًا أعداد متفرقة.

ثم سأل من كان يكثر من زيارته من إخواننا المصريين – مثل عبد السلام بك المويلحي فلم يجدها عنده – بل وجد مجموعتين الواحدة عند إبراهيم بك أدهم، والثانية عند أبي النصر السلاوي أفندي – فأخذهما وأعطاني نسخة. وبعد أن تصفح صفحات منها – ظهرت على السيد علامات تأثر عميق – وقال:

نعم هو الحق الذي لا مِرْيَة[١] فيه – لو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع، ولا ضعف قوي، ولا انهدم مجد، ولا تقوض سلطان.

ولكن هو القدر فلا يغالب، ولو كان لنصح الحكيم تأثير لما أخطأ الجاهل. ثم قال: مصر أحب بلاد الله إليّ – وقد تركت لها في الشيخ محمد عبده طَوْدًا[٢] من العلم الراسخ، وعَرَمْرَمًا[٣] من الحكمة والشمم وعلو الهمم – وإني ليذهب بي العجب، ويأخذ مني كل مأخذ عندما أرى المصريين في جمود، وأولي الهمة منهم في قعود.

---

(١) مِرْية: شك. (م).
(٢) طَوْدًا: جَبَلاً راسخًا. (م).
(٣) عَرَمْرَمًا: كثيرًا. (م).

وكيف لم يتسنّ إلى الشيخ في همته، ونهضته، وله من تلميذه، مثل سعد[(١)]

---

(١) كان لوفاة الوطني الكبير والزعيم الجليل المغفور له سعد باشا زغلول ١٣٤٦هـ سنة ١٩٢٧م، رنة حزن في أنحاء وأمصار الشرق قاطبة – وقد المؤلف – ونشر ذلك الرثاء في الجرائد هنا وفي مصر – تحت عنوان:

(حزن الشرق على فقد سعد)

كيف لا يحزن الشرق على فقدك يا سعد. وكنت ركنه الركين، وقائده العظيم، ومرشده الحكيم. نعم أنبتتك أرض مصر، وبلغت أشدك في مصر، وأوتيت الحكمة وبالغ الحجة في مصر، فناضلت عن حقها بكل ما أوتيته من المواهب وقارعت لأجل حقها الخطوب، وتحملت في ذلك السبيل أنواع المكاره والمعاطب.

كنت أعلم الناس أن لجراح مصر نغولاً في قلب الأمة العربية فمصر للناطقين بالضاد نقطة دائرة الاتصال، ومحط الرحال، وكعبة الآمال – إذن فمُصَاب الشرق بك عظيم على سعة أرجائه، والأمة العربية المنتشرة جماهير وقبائل حول دائرة مصرك يا سعد، لا عجب إذا أعظمت فيك المصاب، وأكبرت فيك الرزيئة، وعلمت بفقدك، وكيف يجل الخطب ويفدح الأمر. حقًّا أصمّ بك الناعي وان كان أسمعا.

أَلَا فليُنَـحْ عِـزّ البِـلادِ مَـدَى الـدَّهـرِ ... وأمُّ العُلَي تَـذْرِي مِـنَ الـدَّمعِ مَا تَـذْرِي
فقـد دَهـم الخَطْـبُ الّـذِي رَاحَ وَقْعُـه ... يُـقَـلِّـبُ أَحْشَـاءَ الأَنَـامِ عَـلَى الجَمْـرِ
فُجِعْنَـا لعَمْـرُ اللهِ بالسَّعـدِ والنُّهَـى ... وبـالـعَـزْمِ والإِقْـدَامِ والـنَّـهْيِ والأَمْـرِ
لَـرُزْءُكَ رُزْءٌ طَبَّـقَ الكَـوْنِ مَـأْتَمًـا ... وحُـزْنُـكَ حُـزْنٌ لا يَـزَالُ إلى الحَشْـرِ

تساوى في إجلالك والإعجاب بشمائلك القريب والبعيد، وتسابق عارفوك بالذات وعارفوك بالصفات، فبلغ السير بالفريقين إلى ذروة ركزوا فيها أعلام إِعْظَامِك، وتبجيل خلالك على السواء ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة/ ٥٤].

فآثارك خالدة يا سعد. وأمرك في مصر والشرق متبع يا سعد، وأرض أنبتتك، وأمة كريمة قدرّتك وناصرتك، وقدرة صالحة أوجدتك يا سعد، سوف ترينا خير خلف لك يشغل ما تركت من فراغ عظيم، ويقوم في مقامك الكريم – ولولا هذا الرجاء لعز العزاء وفقدنا الصبر، ولسوف ترفرف بروحك من الملأ الأعلى على من تركت من بعدك، فتسر في عالمها الروحاني إذ ترى شخصك الجليل نصب الأعين، ودرر نصائحك قيد الألسن، فتعلم إذن أنك بروحك ومعناك يا سعد لم تمت،

وإِنْ زَعَـمَ الأَقْـوَامُ أَنَّـكَ مَيِّـتٌ ... فحَـاشَـا يُمِيتُ اللهُ مَـالَـكَ مِـنْ فَـخْـرِ
ولَـكِن دَعَـاكَ الحَـقُّ للخُلْـدِ عَالِمًـا ... بِأَنَّـكَ فِي الأُخْـرَى عَلَى رَفْـرَفٍ خُضْرِ

مات الأستاذ الحكيم الشرقي جمال الدين الأفغاني، فجزع لفقده صحبه ومقربوه في طليعتهم الإمام الشيخ محمد عبده، وفقيد الشرق سعد ولكن الخطب بالحكيم جمال الدين لم يزلزل الشرق وأهله كما فعل فقد سعد.

وكان الفقيد الأول «جمال الدين» يكرر قوله المسطور في هذه الصفحات.=

زغلول وإخوانه خير أعوان – ولم تتألف منهم إلى اليوم عصبة حق؟ تصدم باطل الإنكليز، وتجليهم عن الهرمين، وتصون الحرمين – فلم يبق في قوس الصبر منزع، ولا في معونة الغير مطمع.

كان جمال الدين كثير الإعجاب بذكاء وفضل الأستاذ العلاّمة الشيخ محمد عبده، وكان كلما ذكره يقول «صديقي الشيخ» «للصديق» أو قال لي «الصديق» فنفهم أن المراد بالصديق «المرحوم» الشيخ محمد عبده، وكان السيد عبد الله نديم في آخر أيامه يكثر من التردد إلى منزل جمال الدين.

وكأن الغيرة قد فعلت في نفسه من كثرة الثناء على الشيخ محمد عبده فقال: يا سيد ما غفلت مرة عن إضافة لفظة الصديق الشيخ، كأنه لم يكن لك بين الناس صديق غيره؟ إذ نراك تَنْعَت مَن سِوَاه «بصاحبنا، أو فلان من معارفنا» فتبسم عند ذلك جمال الدين وقال: وأنت يا عبد الله صديقي، ولكن الفرق بينك وبين الشيخ، أنه كان صديقي على الضراء وأنت صديقي على السراء!

=وكنت جعلت فاتحة هذا الكتاب – مناجاة من روح جمال الدين إلى سعد، فأبت الأقدار إلا أن تكون مناجاة بين الروحين وهذه هي بالحرف: «إن روح جمال الدين تحييك وتحيي رجل الشرق فيك وتناجيك بقولها – إن كنت وضعت في حياتي ركنا للنهضة الشرقية، أو وصفت لها نفسًا أبية – فأنت يا سعد قد شيدت الأركان، ورفعت البنيان، وكنت للوصف نعم الموصوف، فتقبل خاطراتي وأزكى تحياتي – المناجي جمال الدين الأفغاني.

يرفع هذه المناجاة لمعاليك المعجب بهممك، والمفتخر بنهضتك وشممك، وأزيد اليوم بعد الفاجعة الحزين «على فقدك».

محمد المخزومي

انتهى رثاء المؤلف الذي نشرته الصحف.

فسكت النديم، ولم يُحِر جوابًا مع شدة عارضته، وولوعه في كثرة الكلام، وكان كثيرًا ما يدعي الكفاءة مع جمال الدين، فيقول نُفِي جمال الدين كما نُفِيت، وسُجِن كما سُجِنْت، وأُهدِر دمه كما أُهْدِر دمي وهكذا، وجمال الدين يقابل هذا بإعراض وابتسام.

ثم قال: يا شيخ بني مخزوم، إنك ترى بين هذه الوريقات العروة الوثقى أمثلة تنطق، وقضايا تصدق على الشرق، وأهله ما داموا في تلك الغفلة، وفي ذلك الشقاق والنفاق، وقضاؤهم في الذل خوف الذل.

فالظلم إذا تغير في شكله لا يتغير في نتيجته، وتتغير أسماء البلدان والمقاطعات المظلومة وأهلها ولكن أعمال الظالمين تتبدل.

وإن كان لها من مُبَدِّل فقوة الأمة واجتماع الكلمة.

وهكذا القول في الصادقين، الناهضين، المجاهدين في سبيل أوطانهم وتخليص أمتهم. والساقطين الخائنين إنما تختلف أسماؤهم، وتتفق صفاتهم (سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا).

فإذا رأيت مثلاً نوبار باشا الأرمني يعمل على نِكَايَة[1] مصر وما يضير المصريين - وقد تبوأ رياسة النظار فيهم - وليس بينه وبينهم أقل جامعة، حتى أنه

(١) نِكَاية: هَزِيمَة وغَلَبَة. (م).

لو باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح – ولا يخسر في هذا البيع ملة، ولا وطنًا، ولا جنسًا.

فلسوف ترى من الدخلاء في غير مصر – بغير اسم – يعمل ما هو أنكى من عمل نوبار للبلاد ويكون شر آلة للاستعباد – وإن رأيت نوبارًا يعطل جريدة وطنية مثل الأهرام – فمن كان على شاكلته في غير اسم من الشرق ربما يصادر الجرائد الوطنية – بعد أن يزج في أعماق السجون أصحابها وهكذا لا تتبدل من الخائنين إلا الأسماء – ولا من أعمال الظالمين إلا الأشكال.

ذكره الفرق بين عدل يأتيه الفاتح عن علم وحب بإجراء العدل والأخذ به وبين ما يأتيه عن غرور وإتيان العدل إذ ذاك عرضًا

قال: لا ريب أن العدل من أشرف الصفات وأسمى الفضائل؛ إذ به حفظ المجتمع الإنساني، وعليه قوام الممالك وعمرانها.

وإذا كان العدل فضيلة - فلا بد أن يكون هيئة متوسطة بين الجور والظلم، وبين الخُرْق[1] والتسيب - فلو تصفحنا ما وصل إلينا من أقرب التواريخ تصديقًا - ولو شذرات - عن آبين، والرومانيين، والآشوريين، ومعاصريهم من المصريين، ما بعدهم من التتار، وغيرهم - نجد أن الملوك في فتوحاتهم كانوا أحد رجلين. فاتح لا يهمه غير جمع الغنائم، وسفك الدماء، واكتساح البلاد، يمر على البلاد مرور العاصفة الشديدة، والإعصار. فيتقلص ظله بعد موته إما لتنازع قواده، وقومه، أو لانتقاض البلاد عليهم.

وفاتح تتوفر في حاشيته الحكماء، وأولو الحَصَافَة[2] من الوزراء - مع ميل منه للحكمة فيؤسس ملكه على شيء من العدل - فيدوم، ويتداوله من بعده - إلى أن

(١) الخُرْق: الجَهْل والحمق. (م).
(٢) الحَصَافة: الرأي المُحْكَم. (م).

تضعف تلك القواعد بعدم العمل بها، أو لتحريف بمضمونها، فتخرج عن مواضعها، وتسقط مزيتها، أو تنعكس النتيجة المنتظرة منها فيدخل الملك في الهَرَم[١]، وتدب فيه عوامل الانقراض – وأفعلها – استفحال الظلم، وضعف العدل.

وإذا نظرنا إلى أعمال الملوك، وما فيها من الأثر المحمود – نرى من العدل الذي أتى – وهو مقصود بذاته – هو ذلك العدل الذي بقي أثره، وعلقت به النفوس وطاب ذكره.

فكسرى أنوشروان – وانحراف إيوانه – وذلك العدل، بذلك الانحراف – الذي لم يدفعه إليه دافع، ولم يحمله على إجرائه غير الحب للعدل والولوع به فطرة، كان أفعل، وأبلغ الأمثلة لمثل الفاروق أن يكتب لعمرو بن العاص «أكسرى أعدل مِنَّا» فاستهدمه حائط جامعه بعد أن أخذه من اليهودي بقهر، وغلب – وبغير الرضا – الأمر المشهور، المعروف.

هذا مثال من العدل الذي بقي قدوة ومثالاً. لأنه صدر عن حب حقيقي لمجرد العدل. وأما ما جاء من العدل في ظاهر أعمال بعض الملوك عفوًا عن غير حب في إجراء العدل ذاته – فقد ذهب، ومضى مع من ذهب، وقضى من الملوك، ولم يبق له من المحمدة أثر، وإن ذكر فعلى سبيل الاستدلال على التفريط، والضعف في الحزم.

---

(١) الهَرَم: أَقْصَى الكِبَر. (م).

مثل ما ذكر عن أحد أجداد كسرى نفسه – قيل أن أبرويز دخل قرية من أعمال ملكه فرأى فتاة حسناء – أعجبته، وفتن بها – ولكي يتقرب من فؤادها، ويشغفها بحبه – أمر برفع المظالم عن القرية وجوارها – وعفاهم من دفع الخراج، وأسبغ في تلك المقاطعة من النعم ما لا يحصى. ولو قيس ما صرف من أموال في سبيل تلك الفتاة – إلى ثمن بيت الأرملة التي لم تبعه كسرى، وعفّ لها عنه – كان كنسبة الدَّانِق[١] للمليون، ومع ذلك، فربما كان عمل أبرويز في حينه، وفي نظر أهل القرية، جوراهم عدلاً، وكرمًا – ولكنه لم يثمر ثمرًا صالحًا – ولا قدوة حسنة، ولم يكن له في الأخلاف ذلك الذكر الحميد – بل ذهب، يقضى بانقضاء الغرض، وانطوى مع فاعله، وذلك كله لأنه يقصد به العدل المجرد.

وأما عمل كسرى – ذلك العمل البسيط بذاته، العظيم بنتيجته. وهو قبوله انحراف إيوانه – ذلك الشَّين[٢] المعيب – لك البناء الرحب المهيب دون أن يكره عجوزًا فقيرًا على ابتياع بيتها منها – ولو كان به زخرف الإيوان وسلامته من العيب، لنقصان.

فأثمر عدله، وتحدى به أعدل الخلفاء، وهدد به أكبر العمال.

هذا هو العدل الذي يبقى، وينتج للبشر خيرًا، ويكون أبلغ عبرة وذكرى.

(١) الدَّانِق: سُدْس الدينار أو الدرهم. (م).
(٢) الشَّين: العَيْب. (م).

يذكر المنصفون من مؤرخي الإفرنج، وغيرهم – عدل المسلمين الفاتحين في الرهبان، والولدان، والشيوخ – ويترجمون وصايا الصِّديق، والفاروق وسيرة الخلفاء من أمويين، وعباسيين – وسير قادة الجيوش على تلك السُّنن، وعدلهم، ورأفتهم للأسرى. وما كان يجري من العدل. لم يكن لغرض، ولا عن غرور، بل حبًّا في العدل، واعتقادًا أنه واجب تتطلبه الإنسانية، يأمر به الشرع. فبقيت لتلك الأعمال، والآثار خير أحدوثة وأقدس مثال، وأحسن ذكرى لا تقوى على ملاشاته الأدهار. ولم يعكس أمرها على فاعليها، ولا أتت بغير النتائج المنتظرة منها.

خذ مثلاً سلاطين آل عثمان – وما عاملوا به الأقوام عند فتح بلادهم – وما تساهلوا به من الأمور بسوق الغرور بما لديهم من قوة، وشدة وبأس واعتقدوه في حينه رحمة، وعدلاً. ولم يكن في الحقيقة إلا من قبيل العدل العرضي، والرحمة الغير مشفوعة بدعامة منقول، أو دليل معقول.

من ذلك – أن الاجانب لما طرقت بلادهم – توسل أولياؤهم للسلاطين العثمانيين بوسائل الخضوع، والاستعطاف لكي يسمح للتراجم أن تحضر مع رعاياهم الأجانب الغرباء عن اللسان – إلى مجالس الحكم ليترجموا أقوالهم.

فسمحوا لهم بما طلبوا – وكان ذلك السماح من السلاطين للأجانب، وفي نظرهم – أقل ما منحونه من المراحم في حينه.

فلما مر زمن الغلبة، والقهر والقوة، والبأس من العثمانيين - وظهرت علامات الضعف في الملك العثماني - كما سبق بيانه - انقلبت تلك المراحم، وأشكال العدل العرضي المُعْطَى للأجانب بشكل امتياز، وتحكم في أهل البلاد، وحكامهم واستطالت على العباد - وانعكس الأمر تمامًا وأتى بعكس النتيجة المنتظرة.

واستحالت تلك الرحمة نقمة، وصار الوطني بها محكومًا ذليلاً، والأجنبي في الوطن حاكمًا عزيزًا لا يسأل عما يفعل، والوطنيون يسألون.

وما زالت تلك المرحمة يتوسع بها الأجنبي، ويضيق بها على الوطني، حتى أصبح دماء أهل البلاد «جُبَارًا[١]» تقريبًا.

فإذا قتل يوناني وطنيًّا مثلاً - أسرع القنصل لانتشال القاتل من يد القضاء وتلقَّاه بالترحاب من الباب. حتى إذا كانت الجناية فظيعة في شكلها - كان أعظم قصاص أن يرسل الجاني اليوناني معززًا، لأقرب الجزر يقضي بها أيامًا معدودات ثم يعود رافعًا رأسه - بقبعته - متبخترًا بمشيته، معتزًا بتابعيته.

هذا ما فعلته الدولة العثمانية، وأعطته إِبَّان عزها، ومجدها للأجانب وحسبته رحمة وعدلاً ولم يكن كذلك.

(١) جُبَارًا: هَدَرًا. (م).

ولو عمدت للعدل الحقيقي إذ ذاك، وطرحت العزة والغرور جانبًا، وسهَّلت أسباب المساواة بين العموم - من رعية، وأجانب تجاه العدل العام الإسلامي. لما تورطت بإعطاء ذلك الامتياز البسيط للأجانب - الذي أصبح مركبًا - وصار من أقوى عوامل المداخلة في أمور الدولة، وأقرب الحجج تناولاً لحفظ حقوق الأجانب. وما ضاع في البلاد إلا حقوق أهلها. مع تلك الامتيازات.

تلك الامتيازات التي لم يعهد لها مثيل في دولة من الدول - لا في الدولة العثمانية - وهذه لو أنها طلبت من الدول وهم في ضعفهم - وهي في أوج مجدها - أن يكون للرعايا العثمانيين حق وجود التراجم في مجالس الحكم عندهم - كما أعطته هي مرحمة للأجانب - لا أظن أنها كانت تقبل.

واليوم نرى أن أصغر دولة لا تقبل من أعظم الدول أن يكون لرعاياها أقل امتياز على أهل البلاد، ولا شبه مداخلة في القضاء.

فالإنكليزي مع غطرسته، وعجرفته، واعتداده بنفسه، وأنه من طينة غير طينة الآدميين - لا نراه يجرأ أن يكون في بلاد البلجيك، أو سويس أو الدانمارك غير خاضع لقضائهم، أو أن يحضر لمجلس القضاء تراجم يؤثرون على الحكام كما هو الشأن في الممالك الإسلامية، والسبب - كما علمت هو تلك المرحمة الموهومة المعطاة عن عزة، وغرور من السلاطين - وهي إلى الخرق، والتسيب أقرب منه إلى العدل. ولو كان العدل مقصودًا في ذاته، وحقيقته ويراد العمل به عند طلب تلك

المراحم، واللطف، والعطف على الأجانب - بحجة عدم معرفتهم اللسان - لكان في الشرق مَنْدُوحَة[١] عن تخصيصهم، وميزتهم عن الغير - إذ في الفقه فصل خاص لمن لا يعرف اللسان - أن يؤتى بترجمان - أيا كان يحلفه القاضي اليمين على أن يصدق بالترجمة- وليس من حاجة لترجمان من دولة أجنبية أو من رعايا دولة المجرم - تؤول معه حال الرحمة نقمة، ويتمرد الجناة على القضاء، والقضاة.

(١) مَنْدُوحَة: سَعَة. (م).

رأيه مختصرًا في الدول الإسلامية ومحاكمته لما أتوه من الخطأ والصواب، وأسباب ما نراه في الأشياع والأتباع من التقهقر والانحطاط

قال: لا تتكون الدول، ولا يخلص لها السلطان - إلا بقوتين.

قوة الجنس التي تدعو للاتحاد لمغالبة من سواهم، ويكون فيه النعرة والعصبية والانتصار لجنسه.

وقوة الدين الذي يقوم مقام الجنسية في جمع الكلمة، وتوحيد الوجهة، وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها.

فإذا أخذنا العرب قبل الإسلام، وجدناهم أمة فيها النجدة، والبأس والقوة الجنسية، ولكن ما تيسر لها تكوين دولة، ولا قام لها سلطان يجمع الكل.

ذلك لأن قوة الجنس توزعت في القبائل، فكانت كل قبيلة تجمع في نفسها من قوة الجنس كتلة صغيرة تغالب فيها غيرها من القبائل.

وعلى هذه الصورة، لم ينتفع العرب كأمة من قوتها الجنسية، بل خسرت لأنها وزعتها - بدلاً من أن تجمعها - ووجهتها لنفسها - عوضًا من أن تغالب

بها غيرها. فكانت قوة الجنس في العرب على هذه الحال أشبه شيء بسلاح المنتحر. جاء الإسلام والأمة العربية على هذا الوضع، من شتات قبائل مختلفة الأهواء، بأسهم بينهم، كل قبيلة تتعصب لقبيلتها، يغيرون، ويقتلون، ويسبون خُلَّة[(١)] بعضهم بعضًا.

فدعاهم إلى دين يجمع الأهواء، ويوحد الكلمة، ويمنع الدعوة إلى عصبية، وأقام قواعده مقام القوة الجنسية - مع حفظ ما ألفوه ورضعوه من الحرية بكل معناها، ومساواة بأصح مبناها، وعدل شامل، وبالإجمال بكل ما يطهر الأنفس، ويلطف الشعور.

فالعرب بذكائهم، وحدة ذهنهم لم يطل عليهم الزمن حتى وجدوا من أنفسهم ارتياحًا للدعوة، ومن قلوبهم ملبيًّا ومجيبًا للداعي، فدخلوا في دين الله أفواجًا، وازداد العرب بالإسلام إقدامًا، وبأسًا، وقوة. تلك القوى التي كانوا قبل الإسلام يضعونها بينهم. قد وجههم بها الإسلام بعد أن اتحدت قلوبهم إلى الممالك، والأمصار، فدانت لدعوة دينهم الأمم، ودخلت في طاعتهم الملوك، وذلت لهم الأكاسرة، فملئوا أكثر معمور الأرض عدلاً وفتحًا من جبال بيريني الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا إلى جدران الصين، في أقل من ثمانين سنة.

---

(١) خُلَّة: أهْل. (م).

وهكذا دام مجد الإسلام في تعالٍ، وملكهم في اتساع، في دور الخلفاء الراشدين فالأمويين، فالعباسيين إلى عصر الرشيد والمأمون وهناك بلغ مجد الدولة الإسلامية الأوج، وأخذ من بعدها زمنًا في التوقف، ثم بدأ في التقهقر والانحطاط إلى دركة لم يبق معها من تلك العظمة، والإجلال، إلا رسوم وألقاب فقد مسماها وانعكس معناها. فهل تم هذا الانحطاط والتقهقر بدون سبب؟ كلا.

هل حصل لقلة في عدد المسلمين؟ لا، بل إن عدد المسلمين في دور انحطاط دولهم كان أكثر من يوم مجدهم، وإِبَّان عزهم.

إذن فالسبب الأعظم والفاعل الأكبر في السقوط، هو إهمال ما كان سببًا في النهوض، والمجد، وعزة الملك، وهو ترك حكمة الدين، والعمل بها وهي التي جمعت الأهواء المختلفة، والكلمة المتفرقة، وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس، وقوته.

نعم لما فشى الجهل في الخلفاء، وبعدوا عن العلم بحقيقة الدين، وحكمته وَهَن، وضعف أساس الملك، وتزلزلت أقوى دعامة له. فرجعت القواد، والرؤساء إلى توزيع قوى الجنسية، ومتفرق عصبيات القبائل من: وائلي، ومضري، ويمنى. ولم يعد لسلطان الدين تلك القوة الجامعة، المانعة من عصبية.

وقد زاد في ضعف الخلفاء - بلية - الإكثار من الأغراب، وجعلهم قوة استعاضوا بهم عن قوة عصبيتهم، وجنسهم، فارتقى كثير من المماليك إلى أعلى

مراتب القواد، وترأسوا الدواوين، ومدوا أيديهم إلى الأموال، واستبدوا بالقرى، والسَّواد، وتصرفوا بأموال الدولة حسب الهوى.

فوقع الخلفاء بين فقدان قوة الدين، وقوة الجنس، ولا يكون مع هذا إلا الانحطاط، وبالتالي الانقراض - كما حصل وا أسفاه - وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وهكذا ترى الممالك في دور تأسيسها معززة الجانب بأهل عصبيتها أولى الغيرة على الملك وصونه، لا يدخل في مناصب الدولة الرئيسية غريب عن الجنسية، ولا تبدو لذلك أقل ضرورة.

بعكس دور التقهقر، فأول ما تبدو طلائعه في استخدام الغريب وهو بخلق التَّمَلُّق(١)، والتَّزَلُّف(٢)، والمَسْكَنَة(٣). وبالإجمال كل ما تأباه نفوس أهل عصبية الملك من الأخلاق - يتمكن من التقريب، ويتدرج في المراتب - ويقرّب من كان على شاكلته من أهل جنسه، وقبيله - حتى يسقط بآخر الأمر - الملك، والمملكة بأيديهم.

وما أكثر الأمثلة على ذلك في بطون التواريخ - كالقائد أفشين، والديلمين - آل بويه وغيرهم.

(١) التَّملُّق: مودة وتلطف ليس لها أصل في القلب. (م).
(٢) التَّزَلُّف: التَّقَرُّب. (م).
(٣) المَسْكَنَة: إظهار الفقر والضعف. (م).

ثم إن ما جرى لدول الإسلام العربية في دور تأسسها وانحطاطها جرى للعثمانيين ويجري على غيرهم من الدول.

ومتى رأيت الغريب، المناوئ - قد دب، وتَسَنَّم[1] ذرى المراتب الهامة في الدولة - فبشِّرها بسوء المصير.

هل يمكن لنا اليوم أن نرى مستشار خارجية إنكلترا - هنديًّا أو مصريًّا - أو هل يخطر ذلك ببال إنكليزي - كلا - ثم كلا.

ولكنك ترى ذلك في الدولة العثمانية - وهي في دور الضعف، والتقهقر - فمستشار نظارة الخارجية العثمانية - وهي في دور الضعف، والتقهقر - فمستشار نظارة الخارجية العثمانية - أرتين باشا - «أرمنيا».

وسفيرها لدى أنكى دول الأرض لها، وأشدها عداء وهي «إنكلترا» موزوروس باشا «روميًّا».

حاكم جزيرة كريد - قسطاكي باشا. وهكذا مناصب الدولة العثمانية - مشحونة بيورغاكي، وقسطاكي، وآغوب، وأوخانس إلخ.

---

(١) تَسَنَّم: اعتلى وارتفع. (م).

وكل فرد من هؤلاء الرجال – له أمة محكومة من الدولة العثمانية – باذلة جهدها للتخلص من الحكم العثماني، تعمل فيها دسائس الدول الغربية – لتناهض الدولة، سعيًّا وراء استقلالها.

فمع هذه الآمال، والأماني – هل يعقل، أو ينتظر من أولئك الرجال إخلاصًا في خدمة الدولة، أو تعزيز جانبها، والعمل على صونها، وتعاليها؟ ومصلحتهم القومية، ومصلحة أممهم – في خلاف ذلك؟!

حديثه عن الهند ومستقبلها وشيء عن سيرة السلطان محمود الغزنوي بفتحه لتلك الأقطار والمقابلة بين حالة مصر في عهد محمد علي باشا وحالتها بعد الاحتلال

قال: ما أغرب ما سقطت به الأقطار الإسلامية من تفكك عرى الاتصال، وجهل بعضهم أخبار بعض رغم أقطارها المتصلة، وأمصارها المتجاورة.

فالأفغاني قلما يعلم، أو يهتم بحال أخيه الإيراني، وكلاهما لا يدري من حوادث الهند إلا طفيفها، ويجهلان الخطير من أمورها، وحالاتها - وكم تضيع في هذا الجهل فرص سانحة - وتخسر صفقات ربما كانت رابحة، لو انتهزت في حينها، وأُعِدّ لها معداتها مثل الثورة التي حدثت في الهند سنة ١٨٦٠ ولم تصل أخبارها للأفغان، ولا لإيران إلا بعد أن تمكن الإنكليز من إطفاء جذوتها.

وهكذا ترى الهندي أجهل من إخوانه المسلمين في أخبارهم، أحوالهم في مشارق الأرض ومغاربها من جهلهم بأحواله.

فالتركي، والمغربي من تونسي، وجزائري، ومراكشي يعلمون أن في الدنيا مقاطعة تسمى «الهند» وفيها من الملايين هنود مسلمون.

والهنود يعلمون أن في المعمور، دولة عثمانية، إسلامية - إذا وصلتهم نتفًا من أخبارها أو شيئًا عن قوتها، خفقت له قلوبهم فرحًا، وعطفوا على حبها جوارحًا، وأفئدة طحنتها مظالم حكامهم طحنًا، وعجنتهم بالكوارث عجنًا.

وهكذا ترى العالم الإسلامي يجهل أهل كل مقاطعة ما ألم بالأخرى من جور، ورزية، وكل واحد في شأن يلهيه، وهمه يكفيه.

وإني في كل ما جُبْتُه[١] من الأقطار، وتجولت فيه من الأمصار الإسلامية، قلما رأيت من يعلم شيئًا جوهريًّا عن الهند. بل كان علم من رأيت - من يدرك أن الهند قد سقطت تحت نِير[٢] الإنكليز - وأنها تَسُوم[٣] الهنود سوء الأحكام.

الهند هي تلك الدرة الثمينة في عقد القارة الآسيوية، وهي التي كانت من قديم الزمن هدف الفاتحين، ومطمح أنظار الملوك والسلاطين، وإليها زحف إسكندر الأكبر، ودخلها من الشمال فاتحًا - عن طريق سرخس باب الهند - وعن طريق المحمرة «البصرة» وبندر عباس فبلوجستان دخل الجيش الإسلامي - الجيش الذي بعثه الحجاج بن يوسف ففتح به السند وبخاري وكابل فالهند.

ثم في القرون الوسطى زحف السلطان محمود الغزنوي ذلك السلطان الكبير الهمة الذي أقل ما يُؤثَر عنه في فتحه، وغزوه بلاد الهند أن الماء نفذ من

(١) جُبْتُه: قطعته من السَّيْر. (م).
(٢) نِيْر: عُبُودية. (م).
(٣) تَسُوم: تُكلِّفُ. (م).

الجيش، وكاد أن يهلك في تلك الفيافي والوهاد، فجاء خادم السلطان بقربة ماء كان خبأها وحرص عليها للسلطان خاصة، فأخذها وأراقها على مرأى من الجيش وخاطبهم بقوله «لا خير في حياته إذا هلك الجيش، ويفضل الموت إذا كان فيه سلامة عسكره». فتحمس العسكر عند ذلك وجدّوا السير، ونسوا ما هم فيه من الظمأ.

حتى وصلوا إلى مكان المياه فاستقوا، وبعد ذلك انقضوا على حصون الهند - وقد ثبت أن ذلك الجيش كان مجهزًا بالمدافع - فدكدكوها، وافتتحوا مدنها، وغنم السلطان ما شاء أن يغنم، وقضى من الهند أَرَبَه[١].

ثم عقبه تيمورلنك بخيله، ورجله فسخَّر الأقطار الهندية، وأسس فيها ملكه وتعاقب في أولاده، وأحفاده.

وآخر من زحف على الهند وفيها السلطنة التيمورية - نادر شاه الإيراني - فأخذ من خزائن الهند وجواهرها ما لا يحصى.

ومختصر القول أن الملوك، والفاتحين طرقوا الهند، وغنموا منها الغنائم ولكن بحروب هائلة، وتجشم أخطار، واقتحام مهالك تشيب لها النواصي.

(١) أَرَبَه: حَاجَتَه. (م).

أما الإنكليز - فقد ملكوا نحو ثلث العالم - وما سفكوه في ذلك السبيل من الدماء، وصرفوه من الأموال - كنسبة القطرة إلى البحار، أو الدرهم إلى المليار - وإنما تملكوا ما ملكوا - بسلاح الخديعة والحيلة.

يدخلون إلى الأقطار والأمصار أسودًا ضارية - في لين ملمس جلود الأفعى - يعرضون أنفسهم في صورة خَدَمَة صادقين، وأمناء ناصحين - لا يهمهم إلا تقرير الأمن، وأسباب الراحة، وتقويم النظام، وتثبيت الأمراء، وتأييد نصوص الفرامين، وتعزيز شوكة السلطان - وغير ذلك من الحِبَالَات[١]، والمصائد، وأنواع التَّغْرِير[٢]، والمكائد. حتى إذا أرادوا التدخل في شؤون ملك للشرقيين، ورأوا أن القائم به رجل حكيم، يقظ، وبصير حاذق - وأن وجوده في الملك يعرقل سعيهم، ويؤخر سيرهم نحو ما يقصدون - بادروا وأخذوا في التشويش عليه - فإما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته، ويأخذوا بيد السفهاء منهم، ويثيروا عليه الأحقاد.

أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان، وطلب الملك - ليجدوا في ذلك وسيلة للدخول في الأمر، أو يتفقوا مع الوزراء على خلع السلطان ثم يَنْصِبُون[٣] بَدَلَه إما ضعيفًا أحمقًا، وإما صبيًّا لم يبلغ الرشد من أبناء الملك، أو أقاربه - ليتمكنوا من بلوغ مآربهم تحت علمه، ويبلغوا غايتهم باسمه ويقطعوا

(١) الحبَالَات: المَصَائِد. (م).
(٢) التَّغْرير: الغَفْلَة وتعريض النَّفس للهلاك. (م).
(٣) يَنْصِبُون: يقيمون. (م).

المسافات الطويلة في مدة قصيرة بلا ممانع، ولا عائق - مع إصابتهم جزيل الأجر، على ما عملوا في بداية الأمر.

أو أنهم يفعلون كما فعلوا مع الهنود لما انتشروا في أقطارهم كتجار وشركة تجارية، واندسوا بينهم وصرفوا فيهم كيدهم، فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء، وإغراء كل نواب، أو راجا بالاستقلال، والانفصال عن السلطنة التيمورية، فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة. ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره، والتغلب على ملكه. فصارت الأراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال، واضطر كل نواب، أو راجا إلى النقود، أو الجنود ليدافع بها عن حقه، أو يطلب التغلب بها على عدوه.

فعند ذلك تقدم الإنكليز بسعة الصدر، وانبساط النفس، ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب.

بدأوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف، والجبن، والخيانة، والاختلال - ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الإنكليزية، وقوادها، وما هم عليه من القوة، والبسالة، والنظام - حتى اقتنع كل نواب، أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبة خصمه إلا بالجنود الإنكليزية.

فأقبل الإنكليز على أولئك السذج يضمنون لكل واحد صيانة ملكه، وفوزه بالانتصار على غيره - بجنود منظمة تحت قيادة قواد من الإنكليز - ويكون

بعض الجنود من الهنديين، وبعضهم من البريتانيين، وما على الحاكم إلا أن يؤدي نفقتها.

ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم، وبهرجة وعودهم، ولين مقالهم – حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم – فرقة من العساكر – لتدفع شر بعضهم عن بعض. وصار بذلك «الإنكليز» أولياء المتباغضين. وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها لحمايتها – ففرقة الحكومة السنية – سموها «عمرية» وفرقة الحكومة الشيعية «جعفرية» وللوثنيين سموها «كشتية» ولما فرغت خزائن الحكام الهنود، وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الإنكليز خزائنهم، وتساهلوا مع أولئك الأمراء في القروض، وأظهروا غاية السماحة – فبعضم يقرضونه بفائدة قليلة، وبعضهم بدون فائدة، وينظرون به الميسرة – حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء، وبعد مضي زمان كانوا يُومِئون[1] إلى طلب ديونهم بغاية اللطف، ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية الرفق – فإذا عجز الأمير عن الأداء، قالوا: نحن نعلم أن وفاء الديون، والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، وإننا ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل في قطعة كذا من الأرض نستغلها، ونستوفي ديوننا، وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم. ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وإنما نحن خادمون لكم.

---

(١) يُومِئون: يُشِيرُون. (م).

فيضعون أيديهم على أخصب الأراضي وأنبتها - وفي أثناء استغلالها يؤسسون فيها قلاعًا حصينة، وحصونًا منيعة - كما يفعلون في ثكن «قشلاقات» عساكرهم على أبواب العواصم الهندية. وفي خلال هذا - يفتحون للأمراء أبوابًا من الإسراف، والتبذير، ويقرضونهم - ويكتفون بمقابل قرضهم - قيامهم على أراضٍ أخرى يضمونها إلى الأولى. ثم يحضون ويُذْكُون[1] نار العداوة بين الحكام؛ لتنشب بينهم حروب فيتداخلون في أمر لصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه؛ ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه، وهم في جميع هذه الأعمال مَوْسُومُون[2] متصفون بالخادم، الصادق، والناصح الأمين لكل من المتغالبين. وغير هذا - فلهم شؤون لا يهملونها في إيقاع الشقاق بين سائر الأهالي فتضعف قوة الوحدة الداخلية، ويخرب بعضم بيوت بعض حتى إذا بلغ السير نهايته، واضمحلت جميع القوى من الحاكم، والمحكوم، وغلَّت الأيدي فلا يستطيع أحد حراكًا، ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية له، واقية لبلاده، وكانت تشحذ لجَزّ[3] عنقه من سنين طويلة، وينفق على صَقَالَتِها[4] من ماله، ثم خلفوه على ملكه في حقيقة الأمر. وفي الظاهر يظاهرون بقوتهم أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك فيخلعون الملك ويولون الطالب - على شريطة أن يقطعهم أرضًا، أو يمنحهم امتيازًا - فيحولون

---

(١) يُذْكُون: يُشْعِلُون. (م).
(٢) مَوْسُومُون: معروفون. (م).
(٣) لجَزّ: لِقَطْع. (م).
(٤) صَقَالَتِها: شَحْذِها وجلائها. (م).

الملك من الأب للابن، ومن الأخ لأخيه، ومن العم لابن أخيه – وفي كل هذا التداول هم الرابحون وأول خطوة خطوها في الهند كانت في مملكة «أود» وهي من الممالك الواسعة، وأغلب أهلها على مذهب الشيعة، ولها نواب «حاكم» عظيم زينوا له الطمع في لقب شاه لينفصل عن الملك التيموري.

وفي التنازع لنيل هذا المطمع – يصيب كُلاًّ من الطامع، وصاحب الملك سهم من الضعف والوهن – فيتهيأ كل منهما للوقوع في مخالب الإنكليز وقد حصل.

وعندما كانت الحرب قائمة بين دوست محمد خان وبين «رانجت سنك» البنجابي – تخوّف الإنكليز من تسلط الأفغانيين – فتداخلوا في الصلح وبذلوا جهدهم في ذلك، وسحروا قلوب الأفغانيين بلين القول، ولطف الوعد حتى أرضوهم بترك مدينة بيشاور، وما يليها (لرانجت سنك).

وانعقد الصلح على ذلك، وانجلى الأفغانيون عن مملكة بنجاب، ورجعوا إلى بلادهم. وبعد عشر سنين من تاريخ الصلح زحف الإنكليز إلى بنجاب وافتتحوها لأنفسهم، واستولوا على مدينة بيشاور. فقال بعض أمراء الأفغان «أن ذلك الصلح كان مقدمة لهذا الفتح، وأن الإنكليز في تعيينهم الحدود إنما كانوا يحددون بلادهم ولكن كنا عنه غافلين».

ومن أفعال الإنكليز في الهند - ما فعلوه من زمن غير بعيد مع راجابرودا» وهو أمير عظيم - فلما أحسوا فيه البصيرة، والحزم خلعوه بدعوى باطلة.

وأقاموا بَدَلَه ولدً ا صغيرًا من عائلته - ثم انتصبوا له أوصياء - فوضعوا أيديهم على جميع خزائنه، وتولوا إدارة ممالكه، واستلموا قيادة عساكره.

ولم يبق له إلا الاسم يذكر ولا يشكر.

كل هذا يفعله الإنكليز تحت راية العدالة، والإصلاح، وحفظ الراحة، وتقرير النظام، ويساقون إليه بباعث المحبة، والإخلاص. ولا يذكر هناك اسم «التملك، والاستيلاء» نعم ولهم الحق في استبقاء اسم والسكوت عن آخر.

فإن أمراء الشرقيين لا يبالون بما دلت عليه الأسماء، وإنما يهمهم طَنْطَنَة[١] الألفاظ، وفخامة الألقاب. إذا سلب الأمير الشرقي ملكه، وماله، وجرّد من جميع حقوقه، وبقي له لقبه ولواحق لقبه؛ فهو في سكرة من لذة ما بقي له، وفي ذهول عما سلب منه. هذه خُلَّة عرفها الإنكليز في كل أمير شرقي؛ لذلك فهم يقرون أعينهم بترك هذه الأسماء محفوظة بعدما جردت عن معانيها.

ولا يرى الإنكليز أقل داع يدعوهم لنزع هذه الألقاب من الأمراء، وإزعاجهم بذلك.

(١) طَنْطَنَة: صَوْت. (م).

واللقب الضخم حصن حصين يسجن فيه الأمير الشرقي، أو جُبّ[١] عميق يلقى فيه، وهو يظنه جنة عرضها السموات والأرض.

فليعش أمراء الشرق متمتعين بنعيم ألقابهم، وسعادة أسمائهم ويكفهم من المجد أن يقال لهم بين خدمهم، وخاصتهم في داخل دوائرهم «نواب صاحب» «راجا صاحب» «خديوي صاحب» «سلطان صاحب».

واخَجْلتاه! هذه الألقاب كانت تشير إلى ملك فسيح، ومجد شامخ، وشوكة قوية، وسطوة تخضع لها الجبابرة - فكيف طابت نفوس أمراء الشرق بقبولها عارية من كل شرف - لم يبق من معناها إلا سلطة على الخدم والحشم - وما هم فيها بأحرار - بل لابد أن يوافقوا فيها رضاء الأجانب.

ومن مناقب الإنكليز وغرائب عدالتهم في الهند. أن جيرت سنك» كان راجا على ممالك «جنبه» الواقعة في جنب عنبر سر» من طرف حملايا فلما مات هذا الملك تولى ابنه سوجت سنك» على طبق قانون الوثنيين. فأراد حاكم الهند الإنكليزي وهو إذ ذاك «اللورد نورثبروك» ضم تلك المملكة إلى الأملاك الإنكليزية، وإدخالها، واستملاك أراضيها حسب المألوف، عادة الانكليز.

فطلب من «سوجت سنك» أن يتنازل عن الملك لأخيه «قوبال سنك» وكان وليدًا من جارية، ولا يجوز في قوانين الوثنيين أن يتولى الملك أبناء الإماء -

(١) جُبّ: بِئر. (م).

ما دام من أبناء الأحرار حي – فلما تمنَّع سوجت سنك» من التنازل اعتمادًا على قانون بلاده، أنزل الحكم اللورد جبرا بعد ما ضربت زوجته التي كانت ملكة تلك البلاد – لكونها زوجة الملك – ونهب جميع ما كان في بيت الملك من الخزائن، والتحف، والجواهر الثمينة، والمخلفات القديمة أنتيكات» التي كان يتوارثها الملوك من أجيال طويلة.

فإن عائلة الملك كانت من قدماء العائلات الملوكية. ثم نصب له «قوبال سنك» – وبعد مدة قصيرة عزل «قوبال سنك» نصب بدله ولده الصغير «سيام سنك» ليكون الأمر والنهي – حسًّا ومعنى بيد أمراء الإنكليز وتحت تصرف الذي أقاموه من طرفهم «وصيًّا على الملك الصغير».

ثم أن «سوجت سنك» المخلوع ظن أن اللورد نورثبروك – وحده هو الظالم، وأنه لو رفع أمره للحكومة العادلة في لولندرا – يجد لديها عدلاً ويصادف منها إنصافًا – فجاء وعرض حاله على الحكومة العدلة – فإذا القلوب متشابهة، والنفوس متوافقة، والآراء متحدة، والأفكار متألبة على سلب الحقوق والغلو في العدوان. وفي خلال السنين التي صرفها في بث شكواه – أنفق كل ما كان عنده في المطالبة بحقه، والمرافعة مع ظالمه، والحاكم خصمه – حتى أصبح صفر اليدين لا يملك قوت يومه، ولا يجد له منصفًا. هذا الملك السيء الحظ – مع ما كان له

من رفعة الشأن وارتفاع نسبه في الملك إلى أجداده الأقدمين من نحو ألف سنة. رأيته وأنا في أوروبا يَتَضَوَّر[١] من الجوع، رَثَّ الثياب، حقيرًا ذليلاً.

قال: ولقد عثرت على منشور إنكليزي قديم - نشرته حكومة إنكلترا في الهند - ونحن نشرنا ترجمته في «العروة الوثقى» ونصه:

«إذا وجدت في دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها إنكليزي» أي لا تليق لخستها أن تكون «لأحد من الجنس الشريف» - وجب أن يقام فيها أحد الفارسيين، الباقين على دين «زردشت» (المجوس).

فإن لم يكن منهم مقتدر على القيام بها - أقيم فيها «وثني» (عابد صنم). فإن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء من يؤدي عملها - كلف «بها مسلم».

فليس للمسلمين في الهند حظ من وظائف الحكومة إلا ما يعافه المجوسي، والوثني - وهذا هو عنوان محبة الإنكليز للمسلمين!! وهو برهان دعواهم أنهم أولياء المسلمين!! وأنصارهم!! لا أكثر الله من أمثال هؤلاء الأولياء، والأنصار.

ومن مناقبهم، وغرائب عدلهم!! أنهم جعلوا جزائر «أندومان» منفى لعلماء المسلمين - والجريمة التي يستحق العالم عليها النفي هي - أن يعترف بأنه معتقد ببعض آيات القرآن!! (وقد مر ذكر ذلك).

---

(١) يَتَضَوَّر: يَتَلَوَّى من شدة الجوع. (م).

ولو أردنا تعداد مناقب الإنكليز، وقصصنا ما يعاملون به رعاياهم في الهند عمومًا والمسلمين خصوصًا – لطال بنا الشرح، وانتفخت بطون المجلدات، وضاقت الصدور من كثرة السطور – وما ذكرناه إن هو إلا نذر يسير، وقليل من كثير هذه هي الهند – الذي إذا أشرف السائر على أي بقعة من بقاعها الشاسعة، الواسعة شخص بصره، ودهش لُبُّه بما يراه من آثار عناية الله بتلك البقاع، وما منحتها من الخصب الطبيعي – حتى أن الأحجار الصلدة لتنشق عن الأشجار الضخمة، العالية الأغصان، المورقة الأفنان – يفيء ظلها محيطًا واسعًا من الأرض – وكأن أديمها بما فرش عليه من أنواع النباتات – وقد بسط عليه بساط من السندس الأخضر.

فيخيل للناظر أن سكنة هذه الأراضي في خفض من العيش، وسعة من الرزق – بل يظنهم أسعد من على وجه الأرض. ولكنه إذا تجاوز المروج، والأودية إلى المدن والقرى – ضاق صدره، وتفطر قلبه من منظر سكانها – يرى ألوفًا مؤلفة يعبرون في الشوارع، والأزقة – جيئة، وذهابًا – حفاة، عراة، بادية سَوْآتِهم[1]، كَاسِفَةً[2] أحوالهم، لا يجدون رمقة من العيش.

ثم يتمكن الحزن من الإنسان إذا رأى بأم العين، ووقف على أحوال أولاد السلاطين المغولين وما هم فيه من الذلة، وأحفاد «تيبو» سلطان وما أصابهم

(١) سَوْآتِهم: عَوْرَاتِهم. (م).
(٢) كَاسِفَة: سَيِّئَة. (م).

من الفقر والمسكنة، وسلالة سلاطين «أوده» وما نزل بهم من الهوان، ونوابي «كارناتك» وأمراء «السند» وما حلّ بهم من الصَّغَار[١]، و«مرتة» تلك القبيلة العظيمة، القاطنة في «فونا» و«ستاره» وما حولها وما أحاط بها من البلاء المنصب عليهم وعلى غيرهم من سائر الأمراء والرجاوات العظام.

كل تلك الأحوال والمشاهدات تسوق المنصف قَهرًا لأن يحكم حكمًا لا ريبة فيه، بأن إدارة الحكومة الإنكليزية «العادلة!!» هي التي هيَّأت تلك الرزايا والبلاء للهنود، وهي التي حرمت أولئك المساكين من التمتع بما آتاهم الله من فضله، وهي التي جعلت الأعزة أذلة، وبعد أن كانوا يسكنون القصور العالية أصبحوا اليوم يأوون إلى خِصَاص[٢]، بل أقفاص؟

إذا خاطب الإنكليزي هنديًّا – إنما يكلمه بالعصا – إذ لا يعدونه من فصيلة الإنسان.

وإذا أراد حكام الإنكليز أن يجمعوا أعيان البلاد لإلزامهم بأداء ضريبة جديدة، هيأوا مكانًا عليًّا يرتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع؛ لتوضع عليه كراسي االسادات الإنكليز، ويجلس الهنود مفترشين منخفض الأرض – إظهارًا للامتياز – مع أنهم ما جمعوهم إلا لسلخ ما بقي من جلودهم، وامتصاص ثُمْلَة[٣] دمائهم –

(١) الصَّغَار: المَذَلَّة. (م).
(٢) خِصَاص: أكْوَاخ. (م).
(٣) ثُمْلَة: بَقِيَّة. (م).

فهل سمع بمثل هذا في الأمم السالفين – كلا – إن جنس الهنود «قوم برهما» لما قدموا من إيران وفتحوا الهند، لم يسيئوا معاملة أحد من السكان القدماء مع أنهم كانوا يعتقدون أنهم سماويون، وأبناء الآلهة قبلوا جنس «التلنكان» الهندي في مصافهم، وأشركوه في حقوقهم مع كونه مغلوبًا لهم حربًا.

فتح المسلمون أرض الهند – فعاملوا الوثنيين مثلما عاملوا بني ملتهم – ما حرموهم الوظائف السامية. وما من سلطان مسلم تسلط في الهند إلا كان له من الوثنيين عمال، ووزراء.

كان المسلمون يسيرون مع الوثنيين سِيرَة الإخوة، حتى أوقع الإنكليز بينهم الشقاق في بنجاب، وأطراف مِدْرَاس.

يزعم الإنكليز أن المسلمين بسوق التعصب الديني يجورون، ولا يعدلون. مع أَنَّا نرى إلى الآن حكومات صغيرة يحكمها راجوات، ونوابون من أهل السنة، والشيعة. ونرى للراجا الوثني وزيرًا مسلمًا، وعمالاً مسلمين، وللنواب المسلم وزيرًا وثنيًّا، وعمالاً وثنيين.

وهكذا السنيون مع الشيعة، والشيعة مع السنيين. ولا نرى في الملايين الكثيرة المحكومة بالإنكليز رجلاً هنديًّا في وظيفة شريفة.

رُبَّ نعمة جلبت نقمة. نعم – إن ما أنعم الله على أرض الهند من الخصب، وما أودعه فيها من الثروة الطبيعية – جلبت عليهم الإنكليز – وما أكبرها نقمة، على الهنود، وعلى من جاورهم من الممالك، وما اتصل بها من البحار؛ لأن الإنكليز يرون كل مملكة في شمال الهند، أو في جنوبها، أو شرقها، وشمالها – هي بابًا للهند، ومهددًا لملكهم في الهند، ويلزم للإمبراطورية البريتانية أن تدرأ الخطر عن الهند بالاستيلاء على تلك الممالك بأي حيلة أو خديعة كانت. استلبت من الدولة العثمانية جزيرة «قبريس» بحجة المحافظة على أملاك الدولة في البحر المتوسط «وما أصدقها، وأبرّها، وما أعظم ما حافظت على أملاك الدولة العثمانية!».

وحقيقة ذلك السلب إنما هو مقدمة لاستلاب ملك مصر، وفيه ترعة السويس «باب الهند» والسودان وفيه «مصوع» و«سواكن» على البحر الأحمر «باب آخر للهند» و«عَدَن» وبُوغَاز[١] «باب المندب» و«جبل طارق» وكلها «أبواب، أو كُوَّات[٢]، وشبابيك» للهند. والأفغان، وإيران وهما البابان الكبيران العظيمان – «اللذان سيدخل منهما إن شاء الله تعالى» إلى الهند فتستريح بريتانيا من الهند، ويستريح الهنود، والممالك الإسلامية الشرقية من الإنكليز – وتنام في جزيرة بريتانيا العظمى ناعمة البال، لا يروعها، ولا يخيفها (أبواب الهند) إذ يعود البيت إلى صاحبه، ويتكفل بحراسة بابه بسيوفه، وأسنة حرابه».

---

(١) بُوغَاز: مَجْرَى مائي. (م).
(٢) كَوَّات: فتحات في شباك أو حائط (م).

صرفت كل كيدها، وبذلك ما عندها من الحيل في الأفغان فلم تفلح – حتى طرقتها بستين ألفًا من جيوشها المنظمة، بأمضى الأسلحة الجديدة، ولكن لما كان الأفغانيون قوم حرب يناطحون الموت، فقد هبوا ونهضوا نهضة رجل واحد، وكشفوا بلاء الإنكليز عن بلادهم. فاضطرت بعد فناء رجالها وأموالها إلى ترك البلاد الأفغانية، ورجعت إلى الملاينة والمجاملة شأن الإنكليز إذا رأت من الأمة اتحادًا ومقاومة، فإنها تولي الأدبار، وتترك الديار لأهلها.

وأما العجم، فإنها لم تنج من حبالة شرها، ومصائد مكرها. فطالما جاملت دولة روسيا على حساب العجم، وقسمتها بينهما مناطق «اقتصاد»!

وكانت إذا ضربت، أو عملت على كيد الأفغان، لاطفت، وتجملت لدولة إيران، وإذا جاء دور ملاطفة الأفغان اشتدت على إيران، وكلاهما في غفلة عن مصيرهما – ولو علموا «ولابد أن يعلموا بالقريب إن شاء الله» أن ما يصيب الواحد منهم اليوم من المكروه، والرزايا – لابد وأن يصيب الآخر في الغد.

من الغرائب – وليس من طبيعة الوجود – أن يستمر سلاح الخداع والمكر لرقاب الشرقيين قاطعًا، ولا لجيش الوهم أن يكون للحقائق غالبًا.

نعم إن للوهم آثارًا غريبة – خصوصًا في الأمم الضعيفة – فطورًا يكون مرآة المزعجات، ومجلى المفزعات، وطورًا يكون ممثلاً للمسرّات، حاكيًا للمنعشات –

وهو في جميع أطواره - حجاب الحقيقة، وغشاء على عين البصيرة، ولكن له سلطان على الإرادة، وحكم على العزيمة، فهو مجلبة الشر، ومبعد الخير.

الوهم يمثل الضعيف قويًّا، والقريب بعيدًا، والمأمن، والمنقذ مهلكًا.

الوهم يذهل الواهم عن نفسه، ويصرفه عن حسه. يخيل الموجود معدومًا، والمعدوم موجودًا.

الوهم - في كون غير موجود، وعالم غير مشهود - يخبط فيه خبط المصروع، لا يدري ماذا أدركه، وماذا تركه.

الوهم روح خبيث يلابس النفس الإنسانية وهي في ظلام الجهل. إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام، وتسلطت على الإرادات، فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة، فيخبطون في مجاهيل لا يهتدون إلى سبيل، ولا يستقيمون على طريق.

وإذا كان «الوهم» مولودًا - فأبواه «الجبن» - ومربيه ومنشئه «الجبن» - وهو العلة في إخلاد الجمهور الأعظم من بني الإنسان إلى دَنِيَّات[١] المنازل، وقصورهم عن الوصول إلى معالي الأمور.

---

(١) دَنِيَّات: نَقَائِص. (م).

«والجبن» هو الذي يقعد بالنفوس عن العمل، وينحدر بها في مزالق الزلل. وهو علة العلل، ومنشأ يُقْرَن به كل خلل.

«الجبن» هو الذي أوهى دعائم الممالك، وهو الذي قطع روابط الأمم، فحل نظامها.

وهو الذي أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم، وأضعف قلوب العالين فسقطت صروحهم، هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين، ويسهِّل على النفوس احتمال المذلة، ويخفف عليها مضض المسكنة، ويهوّن عليها حمل نير العبودية الثقيل، يُوَطِّن[1] النفس على تلقي الإهانة بالصبر، والتذليل بالجَلَد، ويُوَطِّئ[2] الظهور لأحمال من المكاره، والمصاعب، أثقل مما يتوهم لو تحلى بالشجاعة والإقدام.

«الجبن» يلبس النفس عارًا - دون لبسه - الموت الأحمر - عند كل روح زكية وهمة عالية - يرى الجبان وعر المذلة سهلاً - وشظف العيش في المسكنات نعيمًا - ومن يهن يسهل الهوان عليه. ما لجرح بميت إيلام.

---

(١) يُوَطِّن: يُهيِّئ. (م).
(٢) يُوَطِّئ: يُسهل ويُهيِّئ. (م).

«الجبان» يتجرع مرارات الموت في كل لحظة – ولكنه راض بكل حال – وإن لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء، وترى الأحباء، ونَفَس لا يصعد إلا بالزفير، والصعداء، وإحساس لا يلم، إلا بألم الحَرّ واللَّأوَاء[١].

هذه حياته – أضاع كل شيء – في القناعة بلا شيء، وهو يظن أنه أدرك مبتغاه، وحصل على ما يتمناه.

الجبن انخذال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها. وهو مرض من الأمراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركنًا من أركان الحياة الطبيعية، وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها، لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت.

الموت مآل كل حي، ومصير كل ذي روح. سبيل الموت غاية كل حي. وداعيه لأهل الأرض داعي، وليس للموت وقت معروف ولا ساعة معلومة – ولكنه بين النشأة وأرذل العمر – ينتظر في كل آن، ويرتقب في كل لحظة، ولا يعلمه إلا مُقَدِّر الآجال جل شأنه.

يشتد الخوف من الموت إلى حد يُوَرِّث النفس هذا المرض القاتل «الجبن» فيسبب الغفلة عن حسن المصير، والذهول عما أعده الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة، إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله.

(١) اللّأْوَاء: الشِّدة وضيق العيش. (م).

نعم، يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقيًا للحياة – وهو الشجاعة، والإقدام – سببًا للفناء.

يحسب الجاهل أن في كل خطوة حتفًا، ويتوهم أن في كل خطرة خطرًا. مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم، وما ذللوا من المصاعب في سيرهم، تكشف له أن تلك المخاوف إنما هي أوهام، وأصوات غيلان، ووساوس شيطان غشيته فأدهشته، وعن سبيل الله صدته، ومن كل خير حرمته.

«الجبن» فخ تنصبه صُرُوف الدهر، وغَوَائِل[١] الأيام لتغتال به نفوس بني الإنسان، وتلتهم به الأمم، والشعوب. هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله، ويصدهم عن سبيله. هو غاية كل رذيلة، ومنشأ لكل خصلة ذميمة. لا شقاء إلا وهو مبدأه، ولا فساد إلا وهو جرثومته، ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه. ممزق الجماعات، ومقطع روابط الصلات هازم الجيوش ومنكس الأعلام، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة. ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية؟ (أليس هو الجبن)؟

ماذا يبسط أيدي الأدنياء لدنيئة الارتشاء؟ (أليس هو الجبن)؟

---

(١) غَوَائِل: دَوَاهِي. (م).

ربما تتوهم بعد المثال – فتأمل! فإن الخوف من الفقر يرجع في الحقيقة إلى الخوف من الموت – وهو علة «الجبن»؟

وبعد ذلك – يسهل عليك أن تعتبر هذا – في الكذب، والنفاق، وسائر أنواع الأمراض الروحية في الإنسان.

«الجبن» عار، وشَنَار[1] على كل ذي فطرة إنسانية – خصوصًا الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر – ويؤملون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجرًا حسنًا، ومقامًا كريمًا.

إن أبناء الملة الإسلامية ينبغي أن يكونوا – بمقتضى أصول دينهم – أبعد الناس عن هذه الصفة المهينة «الجبن» فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضي الله، وإنهم بما يعملونه إنما يبتغون رضاه. يعلم من في القرآن هدايته – أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان – وامتحن الله به قلوب المعاندين، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء/ ٧٧] إلى إلخ الآيات.

الإقدام في سبيل الحق، وبذل الأموال، والأرواح في إعلاء كلمته – أول سمة يتسم بها المؤمنون.

---

(١) شَنَار: عَيْب وعَار. (م).

لم يكتف الكتاب الإلهي بأن تُقَام الصلاة، وتُؤتَى الزكاة وتُكفّ الأيدي، وعَدَّ ذلك مما يشترك فيه المؤمنون، والكافرون، والمنافقون، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في إعلاء كلمة الحق، والعدل الإلهي، بل عدّه الركن الوحيد الذي لا يُعْتَدّ بغيره إذا هو فقد.

لا يظن أحد أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامي، وبين الجبن في قلب واحد. كيف يمكن هذا؟ وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة، ويصور الإقدام.

المؤمن مَن يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء. ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل، ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه.

المؤمن مَن ينظر بنفسه إلى إحدى الحسنيين – إما أن يعيش سعيدًا عزيزًا – وإما أن يموت شجاعًا شهيدًا – وتصعد روحه إلى أعلى عليين، ويلتحق بالكوروبيين، والملائكة المقربين.

مَنْ يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمد ﷺ فقد خدع نفسه وغَرَّر بعقله، ولعب به هوسه – وهو ليس من الإيمان في شيء فمتى طهَّرت أبناء الملة الإسلامية نفوسها من معرة «الجبن» ونفت عن أذهانها أشباح «الوهم» واعتصموا بحبل الله جميعًا – عادوا – كما كانوا أول نشأتهم – أسودًا – فاستردوا المفقود، وحفظوا الموجود، وكان لهم بين الأمم، وعند الله المقام المحمود.

كيف ربح الإنكليز بالحيل والمكر؟ وكيف خسر الشرقيون بالجبن والوهم؟!

كان الإنكليز أمة مجتمعة القوى، مستكملة العدد، مستعدة للفتوحات وذلك في زمان بليت به الأمم الشرقية بتفريق الكلمة، واختلاف الأهواء، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم. فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة، وكل بديع من الاختراع سحرًا وكرامة، فانتهز الإنكليز تلك الفرصة، واندفعوا إلى الشرق، وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوروبية - التي أثارت فيهم خواطر الأوهام - ثم زاد الوهم قوة ما نصبوه من حبائل الحيلة والختل، حتى خلبوا قلوب المساكين، وأذهلوهم عما في أيديهم، بل أخذوهم عن عقولهم، وخطرات قلوبهم فسلبوا أموالهم، وانتزعوا منهم أراضيهم، وأجلوهم عن أملاكهم، فاستغنت الأمة الإنكليزية بما سلبت، وأثرت بما نهبت، وترفت بما ملكت.

نعم ذهب الإنكليز إلى الهند في قوى مجتمعة، وتسابقوا مع الفرنساويين، والهولانديين، والبورتغاليين في ميدان الأراضي الهندية الواسعة، فحازوا قَصَب السَّبْق[1] بما امتازوا به من الدهاء والمكر، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد، أو طيب قلوبهم - فمالت النفوس إلى الإنكليز اغترارًا بوعودهم - وتغلبوا على تلك البلاد، واستقلوا بأمرها شيئًا فشيئًا، وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر.

---

(١) حَازُوا قَصَب السَّبْق: بَلَغُوا مُنْتَهى الغاية. (م).

وأول ما استمالوا به القلوب السالمة – قولهم– إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة «فرنسا، وهولاندا، والبورتغال» فإنها تريد التسلط على ممالككم، أما نحن «الإنكليز» فلا نريد إلا تحريركم، واستقلالكم.

وهكذا ترى الآن للإنكليز في الهند الأصلية، والهند الصينية، والبرمان سلطة على نحو مايتين وثمانين مليونًا من النفوس – جميعها كاره لتلك لسلطة الإنكليزية، شَاخِص[1] ببصره متطلع للتخلص منها، يفضل أية سلطة سواها ظالمة كانت أو عادلة – كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الإنكليز، ولا تصل إلى ما وصل إليه الإنكليز من الكبرياء، والجبروت.

ولكن مع هذه البغضاء – الآخذة بقلوب أولئك الرعايا، ومع سعة ديارهم، وتباعد أرجائها، وشدة ميلهم للتَّمَلُّص[2] من تلك السلطة الظالمة – لا يوجد قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندي إنكليزي! تأمل.

فإنه لا يصيب المليون من النفوس إلا أقل من مايتين نفرًا من الإنكليز.

(١) شَاخص: طَامح. (م).
(٢) للتَّمَلُّص: للتَّخَلُّص. (م).

فلو كان ذلك المليون من الناس ذبابًا لأصم آذان المايتين بطنينه، أو لو كان غَنَمًا لبقر بطونهم بصغار قرونه.

مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال - وتخشى زوال ما بقي لها - ما لو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلثماية ألف جندي - هذا فضلاً عمن يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في حوزة الحكومة الإنكليزية، وزال استقلالها بالمرة.

فلولا «الوهم» الذي استولى على المشاعر، والحواس، و«الجبن» الذي أطار النفوس شعاعًا - حتى أذهلها عما بين يديها، بل عما هو موجود فيها - أن هذه النفوس الكثيرة العدد، الفائقة القوة، وهم في قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل، والهوان. فلو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار، وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية؛ لانكشف لهم ضعف الإنكليز، وبرز لهم عامل الخلاص متجليًّا بين أيديهم، وملجأ النجاة تحت أرجلهم، وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم، وبلادهم لا يحتاج إلى تَجَشُّم[1] تعب، ولا تكلف مشقة، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة، ولا سفك دماء غزيرة أكثر مما سفك جورج واشنطون رجل أمريكا ومحررها من نير الإنكليز!

---

(١) تَجَشُّم: تَكَلُّف المَشَقَّة. (م).

يوجد في الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنكليز - اعتبارًا لما في سلطتها من الممالك الواسعة، والأمم العظيمة - مما لم يَلغِ عده رعية دولة، أو ثلاث دول من أوروبا، ويقيس وضعها وقوتها في تلك الأطراف القاصية بما يراه في جزائر بريتانيا «ويغفل عن مقاومة جزيرة أيرلاندا» مع قربها من مجمع القوة الإنكليزية»، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريتانيا، أو تقرب منها. ولم يلتفت إلى أن جسم الدولة الإنكليزية قد مد في الطول، والعرض إلى حدٍّ لو حصلت فيه أدنى هزَّة لتقطعت أوصاله، وتبعثرت أجزاؤه.

تفرقت قُوَاهم في بسيط الأرض حتى لم يبق لهم في موضع قوة يُخْشَى بأسها، ورعاياهم في كل صُقْع[1] في ضجر، وتذمر، وتملل لا مزيد عليه. يترقبون في كل آن زحفًا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين.

لو التفتت تلك الدولة التي تهاب إنكلترا إلى حقيقة الأمر، لما احتاجت إلى دقة الفكر، وتأخير الأمر - لولا حجاب الوهم!! قاتل الله الوهم؟!

والعثمانيون أعظم الدول خطأ إذ ينظرون إلى دولة الإنكليز كما ينظرون إلى دولة الروس - من حيث إن انكلترا تحكم على مايتين وثمانين مليونًا من النفوس - فيظنون لهذا النظر أن معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر - وليتهم مدوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك ليتبين لهم حقيقة قوتها العسكرية «مجردة عن

(١) صُقْع: نَاحِيَة. (م).

المستعمرات» وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى ميادين القتال، ليتضح لهم، أن هذه الملايين الكثيرة لا ينبغي أن تحسب في قوة إنكلترا، وإنما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليها، وهي في ارتقاب الفرص لخلع طاعتها. خصوصًا ثمانين مليونًا من المسلمين في حكومة إنكلترا، يعدون الدولة العثمانية قِبْلَةً لهم، وملاذًا يلجأون إليه وهم أول قوم حربيين في الأقطار الهندية.

لو علم العثمانيون أن دولة إنكلترا إنما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها، واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء أُولي الحزم لما صبروا، وتجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الإنكليز، وحَيْفِهم[١] في أعمالهم وتعديهم على حقوق السلطان خصوصًا في المسألة المصرية - التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية، وإسلامية.

قال: الأسباب التي هيأت سقوط مصر في مخالب الإنكليز غريبة في بابها - إذ أصبحت وهي من نفس المصريين، وبقوتهم - يعدونها خارجة عنهم.

نعم، إن المصريين كانوا أيام «عرابي» على قسمين: قسم يَرُوم[٢] حفظ الحالة القديمة، والوقوف عند ما يرسم به الخديوي، وقسم كان يميل بإحدى جانبيه إلى عرابي، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم.

---

(١) حَيْفِهم: ظُلمِهم. (م).
(٢) يَرُوم: يَطْلُب. (م).

فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره، ولا عزيمة مع الريب. والقسم الأول مخلد إلى الخمول، والفشل - فدخل الإنكليز بلا حرب حقيقة، بل بنوع من الترهيب، وقليل من الترغيب، وخفيف من الدسائس - صادف قلوبًا مستعدة، فأخذ منها مقامًا - فانحلَّت الرابطة، وتفرق الناس عن «عرابي» بزوال جانب الميل إليه من قلوبهم.

ومع ذلك ما كان يعتقد فرد منهم أن الإنكليز يبتغون من البلاد شيئًا، سوى أنهم يؤيدون «الخديوي توفيق باشا» وينقذونه من الثائرين عليه.

فتساهل المصريون في الأمر بحسن ظنهم في حكومة الإنكليز - مع ما جاءتهم به من الحجة القوية القائمة - على أن صاحب السيادة الشرعية «السلطان» في رضاء عن تصرفها!

بهذا فاز الإنكليز، واستقرت أقدامهم. أما وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم وسوء نيتهم - فلا أظن أنه يوجد من المصريين من يميل إليهم - بل لا يوجد إلا من يبغضهم، ويتمنى فناءهم، ويود لو يعمل عملاً لهلاكهم. ولكن «الوهم» يجسم المخافة، ويكبح العزيمة. إن أهالي مصر كأنهم ذهلوا عن الأسباب التي مكنت الإنكليز من بلادهم.

كأنهم يظنون أن المصريين كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الإنكليز ثم تغلبت عليهم القوة الإنكليزية، وقهرتهم جميعًا.

كأن المصريين نسوا ما كان بينهم، وأن الإنكليز ما دخلوا بلادهم إلا بمعونتهم، ولتأييد خديويهم المنصوب بفرمان من سلطانهم - هذا هو الوهم العجيب!

إن الذين كانوا سببًا في تغلب العساكر الإنكليزية، وحلولها في وادي النيل - وأنه لولاهم ما استقر لها قدم فيه - يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الأهالي عمومًا، وإخضاعهم لحكومة بريتانيا. كلا - ثم كلاًّ، وأن بهذا الظن الباطل، يستسلمون لأعدائهم كرهًا، ويجارونهم في أهوائهم نفاقًا.

ولا أدل على سوء نوايا الإنكليز، وسوء تدبيرهم - وتحويل سعادة ما يحتلونه من البلاد إلى شقاء - من النظر إلى مصر بعد أن فوضت إلى نابغة الدهر محمد علي باشا، ثم إلى ما حل فيها من البلاء، والشقاء بفضل الإنكليز في سنين قليلة. بعد احتلالهم مصر عقب ثورة «عرابي».

فالنسبة بين العملين موجودة معكوسة.

وذلك أن مصر بعد ما فوضت أمورها إلى محمد علي باشا - لم يمض قليل من الزمن - حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية، وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية، وتقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء.

نعم نالت مصر في عهد ذاك الرجل العظيم، وعهد خلفائه من بعده - ما كانت تقف دونه أفكار المفكرين - طرقت أبواب السعادة من كل وجه، فتقدمت

فيها الزراعة تقدمًا غريبًا، واتسعت دائرة التجارة، وعمرت معاهد العلم، وانتشرت في أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة، وتقاربت أنحاؤها، واتصلت أطرافها بما أُنشئ فيها من سكك الحديد، وخطوط التلغراف، وتعارفت أهاليها، وائتلفوا، وقوي فيهم معنى الأخوة الوطنية، وتواصلوا في المعاملات، وتشاركوا في المنافع، واعتدلت المشارب المذهبية. حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر بأنه «وطني مصري» وارتفعت بذلك أصواتهم بعد ما جالت فيه أفكارهم.

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة، وعمَّت بقاعها، وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية، بل وصل من نيلها إلى أراضي البلاد الغربية، وتوارد إليها الغرباء، وقصَّاد الكسب من كل مكان وما خاب لها قاصد، ولا أخفق فيها سعي ساع، فأثرى في مَغَانِيها[١] الفقراء وعزَّ بها الأذلاء، وصارت قبلة لآمال كثيرين من الغربيين، ومحط رحال الراجين من الشرقيين، وكل وافد إليها يجد أهلاً خيرًا من أهله، ومسكنًا خيرًا من سكنه، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة حتى حاكت برج بابل يوم تبلبلت الألسن.

وساد بها الأمن، وعمت الراحة، وضارعت في كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الأوروبية العظيمة - وكان المتأمل في سيرها هذا - يحكم حكمًا ربما لا يكون بعيدًا من الواقع - أن عاصمتها لا بد أن تصير في وقت قريب، أو بعيد

(١) مَغَانِيها: مُقَامِها. (م).

كرسي مدينة لأعظم الممالك الشرقية – بل كان ذلك أمرًا مقررًا في أنفس جيرانها من سكان البلدان المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألمّ خطب، أو عَرَض خطر.

غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته – فعثر العاقل، وفرَّط المالك، واغتر المعجب، وتهور الغبي، وضعف القوي – فتقرب البعيد، وألحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف – ففتحت للدسائس أبواب، وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة، وطلاب غايات – فتفرَّق اتصال، وتقطعت أوصال فضعفت السلطة الوازعة، ونبذت الطاعة، والتهبت نيران الفتن.

قضاء حل في تلك البلاد – كانت أشأم نتائجه دخول الإنكليز إلى مصر لتأييد الخديوي، وقمع الثورة «العرابية»، والإشفاق على طريق «الهند». احتلت مصر – ورأت أن إعادة الأمن، وتثبيت الراحة فيها من فرائض ذمتها. فكان من التحريق، والتدمير، والقتل، والشنق، والحبس، والإبعاد، والتَّغْرِيم(١) وما شاكل ذلك مما يطول شرحه. وعمّ الهون والذعر كل من عرف اسمه في أهل البلاد ما خلا أشخاصًا قلائل؟ دخل الإنكليز، ولم يمض إلا زمن قليل حتى حكموا بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين في دوائر الحكومة، وما منهم أحد إلا ويتبعه عائلة وأولاد، ولا قوت لهم إلا من مرتب عائلهم، وما مرن على عمل للكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة.

(١) التَّغْرِيم: الإِلزَام بدَفْع ثمن ما أَفْسَد. (م).

ألم يمس هؤلاء الفقر، ألم يعضهم ناب الجوع، ألم يهتك مستورهم، ألم يضق ذرعهم، ألم يصبحوا كساة بسَرَابِيل[١] الكآبة، عراة من أكسية المسرة؟[٢].

إن لم يكن كل هذا فقد كان جلّه، وإن صدى أنينهم يتلى في صفحات الجرائد الوطنية العربية والإفرنجية، وسيتبع السابقين اللاحقون حتى لا يجد الوطني من المهن إلا ما لا يليق بالإنكليز تعاطيه من سفاسف الأمور «كما هو الحال في الهند» - اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة - فاشتبه الأمر على العمال، وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غلّ من أيديهم، وحكمّوا أهواءهم في أداء وظائفهم، وأدخل في الوظائف والدواوين من ليس بأهل، فخطبوا وخلطوا، وصار الحكم في هرج ومرج.

أفعمت[٣] السجون بأعيان الرعية، ورفعت أذناب الكرابيج لتشريح أبدانهم، واستعملت آلات التعذيب، وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم، وثمرات كسبهم. وحدث نوع من الحكم المطلق، وشكل من الاستبداد أذاقهم الأمرّين، وبعث عليهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

---

(١) بِسَرَابِيل: بأَرْدِية. (م).

(٢) كل هذه الاحوال يرجع تاريخها إلى ما بعد حلول الإنكليز في مصر عقب الحوادث العربية المشهورة سنة ١٨٨٢م.

(٣) أفعمت: امتلأت. (م).

غُلِّقَت أبواب العمل من وجوهه الرسمية في الإدارات، وتعطلت أشغال المحاكم، وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة، فاتسع نطاق الفوضى، وارتفع حجاب المنعة، فإذا الفلاح لا يبالي بعمدته، والعمدة لا يبالي بمأمور مركزه، والمأمور لا يحترم مديره، وسرى التهاون إلى الدوائر العليا، وعمَّت الفوضى، وعاد الأمر لقوة الساعد، وكثرة الأعوان فعاثت[١] اللصوص، وتشكلت منها عصابات، وكثر قطع الطرق في أكثر النواحي، وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم في عموم الجرائد الوطنية - فوقفت حركة الأعمال العمومية، وظهرت الأزمة، وبدت للناس شؤون قبضت صدروهم، وعدلت بهم عن ضرورات معاشهم، وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والصيارفة - فقبض المقرضون أيديهم، واحتكروا نقودهم - لفقد ثقتهم، واشتدت الحاجة، وارتبكت الأحوال إلى حد لم يسمع إلا في القصص، وروايات القدماء قبل محمد علي باشا. ومطالب الحكومة، والزيادة في الضرائب، والرسوم على أشد الحالات - مع الإلحاح في اقتضائها، وتحصيلها - فعمّ العسر.

وأحاط الضنك، وتقوضت آلاف من البيوت التجارية، وأتربت أيدي الجماهير من عمال الصناعة، وأعدم المزارعون قاطبة - إلا نزر يسير من حفظة الكنوز، والمستأثرين بأموال الكافة، نهبًا وسلبًا.

---

(١) عاثت: أسرعت في الإفساد. (م).

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية، والأخذ بالشبه وإن ضعفت - واتباع بواطل التهم، وإن بعدت، أو استحالت - حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه، وبلغ منها مبلغه - فلا ترى مارًّا بطريق إلا وهو يلتفت وراءه لينظر - هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده إلى السجن، أو يقتضي منه فدا. وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة، وفي كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة، ومن كل طارق لُبَابِه(١) غَشْيَة(٢). أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا؟!

هذا تنشق له المَرَائِر(٣) من أحوال سكان القطر - هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الأنفس مما رزئوا به - وترك الأهالي حيارى في أمورهم، تائهين عن رشادهم. لا يعلمون ماذا يحل، وينتهي بهم - يذكرون من حكومتهم، وأحوالهم السابقة «وكانت الدول الأوروبية تضليلاً وتغريرًا» تسميه ضيقًا، وعناء، واستبدادًا، وجورًا - وتمنيهم بالإنقاذ منه فيحنون إليه - ويبكون عليه - ويودون لو رجعوا إليه ويحسبونه غاية سعادتهم، ومنتهى راحتهم - بعد هذه الحالة التي هم فيها - ومختصر القول - أن محمد علي باشا أوصل مصر في زمن قليل إلى أوج السعادة والمجد والإثراء مع الأمن الشامل، والعدل الكامل. والإنكليز بفضل احتلالهم أسقطوا مصر إلى حضيض الشقاء، والذل، والفقر، وفقد الأمن،

---

(١) لُبَابه: عَقْله. (م).

(٢) غَشْيَة: غِطَاء. (م).

(٣) المَرَائِر: المراد تتقطع مرارته من الغيظ والغضب، جمع مَرَارَة. (م).

ومحض الجور، كل ذلك في أقل من سنتين. فيا لله ما أعظم الفرق بين الزمنين، ونتيجة العملين: عمل محمد علي باشا، وعمل السادة العادلين «الإنكليز»!

ألا فليعلم الشرقيون - من هنود، ومصريين، وغيرهم - ممن سقطوا بين مخالب الإنكليز - أن لهذه الدولة خطة تجري عليها، ودستورًا تعمل به في البلاد، وذلك أنها إذا رأت البلاد في قبضة سلطان، أو أمير - نازلته وضمنت لنفسها الفوز - إما بقوة الرجال، أو بقوة المال والمكر والاحتيال، فلا تبالي بريتانيا بأفراد ولو كانوا سلاطين أو أمراء، ولا بجيوشهم وقوادهم. وإنما الذي تخشاه، وتفرق منه - قيام الأمة بوجهها - هذا هو السلاح الوحيد القاطع لحَوْل[1] بريتانيا، وحِيَلِهَا - وهذا الذي رأيناه يخلص البلاد وينجي العباد من نير الإنكليز. وقد سبق فذكرنا دخولها لبلاد الأفغان بستين ألفًا من الجنود المنظمة، وكيف أنها توغلت في البلاد، واستولت على المعاقل، والحصون، ولكن لما هبَّ الأفغانيون من كل صوب، وناحية - وصدموها باسم أمة الأفغان لا باسم أمير أو سلطان - اضطرت لترك البلاد وولَّت الأدبار بعد أن صرفت ثلاثين مليونًا من الجنيهات، فضلاً عن دماء رجالها ونخبة قوادها.

أي سلطان كان يمكنه أن يكشف الإنكليز عن مستعمرة «أميركا» لو لم يصدمها اتحاد الأمريكانيين، وينهضون باسم الأمة الأميريكانية مستميتين في طلب استقلالهم. نعم لما رأت إنكلترا أن الأمة هي التي تقاومها، وتخلع طاعتها -

(١) الحَوْل: لقُوّة. (م).

أكرهت على العمل بدستورها، وجرت على خطتها بترك البلاد لأهلها - ودهاة الإنكليز - أعقل من أن يتوهموا إمكان إفناء أمة بأسرها تتفق، وتستبسل، وتطلب الموت في سبيل استقلالها.

هذا الذي علمناه، وشهدت به الحوادث، وأيدته الوقائع. فإذا اتحد المصريون، ونهضوا كأمة لا ترى بُدًّا من استقلالها، ولا تقبل به بديلاً، وثبتوا على شيء من الجور، والحيف، والقتل في بادئ الأمر، وصبروا، ورابطوا وارتبطوا - فبشرّ المصريين بحسن المآل، ونيل الاستقلال إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما الهند - فقد بدت طلائع خير تبشر بقرب نهضتها من كبوتها، وتيقظها من غفلتها - وذلك أن الإنكليز قد جروا في الهند على قاعدة «فرّق تسد» - وقد تمكنت من تفريق المسلمين والوثنيين بعضهم عن بعض، وغرست في العنصرين بذور البغضاء - بالميل تارة إلى جانب المسلمين، وتارة إلى الآخرين - وكان إيثارها للوثنيين أظهر، واعتمادها عليهم بتذليل بعضهم بعضًا أقوى - إذ ليس فيهم من البأس، والنجدة ما في المسلمين، ولا ضاع لهم من العزة، والسلطان ما ضاع للمسلمين. فظل الوثنيون في رضوخ، واسترضاء للإنكليز - يفرحهم ذلك الإيثار الطفيف في سَفَاسِف[١] الأمور، والوظائف - ويبعدهم عن المسلمين حتى جاء دور القهر إليهم - فأخذت تستلب ملك «نواب» الوثنيين، وراجاتهم - وتذيق أمراءهم أنواع الذل، والهوان. وبالإجمال فقد سقطوا تحت مكبس الضغط

(١) سَفَاسِف: تَوَافِه. (م).

والتضييق مع إخوانهم المسلمين. فالتحمت الأجزاء المتفرقة، وتقاربت القلوب المتنافرة، وأخذت أفكارهم تجول في المصير، وسبل الخلاص - ولسوف تعلو به أصواتهم.

آن لنسيم الحياة، والنشاط أن يهب على الممالك الشرقية وأهلها - فتهب من رقدتها، وتستيقظ من غفلتها، وسنتها - فتجمع كلمتها، وتوحد قوتها.

آن للأفغانيين أن يرفعوا أبصارهم، ويستقبلوا باليقظة حظهم بفكر ثاقب، وعقل رشيد - ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين - فليس بينهم ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية - فالجميع من أصل واحد، وتجمعهم رابطة واحدة، وهي أشرف الروابط «رابطة الدين الإسلامي».

وليعلموا أن استمرارهم على التخالف جلب، ويجلب الضرر عليهم وعلى إخوانهم الفارسيين، وعلى إخوانهم المسلمين في الهند، وعموم سكنتها.

وعلى الفارسيين، والأفغانيين - أن يراعوا الكلمة الجامعة، والصلة الجنسية، ولا يجعلوا الاختلاف الفرعي في المذهب - سببًا في خفض الكلمة الإسلامية، وقطع الصلة الحقيقية - فليس من العقل والحزم - أن يقام من خلاف جزئي - علة لاضمحلال الكل.

قد علم كل من القبيلين أن الاختلاف بينهما هو الذي جلب على كل منهما ما جلب - فعلى الأفغانيين أن يجوزوا عن هذا الاختلاف الفرعي إلى الوحدة الأصلية - ويمدوا سواعدهم لمحالفة إخوانهم - ويجعلوا تلك «الوحدة» سياجًا لأوطانهم، وعدة لمكافحة أعدائهم، ومنبعًا فياضًا لخير بلادهم، وملاذًا لجيرانهم، ومثالاً تنسج على منواله عموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها - فينالوا شرفًا رفيعًا، ويورثوا أَعْقَابَهم(١) مجدًا مخلدًا.

وليس ببعيد على همم الإيرانيين - وعلو أفكارهم - أن يكونوا أول القائمين بتجديد «تلك الوحدة الإسلامية» وتقوية الصلات الدينية - كما قاموا في بداية الإسلام بنشر علومه، وحفظ أحكامه، وكشف أسراره. فلقد عملوا وما قصَّروا، بل صرفوا قصارى الجهد في خدمة الشرع الشريف وتوسلوا لذلك بأجلّ الوسائل.

نعم - البخاري، ومسلم، والنيسابوري، والترمذي، وابن ماجه، وأبو داود، والبغوي، وأبو جعفر البلخي، وانكليني وغيرهم ممن أنبتتهم أراضي إيران.

أبو بكر الرازي الطبيب الشهير، والإمام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران.

(١) أَعْقَابَهم: مَن جاءوا بعدهم. (م).

أبو حامد الغزالي حجة الإسلام، وأبو إسحق الإسفرايني، والبيضاوي وخواجه نصير الدين الطوسي، والأبهري، وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس – وهم فخر المسلمين.

أبو على بن سينا الفيلسوف الشهير – وشهاب الدين المقتول ومن كان على شاكلتهم – ممن جبلوا من تراب فارس.

إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي، وضبط أصوله، وتأسيس فنونه – منهم سيبويه، وأبو علي الفارسي، والرضي، ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن، وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية.

وصاحب الصحاح الجوهري، من إحدى قراهم، ومجد الدين الفيروز آبادي من إحدى بلدانهم – الزمخشري جار الله، والسكاكي، وأبو الفرج الأصفهاني، وبديع الزمان الهمذاني، وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا الدين كلهم من أرض فارس.

الطبري أول المؤرخين، والاصطخري، والقزويني – أول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس. الشبلي كان من نهاوند – وأبو يزيد البسطامي من بسطام – والأستاذ الهروي وهو الأستاذ الحقيقي للشيخ الأكبر محي الدين بن العربي – كان من هراة – وكلها بلاد فارس.

هل ينسى صدر الشريعة وفخر الإسلام البزدوي، والآمدي، والميرغيناني، والسرخسي، والسعد التفتازاني، والسيد الشريف، والأبيوردي، وكلهم من أبناء فارس.

القطب الشيرازي، والصدر الشيرازي - ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد - أمير فندركسي وغيرهم - كانوا من بلاد فارس.

أي فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى - أي مزية مَنّ الله بها على الإسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها. نعم وفيهم جاء قول المصطفى ﷺ لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس.

فالفارسيون - إذا تذكروا أياديهم في العلم، ونظروا إلى آثارهم في الإسلام نهضوا ليكونوا للوحدة الدينية دعامة - كما كانوا للنشأة الإسلامية وقاية. فهم بما سبق لهم أحق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لهم في فتوة الإسلام - وهم أجدر المسلمين بوضع أساس «للوحدة الإسلامية» وما ذلك ببعيد على طيب عناصرهم، وقوة عزائمهم.

أظن حان وقت ندائهم بالوحدة مع الأفغانيين، والتحالف معهم على مقاومة العادين - ليكونوا بالاتحاد معهم حصنًا حصينًا، وحرزًا منيعًا تقف دونه أقدام الطامعين.

أظنهم لم ينسوا أن استيلاء الإنكليز على الممالك الهندية - إنما تم بوقوع الخلاف بينهم وبين الأفغانيين - هل يخفى عليهم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب - ينظر قدومهم إذا اتحدوا مع إخوانهم الأفغانيين.

حصلت لهم تجارب كثيرة وشهدوا من مظاهر الحوادث ما فيه أكبر عبرة - فهل يصح بعد هذا أن يستمروا على التجافي والتباعد - مع علمهم أن الوحدة منبع الشوكة. هذا آن التآخي والتوافق. هذه أوقات التحالف والتواثق، أحاط الأعداء ببلادهم شرقًا، وغربًا - وكلٌّ يشحذ سيفه، ويسدد سهمه حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادهم - فلا يضيعوا الفرص وليعلموا أن اتفاق سلطنة الشاه مع إمارة الأفغان توجد قوة إسلامية جديدة في الشرق تسرع للانضمام إليها والاتحاد معها سائر الطوائف الإسلامية مع أمرائها وحكامها، وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة، وتجدد لهم آمال جليلة، وتنعش بذلك أرواح المؤمنين. وما أجلها نعمة، وأهيبها سطوة، وأمنعها قوة - إذا توسط عقد تلك الوحدة الإسلامية - صاحب الخلافة العظمى، والإمامة الكبرى جلالة السلطان - فيستردوا المغصوب من ملكهم، ويسترجعوا المنهوب من أموالهم، ويستعيدوا مجدهم، وما بان من عزهم - ويرجعوا الملك الإسلامي كما كان - مسيطرًا ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى أحشاء الصين - في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء - وتعاد السيرة الأولى التي كانت لملوك الإسلام العظام الذين أداروا بشوكتهم أكثر المعمور

من الكرة الأرضية - أولئك الذين ما كان يُهْزَم لهم جيش، ولا يُنَكَّس لهم علم، ولا يُرَدّ قول على قائلهم - كان الخليفة العباسي إذا نطق بالكلمة - خضع لها فغفور الصين - وارتعدت منها فرائص أعظم الملوك في أوروبا - وكم نبغ في القرون الوسطى من أقيال الملوك، والسلاطين مثل محمود الغزنوي، وملكشاه السلجوقي، وصلاح الدين الأيوبي - وفي المشرق مثل تيمور الكوركان - وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح - والسلطان سليم، والسلطان سليمان.

كانت لأساطيل المسلمين سيادة لا تُبَارَي في البحار - الأبيض، والأحمر، والمحيط الهندي - ولها الكلمة العليا فيها إلى زمن غير بعيد - كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم - كما يذلون لسلطان غلبهم. والمسلمون هم هم يملئُون اليوم تلك الأقطار، والأمصار - لا يُعْوِزُهُم[1] للعود إلى ذلك المجد البازخ، والعز الشامخ - إلا وحدة تتم بإذن الله - وفضل يعم بحول الله - وما على الله أمر عسير وهو جل جلاله على كل شيء قدير نعم المولى ونعم النصير.

(١) يُعْوِزْهُم: يَنْقُصهم. (م).

استغرابه ميل الشرقيين في هذا العصر إلى حب التطويل في المقال، والمماطلة بالأفعال على عكس ما كان عليه السلف، وأمثلته على ذلك

قال : أرى للبلاغة في القول، والإيجاز بالبيان، والإعجاز فيه - علاقة مع عزة سلطان الأمة، وزمن فتوتها - فكم من خطوب ألمت وكادت تثير حروبًا، وتحدث شرًّا مستطيرًا، أزالته خطبة، وحسن بيان بإيجاز وكم من جيش سمع من أميره كلمات فَاسْتَمَات[1] وذلت عنده الحياة - وكم من أمر خطير، ووعظ، وتحذير تضمنه كتيب صغير. دونك وخطبة الصِّديق بعد بيعته حيث قال :

أيها الناس وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم - فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني - الصدق أمانة، والكذب خيانة.

لأغمدن سيفي حتى يستلَّه الحق - ولأعملنّ بالحلم حتى لا تنفع إلا الشدة - الضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له - والقوي ضعيف حتى آخذ الحق منه - لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله

---

(١) اسْتَمَات: طَابَ نَفْسًا بالموت وثبت غير مبال. (م).

بالذل - أطيعوني ما أطعت الله ورسوله - فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. إلخ.

ومن مواعظ الصديق لأسامة بن زيد وهو أمير الجيش: لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيرًا - وسوف تمرون برهبان قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له...

ومن بليغ وصاياه، وموجز حكمه «رضي الله عنه» مما لا يستغني عنه أمير، ولا قائد جيش، ولا عامل، ولا ولي أمر - مدى الدهر - قوله ليزيد بن أبي سفيان:

«إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه، وأصلح نفسك يصلح لك الناس - وصلّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشع فيها.

وإذا قدم عليك رُسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به - ولا ترينهم - فيروا خَلَلَك - ويعلموا علمك وأنزلهم في ثروة عسكرك - وامنع من قبلك من محادثتهم - وكن أنت المتولي لكلامهم - ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك. وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتُؤتَى من قبل نفسك - وأسمر بالليل في

أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار - وأَكْثِر حرسك، وبَدِّدهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم في الليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرهما، ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تلجنّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تخذلها مدفعًا - ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العبَّاثين - وجالس أهل الصدق، والوفاء وأصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس - واجتنب الغلول «البخل والشح» فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر - وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له: انتهى».

أي خير لم تدل عليه هذه الوصايا؟ وأي شر لم تحذر منه؟ وهل باستطاعة المجلدات أن تقوم بما قامت به هذه الأسطر القليلة والعبارة الوجيزة!

من؟ من فحول الفصاحة، وأقطاب البلاغة، وفَطَاحَل[1] فقهاء الأمة، وأعلام المجتهدين، كان يطمع أن يجمع أصول القضاء، وأهم فروعه كما جمعه الفاروق في كتابه الصغير المشهور لأبي موسى الأشعري حيث قال له:

---

(١) فَطَاحَل: غزيري العلم، جمع فِطْحَل. (م).

«أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة مُتَّبَعَة – فافهم إذا أدى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له – وآسِ[١] في وجهك، ومجلسك، وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادَّعى واليمين على من أنكر – والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً – ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك – أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم، الفهم. فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة – ثم اعرف الأمثال والأشباه، وقِسْ الأمور بنَظَائِرِها[٢] – واجعل لمن ادعى حقًّا غائبًا، أو بينة أمدًا ينتهي إليه – فإن أحضر بيِّنته أخذت له بحقه – وإلا استحللت القضية عليه، فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعماء – وإياك والقلق، والضجر، والتأفف بالخصوم – فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذكر.. انتهى».

ومن موجز، ومُعْجَز وصايا الفاروق لأمراء الجيوش – ما قاله لسعد بن مالك بن وهب حينما أمَّره على حرب العراق.

«لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله – فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن – وليس بين الله وبين

(١) آسِ: سَوِّ بين الناس في المعاملة. (م).
(٢) بِنَظَائِرِها: أَمْثَالِها. (م).

أحد نسب إلا طاعة – الله ربهم وهم عباده – يتفاضلون بالعافية، ويذكرون عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه – فالزمه، وعليك بالصبر».

وقد أوصى عتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة بقوله:

«يا عتبة إني قد استعملتك على أرض الهند وهي حَوْمَة[١] من حُوَم العدو أرجو الله أن يكفيك ما حولها ويعينك عليها... واتق الله فيما وُلِّيت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كِبْرٍ مما يفسد عليك أخوتك – وقد صحبت رسول الله ﷺ – فعززت به بعد الذلة، وقويت به بعد الضعف – حتى صرت أميرًا مسلطًا، وملكًا مطاعًا – تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك – فيا لها من نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك، وتبطرك[٢] على من دونك – واحتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية – ولهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك، وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم – أعيذك بالله ونفسي من ذلك – إن الناس أسرعوا إلى الله حتى إذا رفعت لهم الدنيا فأرادوها – فأرد الله ولا ترد الدنيا، واتق مصارع الظالمين».

نعم تَسَنَّى للفاروق أن يأتي على خير نتائج الأحكام، وما ينتظره الناس على اختلاف طبقاتهم من عدل الحكام «بأربعة كلمات» حيث قال للمغيرة بن شعبة حينما ولاّه: يا مغيرة «ليأمنَّك الأبرار، وليخفك الأشرار».

---

(١) حَوْمَة: مَوْضِع. (م).
(٢) تبطرك: تكبرك. (م).

ومن معجز الإيجاز ذلك الكتاب الذي حوى عزل أمير، وتولية أمير، وعظم الذنب الذي أسند للمعزول، ولزوم تسليم العمل للخلف والسرعة بالمجيء – وفي كل ذلك لم يتجاوز السطر – وإليك نص الكتاب الذي بعثه المغيرة:

«أما بعد فإنه بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميرًا فسلم إليه ما في يدك – والعجل».

وهكذا فإنك ترى في طيَّات تلك الكلمات الموجزة قد انطوى العدل المطلق، ومنها بدأ علم الأخلاق وإليها انتهى مع حفظ وصون الشعور – وإليك ما قاله لعمرو بن العاص: إن الله خلق الناس أحرارًا فلم تستعبدوهم؟

ومن خطبة له «أيها الناس، إني ما أرسل لكم عمالاً ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم، ويرشدوكم، فمن فُعِل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليَّ فوالذي نفس عمر بيده لأُقُصّنه منه... ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تحمدوهم فتفتنونهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغِيَاض[(١)] فتضيعوهم».

---

(١) الغيَاض: هي الشجر المُلْتَف إذا نزل فيها المسلمون تفرقوا وتمكن العدو منهم، فنهوا عن نزولهم فيها، جمع غَيْضة. (م).

«لأنه حسب نزول العرب في الغياض يستحلون فيه برد الماء وطيب الهواء وظل الأشجار، فيسترخون ما وجدوا في العيش رخاء وتذهب منهم النجدة، ويضعف منهم البأس - هذا ما خشي عليهم منه وحسبه رضي الله عنه مضيعة».

وكان من الأصحاب رضي الله عنه يرمي في نصحه، ووصاياه، وبسيط أقواله - إلى غرض بعيد من الحزم والتيقظ. من ذلك أنهم ذكروا رجلاً عنده فقالوا يا أمير المؤمنين فاضل لا يعرف من الشر شيئًا - قال ذاك أوقع له فيه!

وما زال معين الحكمة، وحسن البيان مع الإعجاز في الإيجاز يجريان مع الدولة صعودًا، وارتقاء، وانبساطًا - حتى إذا أتى دور التقهقر، والانحطاط - أخذ اللسان وحسن البيان، وتلك البلاغة، والفصاحة في السقوط، والسخافة، وفساد التركيب وسقم المعاني، وسوء اختيار الألفاظ - لدرجة يتعذر على الغالب معها فهم المراد - ولا أرى حاجة للإتيان بأمثلة - لأننا من المعاصرين لابتلاء اللسان بهذا الداء - قال: خرجت من صلاة الجمعة في المسجد الجامع في البصرة - وفي نفسي حسرة أن أسمع الخطيب أعرب ولو كلمة واحدة في خطبة مكتوبة في يده - فترحَّمت على سيبويه - وعلمت أن كتابه «البحر» هو الذي أغرق البصريين، والكوفيين فغاص الأعراب معهم إلى القعر - هذا من حيث الإعراب - وأما من حيث المعنى - فإلى الله المشتكى.

منبر الخطبة في المساجد الجامعة شيده المصطفى ﷺ ليرتفع منه صوت التعليم للمسلمين، والإيقاظ وتحريك الهمة، والحث على جمع الكلمة، وما فيه سعادة الدارين. يصير إلى ما صار إليه اليوم. وعلى منابر البصرة، والكوفة – ارتقى مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره من أكابر الصحابة، والتابعين – بحور البلاغة، وفحول الفصاحة، وحسن البيان – يرتقي ذلك المنبر اليوم أجهل الأعراب والعجم ويخطب الناس وقد ركبوا بعضهم احتشادًا، وغَصَّ بهم فناء الجامع على رحبه – ولا تكون الخطبة إلا «أن الورد اللطيف فتح من عرقه الشريف». وهكذا أكثر خطباء المنابر في الأمصار فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن العبث القيام لعمل قياس مع السلف الصالح – ولو كان القياس مع الفارق فقط لهان الأمر، وخف الشر – ولكنه العكس التام.

فإذا قلنا – إن السلف كان لا ينقض عهدًا، ولا يخلف وعدًا. وأردنا أن نعلم ما نحن عليه من هذا القبيل – فما علينا إلا أن نعكس الأمر – فيكون نحن الخلف «لا نحفظ عهدًا، ولا نفي وعدًا» – وهكذا مضاءهم في العمل، وتسويفنا – إيجازهم وتطويلنا – صبرهم – وجزعنا. شجاعتهم، وإقدامهم – وجبننا، وإحجامنا. عزة نفسهم، وإباءهم – ذلنا، واستكانتنا – وإلى ما هنالك من المحزنات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد/ ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ الآية [الأنفال/٥٣].

تلك آيات الكتاب الحكيم تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون. هل يخلف الله وعده، ووعيده - وهو أصدق مَن وعد، وأقدر مَن أوعد - هل كذَّب الله رُسُلَه، هل ودع أنبياءه، وقَلاَهُم[1] - هل غشَّ خلقه، وسلك بهم طريق الضلال؟ «نعوذ بالله» هل أنزل الآيات البينات لغوًا وعبثًا؟ هل افترت عليه رسله كذبًا؟ هل اختلقوا عليه إفْكًا[2]؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يعلمونها، وإشارات لا يدركونها؟ هل دعاهم إليه بما لا يعقلون؟ «نستغفر الله».

أليس قد أنزل قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج، وفصَّل فيه كل أمر، وأودعه تبيانًا لكل شيء «تقدست صفاته وتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا».

هو الصادق في وعده، ووعيده - ما اتخذ رسولاً كذبًا، ولا أتى شيئًا عبثًا، وما هدانا إلا سبيل الرشاد - ولا تبديل لآياته تزول السماوات والأرض، ولا يزول حكم من أحكام كتابه - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول الله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء/١٠٥] ويقول ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون/٨] وقال ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم/ ٤٧] وقال- ﴿وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح/ ٢٨].

(١) قَلاَهُم: أَبْغَضَهُم. (م).
(٢) إِفْكًا: كَذِبًا. (م).

هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً - ولا ينال هذه الآيات بالتأويل إلا من ضل عن السبيل، ورَامَ[١] تحريف الكلم عن مواضعه.

هذا عهده إلى هذه الأمة المرحومة ولن يخلف الله عهده وعدها بالنصر والعزة، وعلو الكلمة، ومهَّد لها سبيل ما وعدها إلى يوم القيامة - وما جعل لمجدها أمدًا، ولا لعزتها حَدًّا.

هذه أمة أنشأها الله من قلة، ورفع شأنها إلى ذروة العلا - حتى ثبتت أقدامها على قُنن[٢] الشامخات، ودكَّت بعظمتها عوالي الرَّاسِيَات[٣]، وانشقت لهَيْبَتها مرائر الضَّارِيَات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب.

هال ظهورها الهائل كل نفس، وتحيَّر في سببه كل عقل - واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا - قوم كانوا مع الله فكان الله معهم - جماعة قاموا بنصر الله - واسترشدوا بكتابه فأمدهم بنصر من عنده.

هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الأسلحة، وعُدَد القتال - فاخترقت صفوف الأمم، واختطَّت ديارها - فلا أبراج المجوس وخنادقهم دفعتها، ولا قلاع الرومان، ومَعَاقِلَهم[٤] صدَّتها، ولا صعوبة المسالك عاقها - ولا أثَّر في

(١) رَامَ: طَلَب. (م).
(٢) قُنَن: أَعَالي. (م).
(٣) الرَّاسِيَات: الجبال الثوابت. (م).
(٤) مَعَاقِل: حصون. (م).

همتها اختلاف الأهوية – ولا تهيبت نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا رَاعَها[١] جلالة ملوكهم وقِدم بيوتهم، ولا تَنُوعُها[٢] صنائعهم ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها أحكام القوانين، ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلُّب غيرها من الأمم في فنون السياسة.

كانت تطرق ديار القوم فيحقرون أمرها ويستهينون بهم، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة «العرب بعد الإسلام» تزعزع أركان تلك الدول العظيمة، وتمحو أسماءهم من لوح المجد، وما كان يَخْتَلج[٣] بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة، وتمكن في نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها، وعاداتها وشرائعها.

لكن كان كل ذلك – ونالت الأمة المرحومة على ضعفها – ما لم تنله أمة سواها.

نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه – فوفَّاهم أجورهم مجدًا في الدنيا وسعادة في الآخرة.

هذه الأمة اليوم يبلغ عددها مايتين وثمانين مليونًا على وجه التقريب – وأراضيها كما سبق بيانه آخذة من المحيط الأطلانتيكي إلى أحشاء بلاد الصين – تربة طيبة –

---

(١) رَاعَها: فَزَعها. (م).
(٢) تَنُوعُها: تُحَرِّكُهَا. (م).
(٣) يَخْتَلِج: يتنازع. (م).

ومنابت خصيبة، وديار رحبة - ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلوبة، تتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعبًا شعبًا، ويتقاسمون أراضيها.

قطعة بعد قطعة، وممالكها مملكة بعد مملكة، وولاية بعد أخرى - ولم يبق لها كلمة تُسْمَع، ولا أَمْرًا يُطَاع - حتى أن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في ملمَّة، ويمسون في كربة مُدْلَهِمَّة[١] - ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم - وصار الخوف عليهم أعظم من الرجاء لهم.

هذه هي الأمة التي كانت الدول العظام يؤدون لها الجزية استبقاء لحياتهن - وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية - يا للمصيبة! ويا للرزيئة! أليس هذا بخطب جَلَل؟ أليس هذا ببلاء نزل؟ ما سبب هذا الهبوط، وما علة هذا الانحطاط، والسقوط؟ هل نسيء الظن بالوعود الإلهية؟ «معاذ الله» هل نستيئس من رحمة الله، ونظن أن قد كذب علينا - «نعوذ بالله» - هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد أن أكده لنا؟ «حاشاه سبحانه» لا كان شيء من ذلك، ولن يكون. فعلينا إذن أن ننظر إلى أنفسنا ولا لومنا إلا عليها. أن الله سبحانه وتعالى بحكمته قد وضع لسير الأمم سُنَنًا متبعة ثم قال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب/ ٦٢].

(١) مُدْلَهِمَّة: مُظْلِمَة. (م).

أرشدنا تعالى في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود - إلا بعد نُكُوبِهَا[١] عن تلك السنن التي سَنَّها الله على أساس الحكمة البالغة.

إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان، ورفاهة، وخفض عيش، وأمن، وراحة - حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم - من نور العقل - وصحة الفكر، وإشراف البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين حَادُوا[٢] عن صراط الله فهلكوا، وحلّ بهم الدمار، ثم الفناء لعدولهم عن سُنَّة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحزم، والحكمة.

وحادوا عن الاستقامة في العمل، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته.

تركوا الحق ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته، واتَّبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية، وأتوا عظائم المنكرات.

(١) نُكُوبِها: عُدُولها. (م).
(٢) حَادُوا: مَالُوا. (م).

خَارَت[١] عزائمهم – فشحُّوا ببذل مُهَجِهِم[٢] في حفظ السُّنَن العادلة – واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق – فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين!

هكذا جعل الله بقاء الأمم، ونمائها في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها – وجعل هلاكها، ودمارها في التخلي عنها. سُنَّة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال – كسُنَّته تعالى في الخلق، والإيجاد، وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال – علينا أن نرجع إلى قلوبنا ونمتحن مداركنا، ونَسْبر[٣] أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا – لنعلم هل نحن على سير الذين سبقونا بالإيمان؟ هل نحن نَقْتَفِي[٤] أثر السلف الصالح؟ هل غيَّر الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا، وخالف فينا حكمه، وبدَّل في أمرنا سُنَنَه – «حاشاه وتعالى عما يصفون». بل صدقنا الله وعده حتى إذا فشلنا، وتنازعنا في الأمر، وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون – وأعجبتنا كثرتنا فلم تُغْنِ عنَّا شيئًا – فبدَّل عِزّنا بالذل، وسمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية.

نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا، ويستنزلون أهلنا، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا – ولا نرى في أحد منَّا حراكًا.

---

(١) خَارَت: ضَعُفَت. (م).
(٢) مُهَجِهِم: أَرْوَاحِهِم. (م).
(٣) نَسْبر: نَخْتَبِر. (م).
(٤) نَقْتَفِي: نَتَّبِع. (م).

هذا العدد الوافر، والسواد الأعظم من هذه الملة وغيرهم من الشرقيين لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم، وأنفسهم شيئًا من فُضُول[1] أموالهم - يستحبون الحياة الدنيا، ويود كل واحد منهم لو يعيش ألف سنة وإن كان غذاؤه الذلة، وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان.

تفرقت كلمة الشرقيين عمومًا، والمسلمين خصوصًا «وهم أصحاب الملك المسلوب، والمال المنهوب» شرقًا وغربًا - وكاد ينقطع ما بينهم - لا يَحِنّ أخ لأخيه، ولا يهتم جار بشأن جاره، ولا يرقب أحدنا في الآخر إِلاًّ[2] ولا ذمة. ولا نحترم شعائر ديننا، ولا ندافع عن حوزته، ولا نعززه بما نبذل من أرواحنا وأموالنا حسبما أمرنا. أيحسب اللاَّبسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة - ولا يمس سواد القلوب - هل يرضى الله عنهم بأن يعبدوه على حرف فإن أصابهم خير اطمأنوا به وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟ نسأل الله الحماية والهداية إلى سواء السبيل فهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) فُضُول: زيَادة. (م).

(٢) إلاًّ: عَهْدًا أو قرابة. (م).

رأيه في المستعمرات والمستعمرين وأن الاستعمار لأي دولة مهما تعاظمت قوة واقتدارًا فمستعمراتها إن هي إلا ثوب عارية قابل للاسترداد

قال : لقد برزّ الأوروبيون بضروب السياسة لتوسيع ممالكهم، وتفننوا بإيجاد الوسائل المؤدية لذلك. وكان أسبقهم في الدهاء وأكثرهم في الاستيلاء (الإنكليز). وهم في مقدمة من رأى من دول الغرب أن فتح البلاد وتملكها بالجيوش، والكفاح، والقتال من مزعجات الأمور – وأن الدخول من باب المكر، واللين، والخديعة، والختل – أوفر، وأسهل، وأقرب وأفعل فاعتمدت هذا الأخير سلاحًا، ونالت به نجاحًا، وفلاحًا، وتركت الأول وهو (الحرب والقتال) وفتح البلاد غلبًا وقهرًا ، ورجعت للثاني وألبسته من الأسماء طيلسانًا لين الملمس، هين الملبس – ودعته (بالاستعمار) وما يؤخذ من الممالك (مستعمرات) ومن يحكم من الناس فيها (بمستعمرين) – وجرت في هذا المضمار فكانت (المجلّى) وحازت قَصَب السَّبق، وتبعها غيرها من الدول فكانوا (السكيت).

إن هذا «الاستعمار» لغة، واصطلاحًا، مصدرًا، واشتقاقًا – لا أراه إلا من قبيل أسماء الأضداد – وهو أقرب إلى «الخراب» و«التخريب» وإلى «الاسترقاق، والاستعباد» منه إلى «العمار، والعمران، والاستعمار». لا تسير دول الاستعمار إلا

إلى البلاد الغنية في ثروتها، ومعادنها، وخِصْب تربتها، ومن كان أهلها في الدرك الأسفل من الجهل، قد خَيَّم[١] عليهم الخمول، لا يبدون حراكًا، ولا يقربون عراكًا.

وإذا صادفت دول الاستعمار «على طريق الشذوذ» في بعض الممالك، أو المقاطعات مقاومة من سلطان أو أمير - فما هي إلا مناوشة صغيرة حربية - مع تلك المعدات الحديثة - وقد سقط الملك، أو الأمير أسيرًا، فسِيق مع أهل بيته ذليلاً حقيرًا، وحجر عليه في أضيق البلدان، وأبعدها عن العمران - وتدخل المملكة، أو الجزيرة أو المقاطعة - وتنتظم في سلك المستعمرات - فتصبح أعزة البلاد أذلاء، ويحل محل الحرية الشخصية الاستعباد، وكَمّ الأفواه - وينتصب الميزان ليحاسب من تطرف عينه من الأهلين، أو يشخص ببصره، أو يلتفت إلى ورائه - ليس لأحد من خيرات بلاده شيء وكل الضرائب، والضربات، والشر والويلات لأهل البلاد، وعليهم لا يشاركهم بذلك أحد.

هذا إذا كان الدخول للبلاد «بلعبة حربية». وأما إذا دخلوا من باب الانتصار للأمير، أو تثبيت الملك، أو قمع الثورة - وكانوا في ذلك اللباس لُبَاس الأصدقاء، الأمناء، المخلصين - أو محبين للشعب، ورقيه، وتعليمه دروس الحكم الذاتي ليستغني عنهم ويحكم بلاده بذاته! فهناك تبقى مظاهر الأمور محفوظة، وبعض التقاليد التافهة مأمونة - يشكلون للأحكام، وإدارة مهام البلاد - هياكلاً من الناس -

---

(١) خَيَّم: عَمَّ. (م).

ويتركون معهم أمير البلاد قبة جَوْفَاء يرجع منها صدى الصوت فقط - وليس لهم من الأمر إلا اتباع الأمر لا غير - ومختصر القول - إن الاستعمار بمعناه الصحيح، ومبناه الصريح هو تسلط دول، وشعوب أقوياء علماء على شعوب ضعيفة جهلاء، ولا يخرج عامل الغلب والقهر عما ذكرناه فيما سبق، وهو «القوة والعلم يحكمان، ويتحكمان بالضعف والجهل». سُنَّة ثابتة، وقانون متبع في الكون.

ولما كان لحياة الأمم والدول - أدوارًا وآجالاً - ولحدوثها وتكونها، وتعاليها ثم توقفها، وانحطاطها - أسبابًا وعوامل - هكذا وجب أن يكون الاستعمار خاضعًا لتلك النواميس الكونية - بمعنى أنه يصل إلى حد محدود وأجل معلوم - وانقضاء أجل الاستعمار إنما يتم بزوال الأسباب التي مكنت أهله من التسلط، وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم.

نعم متى ضعف ما كان سببًا في الصعود - يحصل الهبوط، والانحطاط - ومتى زال ما كان سببًا في السقوط - يحصل الصعود - دور للحاكم والمحكوم، وقاعدة هي بحكم اللازم، والملزوم.

يحصل للضعيف من صدمة القوي - «دهشة ورجفة» - ويحدث من آثار العلم على الجاهل «خشية» فيقف بين هاتين القوتين منذهلاً، حائرًا، ذليلاً، صاغرًا - كما هو الحال مع أهل الاستعمار، والمستعمرين؛ إذ يمر الدور الأول بين تجبر، وتكبر، وعسف، وجور، وأهل المستعمرات قد أدهشتهم المفاجأة، وأذهلتهم

الصدمة، فيقابلون كل قول بالسمع والطاعة ويفعلون ما يؤمرون بكمال الخضوع، فيصادرون بمعنوياتهم – من حرية شخصية، وعزة نفسية، وحرمة ملية، أو جامعة قومية – ثم يأتي دور القضاء على مادياتهم – فيحرمون من خيرات بلادهم، ومن كسب تجارتهم، واستثمار مناجمهم. وبالإجمال الحرمان المطلق من كل خير، وإنزال كل شر وضير – فيَرْزَحُون[١] آخر الأمر تحت أثقال الضرائب وتتحمل أجسامهم ما لا تطيق – فعند الوصول إلى هذا الحد – من إِرْهَاف الحَدّ[٢] – تظهر على الأمة عندئذ بعض آثار الحياة وهو ما يشبه «الاخْتِلاَج»[٣] فإذا التقوا أفرادًا أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر – فيهزون رؤوسهم هزًّا خفيفًا، ويفركون أيديهم فركًا غير منتظم، ويحكون رقابهم، وأرباب اللحى منهم يَسْبِلُون[٤] لحاهم، وينتفون عُثْنُونَهم[٥] – هذه هي أول مظاهر الشعور – ثم تجول الأفكار، وبعده يبدأ الهمس، ثم الهدرمة ثم، وثم إلى أن يعلو الصوت، ويرتفع السوط ويحكم السيف ويأتي من بعده حكم العادل وهو سبحانه وليّ المظلومين.

ولو جاز لدولة أن تشذ فتعامل المستعمرات بشيء من العدل، ولم ترهقهم ظلمًا، وتسومهم جورًا، وعسفًا – للزم أن يكون ذلك الشذوذ بمعاملة

(١) يَرْزَحُون: يَسْقُطُون من الضعف والذلّ. (م).
(٢) إِرْهَاف الحَدّ: دقة الجسم ولطفه من شدة هُزَاله. (م).
(٣) الاخْتِلاَج: الاضطراب والحركة. (م).
(٤) يَسْبِلُون: يُطِيلُون. (م).
(٥) عُثْنُونهم: مازاد من لحاهم. (م).

الإنكليز لمستعمرة «أميركا» وبينها وبينهم من جامعات اللسان، والدين، والمذهب والأخلاق ما يدعو للعطف، ويحمل على الإقلال من العنف.

ولكن هيهات! فليس لقاعدة الاستعمار من شاذ - وكلنا يعلم ما عاناه الأميركانيون من جور الحكومة الإنكليزية، وتفننها بأنواع المظالم، وسلب أموالهم بأشكال الضرائب - وآخر ضريبة، أو ضربة نبهت الأميركانيين ودفعتهم لطرح نير إنكلترا بقوة السلاح، ونهوض الأمة - ضريبة «ورقة التمغة» وأن صكوك البيع، وكافة العقود، والعهود إذا لم تكن محررة على تلك الورقة لا يعمل بها. وناهيك ما في هذا الحكم من الجور ومن ضياع أملاك وحقوق - نعم لجأ الأميريكانيون في بدء أمرهم إلى ما يلجأ إليه الضعيف - إذ بعثوا بالشكوى إلى عاصمة الإنكليز ومجلس أشرافهم - عقب أن عقدوا جمعية عمومية في مدينة نيويورك، وعقب أن أوسعوا «مأمور بيع ورقة التمغة ضربًا» واتفقت كلمة الجميع على الرفض - وهذا أول طلائع القوة - التي لا ترضخ الإنكليز لقوة سواها - وهو اجتماع كلمة «الأمة» خدَّرت أعصاب الأميركانيين بإبطالها ورقة التمغة - وبالوقت ذاته أحدثت ما يمكنها من سلب مال الولايات المتحدة، فوضعت رسم الكمرك على ما يدخل إليها من الشاي - وهذا الرسم أكثر سلبًا للمال من التمغة - وعمدت للتنفيذ على استعمال القهر والقوة، ولما كانت روح الحياة في الأميركانيين قد دبَّت - وجازت، وتخطت دورة «الاختلاج» و«الهمس» ووصلت إلى دور ارتفاع الصوت، وسلّ السيف - فرمت بالشاي الوارد إلى البحر ووقفت للقوة الإنكليزية

بقوة الأمة الأميركانية - وألقت مقاليد أمورها، وإدارة حروبها الوطنية إلى بطل حريتهم، واستقلالهم «الجنرال واشنطون» العظيم.

السَّيــفُ أَصْــدَقُ أَنْبَــاءَ مِن الكُتُبِ في حَـدِّه الحَـدّ بين الجِـدِّ واللَّعِب

قل لي لو ثابر الأميركانيون دهرًا على بث الشكوى من ولاة الإنكليز إلى مجلس وزراء الإنكليز، واستنفدوا المداد، وسوَّدوا ما في الأرض من قرطاس تظلمًا، واستغاثة - هل كان يفيدهم في استقلالهم شيئًا، أو يكشف عنهم بلاء استعمار البريتانيين - لا والذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف.

فقوة كل أمة كامنة في أفرادها - لا يظهرها إلا الاتحاد - ولا يخفيها إلا التفرق فمن رام من الأمم استعادة مجدها، والتخلص ممن أذلها فليس غير طريق «الاتحاد» ما يوصل إلى الغاية، وينقذ من البلاء - ولا غير حب الموت ما ينجي من الموت - وينيل المرء إحدى الراحتين - فإما أن يعيش بحريته، واستقلاله «سعيدًا» وإما أن يموت دونهما (بطلاً شهيدًا).

أروني مملكة أو أمة انغمس ملوكها وأمراؤها بالسفه والسرف، وعمَّ الجهل طبقات الشعب، وتفرقت كلمتهم فاستكانوا الذل والهوان - لم تسقط تلك الملوك والأمراء عن عروشها، ولم يستعبدها الاستعمار، ويحل فيها الدمار!

وهاتوا، مملكة أو قارة اتفقت كلمة أهلها، وأنفت من الذل، ورفضت الاستعباد واستلّت السيف، وطاب لها الحتف، ولم تنل استقلالها والتمتع بحريتها، ولو كان المستعمر أعظم الدول قوة واقتدارًا.

هل من حاجة للإتيان بالأدلة، وضرب الأمثلة على أن أصغر الأمم ناهضت أعظم الدول وظفرت بحاجتها، ونالت حريتها واستقلالها.

من هم اليونان «سَكَنَة ولاية الموره» قبل أقل من عصر عندما ناهضت الدولة العثمانية – تلك الدولة التي كانت تحكم ستين مليونًا من النفوس إذ ذاك – واليونان إلى اليوم لم يتجاوزوا في متفرق المعمور مليونان.

كم هو عدد الصربيين؟ وهل تجاوزوا بعد استقلالهم مليونين ونصف مليون نسمة تقريبا؟

ما هو جبل الأسود؟ ومجموع سكانه لم يبلغوا عدد سكان محلة «بك أوغلو» في الأستانة – وما هي قوته، وجيشه – بالنسبة لقوة، وجيش الدولة العثمانية!

وهكذا القول في بلغاريا، ورومانيا.

فبعد هذه الأدلة المحسوسة، والأمثلة الملموسة – يصح أن يبقى أدنى ريب – أن المستعمرات لأي دولة مهما تعاظمت قوة، واقتدارًا كالثوب العارية لا يلبث حتى يسترد عند طلب صاحبه بالسنن المعروفة، والطرق الموصوفة.

وهل يشك المصريون – وهم يزيدون عن العشرة ملايين[١] وكلهم أحفاد الغزاة الفاتحين من أعز قبائل العرب – وإخوانهم الأقباط – أحفاد أولئك الأشداء الذين آثارهم تدل على عظم هممهم – أنهم إذا نهضوا لم يظفروا بالاستقلال، والحرية – وإعادة المجد القديم لذلك القطر السعيد. بلى، وإنهم سينهضون إن شاء الله، ويعملون متحدين، معتصمين بحبل الله، وينالون ما يتمنون بحول الله – والله على كل شيء قدير.

(١) هذا كان عدد سكان القطر يوم كتبت هذه المقالة سنة ١٣١٠هـ، ١٨٩٣م.

قوله: إن المسلم سواء فيه العربي، والأعجمي، إنما يعجب بماضيه وأسلافه، وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف يجب أن يكون

قال: الكون يشهد، والآثار تدل، ولا من ينكر على أن للعرب، وغيرهم من العجم - آثارًا، ومفاخر أتت من وراء الهمم، وصدق العزائم، ولكنها يا للأسف دفنت في أَجْدَاث[1] الأجداد، وجاورت عظام أولئك العظام - أعلام المروءة، عصبة الرحمة، أولياء الشفقة - أهل النجدة، أسود الحمية، وغَوْث المَضِيم[2] - يوم الشدة، شوامخ القوة، رواسي العدل - تلك بعض صفات السلف - عثر عليها الخلف بالنبش وهو في جبانة «الجبن» و«الخمول» - وقرأها في سطور كتاب حادثات الدهر، وأوراق سجل رجال العالم - فطفق يفخر، ويعدد، ويصول، ويطول، ويقول: نحن من لمعت سيوف أجدادهم بالمشرق، وانقضَّت شهبها على المغرب، فذلَّت لهم رقاب القياصرة، والأكاسرة، وخضعت لأمرهم الأمم - خفقت أعلام فتوحاتهم فوق ممالك الأرض - فطهروها من جراثيم الظلم والجور - وملئوها بالرحمة والعدل - وهكذا لا تزال تسمع كلاًّ من العربي، والفارسي وغيرهما

---

(١) أَجْدَاث: قُبُور. (م).

(٢) غَوْث المَضِيم: نجدة المظلوم. (م).

من الشرقيين - يقول نحن أحفاد أولئك الأجداد، ونحن سلالة، وذرية أولئك الأقيال الأمجاد، ونحن مما يثير الأشجان، ويزيد الأحزان.

نعم أولئك آباؤنا، وأجدادنا قد جاد الزمان بهم فجاؤوا - ولكن واسوأتاه، وامعرتاه! واخجلتاه! إذا هم سألونا عما فعلنا بمخلفاتهم، وما أورثوه لنا، واستخلفونا عليه من الممالك، والأقطار - وعظيم المدن، والأمصار.

نعم أين أنتم أيها الأجداد، الأمجاد، الأنجاد، القوامون بالقسط، الآخذون بالعدل، الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة - ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نِحْلَتَكُم[1] - انحرفوا عن سنتكم - وحادوا عن طريقكم - فضلوا عن سبيلكم - استبدلوا كل فضيلة برذيلة، وأتوا على كل أمر الله بعكسه، نبذوا حكمة الدين واتباع شرع سيد المرسلين، وتفرقوًا فرقًا، وأشياعًا - الملوك منهم أنزلوا عن عروشهم جورًا، وذوو حقوق حُرِموا حقوقهم ظلمًا، وأعزة باتوا أذلة، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وأصحاء أصبحوا سقامًا، وأسود تحولت نعامًا - فأصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفًا، وتحترق الأكباد حزنًا - أصبحوا فريسة للأمم الغريبة لا يستطيعون ذودًا عن حوضهم، ولا دفاعًا عن حوذتهم - ألا

(١) نِحْلَتَكُم: دِينَكُم. (م).

يصيح من بَرَازِخكُم[1] صائح منكم ينبه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدي الضال إلى سواء السبيل - «إنا لله وإنا إليه راجعون».

نعم، أن للأرواح أشرافًا بهياكلها الروحانية - على ما تلبس من الأجسام الترابية في هذه الدار الفانية - ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد «إذ الإمداد لا يكون إلا على قدر الاستعداد - فإذا أصغينا بالحس الروحي إلى ما تريد أن تناجينا به أرواح أجدادنا - لو جدناهم يحرّقون علينا الأُرَّم[2] ويزعجهم الألم وينادوننا: أيها الأحفاد؟ تفتخرون بسيوف لمعت بالمشرق - نعم - وقد تركنا لكم تلك السيوف مشحوذة في أغمادها - فهل تقلدتموها؟ وهل سللتموها بوجه من اكتسح بلادكم، وضرب عليكم الذلة والمسكنة - تفتخرون بما فتحنا وتركناه لكم من الممالك، وما تحملناه في سبيل ذلك من المخاطر والمهالك - ولا تخجلون، ولا تحزنون وقد سلبتها منكم الأعداء وأنتم من مقاعد جبنكم، وذلكم تنظرون - ولا تتحركون ولا تنهضون وحتى ولا تنطقون.

تفتخرون بصبرنا، وثباتنا، وإقدامنا، وبسالتنا، واعتصامنا بحبل الله واتباع سُنَن نبيه الكريم ﷺ وأنتم على عكس الأمر - من أخلاق، وصفات - وما أبعدكم بهذا عن الفخر - وأبعد الفخر عنكم - ولأنتم أَوْلَى بإطراق الرأس، وغض الطرف

---

(١) بَرَازِخُكُم: حواجزكم وموانعكم. (م).
(٢) يحرقون علينا الأُرَّم: يَحُكُّون أضراسهم بعضها ببعض من شدة الغضب. (م).

خجلاً، وحياء من الله، ومن أرواحنا في الملأ الأعلى - التي تبرأ إلى الله من صنعكم وقلة إيمانكم بالله، والعمل بما جاء به رسول الله.

تفتخرون بتمسكنا بأصول الدين، وحسن اليقين - والتزام الكتاب والسنة والعمل بأحكامهما - وأنه قد استحكمت بيننا رابطة الأخوة - فكنا كالبنيان المرصوص - نعم هكذا كنا - أما أنتم فلم يبق من جامعة بينكم إلا العقيدة الدينية «وليس في الجميع» مجردة عما يتبعها من الأعمال - انقطع التعارف بينكم، وهجر بعضكم بعضًا هجرًا غير جميل - علماؤكم وهم القائمون على حفظ العقائد، وهداية الناس إليها - لا تواصل بينهم ولا تراسل مع جمودهم - فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الأفغاني - وهكذا - بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا جامعة تجمعهم، ولا صلة إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة، أو قرابة بين أحدهم والآخر - أما في هيئتكم الكلية فلا وحدة لكم - بل لا أنساب بينكم وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها - كأنه جزء منفصل، أو عضو مبتور.

تفتخرون بأنه غلب على صفاتنا «التعقل» والتروي، وانطلاق الفكر من الأوهام، والعفة، والسخاء، والقناعة، والدَّمَاثَة(١)، ولين الجانب، والوقار والتواضع، وعظم الهمة، والصبر، والحلم، والشجاعة، والإيثار، والنجدة، والسماحة، والصدق،

---

(١) الدَّمَاثَة: لِين الخُلُق. (م).

والوفاء، والأمانة، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والعفو، والمروءة والحمية، وحب العدالة، والشفقة. نعم مَنّ الله علينا وهكذا كنا. وأنتم أيها الأحفاد! ماذا غلب على أكثركم غير السفه، والقُحَّة[١]، والبِذَاء[٢]، والبَلَه[٣]، والطيش، والتهور، والجبن، والدناءة، والجزع، والحقد، والحسد، والكبرياء، والعجب، واللجاج، والسخرية، والغدر، والخيانة، والكذب، والنفاق، والشح. أفبهذه الأخلاق تحبون أن تغلبون، وتعجبون كيف تسلبون أملاككم، وتذلون - أم بهذا ترومون اللحاق بنا وقد خالفتمونا سيرة وسيرًا - شيمًا وأخلاقًا؟!

هذا بعض ما تحس به أرواحنا من مناجاة أجدادنا لنا - وما أطبق أقوالهم هذه على الحق، وما أقربها من الصواب، والواقع. أي بيِّنة لنا على أننا خلف ذلك السلف - وهل يعقل لو ورثنا أخلاقهم، وحافظنا على فضائلهم، واقتفينا أثرهم، ولم نَحُد عن سيرهم، وسيرتهم - نعم لو عملنا بعض ذلك هل كان يسهل سلب الميراث منا، وأن يستبد بملكنا غيرنا - أم بقينا نحن الوارثين؟

إن «دعوى» حق الأحفاد في ميراث الأجداد - هي في محكمة «الكون» والبيِّنة التي يصدر من بعدها الحكم - هي إثبات التحلي بفضائل السلف، والتخلق بأخلاقهم، والنسج على مِنْوَالِهم[٤]، والتزام ما لزموه من السنن، وجروا

---

(١) القُحَّة: اللؤم. (م).
(٢) البذَاء: الفُحْش في القول. (م).
(٣) البَلَه: الغَفْلَة. (م).
(٤) مِنْوَالِهم: وَجْهِهم وطَرِيقَتِهم. (م).

عليه بالقول والعمل – فعسى أن نوفق للإدلاء بتلك الحجة – فتستقيم لنا المحجة – إذ كفانا من الذل ما لا قينا، ومن البلاء ما عانينا.

وبعد أن سكت جمال الدين برهة قال: من العجيب الغريب وما يدعو إلى الحيرة ما نراه في المسلمين، فهم بحكم شريعتهم، ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ملكهم، وولايتهم من البلدان. وكلهم مأمور بذلك – لا فرق بين قريبهم وبعيدهم – ولا بين المتحدين في الجنس، ولا المختلفين فيه، وهو فرض عين على كل واحد منهم، إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام. ومن فروضهم في سبيل الحماية، وحفظ الولاية – بذل الأرواح والأموال، وركوب كل صعب، واقتحام كل خطب – ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الأحوال – حتى ينالوا الولاية خاصة لهم دون غيرهم. وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد – لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره لو جبت عليه الهجرة من دار حربه– يحس كل مسلم لهاتف يهتف من بين جنبيه – يذكِّره بما تطالبه به الشريعة وما يفرض عليه الإيمان – وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه – ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الأيام بعضهم في غفلة عما يُلِمّ بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم. فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الإنكليز، وعيثهم في أفغانستان، ينظرون إلى ذلك ولا يجيش لهم جأش، ولا تبدو لهم نعرة على إخوانهم. والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الإنكليز في بلاد

فارس ولا يضجرون، ولا يتململون. وكلاهما يعلمان ما في الهند من ظلم، وجور، وفتك، وسلب ولا يتحركون، وأن جنود الإنكليز تضرب في الأراضي المصرية ذهابًا وإيابًا تقتل وتفتك، ولا ترى نجدة في نفوس إخوانهم المشرفين على مجاري تلك الدماء والناظرين إلى تلك المصائب والبلاء.

نعم هذا ما يجري من الأمور، وساء معه المصير. وإن النفس لتتوق لمعرفة الأسباب وإن كان الإتيان على ذكرها مما يطول، فلا بأس من الإلمام بها على وجه الإجمال. قال:

لا ريب أن الأفكار العقلية، والعقائد الدينية، وسائر المعلومات والمدركات، والوجدانات النفسية - وإن كانت هي الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر - ولكن «الأعمال» هي التي تثبتها، وتقويها، وتطبعها في الأنفس، وتطبع الأنفس عليها - حتى يصير ما يعبر عنه «بالملكة» و«الخلق» - وتترتب عليه الآثار التي تلائمها.

نعم، أن الإنسان - إنسان بفكره وعقائده - إلا أن ما ينعكس من مرايا عقله - من مشاهد نظره، مدركات حواسه - يؤثر فيه أشد التأثر، فكل شهود يحدث فكرًا، وكل فكر يكون له أثر في داعية يدعو إليها، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر. دور يتسلسل ولا ينقطع الانفعال بين الأعمال، والأفكار

ما دامت الأرواح في الأجساد - وكل قبيل هو للآخر عماد - «آخر الفكر أول العمل» و «أول العمل آخر الفكر».

إن للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل، ولا أثر لها في الاعتصاب[(١)] والالتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات، وتدعو إليه الحاجات من تعاون الأَنْسِبَاء[(٢)]، وأهل العصبية على نيل المنافع، وتضافرهم على دفع المضار.

وبعد كُرُور[(٣)] الأيام على المُضَافَرة[(٤)] والمناصرة، تأخذ النسبة من القلب مأخذًا يصرفه في آثارها بقية الأجل، ويكون انبساط النفس لعون القريب، والتأثر لما يصيبه من نكبة أو ضيم جاريًا مجرى الوجدانيات الطبيعية - كالإحساس بالجوع، والعطش، والشبع وما أشبه - بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعدّه «طبيعيًا» - فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة والظروف إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها، أو وجد صاحب النسب قوة ومظاهرة في غير أهل نسبه، أو ألجأته الضرورة إلى ذلك، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ولم يبق منها إلا صورة في الذهن تجري مجرى المحفوظات من الروايات، والمنقولات.

---

(١) الاعْتصَاب: من عَصَبَ، أي رَبَط بعضه إلى بعض. (م).
(٢) الأَنْسَباء: الأقرباء أو الأصهار. (م).
(٣) كُرُور: تَتَابُع. (م).
(٤) المُضَافَرَة: التعاون. (م).

وعلى هذا المثال من رابطة النسب - وهي أقوى الروابط بين البشر - يكون القول والأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الإنساني من حيث ارتباط بعضه ببعض.

إن لم يلازم العقد للرابطة ضرورة، أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحة، وتمرن عليه، ويعود أثر تكريره على الفكر - حتى يكون هيأة للروح، وشكلاً من أشكالها - فلن يكون منشأ لآثاره، وإنما يتهيأ له في الصور العلمية رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات كما هو في المحفوظات كما قدمنا.

بعد تدبر هذه الأصول، والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب في سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطؤهم عن نصرة إخوانهم وهم أثبت الناس في عقائدهم؛ لأنه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا «العقيدة الدينية» مجردة عما يتبعها من الأعمال التي من آثارها جلب المنافع، ودفع المضار وما يستلزم ذلك من تعارف، وتواصل وتبادل بالشعور، والتحسس.

وقد انعكس كل ذلك ولم يبق إلا تقاطع، وتدابر، وجفاء، إلى غير ذلك مما سبق ذكره في حالة الأمة، وعلمائها.

وكما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء، كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين. أليس بعجيب أن لا يكون سفارة للعثمانيين في

مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق.

هذا التدابر، والتقاطع، وإِرْسَال الحِبَال على الغَوَارِب[١] عمّ المسلمين – حتى صح أن يقال – لا علاقة بين قوم منهم وقوم، ولا بلد وبلد إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم، ويعتقدون مثل اعتقادهم، وربما يتعرفون بمواقع ممالكهم، وأمصارهم بالصدفة – إذا التقى بعض ببعض في موسم الحج العام – وهذ النوع من الإحساس هو الداعي إلى الحزن، وانقباض الصدر. كانت الملة كجسم عظيم، قوي البنية، صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه، فتداعت للتناثر، والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة، وبمثل هذه الحال تضمحل هيأة الجسم.

بدأ هذا الانحلال، والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة – وقتما قنع العباسيون (بعد المأمون) باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم، والتفقه في الدين، والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون.

كثرت بذلك المذاهب، وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة، حتى بلغ إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان، ثم انثَلَمَت[٢]

---

(١) إِرْسَال الحبَال على الغَوارِب: مَثَل يُضْرَب لذهاب المرء حيث شاء. (م).
(٢) انْثَلَمَت: انْكَسَرَت. (م).

وحدة الخلافة، فانقسمت إلى أقسام: خلافة عباسية في بغداد، وخلافة فاطمية في مصر والمغرب، وأموية في أطراف الأندلس.

تفرقت بهذا كلمة الأمة، وانشقت عصاها، وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك، والسلطان يستجمعون لأنفسهم وسائل القوة، والشَوْكَة[١]، ولا يرعون جانب الخلافة، وزاد الاختلاف شدة، وتقطعت الوَشَائج[٢] بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده، وإيقاعهم بالمسلمين قتلاً، وإذلالاً - حتى أذهلوهم عن أنفسهم - فتفرق الشمل بالكلية، وانفصمت[٣] عرى التئام بين الملوك والعلماء جميعًا، وانفرد كل بشأنه، وانصرف إلى ما يليه - فتبدد الجمع إلى أحاد، وافترق الناس فرقًا - كل فرقة تتبع داعيًا إما إلى ملك، أو مذهب؛ فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة وتبعث على اشتباك الوشيجة، وتقوية الرابطة، وصار ما في العقول منها صورًا ذهنية تحويها مخازن الخيال، وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسفًا، وحسرة تأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء، ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول الزمان. وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت - كما يكون على الأموات من الأقارب - لا يدعو إلى حركة التدارك النازلة، ولا دفع الغائلة.

(١) الشَوْكَة: القوة والبأس. (م).
(٢) الوَشَائِج: الروابط والعلاقات. (م).
(٣) انفَصَمَت: انقطعت. (م).

وكان الواجب على العلماء قيامًا بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع، أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية، ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك، بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم - حتى يكون كل مسجد، وكل مدرسة مهبطًا لروح حياة الوحدة. ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة، إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر. ويرتبط العلماء، والخطباء، والأئمة، والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض، ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة. يرجعون إليها في شؤون وحدتهم، ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل، وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوحدة إلى مقعد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة - وأشرفها «معهد بيت الله الحرام» - حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين، وحفظه من قوارع العيون، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل، أو تطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها - ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم، وتنوير الأفهام، وصيانة الدين من البدع المضرة فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية، وتحديد الوظائف. فلو أبدع مبدع، أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك الأمر ومحو بدعته قبل فشوها بين العامة، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة، وعلو كلمتها، واقتدارها على رفع ما يغشاها من النوازل قال:

وإنِّي لآسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء، والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل - وإنِّي لأرجو أن تهبّ إلى هذه الوسيلة أرباب العزة والحمية، ويؤازرهم ملوك المسلمين وعلماؤهم فيؤيدونهم بما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم - وما هو بالعسير أن يبثوا الدعاة إلى ما يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم ودنياهم بالفائدة أو ما يخشى أن يمسهم بضرر، ويكونوا بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق، والآمال مقبلة وإلى الله المصير.

قوله في الناشئة الشرقية استحسانًا واستهجانًا، وأمثلته على التقليد النافع، وضربه المثل بدولة اليابان الشرقية وذكره أنجع الوسائل للنهوض من السقوط

قيل للسيد جمال الدين: إن في الشرق ناشئة ممن تثقفوا، وتعلموا وكتبوا، وعلموا مرامي الغرب نحو الشرق - وليس هم بالقليل عددهم - فما بالهم لم يؤثروا في صالح المجموع، ورقيه، وإصلاح الهيئة الاجتماعية من قومهم؟

فقال: إن أشد وطأة على الشرق، وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم - هم أولئك الناشئة الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم، والتأدب بأسفل آدابهم - يعتقدون أن كل الكمال إنما هو فيما تعلمونه من اللسان على بسائطه[١]، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات، وقراءة سير، ومسير من قطع مراحل من الغربيين في سبيل الأخذ في ترقية أمته، بدون أن يسبروا من ذلك غورًا أو يفهموا لتدرجهم معنى.

ويعتقد الناشئ الشرقي - أن كل الرذائل، ودواعي الحِطَّة[٢]، ومقاومات التقدم إنما هي في قومه، فيجري مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، ومن

---

(١) بسائطه: فضائله. (م).

(٢) الحِطَّة: الذُّل والهوان. (م).

كل مشروع وطني يتصدى له فئة من قومه، أو أهل بلده، ويأنف من الاشتراك في أي عمل لم يشارك فيه الأجنبي ولو اسمًا، ويسارع لتقديس، وتصويب كل خطأ يأتيه الغريب، ويسهِّل له كل صعب في مطلبه، ويطلعه على هَنَات(١) قومه وزللهم، وموقع الضعف منهم. وبالإجمال يكون الآلة القاطعة، الفاعلة للغريب في جسم قومه، والوسيلة الممكنة من الاستئثار في البلاد، واستعباد العباد - بدون أن يشعر أنه سيلاقي شر ما يصنع قبل أمته، وينزل في تاريخها مع الأدنياء الخائنين - وإذا أحس البعض في شنيع فعلته فإنما يؤثر مصلحته الخاصة، ونفعه الخسيس الموقَّت على صالحه العام مع مجموع من جمعته وإياهم الجامعات الكبرى.

وسواء في الأمر من علم وارتكب تلك الخطيئات، أو من أتاها جهلاً بغير علم، فالشرق والشرقيون ابتلاهم الله «بما فرطوا» حتى بهذه العلة، ولا أرى لهم مخرجًا من ضيقهم، وشقاء من أدوائهم إلاّ باشتداد الأزمة وقوة الضغط - حتى يفقدوا بقية ما ترك لهم من شبه الراحة التي أخلدوا إليها، أو سعة العيش الضيق الذي سوّل لهم الخمول الرضاء به، وحتى يزاحموا على ما لا يخطر لهم ببال من دين لا يتمكنون من التعبد به كما يرومون، ومن تجارة لا يجدون لها مالاً، أو مجالاً، ومن حرية شخصية يفقدونها، ومن قهر وإذلال الأعزاء، وتعزيز الأذلاء السفهاء. وحتى يحيق بالمجموع بلاء يساوي بين الكل ويكون فيه المسلم الشرقي، وأخوه المسيحي سواء. يظهر في بدء الأمر للأخير «المسيحي» ميزة تقدم

(١) هَنَات: شدائد وأمور عظام. (م).

على الأول «المسلم» بشيء من تافه الوظائف تنويهًا بكرامة تدينه بالمسيحية، ولمعرفته اللسان، وتمكينًا لداعي التنافر وعدم الاتحاد - وكل ذلك إلى حين - ومن ثم يرجع الاثنان إلى التساوي في المذلة، والهوان.

ثم قال: لقد كثر اختلاف الناظرين في وسائل النهوض من السقوط وتضاربت الآراء فيها، وحامت ظنون كثيرة حولها، فتفنيدًا لباطل الظنون، ونفيًا لريب المرتابين، والواهمين بقرب الوسائل مع بعدها وقلة نفعها. أقول اليوم ما قلته قبل أعوام: أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئًا مذكورًا ثم انشق عنها عماء العدم - فإذا هي بحمية كل واحد منها - كون بديع النظام، قوي الأركان، شديد البنيان، عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم، تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل، وتنحل بأيدي مدبريها عقد المشاكل. نمت فيها أفنان العزة بعد ما ثبتت أصولها، ورسخت جذورها، وامتد لها السلطان على البعيد عنها، والداني إليها، ونفذت منها الشوكة، وعلت لها الكلمة، وكملت القوة - فاستعلت آدابها على الآداب - وسادت أخلاقها، وعاداتها، وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة إلا في انتهاج منهجها، وورود شريعتها، وصارت وهي قليلة العدد - كزَّة الساحات - كأنها للعالم روح، وهو لها بدن عامل.

وبعد هذا المجد كله ترى بنيانها قد وهى، وانتثر المنظوم منها وتفرقت فيها الأهواء، وانشقت العصى، وتبدد ما كان مجتمعًا، وانحل ما كان منعقدًا،

وانفصمت عرى التعاون، وانقطعت روابط التَّعَاضُد[١]، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كل محيط بشخصه المحدود بنهايات بدنه، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية. وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته ومرافق حياته وكمالاته لا تنال إلا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الأمة، وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده، وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه، وكأنه بهذه الغيبة في سبات يخيله الناظر إليه صحوًا، وذبول يظنه المغرور زهوًا، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها – وحدثت لهم قناعة البهم والرضاء بكل ذل.

ولئن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم، أو استفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفًا، أو يعيد إليها مجدًا عدَّه هوسًا وهذيانًا، أصيب به من ضعف في المزاج، أو خلل في البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوَبَال[٢]، وأورده موارد الهلكة، أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته، ونكد معيشته. وهكذا يحكم لنفسه سلاسل من الجبن، وأغلال من اليأس؛ فتغل يداه عن العمل، وتقف قدماه عن السعي، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا، وقَيِّمًا على

(١) التَّعَاضُد: التَّعَاوُن. (م).
(٢) بالوَبَال: بِالفَسَاد. (م).

ما أورثوه لأعقابهم. ويبلغ هذا المرض من الأمة حدًّا - يشرف بها على الهلاك، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد، وطعمة لكل طاعم.

نعم رأيت كثيرًا من الأمم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحَّت ثم مرضت. ولكن أليس لكل علة دواء؟ بلى!

ما أكثر ما قلت واآسفاه! نعم واآسفاه ما أصعب الداء، وأعز الدواء! وما أقل العارفين بطرق العلاج! كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها؟ وهي لم تفترق إلا لأن كلاًّ عكف على شأنه! أستغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالاً به، ولكنه انصرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه.

نعم ربما التفت كل واحد إلى ما هو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه، وهو لا يدري من أي وجه يحصلها، ولا بأية طريقة يؤمن عليها. كيف تبعث الهمم بعد موتها؟ وما ماتت إلا بعد أن سكنت زمانًا طويلاً إلى ما ليس من معاليها.

هل من السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الخلاص في سلوك سواه - خصوصًا بعد ما استدبر المقصد - وكيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه، المبتهج بأحلامه وفي أُذُنه وَقْر[١]، وفي ملامسه خَدَر[٢].

هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة - من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها، وتتنائى أطرافها، وتتباين عاداتها وطبائعها، وتتخالف آراؤها، وقد تراكم فوقها الجهل، وخيّل للعقول أن كل قريب بعيد، وكل سهل وعر. وعزة الحق! إنه لشيء عسير يعيى في علاجه النطاسي، ويحار فيه الحكيم البصير!

هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على الداء وأسبابه الأولى، والعوارض التي طرأت عليه. إن كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول إلى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها، وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال، وتنوع الأطوار؛ أيمكن لطبيب يعالج شخصًا بعينه أن يختار له نوعًا من العلاج قبل أن يعرف ما عَرض له من قبل في حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض، وإلا فإن كثيرًا من الأمراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر ثم لا تظهر إلا في طور آخر - لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها. إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد - سنوّ عمره محدودة، وعوارض حياته محصورة - فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل، وافرة العدد؛ لهذا يندر في أجيال وجود بعض

(١) وَقْر: ثقَل في الأذن. (م).
(٢) خَدَر: كَسَل وفُتُور. (م).

رجال يقومون بإحياء أمة، أو إرجاع شرفها ومجدها إليها - وإن كان المتشبهون بهم كثيرين- وكما أن المتطبب القاصر في الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدة - لولا مساعدة الصدفة، والاتفاق أحيانًا - بل ربما يفضي بالمريض إلى الموت - كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها، وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها، وأنواعها، وما يكتنف ذلك من العادات، وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض، ومكانتها الأولى من الرفعة، ودرجتها الحالية من الضعة، وتدرجها فيما بين المنزلتين، فإن أخطأ طالب إصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول داء والوجود فناء.

فمن له حظ من الكمال الإنساني، ولم يطمس من قلبه موضع الإلهام الإلهي - لا يجرأ على القيام بما يسمونه «تربية الأمم» وإصلاح ما فسد منها، وهو لا يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الأمر العظيم علمًا وعملاً ، نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة، وطلاب العيش في الوظائف التي ليسوا من حقوقها في شيء.

ظن قوم في زماننا أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد، وأنها تكفل إنهاضها وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق. كيف يصدق هذا الظن؟! وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمة مع التنزه عن الأغراض - فبعد أن عمّ الذهول، واستولت الدهشة على العقول، وقل القارئون والكاتبون فلا تجد لها

قارئًا، ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه لضيق في التصور، أو ميل مع الهوى فلا يكون منه إلا سوء التأثير فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافًا. على أن الأمة إذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة، وتدفق سيول الحوادث. إن هذا وحقك لعزيز!

ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبعثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها، وإخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات، ورضاها بالدُّون(١) من العيش، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها، بل لمن كان خاضعًا لسيادتها راضخًا لأحكامها. مع هذا كله إنه يتم شفاها من هذه الأمراض القتالة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها، وتكون على الطراز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمن قريب. ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق، واتحدت الكلمة، واجتمعت القوة. وما أبعد ما يظنون - فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوي قاهر، يحمل الأمة على ما تكره أزمانًا حتى تذوق لذته، وتجني ثمرته، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبًا عن سلطته، وقائمًا مقامها في تنفيذ ما أراد من خيرها، ويلزم هذا الأمر ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة. وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه، فهل من الضعف سلطة تقهر، وثروة تغني؟ ولو كان للأمة هذان لما عدّت

(١) بالدُّون: بالحقير. (م).

من الساقطين. فإن قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون وما هو كائن من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً لأن يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر؟

على أنا لو فرضنا مسالمة الدهر، ومنحت الأمة مدة من الزمن تكفي لبث تلك العلوم في بعض الأفراد، والاستزادة منها شيئًا فشيئًا - فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية، وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به، ويمكنه من القيام بإرشاد الباقي من أبناء أمته؟

واعجبًا كيف يكون هذا - والأمة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها - لا تدري كيف بذرت بذورها، وكيف نبتت، واستوت على سوقها وأثمرت وأينعت، وبأي ماء سقيت، وبأية تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات، وإن وصل إليها طرف من ذلك فإنما يكون ظاهرًا من القول لإنباء عن الحقيقة. فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بتلك العلوم، وسوقها إلى الأذهان المشحونة بغيرها - يقوّم من أفكارهم، يعدل من أخلاقهم، ويهديهم طرق الرشاد، ويعمل في إفادة إخوانهم.

لعل الأقرب أن ناقلي تلك العلوم - وهم من أمة هذا شأنها - مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها، وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا، وما

يعظمونه من أمر الأمة التي تلقوا عنها علومهم - يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعهم إلا فسادًا.

ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم؟ ولو صدقوا في خدمة أوطانهم يكون منهم قذف ما في خزائن خواطرهم، يؤدون ما تعلموه كما سمعوه، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها، وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه، ولبعدهم عن أصله، ولهوهم بحاضره عن ماضيه، وغفلتهم عن آتيه - يظنونه على شكل ما بلغهم - هو الكمال لكل نفس، والحيوة لكل روح - فيرومون من الصغير ما لا يرام إلا من الكبير - وبالعكس - غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلّموه، ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم، وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد، أو يزيدها خبالاً وضعفًا؟ وما هذا إلا لكونهم ليسوا أرباب تلك العلوم، وإنما هم حملة، نقلة.

فهؤلاء الناشئون - إلا من وفقه الله منهم بعنايته الإلهية - يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء، فتفيض منه على طفلها وهو رضيع ليساهمها في اللذة، وسنه سن اللبان لا يقبل سواه، فيسرع إليه المرض وينتهي به التلف، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة - يشتتون بقية الجمع، ويبددون أخريات الالتئام - إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط فهؤلاء المغرورون يصدمونهم بما يذهلهم عنها، وربما لا يقصدون إلا خيرًا إن كانوا من المخلصين، ويوسعون بذلك الخروق حتى تعود أبوابًا، ويباعدون ما بين الضفاف حتى تصير

ميادين لتداخل الأجانب فيهم تحت اسم النصحاء، وعنوان المصلحين، وطلاب الإصلاح، ويذهبون بأمتهم إلى الفناء، والاضمحلال وبئس المصير.

شيد العثمانيون والمصريون عددًا من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون له من العلوم، والمعارف والصنائع، والآداب - وكل ما يسمونه «تمدنًا» وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة، وسير الاجتماع الإنساني!

هل انتفع المصريون، والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الخبل الجديد؟

هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر، والفاقة؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجأهم إليه الأجانب بتصرفاتهم؟ هل أحكموا الحصون، وسدوا الثغور؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب، والتصرف في الأفكار حدًّا يزحزح عزائم الطامعين عنهم؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية التي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة، وتسعى إليها، وتطلبها ولو تجاوزت محيط الحياة الدنيا - ولو بادت في سبيلها - خلفها وارث على شاكلتها كما كان في كثير ممن عزَّ من الأمم.

نعم ربما وجد بينهم أفراد يَتَشَدَّقُون[١] بألفاظ الحرية، والوطنية، والجنسية وما شاكلها - ويصوغونها في عبارات متقطعة، بَتْرَاء[٢] - لا تعرف غايتها، ولا تعلم بدايتها، ووسموا أنفسهم زعماء الحرية، أو بسمة أخرى من السمات ووقفوا عند هذا الحد.

ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم، فقلبوا أوضاع المباني والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل، والملابس، والفرش، والآنية وسائر الماعون - وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية، وعدّوها من مفاخرهم، وعرضوها معرض المباهاة، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم، واعتاضوا أعراض الزينة - مما يروق منظره ولا يحمد أثره - فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم، وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة. وهذا جَدْع[٣] لأنف الأمة يشوه وجهها، ويحط بشأنها، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها، وفاجأتهم قبل أوانها.

---

(١) يَتَشَدَّقون: يَتَوَسَّعُون في الكلام. (م).
(٢) بَتْرَاء: لا أثر للخير فيها. (م).
(٣) جَدْع: قَطْع. (م).

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث - بأن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها - يكونون فيها منافذ، وكُوًى[1] لتطرق الأعداء إليها، وتكون مداركهم مهابط الوساوس، ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم، واحتقار من لم يكن على مثالهم - شؤمًا على أبناء أمتهم يذلونهم، ويحقرون أمرهم، ويستهينون بجميع أعمالهم - وإن جلَّت - وإن بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمم، أو نزوع إلى معالي الهمم انصبوا عليه وأرغموا من أنفه، حتى يمحى أثر الشهامة، وتخمد حرارة الغيرة، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبل، ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم، ويمكنون سلطتهم - ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم.

ولا أخشى لومًا إذا قلت: لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلَّب الإنكليز على بعض أراضيها لما بارحوها أبد الآبدين؛ لأن نتيجة العلم عند هؤلاء «الناشئة المقلدين» ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم، واستقبال مشارق فنونهم، فيبالغون في تطمين النفوس، وتسكين القلوب، حتى يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم، ويحفظون بها استقلالهم؛ ولهذا متى طرق الأجانب أرضًا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها أول ما يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم - بعد الاستبشار بقدومهم -

(١) كُوًى: فُتُحات. (م).

ويكونون بِطَانَة[١] لهم، ومواضع ثقتهم - كأنما هم منهم - ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم أعظم بركة عليهم وعلى أعقابهم.

فما الحيلة؟ وما الوسيلة؟ «فالجرائد» بعيدة الفائدة، ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها و«العلوم الجديدة» ونقلها «بالناشئة» لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها، والوقت ضيق!! والخطب شديد!!

أي جهوري من الأصوات يوقظ الراقدين على حَشَايَا[٢] الغفلات؟! أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة، وتحرك الأفكار الخامدة! أ ي نفخة تبعث هذه الأرواح في أجسادها، وتحشرها إلى مواقف صلاحها، وفلاحها.

الأقطار فسيحة الجوانب، بعيدة المَنَاكِب[٣]، المواصلات عسرة بين الشرقي، والغربي، والجنوبي، والشمالي - الرؤوس مطرقة إلى ما تحت القدم، أو منفضة إلى ما فوق السماء، ليس للأبصار جولان إلى الأمام، والخلف، واليمين، والشمال، ولا للأسماع إصغاء، ولا للنفوس رغبات، ولكن للأهواء تحكم، وللوساوس سلطان!

---

(١) بِطَانَة: خَاصَّة. (م).
(٢) حَشَايَا: فُرُش يُتَّكَأ أو ينام عليها. (م).
(٣) المَنَاكِب: الطُّرق. (م).

ماذا يصنع المشفقون على الأمة - والزمن قصير! ماذا يحاولون والأخطار مُحْدِقَة[١] بهم! بأي سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم.

لا أطيل بحثًا، ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان - ولكني أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل «وقد مر ذكرها معنا فيما سبق» أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة، وضعفت بعد القوة، واسترقت بعد السيادة، وضيمت بعد المنعة، واطلب أسباب نهوضها الأول حتى تتبين مَضَارِب الخَلَل[٢]، وجراثيم العلل - فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهض همم آحادها، ولحم ما بين أفرادها وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم وتسوسهم - وهي في مقامها بدقيق حكمتها - إنما هو «دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزكٍّ للنفوس، مطهِّر للقلوب من أَدْرَان[٣] الخسائس، منوّر للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة، ولها وردت وعنها صدرت؛ فما تراه من عارض خللها، هبوطها عن مكانتها إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريًّا،

---

(١) مُحْدقَة: محيطة. (م).
(٢) مَضَارب الخَلَل: مَوَاضِع الوَهَن. (م).
(٣) أَدْرَان: أَوْسَاخ. (م).

وحدوث بدع ليست منها في شيء - أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين، وعما أتى لأجله، وما أعدته الحكمة الإلهية له - حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر، وعبارات تقرأ مجردة، فتكون هذه المحدثات حجابًا بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحيانًا بين جوانحها.

فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته، وإرشاد العامة بالمواعظ الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيران الغيرة، وجمع الكلمة، وبيع الأرواح لشرف الأمة، ولا سبيل لليأس والقنوط؛ فإن جراثيم الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت. فإذا قاموا لشئونهم، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم؛ فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني، ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططًا وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية وانعكس فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحسًا ولا يكسبها إلا تعسًا.

من يعجب من قولي أن الأصول الدينية الحقة، المُبَرَّأة[١] عن محدثات البدع - تنشيء للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل، وتفضيل الشرف على لذة

(١) المُبَرَّأة: البَرِيئة مما نُسِب إليها. (م).

الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل، وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية - فإن عجبي من عجبه أشد، ودونك تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية، والشتات وإتيان الدنايا، والمنكرات، حتى جاءها الدين فوحدَّها، وقوَّاها، وهذَّبها ونوَّر عقلها، وقوَّم أخلاقها، وسدَّد أحكامها فسادت على العالم، وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف، وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية، ومقتضياتها، نبهتها شريعتها، وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة، والتبحر فيها ونقلوا إلى ديارهم طبّ بقراط، وجالينوس، وهندسة إقليدس وهيأة بطليموس، وحكمة أفلاطون، وأرسطو، وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا. ولقائل يقول ها هي دولة اليابان وقد ارتقت بتقليد الغربيين وبدون توسط الدين فالجواب: نعم، إن الدولة اليابانية - وهي أمة شرقية لا تختلف عن أهل الصين في شيء لا في المذهب والإقليم، ولا في العوائد والأخلاق، واللسان - وقد عزَّت ونمت وارتفعت - وما كان الفاعل في كل ذلك إلا أخذها بالأحسن، والسير في تقليد المرتقين في المدنية على أحسن خططهم، وانتهاج أقوم صُرُطِهم(١) ومناهجهم - تركوا عبادة الأوثان وصحتها أو عدمه جانبًا - وجروا وراء العلم الدنيوي فقلدوا أعظم الأمم تقليدًا صحيحًا، وأدخلوا على بلادهم قواعد المدنية السالمة، والموافقة لمجموعهم ونبذوا ما كان مألوفًا في الغرب، ولا يوافق طباعهم في شرقهم وتذرعوا في التدريج واتخذوا سنن الارتقاء سلمًا لقومهم، واهتموا في المولود الحديث ليجعلوه، وليكون «سواء فيه الأنثى والذكر»

(١) صُرُطِهم: طُرُقِهِم المستقيمة. (م).

مخلوقًا يابانيًا نافعًا لقومه أولاً - وبالتالي للإنسانية - فظفروا ببغيتهم، ووجدوا ضالتهم بأقرب الأوقات وأقصر الأزمنة.

أما القول بأن ارتقاء تلك الأمة الشرقية قد تم بدون توسط الدين وفعله، فالجواب: نعم، إن اليابان لم ينتفعوا بالوثنية من حيث هي دينهم؛ ذلك لأن الديانة الوثنية وإن كانت لا تخلو من آداب وأخلاق فليس في أصولها ما ينفع في أحكام أمور الدنيا، وما يحتاجه الإنسان من مطالب المدنية. والدين ولو كان في أصوله كل ما يدعو إلى السعادة وفي قواعده ما ينهض ويصعد إلى ذرى المجد - إذا بقي عقيدة مجردة عن الأعمال فلا يحدث عنه أثر ولا ينتفع المتسمون به - بل بتركهم الأعمال بتلك الأصول يتدهورون من شاهق عز إلى حضيض ذل، وفيما سبق من القول في هذا المعنى كفاية.

والدين الذي في أصوله ما ينفع في الأمور الدنيوية أيضًا - لابد وأن يكون من جملة أصوله الحث على التحلي بالفضائل، والاستكثار من مكارم الأخلاق والصفات الحميدة، والاستزادة من نافع العلوم والفنون - نعم، جاء في القرآن الكريم حثًّا على العلم وبيانًا لجليل فضله، أن منع أن يكون غير العالم عاقل فقال ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٣] ومنع المساواة بين العالم والجاهل فقال ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/ ٩] وقد مر ذكر ذلك، وقال المصطفى ﷺ: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» وأمثال ذلك كثير.

وبما ساعد الأمة اليابانية على رقيها، وخلَّص سيرها من العَرْقَلَة - موقعها ومجتمع جزائرها في أقصى الشرق - فوجدت من الدهر مسالمة، وعن أنظار أولي المطامع من الغربيين بعدًا- ينضم إلى ذلك سبب من أكبر الأسباب، وعامل من أقوى العوامل ألا وهو ميل الإمبراطور «الميكادو» إلى تقييد حكومته بالدستور، وقبوله الشورى عن طيب خاطر، وسعيه بإخلاص وراء ذلك، فقد بعث من أفراد أسرته، وعقلاء رعيته بعثات لأوروبا لدرس أشكال وقواعد الحكم النيابي الدستوري، حتى أن امبراطور النمسا فرنسوا جوزف لم يتمالك نفسه فقال لابن عم الميكادو وهو على مائدته في فينا «يا عجبًا من إمبراطوركم كيف يسعى لإيجاد الحكم الدستوري النيابي في مملكته، ونحن في أوروبا لو أمكننا التخلص من تحكم النواب في البلاد. أجابه البرنس الياباني أن جلالة الميكادو «معناه العادل» يحب أربعة أشياء «يحب بلاده أولاً، ورعيته ثانيًا، ويحب العدل ثالثًا، وراحة نفسه رابعًا - وما وجد ما ينيله ما يحب إلا «بالحكم الدستوري النيابي» واشتراك الأمة بإنهاض نفسها وصون ملكها.

نعم، إن مصدر الشقاء، ومنبع البلاء في الشرق وممالكه إنما كان من الامتيازات الأجنبية «قابيتولاسيون» تلك الامتيازات التي سبق فذكرنا كيف كان بدء أمرها، وكيف أخذت في الشرق الأقصى- الصين واليابان - والشرق الأدنى - البلاد العثمانية وفارس - وكيف أعطيت على سبيل الرحمة أولاً ثم عاد نقمة أخيرًا.

وعلمت اليابان أن لا قوة مع الجهل ولا ضعف مع العلم، فكتمت غيظها وتحملت جور الغربيين وامتيازاتهم، وانصرفت للأخذ بالتقليد الصحيح، وثابرت على بعث البعثات العلمية اليابانية لأوروبا «بالمئات» وقسمتهم شعبًا على شعب العلوم والفنون من مالية، وسياسية، وعلمية، وزراعية وطب وهندسة إلخ.

فلم يمض على سعي اليابان هذا ربع جيل - حتى انتظمت محاكمهم، وعم العلم الصحيح في ناشئتهم، وعرف القسم المنوّر فيهم ما يجب أن يعمله، ويعلمه للطبقات الأخرى من قومه في المدارس الوطنية اليابانية.

فتهيأ لهم بذلك المسعى هيئة اجتماعية وقومية صحيحة، ومدنية لم يترك معها مجال للمكابرين من الغربيين «الإفرنج» أن يدّعوا، أو يفتروا عليهم بأنهم «شرقيين» ولا يحسنون أمر الإدارة، أو معرفة الحقوق العمومية أو العدالة المطلقة البشرية، بل بالعكس ظهر أن محاكم «القونصلاتات»، وتلك الامتيازات الأجنبية - من محاكمة الجاني القاتل الأوروبي تجاه قنصله - والمفلس الاحتيالي الإفرنجي تجاه محكمة دولته «القنصلية» أبعد بمراحل عن عدل محاكم اليابان وقصاصاتهم العادلة، ونزاهة حكام اليابان، وصدق وجدانهم، وعدم تسلط أي قوة - من أموال، أو جاه، أو نفوذ عليهم - بعكس القناصل، والمحاكم القنصلية هناك فأجمع رأي معتمدي دول أوروبا - بطلب عموم الرعايا - أن يطلبوا من الميكادو قبول طلبهم بإلغاء الامتيازات «قابيتولاسيون» وأن تفصل قضاياهم، وتجازي مجرموهم في محاكم اليابان، فترددت حكومة الميكادو في قبول مطلب

السفراء هذا، ولم تقبل فصل قضايا الأجانب في محاكمها محتجة أن حكامهم إنما يسع وقتهم فصل قضايا اليابانيين فقط، ولا متسع لهم لإضاعة الأوقات بشؤون الأجانب، وأشارت تشفيًّا بلزوم احتفاظهم بامتيازاتهم، فاشتدت الدول وطال الأخذ والرد حتى قبلت اليابان أخيرًا بتشميل عدلها للأجانب، وبلغوا امتيازاتهم.

وقد كان في خدمة اليابان عدد من الأخصائيين الأجانب في شعبات إداراتها لسنين محدودة، برواتب معينة، وكانت كلما أتم الياباني عمله في شعبة من الشعب وعاد لوطنه أرفقوه بذلك الأخصائي، فكان في دقائق تلك الشعبة وما تحتاجه من علم، وفهم، وعمل - يبرّز الياباني على رئيسه الإفرنجي - حتى خجل أولئك الرؤساء المأجورين من أنفسهم، وطلبوا إعفاءهم من الخدمة قبل انقضاء الأجل المعقود، ورضوا بحرمانهم من الرتب - باعتراف أن الياباني أقدر منهم على أداء وظائفهم، وما جلبوا لأجله واستؤجروا له - هكذا - تم لليابان الفوز بالتقليد النافع، وجلب المفيد اللازم من العلوم والفنون والصنائع - وبرزت بين صفوف الدول العظام - دولة شرقية لها من بأسها منعة، ومن علمها، واتحادها قوة تخشى، وحدًّا يُتَّقَى. والناس أبناء ما يحسنون، ولله في خلقه شؤون.

قوله إن أضعف ما في هذا العصر حق لضعيف لا قوة له وأقوى شيء باطل لقوي يجعل بطله حقًّا

قال: خضعت الموجودات في الكائنات إلى ناموس عظيم وهو «القوة» فظهرت آثارها في الحيوان، والنبات، والجماد، وفي الأفلاك - وكان لكل منها حركات اضطرارية، ووظائف تأتيها طوعًا أو كرهًا. فبالقوة يستجلب الإنسان المنافع لذاته، ويدفع المضار عنها. وبالقوة المعبر عنها «بالجاذبية» حفظ نظام هذا الكون العظيم الشاسع الأطراف. وما نشاهده من توالي الليل والنهار، وحركة سائر الأجرام السماوية، وما على وجه الأرض من المواد المختلفة كثافة، وثقلاً - وتحول الكثيف إلى لطيف وبالعكس - كل ذلك وغيره من دائم النظام إنما هو ناتج عنها «أي القوة»، وهي التي لا يمكن تصور المادة مجردة منها ولا تصورها مجردة من المادة، وهي الحافظة لنظام ما بين أيدينا، وما يحيط بنا، ويظللنا من العوالم المستقرة، والسابحة في الفضاء.

ثم إذا أخذنا «النبات» رأينا أثر القوة أشد وضوحًا فيه، فإنك إذا غرست نباتات عديدة في بقعة واحدة من الأرض ليس فيها من الغذاء ما يكفي الجميع، ترى تلك الأحياء النامية تتنازع فيما بينها، ولا يمضي زمن حتى يبلغ البعض

أشده من النمو، والبعض الآخر قد أدركه الاضمحلال فيبس. ولا ريب أن تلك الناميات تنازعت على ما كان من الغذاء، ففازت به القوية فاغتذت، ونمت، وحرمت منه الضعيفة فزادت ضعفًا وتمكن منها حتى قضى عليها، وأدركها الفناء قبل القوية.

ومن تأمل بأعضاء النبات يرى بينها ما جعل للدفاع، وما جعل لاستجلاب الأقوات مجهزًا بأسنة من الشوك تدفع بها عنها أذى المعتدين، ومنها ما هو مجهز بأعضاء مخصوصة لافتراس بعض الحشرات التي تَقْتَات[١] بها، وهي بتلك القوى تجلب النفع، وتدفع الضر.

أما عالم الحيوان ولا سيما الإنسان فأثر القوة فيه أشد وضوحًا من الجميع؛ لأنك لو نظرت في أعضائه عضوًا عضوًا - بل لو أخذت كرة من كريات دمه لرأيت تنازعًا دائمًا، وتسابقًا إلى الغذاء مما بينها - فيغلب القوي منها الضعيف.

فالقوة مظهر الحياة والبقاء - والضعف مجلى الخفاء والفناء - فحيثما وجدت القوة في تلك المواليد ظهرت معها، وبجنبها علامات الضعف والاضمحلال لغيرها.

ولا تظهر، وتتعين القوة إلا بإضعافها الغير، وتسخيرها لها - وما كان قوة في طبقة بعض الأحيان يكون ضعفًا مع الأقوى منها - وهي والحالة هذه

(١) تَقْتَات: تَتَغَذَّى. (م).

«نسبية» - فالنبات المغروس في بقعة واحدة لا تظهر على البعض منه علامات الضعف «بالذبول والموت والاضمحلال بيبسه» إلا بوجود نبات أقوى منه ينازعه أسباب حياته، ووجوده، ولا يبالي القوي منه بذبول، وذهاب نضارة من جاوره من فصائله، وهكذا نرى القوة في كل الطبقات الحية - مظهرًا للتبجيل والإعجاب - على علاتها وظلمها لمن هو أضعف منها.

فإذا دخلت جنة أو روضة - ورأيت أزهارًا نضرة وبجنبها حشائش وبقايا أزهار ذابلة - إنما تعجب بالزاهي النضر البهج من الأزهار، ولا يلفتك ما حواليها من الذابل - الذي إنما - اضمحل وذهبت نضرته بالنسبة لغلبة القوى، ونزاعه له، وانتزاعه منه أسباب حياته.

وهكذا في الجماد - وكذلك بنتيجة البحث في عمل الحيوان - وأرقاه الإنسان.

تأمل في الأمم المهضومة، والمتنازع في هضمها، أو المهيئة للهضم والازْدِرَاد[١] والابتلاع - كم ترى في شؤونها وإبَّان سيرها، وتدهورها وانجرارها نحو المحو والفناء من المشاهد المؤثرة - إذ تراها كصاحب بيت قبل ضيفًا على الرحب والسعة، ثم ما لبث ذلك الضيف إلا وتداخل في شأن بناء البيت، ثم في أثاثه، ثم في مصرفه، فحالته الروحية فعادته، فلسانه، وبأخلاقه ومميزاته حتى يضطره أخيرًا لعمل ما لا

(١) الازْدِرَاد: الابتلاع. (م).

يحب، ويكرهه على إتيان ما لا يريد، ويجبره على غير ما يلائم طباعه وحياته – ومختصر كل ذلك وآخره «الاستعباد» وهو الموت الأحمر لكل حرّ، والفناء إلى كل ذي حياة، ونفس أبية.

فإذا رأيت تلك الأمم الضعيفة – مع الأقوياء – على تلك الحال من محو وفناء، وليس فيهم غير بقية رمق، ولا ما يدل على آثار أسلافهم العظام فيهم – إلا ذلّ عجيب بعد العز، وفقر مُدْقِع(١) بعد الغنى، واستباحة بعد المنعة، فربما تأسف وتحزن أسفك وحزنك على زهر رياض ذبلت ويبست، وكنت تعهدها زاهية زاهرة.

فيا ليت من بلي من أممنا الشرقية بذلك البلاء ينحطون من مرتبة الحيوان إلى عالم النبات «المجهز بأسنة من الشوك» فيدفعون عنهم أذى المعتدين، ويحفظون كيانهم من طمع الطامعين!

حجة الإنكليز – على امتلاك الهند – أنها أي الهند غنية وذات ثروة طبيعية وموقعها في آسيا لا مثيل له – فعلى هذا ولهذه الأسباب – أصبح امتلاك الهند لازمًا لبريتانيا، وابتزاز أموال الهند وثروتها تحتاجه الإمبراطورية.

هذا هو الحق الذي تدعيه الإنكليز في الهند! وهل من حاجة للقول أنه «أقبح الأباطيل» وأنه ليس لمبطل مطمع في باطل أشنع منه، وأفظع! ما الذي صير هذا الباطل حقًّا للإنكليز؟ أليس إلا «القوة»؟

(١) مُدْقِع: شَدِيد. (م).

وما الذي صيَّر حق الهنود الصريح – وحجتهم الدامغة – بأنه إذا كانت ثروة بلادنا، وأموالنا لازمة للإنكليز؛ فهي لنا ألزم؟! «باطلا؟ أليس هو إلا الضعف»؟!

ولولا الضعف في الهنود – والقوة في الإنكليز – لكان الأولى أن يملك الثلثماية مليون هندي ويستعمروا جزيرة بريتانيا العظمى وهم لا يزيدون عن الأربعين مليونًا!

وهكذا القول في المراكشيين وقد اكتسح بلادهم الأسبان بحجة القرب منهم – ولزوم تلك المملكة لأسبانيا – وكان الحق أن يفتتح المراكشيون بلاد الأسبان بنفس الحجة، وبالحق المكتسب من ابن نصير وطارق، وآثار أولي الهمم من أعزة العرب في تلك الأقطار القائمة لليوم شاهدة. ولسوف يعيد الله بالرجوع إلى أحكام كتابه ما فقد من ملك، وبَانَ[1] من عز، وتَقَوَّض[2] من مجد وسلطان إلى أصحاب الحق من المسلمين؛ إذ قال وقوله الحق ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم/ ٤٧].

---

(١) بَانَ: بَعُدَ. (م).

(٢) تَقَوَّض: انهدم. (م).

نظرته العامة في الإسلام والمسلمين، وأسباب ما ألمّ بهم من الانحطاط مع توفر ما في الدين من دواعي النهوض، وأسباب الرقي، على عكس من نهض وليس في دينهم ما يحملهم على ما هم عليه، وفيه من أخذ العدة والنهضة المشهودة فيهم، وفلسفته بذلك

نعم كان لجمال الدين سلطة على دقائق المعاني، وتحديدها، وإبرازها في صورها اللائقة بها، وله قوة في حل المشكلات وما يعضل فيها، وما على المستشكل في أمر ما إلا أن يلقيه عليه فإذا هو بمقال وجيز بليغ منه قد فكك عقد المشكل، وكشف ستر الغموض عنه، فظهر المستور واضحًا والمشكل منحلاًّ، من ذلك أنه زار جمال الدين ذات يوم جماعة من أهل الفضل في ساعات مختلفة - وكأنهم كانوا على موعد، أو اتفاق أن يستوضحوا السيد عن مشكلة ما يرى في الملّتين النصرانية والإسلامية من إعداد الأولى عدة الحرب وطلب الغلب، على عكس الثانية مما هو مخالف ما في أصول الديانتين - حتى أن الناظر في أهل الملّتين يحكم أن كلاًّ منهما عمل بما في كتاب الآخر - فالنصارى عملت بما جاء في القرآن والمسلمون عملوا بما جاء في الإنجيل، فكان جواب السيد لآخر من دخل عليه وسأل ما سأله الزائرون السابقون - أكنتم على موعد، واتفاق؟ أجابوا: كلا - فعجب من توارد خواطرهم وقال:

لقد استوقفني ما استوقفكم، ودعاني لحل إشكال ما حيَّرني قبلكم واليوم يحيركم - إلى تحرير مقال قبل إحدى عشر عامًا ومقدمته:

أن الله خلق الإنسان عالمًا صناعيًّا، ويسر له سبيل العمل لنفسه وهداه للإبداع والاختراع، وقدَّر له الرزق من صنع يديه، بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة، وخشونة ورفاهة، وتَبَدٍّ[1] وحضارة صنيعة أعماله، وسرابيله، وما يقيه الحر والبرد، من عمل يديه نسجًا أو خصفًا، وأكنانه ومساكنه ليست إلا مظاهر تقديره وتفكيره - وجميع ما يتفنن فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان، وبسط أكفه للطبيعة ليستجديها نفسًا من حياة - لشحَّت به عليه بل دفعته إلى هاوية العدم - وهو في صنعه وإبداعه - محتاج إلى أستاذ يثقفه، وهادٍ يرشده، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته، وحاجات حياته - يعمل ليتعلم ويعلم كيف يعمل، وليقتدر على أن يعمل - فصنعته أيضًا من صنعه - فهو في جميع شؤونه الحيوية «عالم صناعي» كأنه منفصل عن الطبيعة، بعيد من آثارها، حاجته إليها كحاجة العامل لآلة العمل. هذا هو الإنسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه.

دعه في هذه الحالة، وخذ طريقًا من النظر إلى أحواله النفسية من الإدراك، والتعقل والأخلاق، والملكات، والانفعالات الروحية، تجده فيها أيضًا «عالمًا

(١) تَبَدٍّ: العيش في البادية، من بَدَا بُدُوًّا وبَدَاء. (م).

صناعيًّا» - شجاعته وجبنه، جزعه وصبره، كرمه وبخله، شهامته ونذالته، قسوته ولينه، عفته وشرهه - وما يشابهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الأولى، وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم - فمرامي أفكاره ومناهج تعقله، ومذاهب ميله، ومطامح رغباته، ونزوعه إلى الأسرار الإلهية أو ركونه إلى البحث في الخواص الطبيعية، وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء، أو وقوفه عند بادئ الرأي فيه، وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية، إنما هي ودائع اختزنها لديه الآباء، والأمهات، والأقوام، والعشائر والمخالطون. أما هواء المولد والمربى، ونوع المزاج، وشكل الدماغ، وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر له في الأعراض النفسية، والصفات الروحانية إلا ما يكون في الاستعداد والقابلية - على ضعف في ذلك الأثر - فإن التربية، وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين، وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع شيء. نعم، أن أفكارًا تتجدد، ومعقولات عن أخرى تتولد، وصفات تسمو، وهممًا تعلو حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين، ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب - ولكن الحق فيه - أنه ثمرة ما غرس، ونتيجة ما كسب - فهو مصنوع يتبع مصنوعًا - فالإنسان في عقله، وصفات روحه «عالم صناعي» كما قلنا.

هذا مما لا يرتاب فيه العقلاء والسذج، ولكن هل تذكرت مع هذا أن الأعمال البدنية إنما تصدر عن الملكات، والعزائم الروحية، وأن الروح هي السلطان

القاهر على البدن – أظنك لا تحتاج فيه إلى تذكير – لأنه مما لا يغرب عن الأذهان، إنما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين، ولا أظن منكرًا يجحدها.

إن الدين وضع إلهي – ومعلمه، والداعي إليه – البشر، تتلقاه العقول من المبشرين، المنذرين، فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي – ومنقول عنهم بالبلاغ، والدراسة، والتعليم والتلقين، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب، ويرسخ في الأفئدة، وتصبغ النفوس بعقائده، وما يتبعها من الملكات، والعادات، وتتمرن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال – عظيمها، وحقيرها – فله السلطة الأولى على الأفكار، وما يطاوعها من العزائم، والإرادات، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها، وكأنما الإنسان في نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين، ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده، وما يطرأ على النفوس من غيره. فإنما هو نادر شاذ – حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات، بل تبقى طبيعته فيه كأثر الجرح و«الندبة» في البشرة بعد الاندمال(١).

وبعد هذا فموضوع بحثنا الآن «الملة المسيحية» و«الملة الإسلامية» – وهو بحث طويل الذيل – وإنما نأتي فيه على إجمال ينبئك عن تفصيل.

(١) الاندمال: الالتحام والشفاء. (م).

إن الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء، وجاءت برفع القصاص، واطِّراح الملك والسلطة، ونبذ الدنيا وبهرجها، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين لها، وترك أموال السلاطين للسلاطين، والابتعاد عن المنازعات الشخصية، والجنسية، بل والدينية. ومن وصايا الإنجيل: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن أخباره أن الملوك إنما ولايتهم وحكمهم على الأجساد - وهي فانية - والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهي لله وحده.

فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا - من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار مع ملاحظة أن لكل خيال أثرًا في الإرادة يتبعه حركة في البدن على حسبه - يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المنتسبين في عقائدهم إليه - فإنهم يتسابقون في المفاخرة، والمباهاة بزينة هذه الحياة، ورفه العيش فيها، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها، ويسارعون إلى افتتاح الممالك، والتغلب على الأقطار الشاسعة، ويخترعون كل يوم فنًّا جديدًا من فنون الحرب، ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القتالة، والمدمرات المهلكة ويستعملها بعضهم في بعض - ويَصُولُون[1] بها على غيرهم - ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال، ويصرفون عقولهم في إحكام نظامها، حتى وصلوا غاية صار الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها، على

(١) يَصُولُون: يَسْطُون. (م).

أن أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية حتى بحفظ أملاكهم فضلاً عن الالتفات إلى طلب غيرها، وقتل الأمم لأخذها من أيديهم؟!

والديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة، والافتتاح والعزة، ورفض كل قانون يخالف شريعتها، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها – فالناظر في أصول هذه الديانة، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل – يحكم حكمًا لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات الحربية، وإتقان العلوم العسكرية والتبحر فيها، وما يلزمها من الفنون الطبيعية والكيمياء، وجر الأثقال، والهندسة، وغيرها – ومن تأمل آية ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال/٦٠] أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلبها، واتخاذ كل ما يسهل له الوصول إليها، وبذل الجهد والسعي بقدر الطاقة البشرية في سبيلها – فضلاً عن الاعتصام بالمنعة، والامتناع من تغلب غيره عليه – من لاحظ أن الشرع الإسلامي حرم المراهنة إلا في «السباقة والرماية» انكشف له مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات إذ يراهم يتهاونون بالقوة، ويتساهلون في طلب لوازمها، وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال، ولا في اختراع الآلات حتى فاقتهم الأمم فيما كان من واجباتهم عمله، والتخلق به، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات،

وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم، واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها - ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع كروب، والمتراليوز وغيرهما بأيدي أبناء الديانة الأولى قبل الثانية! وكيف وجدت بندقية مارتين في ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين؟ وكيف أحكمت الحصون، ودرعت البواخر، ومخرب كالرواسي وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم - دون أهل الغلبة والحرب.

لم لا يحار الحكيم وإن كان نطاسيًّا، لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة؟ هل القرون الخالية، والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المتمسكين بعراهما! هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريًّا من أجيال بعيدة؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الأخذ بشريعة موسى فقط واقتفاء سيرة يوشع بن نون؟ هل تخللت آيات الإنجيل من حيث لا يدري ولا يدري بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين - أو ألقي شيء منها في أماني معلميهم، وناشري شريعتهم عندما يتربعون في محافل دروسهم؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما؟ هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح، أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين، أو تَعَاصَت[١] النفوس عن الانتعاش بنَقْشَتِه[٢] وهو أول حاكم عليها، وأقوى مؤثر فيها؟ هل

(١) تَعَاصَت: صَعُبَت. (م).
(٢) بِنَقْشَتِه: بما يُسْتَخْرَج منه من أحكام. (م).

تتخلف العلل عن معلولاتها؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها؟ ماذا عساه يرشد العقول إلى كشف المساتير، وحل المُعَمَّيَات[١].

أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس - وكثير من أبناء الملتين يرجعون إلى أصول واحدة، ويتقاربون في الأنساب الدانية - أينسب إلى اختلاف الأقطار؟ وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان، ويتجاورون في مواقع الأمكنة. ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار، وأدهشت الألباب؟ ألم يكن منهم مثل فارس، والعرب والترك - الذين دوخوا الممالك واستولوا على كرسي السيادة فيها - نعم كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع ففزع لها المسيحيون، وغابوا عن معرفة أسبابها.

ذكر ملكام سرجم «الإنكليزي» في تاريخ فارس أن السلطان محمود الغزنوي كان يحارب وثنيي الهند بالمدافع. وكانت أهم الأسباب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة.

فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية - فقدمها إلى ما لم يكن في قواعد دينها؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين - فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم؟ مقام للحيرة وموضع للعجب!

---

(١) المُعَمَّيَات: الأشياء غير الواضحة والمُلْبِسَة. (م).

ولابد لهذا التخالف من سبب - نعم - وتفصيله يطول ولكن نجمل على ما شرطنا:

إن الدين المسيحي إنما امتد ظله، وعمت دعوته في الممالك الأوروبية من أبناء الرومانيين وهم على عقائد، وآداب، وملكات، وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة، وعلومهم وشرائعهم الأولى - وجاء الدين المسيحي إليهم مسالمًا لعوائدهم، ومذاهب عقولهم، وداخلهم من طرق الإقناع ومُسَارَقَة[1] الخواطر - لا من مطارق البأس والقوة - فكان كالطراز على معارفهم، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم. ومع هذا فإن صحف الإنجيل - الداعية للسلامة والسلم - لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين، ثم إن الأحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع، وسنُّوا محاربة الصليب، ودعوا إليها دعوة الدين - التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية، وجرت منها مجرى الأصول، ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوروبا، وافترقوا شيعًا، وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته - وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضرامًا، وتوسعوا في فنون كثيرة، وانفسح لهم مجال الفكر «وأكثر ما أفادهم زحفهم إلى الشرق للحرب الصليبي، واقتباسهم أشياء كثيرة وعودتهم بها إلى المغرب» ومن هناك أخذت براعتهم في الفن العسكري واختراع الآلات الحربية والدفاع تُسَاوِق[2] براعتهم في سائر الفنون.

---

(١) مُسَارَقَة: اخْتِلَاس. (م).
(٢) تُسَاوِق: تُسَايِر. (م).

أما المسلمون - فبعد أن نالوا في نشأة دينهم ما نالوا، وأخذوا من كل كمال حربي حظًّا، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم، بل تقدموا سائر الملل في فنون المُقَارَعَة[١]، وعلوم النزال والمكافحة - ظهر فيهم أقوام بلباس الدين، وأبدعوا فيه البدع، وخلطوا بأصوله ما ليس منها - فانتشرت بينهم قواعد الجبر، وضربت في الأذهان حتى اخترقتها، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال. هذا ما أدخله الزنادقة فيها بين القرن الثالث والرابع للهجرة، وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود، وعدوّها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق - وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث، ينسبونها إلى صاحب الشرع ويثبتونها في الكتب، وفيها السم القاتل لروح الغيرة، وأن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفًا في الهمم، وفتورًا في العزائم. وتحقق أهل الحق، وقيامهم ببيان الصحيح والباطل لم يرفع تأثيره عن العامة - خصوصًا بعد حصول النقص في التعليم والتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقة، ومبانيه الثابتة - التي دعا إليها النبي وأصحابه - فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة، وبين فئة معينة.

لعل هذا هو العلة في وقوفهم، بل الموجب لتقهقرهم، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه.

---

(١) المُقَارَعَة: المُضَارَبَة بالسيوف. (م).

إلا أن هذه العَوَارِض[١] التي غشيت الدين، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته - وإن كان حجابها كثيفًا - لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم، وتغالب لا ينقطع - والمنازعة بين الحق والباطل، كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج. وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ بها نفوسهم، ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة، فلابد يومًا أن يسطع ضياؤها ويَقْشَع[٢] سحاب الغفلة، وما دام القرآن يتلى بين المسلمين، وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم، والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين، وطلب المنعة من كل سبيل - لا يعين لها وجهًا، ولا يخصص لها طريقًا - فإننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مطالبة الزمان، ومقاضاته ما سلب منهم، فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحمة، والمنازلة والمُصَاوَلَة[٣]، حفظًا لحقوقهم، وضنًّا بأنفسهم عن الذل، وملتهم عن الضياع، وإلى الله تصير الأمور.

(١) العَوَارِض: الحَاجَات. (م).
(٢) يَقْشَع: يَكْشف. (م).
(٣) المُصَاوَلَة: المُوَاثَبَة. (م).

ذكره مذهب الجبرية، والمعتزلة، ورأيه في القضاء والقدر وإفاضته فيه

مر معنا فيما سبق من القول في سيرة جمال الدين وصفاته – أن الناس قد تخالفوا في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباينت صوره في مخيلات اللاقفين لخبره – حتى كأنه حقيقة كلية، تجلت في كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله، والرجل في صفاء جوهره، وزكاء مخبره، لم يصبه وهم الواهمين، ولم يمسسه حزر الخرّاصين.

نعم تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأيه، وكذلك المباحث التي كان يدور بها لسانه أثناء مناظراته الجدلية – في بيان عقائد المعطلين – وكان المراد منها إظهار حقائق النحل والبدع، بمعزل عن الاعتقاد بها والجنوح إليها – بل مع تعقيبها بالرد عليها، وإقامة الحجج على بطلانها – يؤيد هذا قول جمال الدين «في الأستانة» لأحد المتلبسين بلباس العلماء – من عِمَّة كَالبَرَج[1]، وجُبَّة كَالخَرَج[2] – يا هذا! أضعتم حقائق الدين بين سوء معقولاتكم، وعدم تفهم منقولاتكم!

---

(١) عمَّة كالبَرَج: عِمَامة تشبه العين في بياضها الذي يحدق بسوادها. (م).

(٢) جُبَّة كالخَرَج: عباءة يختلط لوناها الأسود والأبيض. (م).

وكان السبب في هذا أن الرجل دخل إلى مجلس جمال الدين، وجلس في مكان رفيع فيه من غير أن يدعى إليه، فتركه السيد إجلالاً لطيلسانه، وعملاً بعادته باحترام زائريه. ولما كان البحث في ذلك المجلس دائرًا على ما قالته المعتزلة، وما سببه اجتهاد القدرية، والجبرية اندفع الشيخ المعمم مقاطعًا لكل بحث وقول، متصديًّا لشرح تلك الخلافات والنظريات التي عجزت عندها الفطاحل، وتجردت لها فحول علماء الكلام فتركه جمال الدين يخوض، ويَهْرِف[١] بما لا يعرف، مظهرًا له ارتياحًا لكي يفرغ جعبته، ويستنفد ما عنده، فطمع الشيخ وأول صولة صالها على جار الله الزمخشري فطعن به ما شاء أن يطعن إلى أن قال: هذا الرجل الزمخشري كل من قرأ كتابه الكشاف يخرج من عداد أهل السنة ويكون من الملحدين.

فتنفس عند ذلك جمال الدين الصعداء، وظهرت على وجهه علائم الامتعاض[٢]، والتأثر على خلاف المعهود فيه مع زائريه فقال:

يا حضرة الشيخ هل لك أن ترشدنا إلى مواقف الزلل التي ارتكبها جار الله الزمخشري فنتجنبها، وإلى ما ارتكبه من الشطط الذي أدى به على زعمك إلى الإلحاد؟ قال الشيخ: يكفي أنه من المعتزلة، وأنه من المدافعين في تفسيره عن مذهب الجبرية، ويكفي لتكفيره أن العلامة بن خلدون: قال في مقدمته يجب أن

(١) يَهْرِف: يتكلم على غير معرفة. (م).
(٢) الامتعاض: الغضب. (م).

لا يقرأ كتاب التفسير للزمخشري. وكل عالم يخالف ابن خلدون في اجتهاده هذا يكون مارقًا من الدين، مضلاً ومضللاً للمسلمين.

عند ذلك وقف جمال الدين، ومشى حتى وقف تجاه الشيخ وقال له:

يا حضرة الشيخ! إذا أجبتني الآن معنى الاعتزال من حيث الاشتقاق والمذهب، ومعنى الإلحاد لغة وفقهًا، ومعنى الجبر والجبرية، والقدر والقدرية لغة وفقهًا، إذا أجبت على ذلك ناقشتك فيمن هو المصيب أأنت أم جار الله الزمخشري.

فأجاب الشيخ بالجرأة المعهودة فيمن يتلقفون بعض جمل من مختلف العلوم، ويتصدرون في المجالس لسردها فيوهمون السذج، والبسطاء أن الواحد منهم ارْتَشَفَ[1] وارتوى من العلم المحيط، وأصبح من المتبحرين اللا أدريين، وجاز مراتب الوارثين المحققين!! فقال: لا يهمني يا حضرة السيد ألا أفقه معاني ما سألتني عنه لغة وفقهًا، ويكفي أن أقول لك تحديثًا بنعمة الله أنني من كبار مدرسي السليمانية، وقد أتممت دراسة كل العلوم العقلية، والنقلية والخلافيات، وما قاله علماء الكلام، وعلمت أن الجبرية، والمعتزلة، والقدرية يقولون بأن كل أفعال العبد مسندة إلى الله، وبتقدير منه – ليس للعبد أدنى تأثير فيها – بل هو بمنزلة الجمادات – حتى أن الكفر، والمعاصي بتقدير الله – نعوذ بالله من الشيطان

(١) ارْتَشَفَ: مَصَّ. (م).

الرجيم! هذا يا حضرة جمال الدين مذهب من ذكرت وفي مقدمتهم الزمخشري المارق، المضل!

كان الشيخ عند إيراده ما تقدم من القول على غاية من الحدة - تتحرك يداه وأصابعه، وعيناه فتحًا وإغماضًا، وحاجباه ارتفاعًا، وانحناءً، وجمال الدين يحدق بوجهه، ويرقب حركاته بكمال الهدوء، ومنتهى السكينة. ولما رأى أن جمال الدين أطال السكوت تبين على وجه الشيخ علائم السرور بالظفر. عندئذ قال جمال الدين يا حضرة الشيخ:

إذا قال لك الزمخشري أن حجتي بإسناد أفعال العبد إلى الله سبحانه مأخوذ من صريح النص ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف/ ٢٣-٢٤] و﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان/٣٠] و﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة/٢٥٣] و﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران/ ١٢٨] و﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد/٣٣]، وإذا قال لك الزمخشري: أن الكفر والإيمان بتقديره تعالى الواحد الأحد والقاهر فوق عباده - وأورد عليك حجة من القرآن بقوله لرسوله المصطفى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص/ ٥٦].

ماذا عندك يا شيخ من الحجة على الزمخشري في مذهبه هذا ومستنده القرآن الكريم!

ثم إذا قال لك الزمخشري: أن أفعال العبد راجعة إلى الله بدليل قول المصطفى ﷺ الشقي من بطن أمه والسعيد من بطن أمه وكل ميسر لما خلق له» وقوله في الحديث الطويل «لو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يضروك بشيء لم يضرك الله به ما أضروك ولو اجتمعوا» أو كما قال «ما نفعوك جفت الأقلام وطويت الصحف إلخ» ثم يا حضرة الشيخ لو قال لك الزمخشري: أن أعمال التقوى والفجور من العبد مرجعها أيضًا إلى الله سبحانه القاهر فوق عباده وأورد لك حجة من القرآن أيضًا بقوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس/ ٧-٨] وإذا قال لك أنه لا يصح إيمانك إلا أن تؤمن أيضًا بالقدر خيره وشره من الله تعالى. و«لله الخلق والأمر وإلى الله ترجع الأمور» و. و. ومما تكرر وروده في القرآن والحديث ماذا يكون جوابك، وما عندك من الدفع؟

ثم قال: يا حضرة الشيخ! كنت فيما مضى من حياتي، وفي أول نشأتي أثناء جريي وراء العلماء للاستفادة من منقولاتهم، ومعقولاتهم - أمرّ على مقامات - أغربها وأدهشها أنني عندما كنت أستفيد جملة من شيخي يهجم عليّ الغرور، فأتهجم على أستاذي بتَنْقِيد كلماته ولو من قبيل الصرف والنحو الذي تعلمته منه، وعهدي إذ ذاك فيه حديثًا فأخطئه أحيانًا بالعلمية والعجمة، ووزن الفعل إذا هو لم يراع حقهم في كلامه - ثم كانت تأخذني عزة الغرور من الجهل فأستكبر من سؤاله عما جهلته من مثل: الفرق بين مذهب القدرية، والجبرية والمعتزلة، حتى إذا كنت يومًا في حلقة درسه وكان أحد رفاقي يشاكلني إذ ذاك في الغرور،

فخلط بحضرة أستاذنا بين مذهب الخوارج، والقدرية، والجبرية، والمعتزلة، وجعلهم شيئًا واحدًا غير مميز بين فرقة وأخرى. قال الأستاذ بلهجة ناصح: أولادي الأعزاء! خذوا العلم عمن أدبه العلم فأحنى ظهره إجلالاً له، وأفضى ببصره بساطع نوره، وخفف صوته خشية أن يسكته من هو أعلم منه – وفوق كل ذي علم عليم – أما المعتزلة فليس من العدل أن ننظر إلى كل مذهبهم بعين السخط، ولا أن نقبل مرتآهم بعين الرضى، إذ فيهم من أجلة العلماء، والأئمة من يطاطئ الخلف رأسه إجلالاً لهم – فواصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس أستاذه الحسن وجلس عند أسطوانة من أسطوانات المسجد النبوي، وعلم بالمنزلتين وقال: إن لكل شكل مبتدأ ومنتهى وبينهما وسط لا محالة، فبين الكفر المطلق والإيمان المطلق منزلة متوسطة لا يصح معها الإطلاق، بمعنى أن صاحب الكبيرة «أي الذنب العظيم» لا يصح الحكم عليه لا بالكفر المطلق، ولا بالإيمان المطلق، بل يجب وضعه في المنزلة المتوسطة.

قال الأستاذ: هذا نظر لا يصح نبذه ظهريًا، أو عدم الاعتداد به، وقد قال الشارع الأعظم ﷺ: «من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة».

أما نظر المعتزلة، وما قيل عنهم، أو قالوا به أنهم اعتزلوا فئتي الضلالة وهما الخوارج وأهل السنة، فأرى في هذا شططًا، وهو ما أدى إلى تفرغ العلماء لقدح زناد فكرهم بإيراد الحجج نفيًا أو إثباتًا لأمور في الفروع كان الأولى الاقتصاد بها

والوقوف عند حدود ما تتم معه الفائدة من فهم مقاصد الشارع من نفع الخلق في أمور العبادات والمعاملات.

ثم قال: إن مذهب الجبرية - وهي من أكبر الفرق الإسلامية في وقتها وأكثرها جدلاً - لم يكن في كل ما ارتأته محض الحق أو ما يجوز الأخذ به للمسلمين كافة؛ لأن في مباحثهم وأسس مذهبهم بإسناد أفعال العبد كلها إلى الله تعالى، وجحودهم الجزء الاختياري والكسبي مذلة أقدام لضعفاء العقول، قصار النظر من الأمة، ولا يسلم إلا الثابتون في إيمانهم، الراسخون في عقيدتهم؛ إذ في تلك المباحث عقبات كؤود، ومقامات تشبه في اجتيازها هول الصراط، وهي إلى العلم الروحاني أقرب منها إلى العلم الجسماني.

وأما ما ورد عن لسان الجبرية ووافقت به المعتزلة في بحثهم عن قول الإنسان «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» هذه الاستعاذة من الشيطان إن كانت؛ كي لا يوسوس للإنسان حتى لا يعصي الله ويعصمه منه، فأما أن يكون الباري تعالى عالم بالمحدثات كلها، وسبق في قضائه الأزلي منع الشيطان أو عدم منعه، فإن كان الأول وهو المنع للشيطان بالزجر الإلهي، وقهره ألا يفعل وألا يوسوس كان الشيطان أحقر من أن يخالف أمر الله وكانت الاستعاذة لا معنى لها، وإن كان الشيطان مأمورًا أن يوسوس للإنسان بأمر الله كان الشيطان مسلطًا، ومدفوعًا بأمر لا مرد له فلا نفع ولا فائدة من الاستعاذة إلخ.

وإن الله إنما يريد إصلاح العبد، ولا يريد إلا الخير لعباده، وما ربك بظلام للعبيد.

كل مثل هذه الشبهات والخواطر لا يجوز الأخذ بها على ظاهرها؛ لأن لها من المقامات – كما ذكرنا – لا تحصل ولا يمكن الوصول إليها إلا بمجاهدات نفسية وإمداد ليدخل وراء الشارع الأعظم إلى حضرة «لا إله إلا الله» ولا فاعل إلا الله، بدليل قول المصطفى ﷺ «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك، وأعوذ بك منك ولا أحصي ثناء عليك أنت كما أنت، وكما أحصيت على نفسك» هذا المقام الأسمى من المقامات المحمدية التي علم بها بعالم الشهود لمقام التعينات أن الله تعالى هو الفاعل المختار لا رب سواه.

ولسان حال الربوبية ينادي عبادًا نفخ في ترابهم نسمة من روحه، فتألهوا بها مع هيكلهم الترابي، فتقولوا على بارئ النسم وقد أنشأهم من العدم، وحاموا جهلاً وغرورًا حول إدراك تلك القوة التي تناديهم من فوق عظم يحيط رؤوسهم، ويضغط على أدمغتهم حتى لا تتعالى فوق قدرها، ولا تتجاوز إلا ما كان من القدر المعلوم.

قال الأستاذ علي منلا خان: أما القضاء والقدر، فيجب التنبه فيهما إلى معنى التعريفات؛ إذ كثيرًا ما يظنون القضاء والقدر شيئًا واحدًا بالمعنى والمبنى. وخير التعاريف: أن القضاء هو ما قضى به الخالق سبحانه جملة في اللوح المحفوظ

بالتعينات الأزلية. والقدر ما تنزل على الأرض بالتدريج من ذلك المجموع واحدًا فواحدًا، حادثًا فحادث بشخص معلوم، في زمن محدود، بسبب معين - كموت زيد في المرض الفلاني، بالعلة الفلانية - هذا ما قاله أستاذنا، وأظن أن كل ذلك يا حضرة الشيخ هو من منسياتك في السليمانية! فما عندك من الدَّحْضِ(١)، والدفع لتقوّلات الزمخشري، ومذاهب الجبرية، والمعتزلة، والقدرية؟ فبهت الشيخ بهتة رجل ظهر على وجهه أنه لم يفقه كل ما قيل، ولم يحب أن يظهر على نفسه العجز، فجمع نفسه، واعتصم بالجرأة وقال: يا حضرة السيد؛ إن ابن خلدون أعلم مني ومنك وهو الذي حذّر من قراءة تفسير الزمخشري، فما قولك أنت بتحذير ابن خلدون.

فطلب جمال الدين مقدمة ابن خلدون وقرأ فصل التفاسير حتى وصل إلى ذكر الزمخشري، وإذا هو يقول بالحرف الواحد: «إن خير ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفًا على المذاهب السنية، محسنًا للحجاج فيها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه....».

---

(١) الدَّحْضِ: الإِبْطَال. (م).

هذا ما قاله ابن خلدون يا حضرة الشيخ، ومنه يعلم أن الشرط الأعظم الذي وضعه ابن خلدون لمن يحب أن يستفيد من تفسير الزمخشري، أن يكون ذا قدم ثابت في العقائد، وعلم راسخ في حقائق العبادات. عندئذ يستفيد ما شاء أن يستفيد من تفسير الزمخشري لأنه «أبدع ما شاء أن يبدع».

هذا ما كان يا حضرة الشيخ في شأن ما قاله ابن خلدون - فما عندك بما بقي من المطاعن؟

قال الشيخ: يا حضرة السيد جمال الدين! «أنت والزمخشري ومن نَحَى نحوكم من علماء المنطق يصعب على مثلي مجادلتكم، وإذا عجزت عن إيراد الحجة فلا يستفاد من عجزي ثبوت مذهب الجبرية الذي وافق المعتزلة على أهمها، تقول الجبرية والمعتزلة أن الاستعاذة من الشيطان لا فائدة منها - كما ذكر ذلك عن لسان الزمخشري وأمثاله.

وقد ورد في صريح النص «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم» فهل يصح اجتهاد في مورد النص؟ وهل لم يثبت من قول ابن خلدون أن تفسير الزمخشري مخوف، ومحظور على أهل السنة مطالعته؟ أجاب جمال الدين يا حضرة الشيخ! إنني للآن ما أعلنت، ولا صرحت عن مذهبي في هذه الجدليات، ولكن أوردت أقوال أهل تلك البدع والنحل على علاتها، وأحببت

البحث معك لكي أَسْبِرِ غَوْرَكَ[1]، ومبلغ ما عندك من الحجج التي اعتمدتها أهل السنة، وما يدحض حجج أهل الاعتزال والجبرية - وهما لم يخرجا في ظاهر اجتهادهما عن العتاب - وقد أطلقوا للعقل سراحه معتمدين على قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف/ ٢] و﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف/ ٣] والعقل يا حضرة الشيخ يسع التكليف قبل ورود الشرع وهو، أي العقل، أعظم من كل خلق.

الاستعاذة من الشيطان - تقول الجبرية وغيرهم أنه من الأمور التي يحق للعقل الإنساني أن يبحث فيه من وجوه - أولاً هل فوق الشيطان من هو أقدر منه؟ ثانيًا: هل أن القوة القادرة والقاهرة للشيطان محيطة بالمحدثات أو غير محيطة، عالمة أو غير عالمة؟

والجواب يا حضرة الشيخ: لابد أن يكون أن الله سبحانه وتعالى أقدر من الشيطان، وأنه سبحانه محيط بكل الحوادث أليس كذلك؟ قال الشيخ: نعم.

إذًا؛ إذا قال الشيطان يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها - يا رب وسوست لزيد من الناس بأن يفعل الشيء الفلاني وهو من المسطور في لوحك المحفوظ، وكتابك المسطور الذي سبق قضاؤك به - فأي سلطان لي على محو

(١) أَسْبِرِ غَوْرَكَ: أكشف عمقك. (م).

قضائك؟ وأي حول لي على عدم تنفيذ إرادتك - جعلتني مرجومًا ملعونًا - فإن كان ذلك بسبب جرم صدر مني من غير سبق علم لك، ولا إرادة، ولا قضاء فيه.

تعالت عظمتك، وجلت قدرتك أن يكون لك شريك في الملك، وأنت وحدك لك الخلق والأمر. وإن كان رجمي وجعلي ملعونًا بغير ذنب صدر مني، فحكمك إذًا عليّ أيها العادل محض الظلم - حالة كوني لم أخرج من عداد عبادك - وقلت وقولك حق ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت/ ٤٦].

وإن كنت سلطت عليّ شيطانًا آخر لأكون من جنده لإغواء عبادك، فمن غيرك المسلط له، وليس لغيرك سلطان مطلق لا في السموات ولا في الأرض: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن/ ٣٣].

وإذا امتنع التسلسل بالشياطين - وهو ممتنع لا محالة - لأنه لابد أن يصل إلى آخر ليس بعده آخر - فما تقول يا حضرة الشيخ بقول هؤلاء الجبرية والمعتزلة؟ قال الشيخ:

يا حضرة السيد، كل هذه المغالطات، والسفسطات من المعتزلة، والجبرية قرأتها أساتذتنا في مطولات التفاسير مثل الفخر الرازي، وشرح الكشاف لابن الطيبي، وقد دحضت علماء أهل السنة، وفنّدت مزاعمهم وأثبتت فساد حججهم. ومع كوني أعجميًا عن اللسان، وبعيدًا عن الحجاج - يمكنني ببسيط

العقل، وقلة النقل أن أرد كل ما جاء من علماء وأئمة المعتزلة، والجبرية بسؤال واحد هو:

أما أن الأديان ومنها الإسلام بما ورد فيها من التكليف حقًّا وواجب الاتباع، وعلى اتباعه يكون الثواب، وعلى مخالفته يقع العقاب.

وأما إذا صح مذهب الجبرية، والمعتزلة - بأن كل أفعال العبد من خير، وشر، وإقرار بوحدانية، أو شرك، وفسق، أو فجور أو سرقة أموال وقتل أنفس، أو ما هنالك من الموبقات والشرور - كل ذلك يفعله العبد بأمر من الله، وعملاً بقضائه وقدره، ومتى صح إطاعة العبد لربه بأفعاله هذه صح له أن يطلب من الله مثوبة على إطاعته لأمره وقضائه بفعل القتل، والسرقة، والكفر إلخ. كما يطلب من أطاعه بأداء الزكاة والفروض وعمل الخيرات، وما هنالك من أعمال الخير والبر التي وعد بالثواب عليها المتقون.

فيا حضرة السيد! أنت تقول أنك من أبناء نبي هذه الأمة ولك شهرة طائرة بين المسلمين - منهم من يقول عنك إنك من خيرة العلماء الواقفين على حقائق ودقائق الشرع وأحكامه، ومنهم من يقول إنك مارق من الدين لا اعتقاد لك بالأديان، ولا بمن أتى بها من الرسل. وقد حملتني من الأسئلة عن لسان الزمخشري، وعن واصل بن عطاء المعتزلي، وعن مذهب الخوارج السبعة من أباضية، وصفرية، وغيرهما أسئلة - ما كنت قبل وجودي في مجلسك أعلم شيئًا

عن مذاهبهم بالتفصيل – فالآن إذا شئت أن تفصح لي – أولاً عن مذهبك الخاص لأكون إما متبعًا لك إذا وجدته موافقًا لنفسي، وإما أن أتجنبك لأن شبهات أهل الجبر وحججهم، واستنتاجاتهم مما يضل العقل في سبيل ردها– خصوصًا إذا كان ضعيفًا مثلي – والقرآن والتكليف الشرعي يعارضهم – والحجج مع أهل السنة على ما أرى ضعيفة. ومختصر القول يا جمال الدين: أما دين متبع بكل ما ورد فيه من أمر، أو نهي، أو جبر لا لزوم للتكليف معه لا بأمر ولا بنهي. هذا هو الإشكال في سبيل أمثالي من الأمة، فإن استطعت يا حضرة السيد أن تكشف لنا النقاب، وتذلل لنا الصعاب، وترينا حقيقة تزيل من نفوس مرضاء القلوب، قصار النظر ما يعتريها من الارتياب فافعل ولك الشكر، وجزيل الأجر.

قال جمال الدين: أيها الشيخ المحترم، إن موقفك اليوم كان عين موقفي تجاه أستاذنا علي منلا خان؛ إذ كانت تشد إليه الرحال لحل المشكلات والمعضلات من أقطار الهند، وبلاد الأفغان، وإني لأذكر لك ما قاله وما أجاد به وأفاد في هذا الموضوع الخطير.

قال أيها الأعزاء! إن دين الإسلام المأخوذ عن القرآن قد أجاز وأباح الجدل بالتي هي أحسن، ومنع المُخَاشَنَة[١] به، وما أحسن الجدل إذا كان المراد منه استجلاء الحقيقة بعيدًا عن التعنت.

(١) المُخَاشَنَة: ضد اللين في القول والفعل. (م).

تنبهوا أيها الأعزاء لأمر غاية في الخطر، والدقة لفهم كتاب الله وما أتى به من التكليف بنهي أو أمر. فالتكليف وقع على الإنسان دون سائر الحيوان، وفي أولئك الحيوانات من الصفات ما يضارع الإنسان، ويشاكله إذا لم نقل يفوقه بعضهم حِسًّا، وشعورًا، ووفاءً، وصبرًا إلى آخر ما هنالك من الصفات العالية - ولكن لم يقع عليها التكليف - ولماذا؟ نعم لماذا جعلها مع تلك الصفات مسخرة للحيوان الإنساني وهو أضعف من أكثرها بنية، وأقل صبرًا، وأشد منها عتوًّا، وأكفرها نعمًا، وأقربها جزعًا إذا مسه شيء من الضر.

قدرة سخرت للإنسان ما في الأرض جميعًا، وجعلت آلة التسخير لتلك الموجودات «روحانية عقله» ليتصرف بها ويسخر بها من دونه من جماد وحيوان ونبات - خلق ذلك الإنسان بأحسن تقويم، وعلى شبهه وأمثاله وجعله خليفة عنه في الأرض.

فإله علم بكل المحدثات، وقضى قضاءه، وقدر قدره، وأعطى الإنسان جزءًا من ألوهية، يسخِّر بها ما في الأرض من حيوان وغيره، ويتصاعد إلى ما فوقه من العلويات، وأعطى روحه شيئًا من الإحاطة بغيبه في موته الصغير - وهو نومه - ذلك الإنسان! ذلك الجرم الصغير! الذي انطوى فيه العالم الأكبر! حقيق، وجدير أن يفقه أقل مراتب الترجيح؟

أينا أيها الأعزاء إذا وقف على مال لا صاحب له – لا يتردد بين أخذه أو تركه، فإذا ترجح لديه تركه وقع فعل الترك، وإن ترجح له أخذه وقع فعل الأخذ لا محالة. فعلى هذا الترجيح الذي يقع به الفعل أو الترك، على ذلك المرجح يقع الثواب أو العقاب!

فكل أمر يحدث للإنسان فكرًا «ويقترن فعله مع زمن ويكون للإنسان آن ولو غير منفصل لأعمال الفكر «ولو بسرعة البرق» في الفعل أو في الترك، وكلما دخل ويدخل تحت هذا القيد من أفعال الإنسان يكون مؤاخذًا به، وأمور لا دخل لترجيح البشر فيها، ولا أدنى تأثير في عملها، أو تركها ففيها نظر ذلك ما شوش على أهل الخير في فهمها وعدم التفريق بينها وبين ما للإنسان من الترجيح فيها، وهو ما يسمونه بالكسب أو الجزء الاختياري، وضرب لنا المثل الآتي فقال:

القتل المحرم في الشرائع – وهو قتل النفس – على مطلق المعنى: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [الفرقان/ ٦٨] ولكن أتى التفصيل في الشرع أن القتل على أنواع – فقاتل العمد يقتل، وقاتل معذور يعفى، ثم أتى على أنواع المعذرة، وجل ما ورد في العمد أن القاتل لابد أن يسبق فعله التصور والتصمم، ويكون له فرصة يفتكر فيها بالإقدام على فعل القتل، ويتردد بين ذلك الإقدام أو الإحجام، ثم وهو بين ترجيح الفعل أو ترجيح الترك يترجح له جانب العمل فيقع الفعل بترجيحه – وهو فعل القتل – فيقتل بذلك الترجيح الذي يقولون عنه أنه «العمد».

ورجل يستأجر آخر في منجم من مناجمه فتقع عليه صخرة فتميته، أو تنطلق رصاصة من بندقية فتصيب مارًّا فتقتله. هذا المستأجر، ومطلق الرصاصة لا يطالبهما الشرع لا بديَّة، ولا ينظر إليهما بنظر قتلة، ولماذا؟ والنتيجة من حيث هي قتل لنفس بشرية «واحدة»، ذلك لأن في الأمر الأول وهو القتل عمدًا – وقد ترجح أحد طرفي الفعل أو الترك فرجح الفاعل أحدهما فوجب أن يقع عليه ما يقع من ثواب وعقاب. وأما القتل الثاني فإن صاحب المنجم، ومطلق الرصاصة ليس لهما أدنى دخل لا في ترجيح القتل، ولا في عدمه – فكان هنالك محض القدر الذي ليس للبشرية دخل فيه.

هذا يا حضرة الشيخ ما قاله أستاذنا علي منلا خان، وإليه انتهت الرياسة في المعقول والمنقول، ومع ذلك لم يسلم من تَصَلُّف[١] وتعنت بعض تلاميذه إذ قال أحدهم: مولانا، إذا سلمنا بالترجيح، وأن المرجح هو الذي يقع عليه بترجيحه العقاب، فهل المرجح هو الإنسان بدون أن يكون للإله دخل في الترجيح؟ وهل هو الإنسان في الظروف التي أشرت إليها هو خالق لأفعال نفسه بدون أمر الخالق؟

وعلى هذا أجاب الأستاذ قائلاً: إن ما سبق من القول في هذا المعنى كفاية ومختصرها أن أفعال العبد التي يقع الترجيح فيها – معدودة، محدودة – وهي التي جاء التكليف بها وحظر الشرع عملها، وأوجب العقاب عليها. فالشارع

(١) تَصَلُّف: تَكَبُّر. (م).

الأعظم أتى مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وكان شرعه أوضح، وأصرح وأقرب تناولاً للفطرة، ولاستنتاج العقل السليم.

فالمنهي عنه في الشرائع كلها ما خرج عن: لا تقتل، لا تسرق ولا تزنِ وإلخ ما هو معلوم عند أهل الكتاب وصدقت عليه الحنيفية البيضاء، وأوجبت عقابًا لمن خالف النهي فيها.

وكل تلك المنهيات لم تخرج عن كونها أفعال إنما يأتيها الإنسان بعد التصور والتردد بين فعلها، أو تركها – والفعل في القتل العمد، والسرقة لمال الغير مع تحين زمن السرقة، وإعداد المفاتيح، وآلات السرقة، لابد أن يكون بترجيح الإنسان – ولا منكر لذلك إلا مكابر ومتعنت، إذا رجع إلى نفسه علم عِلْم اليقين أنه المؤاخذ بما رجح من عمله.

وما خرج عن دائرة ترجيح العبد – بلا تَخَرُّص[١]، ولا سَفْسَطَة[٢] – فأنا أقول لكم أن الله سبحانه – لا يسأله عنه، ولا يعاقبه عليه.

وكذلك ما أتت به الرسل من التشريع فإنها وافقت حكمة الله فيما يستطيع العبد أن يعمله، وما هو خارج عن استطاعته فلا عقاب عليه فيه.

(١) تَخَرُّص: كَذب وافْتِرَاء. (م).
(٢) سَفْسَطة: جِدَال بخداع وتضليل. (م).

وليس في كل التكليفات الشرعية – من أمر أو نهي – فيهما ثواب أو عقاب إلا ولترجيح الإنسان فيهما كل الدخل، ثم قال مكررًا – السارق بعد أن يعد آلة السرقة، ويفتح المغلقات، ويأخذ ما فيها من متاع ونقود – إذا وقع في يد القضاء يقول «قدر الله» – وهكذا القول في الزاني بعد أن يعمل لاستهواء، واستغواء المعصومات – إذا افتضح أمره يقول «قدر الله». والحقيقة في كل تلك الأفعال شعور ذلك المرجح وهو الإنسان أن ما فعله قبيح، ولو عومل بمثل ما عامل به الغير – فسرقوا له ماله، أو فضحوا له عرضه، أو قتلوا من يهمه – لأكبر الأمر، ولطلب تشديد العقوبة على من فعل، ولو كان من أكبر الجبريين لرجع عن جبره وقال بالجزء الاختياري، والكسبي طالبًا عقاب المجرم!

ثم اختتم الأستاذ مقاله قائلاً: أيها الأعزاء – ما خلق الله خلقًا أشرف من العقل الذي وهبه لخليفته في الأرض وهو «الإنسان» فسخر له، ما في السموات وما في الأرض – فجدير ألا يجعل لحيوانية قوامها التراب أن تتغلب على تلك «الروح» ذات العلاقة في الملأ الأعلى – لأمور كل نتائجها ندم وملذات حقيقتها دفع ألم – ويا ليت تلك الآلام تزول بعد الموت – هيهات!

ولا يرتاب أحد منكم أن الشارع الأعظم ﷺ قد تحرى الأنفع والأصلح للأمة – فنهى عما نهى عنه للخير المطلق، وأمر بما فيه الأليق. هذا بقطع النظر عن الثواب الأخروي، أو العقاب الدنيوي!

قال الشيخ: يا حضرة السيد إن أقوال مولانا أستاذكم علي منلا خان التي أنرت بها عقولنا، وشرحت بها صدورنا، لهي خير ما سمعته للآن، وأعظم ما تأثرت به نفسي. بقي شيء مهم ألا وهو تهجم المتفرنجين من المسلمين وموافقتهم للأعداء في الأخذ على الدين الإسلامي وأهله، وأن سبب انحطاطهم، وتقهقرهم، وفقدان ما كان لهم من عزة السلطان، ونفوذ الكلمة، وتسخير معظم الأرض إن هو إلا لاعتقادهم «بالقضاء والقدر» واستسلامهم لهذه العقيدة، حتى آل أمرهم إلى ما آل إليه مما نراه من ذل، واستعباد وإلخ!

فما رأي السيد في هذا؟ أجزل الله ثوابه ونفع بعلومه.

فتبسم جمال الدين وقال: أراك يا حضرة الشيخ تحسن النطق بالعربية وأظن أنك تحسن فهم ما تقرأ، وغدًا إن شاء الله أعطيك مقالاً مطبوعًا في بحث «القضاء والقدر» طبع ونشر في مدينة باريس قبل أحد عشر عامًا، نقرأه سوية حتى إذا أشكل أمر تعاونا على حله إن شاء الله.

وفي الغد كان الشيخ أول زائر تربع في حجرة الاستقبال، واستنجز السيد وعده - فلبَّاه - وألقى علينا وعليه ما يأتي:

قضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانًا على الأعمال البدنية - فما يكون من صلاحٍ أو فساد فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها، وربَّ عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ثم تظهر على البدن

بأعمال تلائم أثرها في النفس. وربَّ أصل من أصول الخير، وقاعدة من قواعد الكمال إذا عرضت على الأنفس في تعليم، أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع، فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها، أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة، والاعتقادات الباطلة - فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه - وفي كلا الحالين يتغير وجهها، ويختلف أثرها، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم، أو على خبث في الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلك على غير علم من المعتقد، كيف أعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده. والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة، ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الأديان غالبًا، بل هو علة البدع في كل دين على الأغلب. وكثيرًا ما كان هذا الانحراف، وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع، وقبائح الأعمال - حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به إلى الهلاك وبئس المصير. وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الأديان، أو عقيدة من العقائد الحقة استنادًا إلى أعمال بعض السذج المنتسبين إلى ذلك الدين أو العقيدة.

من ذلك عقيدة «القضاء والقدر» التي تعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحقة - كثر فيها لَغْط[1] المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة، والقوة، وحكَّمت فيهم الضعف

(١) لَغْط: أصوات مُبْهَمَة لا تُفْهَم. (م).

والضعة، ورموا المسلمين بصفات، ونسبوا إليهم أطوارًا ثم حصروا علتها في الاعتقاد «بالقدر»، فقالوا إن المسلمين في فقر وفاقة، وتأخر في القوى الحربية، والسياسية عن سائر الأمم، وقد فشى فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب، والنفاق، والخيانة والتحاقد، والتباغض، وتفرقت كلمتهم، وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون، وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة. ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضر أخاه لا يقصر، بل يسرع في إلحاق الضرر به، فجعلوا بأسهم بينهم، والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى - رضوا بكل عارض واستعدوا لقبول كل حادث، وركنوا إلى السكون في كور بيوتهم، يسرحون في مرعاهم ثم يعودون إلى مأواهم.

الأمراء فيهم يقطعون أزمنتهم في اللهو واللعب، ومُعَاطَاة الشهوات[١]، وعليهم فروض وواجبات تستغرق أعمارهم في أدائها ولا يؤدون منها شيئًا، يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم إسرافًا وتبذيرًا، نفقاتهم واسعة ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة، يتخاذلون ويتنافرون، ويُنِيطُون[٢] المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية - فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة - كل منهما يخذل صاحبه، ويستعدي عليه جاره فيجد الأجنبي فيهما قوة فانية، وضعفًا قاتلاً فينال من بلادهما ما لا يكلفه عددًا ولا عدة. شملهم الخوف، وعمهم

(١) مُعَاطَاة الشهوات: مناولتها مرة بعد أخرى. (م).
(٢) يُنِيطُون: يُعلِّقون. (م).

الجبن والخَوْر[١]، يفزعون من الهمس، ويألمون من اللمس، قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأمم من العزة، والشوكة، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم – مع رؤيتهم لجيرانهم – بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم، ويباهونهم بما يكسبون، وإذا أصاب قومًا من إخوانهم مصيبة، أو عدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم، ولا ينبعثون لمناصرتهم، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية، يكون مقاصدها الغيرة، وتنبيه الحمية، ومساعدة الضعفاء، وحفظ الحق من بغي الأقوياء وتسلط الغرباء.

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات، وتلك الأطوار، وزعموا أن لا منشأ لها إلا اعتقادهم «بالقضاء والقدر» وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الإلهية، وحكموا بأن المسلمين إذا داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة، ولن ينالوا عزًّا، ولن يعيدوا مجدًا، ولا يأخذون بحق، ولا يدفعون تعديًّا، ولا ينهضون بتقوية سلطان، أو تأييد ملك. ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم، ويَرْكُس[٢] من طباعهم حتى يؤدي بهم إلى الفناء والزوال «والعياذ بالله» يفني بعضهم بعضًا بالمنازعات الخاصة، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الأجانب.

واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر، وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله،

---

(١) الخَوْر: الضَّعف والانكسار. (م).
(٢) يَرْكُس: يَرُدّ. (م).

وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل. ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول، ولا عمل، ولا حركة، ولا سكون، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة، وقدرة قاهرة فلا ريب تتعطل قواهم، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك، والقوى، وتمحى من خواطرهم داعية السعي، والكسب. وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم.

هكذا ظنت طائفة من الإفرنج، وذهب مذهبها كثيرون من المتفرنجين وغيرهم من ضعفاء العقول في المشرق، ولست أخشى أن أقول: كذب الظان، وأخطأ الواهم، وأبطل الزاعم، وافتروا على الله والمسلمين كذبًا - لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني، وشيعي، وزيدي، واسماعيلي، ووهابي، وخارجي يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءًا اختياريًّا في أعمالهم ويسمى «بالكسب» وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية، والنواهي الربانية الداعية إلى كل خير، الهادية إلى كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل.

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطرارًا لا يشوبه اختيار، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك

الشخص فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته، ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة، وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون.

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع، بل ترشد إليه الفطرة، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى كل حادث له سبب يقارنه في الزمان - وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها - وأن لكل منها مدخلاً فيما بعده، ذلك بتقدير العزيز العليم.

وإرادة الإنسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة، وليست الإرادة إلا أثرًا من آثار الإدراك - والإدراك أثر من انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها وبما أودع في الفطرة من الحاجات - فلظواهر الكون من السلطة على الفكر، والإرادة ما لا ينكره أبله فضلاً عن عاقل، وأن مبدأ هذه الأسباب التي ترى في مظاهر مؤثرة إنما هو تأييد مدبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته، وجعل كل حادث تابعًا لشبهه كأنه جزء له، خصوصًا في العالم الإنساني.

ولو فرضنا أن جاهلاً ضل عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم – فليس في إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية، والحوادث الدهرية في الإرادات البشرية – فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السُّنة التي سنها الله في خلقه؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلاً عن الواصلين، وأن بعضًا من حكماء الإفرنج وعلماء سياستهم التجأوا إلى الخضوع لسلطة القضاء، وأطالوا البيان في إثباتها، ولسنا في حاجة إلى الاستشهاد بآرائهم.

إن للتاريخ علمًا فوق الرواية – عني بالبحث فيه العلماء من كل أمة – وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها، وهبوطها، وطبائع الحوادث العظيمة، وخواصها، وما ينشأ عنها من التغيير، والتبديل في العادات، والأخلاق، والأفكار، بل في خصائص الإحساس الباطن والوجدان، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم وتكوّن الدول، أو فناء بعضها واندراس(١) أثره.

هذا الفن الذي عدوه من أجلّ الفنون الأدبية وأجزلها فائدة، بناء البحث فيه على الاعتقاد «بالقضاء والقدر» والإذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر الكائنات، ومصرف للحادثات، ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع، ولا ضعف قوي، ولا انهدم مجد، ولا تقوض سلطان.

---

(١) اندراس: ذَهَاب الأثر. (م).

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام، وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على اقتحام المهالك التي تُوجَف[1] لها قلوب الأسود، وتنشق منها مرائر النمور.

هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات، واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلي الجود، والسخاء، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلي عن نضرة الحياة. كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذي يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه، وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك، وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق، وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية. امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران/ ١٧٣-١٧٤] اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها، ويتسلطون عليها، فأدهشوا العقول، وحيروا الألباب بما دوّخوا من الدول، وقهروا من الأمم، وامتدت سلطتهم من

(١) تُوجَف: تَخَاف. (م).

جبال بيريني الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين كما سبق القول مع قلة عددهم وعِددهم، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة، وطبائع الأقطار المتنوعة. أرغموا الملوك، وأذلوا القياصرة، والأكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة! إن هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات!

دمروا بلادًا، ودَكْدَكُوا[١] أطوادًا، ورفعوا فوق الأرض أرضًا ثانية من القَسْطَل[٢]، وطبقة أخرى من النَّقْع[٣]، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم وأقاموا بدلها جبالاً، وتلالاً من رؤوس النابذين لسلطانهم، وأَرْجَفُوا[٤] كل قلب، وأرعدوا كل فريصة. وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد «بالقضاء والقدر»!

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش من الأعداء يغص بها الفضاء، ويضيق بها بسيط الغَبْرَاء[٥] فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم.

---

(١) دَكْدَكُوا: هدموا. (م).
(٢) القَسْطَل: الغُبَار الساطع. (م).
(٣) النَّقْع: هو كُلّ ماء مُسْتَنْقَع. (م).
(٤) أَرْجَفُوا: أَجْزَعُوا وأَخَافُوا. (م).
(٥) الغَبْرَاء: الأَرْض الجَدْبة. (م).

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على المتهجمين للحروب من أهل المغرب - وهو الذي حملهم على بذل أموالهم، وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم، لا يخشون فقرًا ولا يخافون فاقة!

هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم، ونسائهم، ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانًا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم، وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه. ولا يفرق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح، ولا تأخذ الناس رهبة، ولا تغشى الأولاد مهابة.

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب، ويبدد أفلاذ الأكباد - حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة - قبل أن يَشِيمُوا[١] بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم، بل قبل أن تصل إلى تُخُومِهِم[٢] أطراف جَحَافِلِهم[٣]!

أقول ولا أخشى واهمًا ينازعني فيما أقول أنه من بداية تاريخ الاجتماع البشري إلى اليوم ما وجد فاتح عظيم، ولا محارب شهير، نبت في أوسط الطبقات

---

(١) يَشيمُوا: يَغْمدُوا. (م).
(٢) تُخُومِهم: حُدُودِهم. (م).
(٣) جَحَافِلِهم: جُيُوشِهم. (م).

ثم رقي إلى أعلى الدرجات، فذللت له الصعاب، وخضعت الرقاب، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب، ويبعث الفكر لطلب السبب إلا كان معتقدًا «بالقضاء والقدر».

سبحان الله! الإنسان حريص على حياته، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة، فما الذي يهوّن عليه اقتحام المخاطر، وخوض المهالك، ومصارعة المنايا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر، وركون قلبه إلى أن المقدر كائن ولا أثر لهول المظاهر!

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي «كيخسرو» وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الأقدمين، ما تسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة إلا لأنه كان معتقدًا بالقضاء والقدر، فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ولا توهن عزيمته شدة. وأن إسكندر الكبير المكيدوني كان ممن رسخت في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة. وجنكيز خان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، وكان نابليون الأول بونابرت الفرنساوي من أشد الناس تمسكًا بعقيدة القضاء، وهي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيفة الكثيرة فيتهيأ له الظفر وينال بغيته من النصر، ويقتحم المهالك ويتعرض للموت ولا يبالي، فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الإنسانية من رذيلة الجبن - وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقة أيًّا كانت - نعم، إنا لا ننكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر - وربما كان هذا

هو السبب في رزيئتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها الحوادث في الأعصر الأخيرة - ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح، وما كانوا يعملون، وينشروا بينهم ما أثبتته الأئمة رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وأمثاله - من أن التوكل، والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل لا في البطالة والكسل - وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا، وننبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين، الحائدين عن الصراط المستقيم، ولا يرتاب أحد من أهل الدين الإسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف، وليس بين المسلمين وبين الالتفات إلى عقائدهم الحقة التي تجمع كلمتهم، وترد إليهم عزيمتهم، وتنهض همتهم لاسترداد شأنهم الأول إلا دعوة خير من علمائهم وأن جميع ذلك موكول إلى ذمتهم.

أما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر، فليس منشؤه هذه العقيدة ولا غيرها من العقائد الإسلامية، ونسبته إليها كنسبة النقيض إلى نقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة إلى النار.

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر، وثمل من العز والغلب، وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان، صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيز خان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم

الأوروبية بأسرها على ديارهم، وأن الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي، وتوجب الدهشة، والسبات بحكم الطبيعة. وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسدّ الأمر فيهم إلى غير أهله، ووَلَّى على أمورهم من لا يحسن سياستها فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم، فتمكن الضعف من نفوسهم، وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لا تتجاوز لذته الآنية، وأخذ كل منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر، ويلتمس له السوء من كل باب، لا لعلة صحيحة، ولا داع قوي، وجعلوا هذا ثمرة الحياة فآل الأمر بهم إلى الضعف، والقنوط، وأدى إلى ما صاروا إليه.

ولكني أقول وحق ما أقول - أن هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح في أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم - وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية، والاعتلال العقلي، فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة ويعود الأمر كما بدأ، وينشطون من عقالهم، ويذهبون مذاهب الحكمة، والتبصر في إنقاذ بلادهم، وإرهاب الأمم الطامعة فيهم، وإيقافها عند حدها.

وما ذلك ببعيد والحوادث التاريخية تؤيده، فانظر إلى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية «حروب التتر والحروب الصليبية» وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم واتسعت لهم ميادين الفتوحات، ودوخوا البلاد

وأرغموا أنوف الملوك، ودانت لسلطانهم الدول الإفرنجية حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول «بالسلطان الأكبر».

ثم ارجع البصر تجد هزة في نفوسهم، وحركة في طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب - حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الأنحاء شرقًا وغربًا، وتألفت من خيارهم عصبات للحق، كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع والسعي بغاية الهمة لبث أفكارها وجمع الكلمة المفترقة وضم الشتات المتبددة - وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم، وتنقل

إليهم بعض ما يضمره الأجانب لهم، وإنَّا نرى عدد (الجمعية الصالحة)(١) يزداد يومًا بعد يوم نسأل الله تعالى نجاح أعمالها، وتأييد مقصدها الحق ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عمومًا وللمسلمين خصوصًا. انتهى!

ثم قال: هذه عقيدة «القضاء والقدر» التي تعد من أصول العقائد في الدين الإسلامي - كيف انقلبت حقيقتها مع جهلة الإفرنج ومن تابعهم من المغفلين، وضعفاء العقول من المتفرنجين في الشرق؟ وكيف استنتجوا منها نتيجة لم تكن من لوازمها؟ بل هي في الحقيقة من نقيضها، وبعد أن كانت تلك العقيدة الشريفة

(١) إن الذي عناه جمال الدين «بالجمعية الصالحة» ورجالها في مقاله هذا الذي كتب في باريس سنة ١٣٠١هـ وسنة ١٨٨٤م هم رجال «تركيا الفتاة» وكان السيد قد اجتمع ببعض رجال تلك الجمعية في باريس وأطلعوه على خطتهم وما يحاولونه من إصلاح المملكة العثمانية وجمع كلمة الأمة على النهوض بالملك الإسلامي، ودرأ المخاطر الأوروبية عن الممالك الإسلامية الشرقية. وتنبيه الخواطر الغافلة لما تنويه إنكلترا خصوصًا من الشر، والكيد للمسلمين - فراق ذلك للسيد واستحسنه، وشجع القائمين بتلك الفكرة، والساعين وراء تلك الغاية الشريفة - التي هي من أسمى أغراض جمال الدين وما يسعى في سبيله، ويعمل على تحقيقه - ويرجع تاريخ «جمعية تركيا الفتاة» في أقرب العهد إلى أحرار الأتراك الذين ذهبوا إلى أوروبا مهاجرين مغاضبين في عهد سلطنة المرحوم السلطان عبد العزيز وكان على رأسهم، والآخذ بنصرتهم البرنس مصطفى فاضل باشا المصري ولفيف الأحرار إذ ذاك كان من خيار الفضلاء والمفكرين من العثمانيين الأتراك - منهم ضيا باشا المؤرخ، والشاعر نامق كمال بك، ومحمد بك، ونوري بك، ورشاد باشا وغيرهم - ولهذه العصبة مجاهدات جليلة في سبيل إصلاح المملكة، ومقالات مؤثرة أبدعوا في تحريرها، وتفننوا في وسائل إدخالها حتى كانوا يطبعونها في آخر العهد على أثواب الأقمشة القطنية وغيرها - ثم توسط نابوليون الثالث الأمر بين السلطان عبد العزيز والبرنس مصطفى باشا فاضل ومن معه من الأحرار آخذًا موثقًا من جلالة السلطان أن يعمل على ما يرومونه من الإصلاح بعد عودتهم إلى الأستانة وقد تمنع الأحرار في بادئ = =الأمر ولم يقبلوا بالعودة من غير ضمان وثيق، ثم عادوا وكان من أمرهم مما يطول شرحه، وما هو معلوم عند بقية قدماء الرجال من العثمانيين الباقين في قيد الحياة اليوم، وما تركوه في صدور الأخلاف.

مما تحمل معتقدها على التحلي بأكمل الصفات من جرأة وإقدام، والتخلق بخلق البسالة والشجاعة واقتحام المهالك، واحتمال المكاره والجود والسخاء واحتقار الموت في سبيل الحق وطلب المجد رأوا ما في المسلمين اليوم من فقر وفاقة، وضعف واستكانة إلى الذل وغير ذلك من المذام فنسبوها إلى اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر - والعقيدة مع المسلمين فيما لو عملوا بها براء مما ينسبونه إليهم - ولكن من سنن الوجود، ومقتضيات انحطاط الأمم، ولوازم تقهقرها أن ترمي بكل شائنة، وتسلب من كل فضيلة - فتعود حسناتها سيئات، ويعد كل وصف كمالي لها نقصًا، وبالاختصار تسلب كل ما عندها من المحاسن، وتلبس ما في الغير من المساوي - سواء في ذلك العقائد وجميل الصفات - من ذلك القبيل «التعصب» وهو لفظ شغل مناطق الناس خصوصًا في البلاد الشرقية - تلوكه الألسن وترمي به الأفواه في المحافل والمجامع - حتى صار متكئًا للمتكلمين يلجأ إليه العَيّ[1]، والجامد البليد. أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير، فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها، أو حشوها، أو خاتمتها - يعدّون مسماه علة لكل بلاء، ومنبعًا لكل عناء، ويزعمونه حجابًا كثيفًا، وسدًّا منيعًا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح، ويجعلونه عنوانًا على النقص، وعلمًا للرذائل - والمتفرنجون الذاهبون في تقليدهم الأعمى مذاهب الخلط والخبط لا يميزون بين حق وباطل - هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد - فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤوس، ويعبثون باللحى،

(١) العَيّ: العَاجِز. (م).

ويبرمون السِّبَال[١] – وإذا رموا به شخصًا للحط من كرامته أردفوه للتوضيح بلفظ إفرنجي «فناتيك» وإن عهدوا بشخص نوعًا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصبًا وهزؤا به، وغمزوا، ولمزوا، وإذا رأوه عبسوا وبَسَرُوا[٢]، وشمخوا بأنوفهم كبرًا، وولّوه دبرًا، ونادوا عليه بالويل والثبور.

ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ؟ وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدءًا لكل شناعة، ومصدرًا لكل نقيصة؟ وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته؟

«التعصب» قيام بالعصبية – والعصبية من المصادر النسبية نسبة إلى العصبة – وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته، ويدفعون عنه الضيم، والعداء، فالتعصب وصف للنفس الإنسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها، والذود عن حقه، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها.

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب وأقام بناء الأمم، وهو عقد الروابط في كل أمة، بل هو قوة المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد، وينشئها بتقدير الله خلقًا واحدًا، كبدن تألف من أجزاء وعناصر تدبره روح واحدة فتكون كشخص يمتاز في أطواره، وشؤونه وسعادته وشقائه، عن الأشخاص.

(١) السِّبَال: شَعْر الشَّارِب. (م).
(٢) بَسَرُوا: نظروا بكراهة شديدة. (م).

وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة، وقبيل وقبيل، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة، وهناء العيش، وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة، وسمو المقام، ونفاذ الكلمة. والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص، وهو أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة.

التعصب روح كلي – مهبطه هيأة الأمة، وصورتها – وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره – فإذا ألم بأحد المشاعر ما لا يلائمه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي – وجاشت طبيعته لدفعه فهو لهذا مثار الحمية العامة، ومِسْعَر النَّعْرَة[١] الجنسية، هذا الذي يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر أو يؤول بها إلى سوء العاقبة. وأن استقامة الطباع، ورسوخ الفضيلة في أمة – تكون على حسب درجة التعصب فيها، والالتحام بين أفرادها يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم في بدن حي – لا يجد الرأس غنى بارتفاعه عن القدم ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطًا في رتبة الوجود، وإنما كل يرى، ويجد ويعمل وظائفه لحفظ البدن وبقائه.

كلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب، ورثَّت الأَطْنَاب[٢]، ورقت الأوتار، وتداعى بناء الأمة إلى الانحلال

(١) مسْعَر النَّعْرة: مُوقد الفتنة والعصبية. (م).
(٢) الأَطْنَاب: الأَوْتَاد. (م).

كما يتداعى بناء البنية البدنية إلى الفناء - بعد هذا يموت الروح الكلي وتبطل هيأة الأمة - وإن بقيت آحادها فما هي إلا كالأجزاء المتناثرة أما تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون، وأما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الآخرة.

سنة الله في خلقه إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم بالفشل، وغفل بعضهم عن بعض، وأعقب الغفلة تقطع في الروابط، وتبعه تقاطع وتدابر - فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بإفاضته روح التعصب في نشأة ثانية.

نعم، أن التعصب وصف كسائر الأوصاف له حد اعتدال وطرف إفراط وتفريط. واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه، والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا إلى رزاياه، والإفراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء، فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة، وينظر إلى الأجنبي عنه كما ينظر إلى الهَمْل من السَّوَائِم(١) لا يعترف له بحق، ولا يرعى له ذمة، فيخرج بذلك عن جادة العدل فتنقلب منفعة التعصب إلى مضرة، ويذهب بهاء الأمة، بل يتقوض مجدها فإن العدل قوام الاجتماع الإنساني وبه حياة الأمم، وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها إلى الزوال وهذا

(١) الهَمْل من السَّوَائم: ما يُتْرَك سُدًى بلا رَعْي. (م).

الحد من الإفراط في التعصب هو الممقوت على لسان الشارع ﷺ في قوله «ليس منا من دعا إلى عصبية» الحديث.

التعصب كما يطلق ويراد منه النعرة على الجنس، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد - كذلك توسع أهل العرف فيه، فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضًا - والمتنطعون، والمغفلون من المتفرنجين يخصون هذا النوع من التعصب بالمقت، ويرمونه بالذم - ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل، أو يتفق مع الحزم - فإن لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات لا يختلف شأنها، ولا فرق أصلاً إذا كان مرجعها الدين أو كان مرجعها النسب - وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر، وعن كل منها صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإنساني - وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه، ومعاونته على حاجات معيشته - وبين ما يصدر من ذلك، عن المتلاحمين المتصلين بصلة المعتقد ورابطة المشرب.

فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعضهم إذا وقف عند الاعتدال، ولم يدفع إلى جور في المعاملة، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم، أو نقض لذمته - فهو فضيلة من أجل الفضائل الإنسانية وأوفرها نفعًا، وأجزلها فائدة، بل هو أقدس رابطة وأعلاها، إذا استحكمت صعدت بذوي المكنة فيها إلى أوج السيادة وذروة المجد - خصوصًا إن كانوا من قوم قوي فيهم سلطان

الدين، واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الإسلامية كما أشرنا إليه في غير مقال سبق.

ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط – فإنه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة – ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال – كذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر بل الأجناس المتخالفة في المنابت، واللغات والعادات، بل المتباعدة في الصور والأشكال، ويحول أهوائها المتضاربة إلى قصد واحد، وهو تأصيل المجد، وتأييد الشرف، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم.

هذا الأثر الجليل أبرزه قوة التعصب الديني، وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد إليه العقل الصحيح، وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه.

تشدق جماعة من متزندقة هذه الأوقات في بيان مفاسد التعصب الديني – وزعموا أن حمية أهل الدين لكشف ما يغشى إخوانهم من ضيم، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من عوامل الوهن والضعف – هو الذي يصدهم عن السير إلى كمال المدنية، ويحجبهم عن نور العلم، والمعرفة، ويرمي بهم في ظلمات الجهل، ويحملهم على الجور، والظلم، والعدوان على من يخالفهم في دينهم – ومن رأي أولئك المتفتقين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال

العصبية الدينية ومحو أثرها، وتخليص العقول من سلطة العقائد، وكثيرًا ما يرجعون بأهل الدين الإسلامي، ويخوضون في نسبة مذام التعصب إليهم.

كذب الخراصون - أن الدين أول معلم، وأرشد أستاذ، وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف، وأرحم مؤدب، وأبصر مروض، يطبع الأرواح على الآداب الحسنة، والأخلاق الكريمة، ويقيمها على جادة العدل، وينبه منها حاسة الشفقة والرحمة، خصوصًا دين الإسلام - فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الأمم في التوحش، والقسوة والخشونة، وسمي بها إلى أرقى مراقي الحكمة والمدنية في أقرب مدة وهي «الأمة العربية».

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والإفراط مثلما يعرض على التعصب الجنسي فيفضى إلى ظلم، وجور، وربما يؤدي إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم، ومحق وجودهم - كما قامت الأمم الغربية واندفعت إلى بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح، ولا للدعوة الدينية، وذلك في الحرب الهائلة المعروفة بحرب «الصليب» وكما فعل الأسبانيون بمسلمي الأندلس - وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي - فإن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم - إلا أن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة ومن ثم يرجع أرباب الدين إلى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل.

أما أهل الدين الإسلامي فمنهم طوائف شطت في تعصبها في بعض الأجيال الماضية إلا أنه لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفيهم في دينهم - وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب - ولنا الدليل الأقوم على ما نقول - وهو أن وجود الملل المختلفة في ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها، وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة، وتلك الملل في وهن الضعف.

نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك، وامتداد الفتوحات - وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم - إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الأديان، ويرعون حق الذمة، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه، ويدفعون عنه غائلة العدوان. ومن العقائد الراسخة في نفوسهم أن من رضي بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا، ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء/ ١٣٥] اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية. ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحدًا من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة، وارتفاع المكانة. ولقد سَمَى في دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من أرباب الأديان المختلفة، وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها، وكان من يصطنعونه على ما يرام

من الإخلاص لا يحاولون كيدًا لسلطان المسلمين ولا يعملون الغوائل لملكهم. ولم يزل الأمر على ما كان مع تغير أخلاق المصطنعين، وسوء نواياهم. وفي الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل والمسامحة إلى اليوم «فبعدًا لقوم يظنون أن المسلمين، بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم!

لم يسلك المسلمون مسلك الإلزام بدينهم، والإجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم، وتغلغلهم في افتتاح الأقطار، واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة - وإنما كانت لهم دعوة يبلغونها فإن قبلت وإلا استبدلوها برسم مالي يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الإسلامي.

هذا على خلاف متنصرة الرومانيين، واليونانيين أيام شوكتهم الأولى فإنهم ما كانوا يطأون أرضًا إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم والتدين بدين أولئك المتسلطين كما فعلوا في بعض أنحاء الشرق، بل وفي البلاد الإفرنجية نفسها، ومع المخالفين بالمذهب مثل أتباع «لوتير» في بداية مذهبه البرتستانتي.

هذا فصل من الكلام ساق إليه البيان - وفيه تبصرة لمن يتبصر، وتذكرة لمن يتذكر - ثم أعود بك إلى سابق الحديث فيما كنا بصدده - هل لعاقل لم يصب برزيئة في عقله أن يعد الاعتدال من التعصب الديني نقيصة! وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي - إلا بما يكون به التعصب الديني أقدس،

وأظهر وأعم فائدة – لا نخال عاقلاً يرتاب في صحة ما قررنا – فما لأولئك القوم يهذرون بما لا يدرون؟ أي أصل من أصول العقل يستندون إليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ويعبرون عنه «بمحبة الوطن»؟ وأي قاعدة من قواعد العمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل، وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها؟

نعم، إن الإفرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين إنما هي الرابطة الدينية، وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا «بالعصبية الاعتقادية» – ولأولئك الإفرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم – فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الإسلامية، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة، وفصم حبالها لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية، ويمزقونها شيعًا وأحزابًا – فإنهم علموا كما علمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم – وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الأقطار الإسلامية وتبعهم بعض الغافلين من المسلمين جهلاً وتقليدًا فساعدوهم على التنفير من العصبة الدينية بعد ما فقدوها ولم يستبدلوها برابطة الجنس التي يبالغون في تنظيمها واحترامها حمقًا منهم وسفاهة فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيئ لنفسه مسكنًا سواه، فاضطر للإقامة بالعراء معرضًا لفواعل الجو وما تصول به على حياته!

من هذا ما سلك الإنكليز في الهند لما أحسوا بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم - لقرب عهدهم به - وفي دينهم ما يبعثهم على النهوض إلى استرداد ما سلب منهم، وأرشدهم البحث في طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية، وما دام الاعتقاد المحمدي، والعصبة الملية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم إلى طلب حقوقهم، فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الإسلام، ويلبسون لباس المسلمين وفي صدورهم غل، وفي قلوبهم زيغ وزندقة - وهم المعروفون في البلاد الهندية «بالنيجرية» أي الدهريين - فاتخذهم الإنكليز أعوانًا لهم على فساد عقائد المسلمين، وتوهين علائق التعصب الديني ليطفئوا بذلك نار حميتهم، ويخمدوا نَائِرَة[1] غيرتهم، ويبددوا جمعهم، ويمزقوا شملهم - وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة كبيرة، ونشر جريدة لبث هذه الأباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف في العقائد، وترث أطناب الصلاة بين المسلمين فيستريح الإنكليز في التسلط عليهم، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم، وغر أولئك الغفل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة «تعس من يبيع مِلَّته بلقمته» وذمته برذال العيش.

هذا أسلوب من السياسة الأوروبية أجادت الدول اختباره، وجنت ثماره فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل

---

(١) نَائِرَة: هَائِجَة. (م).

في البلاد العثمانية من مصرية وغيرها من الممالك الإسلامية، ولم تعدم صيدًا من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة.

واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم، وليس عَجَبُنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الإسلام أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة، ولكن نعجب من أن بعضًا من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم، وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني، ويجهرون في رمي المتعصبين بالخشونة، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم، يفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين، يطلبون محو التعصب المعتدل، وفي محوه محو الملة ودفعها إلى أيدي الأجانب، يستعبدونها ما دامت الأرض أرضًا والسماء سماء.

والله ما عجبنا من هؤلاء، وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الإفرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تشنيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة.

الإفرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب، وأحرصهم على القيام بدواعيه الأساسية في حكوماتهم السياسية - الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره، ومساعدتهم على نجاح أعمالهم - وإذا عدت عادية مما لا يخلو منه الاجتماع الإنساني على واحد منهم ممن هو على دينهم، ومذهبهم في ناحية من

نواحي الشرق الأقصى - سمعت صياحًا، ونواحًا، وعويلاً، وهيصات ونباءات تتلاقى في جو بلاد المدنية الغربية - وينادي جميعهم إلا قد ألمت ملمة! وحدثت حادثة مهمة! فأجمعوا الأمر وخذوا الأهبة لتدارك الواقعة، والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية وتراهم على اختلافهم في الأجناس، وتباغضهم وتحاقدهم، وتنابذهم في السياسات وترقب كل دولة منهم لعثرة الأخرى حتى توقع بها السوء - يتقاربون ويتآلفون، ويتحدون في توجيه قواهم الحربية، والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين - وإن كان في أقصى الصين أو قاصية من الأرض ولو تقطعت بينه وبينهم الأنساب الجنسية.

أما لو فاض طوفان الفتن، وطمّ وجه الأرض، وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب - فلا ينبض لهم عرق، ولا يتنبه لهم إحساس - بل يتغافلون عنه، ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية وحدَّه النهاية، ويذهلون عما أودع في الفطرة البشرية من الشفقة الإنسانية والمرحمة الطبيعية كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة، والهمل الراعية، وليس من نوع الإنسان الذي يزعم الأوروبيون أنهم حماته وأنصاره، وليس هذا خاصًّا بالمتدينين منهم بل الدهريون، ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني ولا يألون جهدًا في تقوية عصبتهم، وليتهم يقفون عند الحق ولكن كثيرًا ما تجاوزوه.

أما أن شأن الإفرنج «وأخصهم الإنكليز» في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب! يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية الفكرية حتى يرفعونه إلى الرئاسة على الأحزاب «كغلادستون» وأضرابه ثم لا نجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح أحد القديسين، ولا يقدم على عمل مهم، قبل أن يعمل خيرة «استخارة» في الإنجيل انظر إلى كتب غلادستون وخطبه السابقة.

فيا أيتها الأمة المرحومة! هذه حياتكم فاحفظوها، ودماؤكم فلا تريقوها وأرواحكم فلا تزهقوها، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت! هذه هي روابطكم الدينية لا تغرّنكم الوساوس، ولا تستهوينكم الترهات، ولا تدهشكم زخارف الباطل. ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي، والمصري بالمغربي وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى أن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر، وإن تناءت دياره، وتَقَاصَّت[١] أقطاره، هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم ومنها عزتكم، ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها!

ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل! العدل! العدل! فالعدل أساس الكون وبه قوامه – ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم وعليكم أن تتقوا الله، وتلزموا أوامره في حفظ الذمم، ومعرفة الحقوق لأربابها، وحسن المعاملة،

(١) تَقَاصَّت أقطاره: جعل كل واحد منهم حسابه في مقابل الحساب الآخر. (م).

وأحكام الألفة في المنافع الوطنية، وتأكيد الروابط بينكم وبين أبناء وطنكم، وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم - كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم - كونوا في الوطنية إخوانًا تكونوا لبعضكم أعوانًا، وسدًّا منيعًا في وجه من يطمع فيكم جميعًا - ولا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان، وذريعة لانتهاك الحقوق فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب. هذا ولا تجعلوا عصبتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض، بل تضافروا بها على مباراة الأمم في القوة، والمنعة، والشوكة، والسلطان، ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة، والفضائل، والكمالات الإنسانية - اجعلوا عصبتكم سبيلاً لتوحيد كلمتكم، واجتماع شملكم، وليأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى شاهق الكمال ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة/ ٢].

ما انتهى السيد جمال الدين من هذا المقال حتى تناول من جنبه كتابًا وأخذ يقلب صفحاته فعرفت أنه مجموعة «الرياض المصرية» التي كنت قدمتها له قبل حين، فقال: يا شيخ بني مخزوم لقد سرّحت نظري في رياضك فما وقع منها إلا على ما يستحسن في بابه - وأكثر ما أجدت فيه، وأحسنت عنوانًا ومعنى مقالتك «تحرير الأرقاء وإسارة الأحرار» فوَعِزَّة الحق! ما عدوت ما في نفسي فيما قلته بل شفيت منها غليلاً إذ جلوت حقيقة طالما تخوفت على الشرقيين أن

تحجب عنهم، أو أن يجهلونها - ويتلو تلك المقالة «محاورة بين الشرق والغرب» فإذا أسعفك الزمن وسلمت مع تلك الخاطرات من المخاطر وقدمت على طبعها فأضم المقالتين إلى الكتاب ففيهما خير عبرة وذكرى.

ثم قال: أظنك وسمت المجلة باسم الرياض نسبة لوزير مصر «رياض باشا» فقلت: نعم إذ كان لدولته عناية خاصة بالمجلة وصاحبها، فقال: نِعْمَ الوزير الكبير رياض باشا، ونِعْمَ الوطني الغيور هو - فكم له في خدمة بلاده من مواقف لا يشبهها في المتانة إلا الهرمان - ومن صائب الرأي، وثاقب الفكر ما تنجلي به غَيَاهِب[(١)] المشكلات، وتحل به عقد المعضلات - منها وقوفه وحيدًا بدون مناصرة أحد زملائه في وجه نوبار باشا وسياسته وهو على منصة رياسة وزراء مصر، وإعماله على إحباط مساعيه ومساعي أوليائه «الإنكليز» في الكيد لمصر، وامتلاكها - ومصادمته إلى اللورد دوفرين وأنظمته التي جرّت على مصر الويلات، وسببت فيها تلك الاختلالات - وإني لأذكر ما قاله رياض باشا في المجلس الذي انعقد في حينه في سراي الخديوي توفيق باشا بالقاهرة، وحضره نظار الحكومة المصرية إذ ذاك ودعي إليه شريف باشا، ورياض باشا، وسلطان باشا، وعمر باشا، ولطفي باشا، وخيري باشا، وثابت باشا «أنه لا يرجي إصلاح ما دام العمل جاريًا على ما وضعه اللورد دوفرين مما سماه نظامًا، وأنه لا ثقة له «أي لرياض باشا» بأصل من أصول ذلك النظام، وليس في الإمكان إجراء ولا واحد منها، وأن الأغلاط

---

(١) غَيَاهِب: ظُلُمَات. (م).

التي كانت منشأ للضعف، والاختلال لم يرتكبها إلا دولة الإنكليز، وأن ما نراه من الفوضوية، وارتكاب المنكرات، وكثرة التعدي والسرقات لم تكن له علة إلا السياسة الإنكليزية، فعلى إنكلترا أن تعالج هذا الداء «تسكين فتنة المهدي في السودان وإرسال عساكر مصرية مع الإنكليز أو ترك السودان» وليس ذلك علينا ولقد قلت هذا مرارًا وبلغته للورد دوفرين وشريف باشا. ثم قال: «إني لا أفهم لفظ «برتكتورا» - حماية - ولا أعلم ماذا يراد منه - ولكني لا أرى وسطًا بين أمرين - أما ضم البلاد إلى الحكومة الإنكليزية فتستلم إنكلترا إدارة أمورها، وتتولى شؤونها كلية كانت أم جزئية - وهذا الذي أفهمه من تلك العبارات، وإما ترك البلاد لأهلها، فيأخذ بزمام السلطنة فيها رجال من أهلها وإليهم الحل والعقد في إدارتها - فانتحلوا «يخاطب نوبارًا» مذهبًا من المذهبين فإن القول بوسط بينهما ضرب من الجنون»!.

وليس بعجيب أن يصدر مثل هذا الكلام من رياض باشا - فهو رجل ذو حياة وطنية، وشعور بما يلزم لحفظ حياته هذه - وهي أشرف أنواع الحياة - فإن تكلم فإنما ينثر الكلام منه إرادة ناشئة عن فكر ثاقب، يثيره قوة حيوية. وقد أجمعت الجرائد الفرنساوية، وهي تتبع الحوادث المصرية بالثناء على رياض باشا، وأتت من وصفه على أفضل ما يوصف به رجل في أمته، ومما ذكرت من صفاته:

أنه أقوم أمير في الديار المصرية، وأشدهم حرصًا على الاستقامة، وأنه أبصر أهل بلاده بعواقب الحوادث التي ألمت بمصر، وما تؤول إليه، وكان يرى من بداية

تلك الحوادث أنه سيكون مصيرها إلى ما لا خير فيه للبلاد، وسكتت تلك الجرائد عما يتعلق ببقية أعضاء المجلس - وكان الأمل أن يوجد من طراز رياض باشا كثير في الأقطار المصرية يصدعون بما يصدع به خصوصًا بعد ما نازلتهم الحوادث المريعة، ومثلت لهم مستقبل بلادهم في مرآة حاضرها - ولقد أدى الرجل حقًّا واجبًا عليه، والقائم بأداء الفريضة قد يشكر إذا أهملها المكلفون بها - وقد صيروها في عداد النوافل - ولكن قد أخذنا العجب في حينه ويأخذنا كلما تذكرنا من بقية أعضاء ذلك المجلس الموقر كيف أحجموا، أو تلكأوا أو سكتوا، وكيف وسعتهم القدرة على إمساك ألسنتهم عن التعبير بما في ضمائرهم.

إنا لا نعلم أحدًا منهم تجنس بالجنسية الإنكليزية، وحاشا جميعهم من ذلك ولا يختلج في صدورنا أن مصريًّا، أو تركيًّا، أو عراقيًّا، أيًّا كان يميل ميلاً صادقًا إلى تسلط الأمم الأجنبية على بلاده، أو يخلص في خدمة الإنكليز ومجاراة رغائبهم إخلاصًا صحيحًا - خصوصًا أولئك الأمراء بل لو كشف الحجاب عن قلب كل واحد منهم لرأيناه ذائبًا من الأسف مما حل في بلاده، وفانيًا من الحزن على ما نزل بوطنه - من تردد جيوش الأجانب بين أطرافه، ومضمحلاًّ من الكدر، على ما عقبه حلول القوة الأجنبية من انقباض النفس، وانقطاع الآمال، وتعمم الاختلال، وشمول الفقر والفاقة، وبطلان حركة الأعمال - بل لو شاء القلم أن يعبر عن حالة الأمير منهم عندما يطرق آذانه أخبار التصرف الإنكليزي في

إدارات حكومته، وكف أيدي الموظفين من أبناء ملته عن أداء ما يجب عليه لبلادهم، وبسطة أيدي أولئك الأجانب في إنفاق الأموال من ماله، ومال عياله وأقاربه، وأحبائه، وجميع مواطنيه بدون حق شرعي، ولا مصلحة وطنية، أو عندما يرى غنيًّا أعدم، وعزيزًا ذل، وكاسيًا عرّي، وحيًّا أشرف على الهلاك من ضغط المظالم، ولو نهضت قوة البيان لشرح ما يظهر على وجهه من ألوان الكُمُودَة[١]، وفي أعضائه من أنواع الرعدة، وما ينبض به قلبه وما يحدثه فكره من هواجس الهموم، وخواطر الغموم - لما استطاع القلم تعبيرًا، ولوقفت قوة البيان دون الإتيان على قليل من كثير.

هذا هو الذي لا يبرأ منه أحد منهم ولو أقام على البراءة ألف برهان. كيف لا؟ وهم يعلمون أن عزتهم وسيادتهم وما بلغوا من مراتب الشرف والرفعة إنما كان بقيامهم على أعمال البلاد وأهليتهم لاستلام مهامها، واستعدادهم لإدارة شؤون الرعية، وهم على يقين بأنه لو ساد في ديارهم أجنبي فلا داع يبعثه إلى حفظ ما لهم من الشرف والسيادة، بل له من البواعث القوية ما يحمله على تذليلهم، وإهباطهم إلى أحط المنازل، ليخلفهم على مثل ما كانوا عليه أو أعلى. فما الذي أمسك بألسنتهم عن الكلام؟ هل الخوف فمن أي شيء يخافون؟ وما الذي يخشونه على أرواحهم، أو على بلادهم إذا قالوا حقًّا وثبتوا عليه؟ ماذا يصنع بهم الإنكليز إذا علموا صدقهم في محبة أوطانهم واتفاق كلمتهم على

(١) الكُمُودَة: تَغَيُّر اللون. (م).

الرغبة في إنقاذها؟ هل علموا من عدل الإنكليز أنهم يؤاخذون الناس على إبداء آرائهم إذا دعوا إلى المشورة! إن كان هذا فما يبتغون من الحياة! هل ظنوا أن الإنكليز إذا أحسوا باتفاق في الآراء على مصلحة من مصالح البلاد وإن كانت في خروجهم من مصر، يستطيعون تحت أعين أوروبا وسلطان العدل أن يوصلوا ضررًا إلى المتفقين وهم أمراء البلاد، وأعيانها.

إن رياض باشا وحده لم يخش من إظهار فكره فماذا كان يضر الأمراء الوطنيين لو عززوه أو كاتفوه على مثل رأيه؟ قد علم العقلاء من كل أمة أن أشباه هذه الحوادث تكون سببًا في اجتماع الكلمة، واتحاد الرأي على مصادمتها – وما نراه اليوم وفي كل زمن من سعادة الأمم العظيمة إنما كان منشؤه ملمّات الشقاء التي أنستهم وتنسيهم الضغائن، والأحقاد – وحملتهم على ترك المنافرات الخصوصية، وأخذ كلّ بيد أخيه لدفع ما يخشى منه على بناء الأمة أن ينصدع، وأساس الملة أن ينقلع، وما سمعنا من أمة اتفقت فخابت، ولا ملة افترقت فنجحت!

ألا فليعلم الأمراء أن أوروبا واقفة بالمرصاد لإنكلترا تترقب لها الزلل وتتمنى لها الغلط وأن جميع الأسماع في الممالك الأوروبية مصغية لكلمة يتفق عليها وجهاء المصريين – وهي – أننا قادرون على إصلاح شؤوننا، ولا نريد قوة أجنبية تحل في ديارنا – امتدت أعناق السياسيين في أوروبا، وانحنت إلى المصريين ليسمعوا منهم كلمة حتى كلت رقابهم، والتوت أعصابها – والمصريون يشحون

بها عليهم - ماذا يخشى المصريون وأمراؤهم من قول الحق؟ إن الأمم اليوم لا تطلب منها إشهار السلاح، ولا بذل الأرواح، ولكن تطلب منهم قولاً صريحًا ولا يجلب إليهم ضررًا ولا يقرب منهم خطرًا!.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

«هذا ما أعاد ذكراه السيد جمال الدين، وهي من الحوادث التي ترجع في تاريخها إلى سنة ١٨٨٤».

كان لجمال الدين نظرية بلغت به درجة اليقين أنه ما دام الشرق شرقًا وأهله على ما هم عليه من الجمود، والخمول، والجهل وتفرق الكلمة، وترك العمل بحكمة الدين - وما دام الغرب غربًا وأهله في تلك القوة من العلم، وضيق المحيط والتشبع من المطامع - فالحوادث - والكوارث تتكرر متشابهة لا تختلف في النتائج، وإن اختلفت فإنما الاختلاف يكون في الأمكنة والأزمنة، وأسماء الأشخاص. وكان لجمال الدين عناية خاصة في مصر وحوادثها يهتم لأقل حادث يحدث فيها وينظر إلى أصغر رزيئة ترزأ فيها مصر بعين الإعظام، ويعتقد أن ما أصاب باب الحرمين «مصر» أو يصيبها سوف تجرأ الأجانب على تطبيقه في غيرها من الأقاليم الإسلامية الشرقية.

سمت بجمال الدين الهمة (كما ذكرنا قبلاً) فشخص إلى مدينة باريس مَوْئِل(١) الأحرار من الأمم، واستلحق به صديقه الأستاذ الشيخ محمد عبده وأخذ

(١) مَوْئِل: مَلْجَأ. (م).

يرقب دسائس الإنكليز، ومكايدها لمصر خصوصًا، وللشرقيين عمومًا فيكشف الأستار عن خفي المقاصد ويحذر ببليغ القول وساطع البرهان من الوقوع في المصائد البريطانية وصنائعهم مثل نوبار باشا الأرمني - فكانت لا تفوته حركة عداء ولو خفت إلا ويقف في وجهها ويهتك سرها - من ذلك لما بلغه تعطيل نوبار باشا لجريدة الأهرام عام ١٨٨٤ وهو من الأمور المألوفة في حكومات الشرق الساقطة تحت إشراف الغربيين وأخصهم «الإنكليز» ولكن جمال الدين لم ينظر للأمر بنظر الاستخفاف بل سفَّه رأي نوبار باشا وأفرد لذلك مقالاً تحت عنوان «جريدة الأهرام» و(أشار بنقله) قال: اشتد عليها غضب نوبار باشا فأصدر أمره بتعطيلها شهرًا وقفل مطبعتها - قيل في السبب أنه نشر رسائل مدير الجريدة وهو في لوندرا على ما فيها من بيان بعض مساوي السياسة الإنكليزية على خلاف رغبة الباشا - وقيل: أن السبب نشر الشكر الذي قدم إلى المدير والمحرر من أعيان البلاد دلالة على استحسان مشرب الجريدة «وهو استقباح سياسة الإنكليز» ولكن كتب إلينا من مصدر خاص أن هذه المسائل العمومية لا تهم نوبار باشا إلا إذا مست مصلحته الخاصة، فالسبب الحقيقي هو أن المنهج المستقيم الذي سلكته الأهرام دعا إلى ذكر بعض الرجال الوطنيين مثل رياض باشا وشريف باشا مع وصفهما بالوطنية وعلو الهمة، وكمال الغيرة - نوبار باشا ساع إلى أمر مهم وهو ما ذكرناه ونشرته بعدنا جريدة الدبا وسائر الجرائد الإنكليزية: أن يكون ولي القاصر «عباس» بعد خلع أبيه فينال بسطة في السلطة، وإطلاقًا في الأمر والنهي - وعلم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الإنكليزية على تملك مصر وهي محتاجة في

ذلك إلى كل من ليس له وطن، ولا دين، ولا جنس في مصر، فهي إذًا في أشد الحاجة لنوبار باشا – وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات أن قلت لا، فلا! أو قلت نعم فنعم! فهو في غضبه ورضاه تابع لما يلقى إليه.

فعلم نوبار باشا أن خديويًّا مثل هذا يمكن أن يكون واسطة في تمكين الإنكليز من مصر من حيث لا يشعر، وبتقديم هذه الخدمة لهم يبني لنفسه من العزة قصرًا شاهقًا. فكيف يطيب لنوبار مع هذا السعي أن يسمع ذكر رياض باشا وشريف باشا مع وصفي الوطنية وعلو الهمة – يخاف أن الإكثار من ذكر هؤلاء الرجال ربما يحرك الخواطر الوطنية فيندفع منها سيل يهدم كل ما يبنيه. إن صاحب الأهرام أكثر من ذكر الوطن والوطنيين، ونوبار باشا أبعد الناس عنهما؛ لهذا أغضبه ذكرها – كلما ذكر لفظ الوطن – أو الملة، أو الجنس أو الأمة سواء كان في مقال عام أو في جانب شخص خاص حسب نوبار باشا أن في الكلام تهكمًا به واستهزاء. ولا عجب من نوبار[١] أن ظن ما ظن أو فعل ما فعل، فالرجل ليس بمصري ولا عربي، ولا مسلم، فبأي ثمن بخس باع به مصر فهو الرابح إذ لا يخسر ملة، ولا وطنًا، ولا جنسًا كما سبق وذكرنا.

قيل أن نوبار يطلب إبعاد الزبير باشا من مصر، فإن نال مطلبه لم يبعد أن يطلب لشريف باشا ورياض باشا وكل ذي شهامة أو فكر في مصر مثل ما طلب

(١) تكرر ورود هذه العبارة – وأمثالها – وذكرنا ذلك في حينه لجمال الدين فأشار بلزوم إثباتها ولو تكررت، ويعتبرها من التكرار المفيد، وأنها بالأذهان أعلق، وللأخلاف أنفع.

للزبير، وتكون الحكومة النوبرية حكومة هندية - وهل يبعد مثل هذا على نوبار - إن الذي يؤيد ما روي لنا في سبب قفل الأهرام هو أن نوبار باشا ما تحرك لحجز العروة الوثقى عن دخول مصر إلا عندما ذكر فيها رياض باشا مع ذكر بعض أوصافه - وإلا فإن كان السبب ذكر الإسلام والمسلمين! فيها فذلك ينذرنا بقفل الأزهر بأمر نوبار باشا.

إني أتعجب وكل ذي إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين، والأتراك، والحجازيين، واليمانيين - ألا يوجد بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده ويتقدم بصدره، ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمني فيبطل هذه الصفقة، وينقض هذه البيعة، ويكشف له وللمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية، ويرفع الحجاب عن واجبات المِلّية - لا حول ولا قوة إلا بالله.

إن المولعين بحب الحياة يقضونها في الذل من خوف الذل، ويعيشون من خوف العبودية في العبودية، ويجرعون مرارات سكرات الموت في كل لحظة خوفًا من الموت. فلا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله ولا الحمية الوطنية تدفعهم إلى ما به فخار بني الإنسان.

من المصائب والنوازل وبحثه في التعصب الجنسي والتعصب الديني وتتبعه سير إنكلترا في الحوادث المصرية سنة ١٨٨٤ وموقف الدولة العثمانية والفرنساوية إزاء تلك الحوادث

قال: خفيت مذاهب الطامعين أزمانًا ثم ظهرت، وبدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت، أوغل الأقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم، وخرجوا بهم عن محيط النظر، وبلغوا بهم من الضيم حدًّا لا تحتمله النفوس البشرية.

ذهب أقوام إلى ما يُسَوِّلُه[1] الوهم ويغري به شيطان الخيال فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها - بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير في النزر اليسير - وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان - فإن تقلبات الحوادث في الأزمان البعيدة، والقريبة ناطقة بأنه إن جاز أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة، ونسيت تلك العشيرة اسمها، ونسبتها - فلم يجز في زمن من الأزمان إمحاء أمة، أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة وإن بلغت القوة أقصى ما يتصوره الخيال!

---

(١) يُسَوِّله: يُزَيِّنُه. (م).

والذي يحكم به العقل السليم، ويشهد به سير الاجتماع الإنساني – من يوم علم تاريخه إلى اليوم – أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد، أو ركون إلى راحة لا تدوم، أو افتتان بنعيم يزول – ثم صالت عليها قوة أجنبية أزعجتها، ونبهتها بعض التنبيه – فإذا توالت عليها وَخْزَات[١] الحوادث، وأقلقتها آلامها – فزعت إلى استبقاء الموجود ورد المفقود ولم تجد بدًّا من طلب النجاة من أي سبيل، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية – وهي ما تكون بالتئام أفرادها، والتحام آحادها – وإن الإلهام الإلهي، والإحساس الفطري، والتعليم الشرعي – كل ذلك يرشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها.

إن النفوس الإنسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت – إذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة، ويسعه الإمكان – فإذا تجاوز الاستطاعة – كرَّت النفوس إلى قواها، واستأسد ذئبها، وتنمر ثعلبها، والتمست خلاصها ولن تعدم عند الطلب رشادًا.

ربما تخطئ مرة فتكون عليها الدائرة – لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط، والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة، وأن الحركة التي تنبعث لدفع ما لا يطاق إذا قام بتدبيرها قيِّم عليها ومدبر لسيرها – لا يكفي في توقيف سريانها، أو محو آثارها – قهر ذلك القيِّم، وإهلاك

(١) وَخْزَات: طَعَنَات. (م).

ذلك المدبر - فإن العلة ما دامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها فإن ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة، وأنفذ بصيرة، وأمضى عزمًا.

نعم يمكن تخفيف الأثر، أو إزالته بإزالة علته، ورفع أسبابه.

جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الأخلاق، والعادات، والمشارب، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تؤديه لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها ما لا طاقة لها به؟ لا ريب أنها تستنكره وتستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليه، وكلما تباعدت منه لكونه غريبًا تقرب بعضها من بعض، فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة، وما كان ذلك بغريب!

إن مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في الجنسية، والمشرب فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس، والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها إليه للاشتراك في طلب المنفعة.

أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسسنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء الشرق في هذه الأيام[1] ولسوف تقوى تلك الحركة، ويتسع نطاقها كلما تمادى الطامع، واستطال بقوته على هضم حقوق الشرقيين في عقر دارهم، وضيَّق عليهم فيطلب

(١) هذا المقال لجمال الدين ردده في الأستانة سنة ١٣١١هـ/١٨٩٤م وكان سبق وقاله في باريس سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م.

كل واحد خلاصًا، ويبغي نجاة، وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل إليه فكره على درجته من الجودة والسقم - وإن العقلاء في كثير من أصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل.

بلى كان هذا أمرًا ينتظره المستبصرون - وإن عمي عنه الطامع - وليس في الإمكان إقناع الطامعين بالبرهان، ولكن ما يأتي به الزمان - على عاداته في أبنائه - بل يجري به القضاء الإلهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون.

بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته خصوصًا في المسلمين منهم - فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورًا، وذوو حقوق في الإمرة حرموا حقوقهم ظلمًا، وأغنياء أمسوا فقراء إلخ. حتى لم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين في أطماعهم - ها هي الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية بأيدي ذوي المطامع فيها - حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها، وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها، وخفضوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة - ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع - فكانت الحركة العرابية العشواء فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد، وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا.

لم تكد تخمد تلك الحركة في بادئ النظر حتى خلفها حركة أخرى وفتح باب كان مسدودًا، وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولى في نفوس المسلمين – دعوة المهدية والمهدي – فإن خمدت هذه وستخمد، سيعقبها من الحركات في مستقبل الأيام ما لا يمكن إخمادها وتعميهم الحيرة فيعجزون عن تلافيها. نعم إنهم غرسوا في مصر غرسًا إلا أنهم سيجنون منه حَنْظَلاً[1]، ويطعمون منه زَقُّومًا[2] – لا جرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه، ويغلغل في حرصه، ولو أنهم تركوا البلاد لأهلها، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء، والقادرين عليه، العارفين بطرق مدافعته به أو اقتناء فائدته؛ لحفظوا بذلك مصالحهم، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة بدون أن تزلّ بهم القدم.

غير أنهم ركبوا الشطط، وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الأهواء – وهو أنفذ عواملهم، وأقتلها – وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين، فإن بلاء الجور إذا حل بشطر من الأمة وعوفي منه باقيها كانت سلامة البعض تعزية للمصابين، وحجاب غفلة للمسالمين يحول بينهم وبين الإحساس بما أصاب إخوانهم، أما إذا عم الضرر فلا محالة يحيط بهم الضجر ويعز عليهم الصبر، فيندفعون إلى ما فيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم.

---

(١) حَنْظَلاً: نَبَاتًا مُرًّا. (م).

(٢) زَقُّومًا: طعام أهل النار. (م).

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عمومًا. إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها، نظرًا لموقعها من الممالك الإسلامية، ولأنها باب الحرمين الشريفين - فإن كان هذا الباب أمينًا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع، وإلا اضطربت أفكارهم، وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية - إن الخطر الذي ألم بمصر نَغَرَت[١] له أحشاء المسلمين، وتكلمت به قلوبهم، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغارًا. وما هذا بغريب على المسلمين فإن رابطتهم الملية مع رابطة اللسان أقوى من روابط الجنسية، وما دام القرآن يتلى بينهم، ويعمل بأحكامه وفي آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه، فلن يستطيع الدهر أن يذلّهم. إن الفجيعة بمصر حركت أشجانًا كانت كامنة، وجددت أحزانًا لم تكن في الحسبان، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم، وهم من تذكار الماضي، ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرًا - بل نفيرًا عامًا - بل يكون صرخة تمزق مسامع من أصمَّه الطمع.

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب - جيل من الناس - «الإنكليز» لا كتائب له في فتوحاته إلا المُدَاهَاة[٢]، ولا فَيَالِق[٣] يسوقها للاستملاك سوى

(١) نَغَرت: غَلَت من الغيظ. (م).
(٢) المُدَاهَاة: المكر والاحتيال. (م).
(٣) فَيَالِق: كتائب شديدة. (م).

المحاباة، ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد إليه يده إلا المراضاة - يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة الأشكال. كحافظ عروش الملوك! والمدافع عن ممالكهم! ومثبت مراكز الأمراء! ومسكن الفتن! ومخلص الحكومات؟ من غوائل العصيان! وواقي مصالح المغلوبين ومؤمن حقوق الغربيين! وحامي الأقليات إلخ «مما سبق ذكره» فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا - أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر، وكسر النظر، وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا حنقت خنقت، وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم وهو يعلم أن الكلمة إذا اتحدت لا تعوزها الوسائط، ولا يعدم المتحدون قويًّا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته، وأن المغيظ لا يبالي في الإيقاع بمناويه أسلم أو عطب، فهو يضر ليضر وإن مسه الضر.

إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة، ومن مكة إلى مصر، والكرير الممتد من الأقاليم والممالك الإسلامية في الشرق، وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم المسترسلين في جفوتهم.

إن الرزايا التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها - المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها - فأيقظت أفكار العقلاء، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ما هم فيه - فتقاربوا في النظر، وتواصلوا في طلب الحق، وعمدوا

إلى معالجة علل الضعف، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسنًا يسلكونه بوقاية الدين والشرف، وإن في الحاضر لنُهْزَة[١] تغتنم، وإليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم، ولئن فاتت فكم في الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الأمور.

أتى جمال الدين على بيان منهج «العروة الوثقى» وأعاد ذكره لي عندما عزمت على إصدار جريدة «البيان»[٢] في الأستانة عام (١٣١١هـ و١٨٩٣م) وما أحراه أن يكون دستورًا لكل جريدة شرقية حيث قال: ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجبًا للسقوط، والضعف، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات، والاحتراس من غوائل ما هو آت.

(١) نُهْزَة: فُرْصَة. (م).

(٢) صدرت لنا الإرادة السنية إذ ذاك بإصدار جريدة عربية في الأستانة فأصدرناها باسم «البيان» وما كادت تنتشر وتصل إلى بعض أنحاء الشرق مثل الهند وتونس، ومراكش، والعراق وسوريا وغيرها، حتى انهال طلب الاشتراك فيها من كل صوب وناحية، مما أدهش المرحوم السلطان عبد الحميد، وزاد في هواجسه، وإذا بالإرادة السنية السلطانية تصدر بتعطيل الجريدة لأجل غير مسمى، وقد علمنا أهم أسباب التعطيل وهو: إن أكبر الجواسيس مع أعوان له – أخذوا يحللون كل كلمة وردت في الجريدة – فعثروا على هذه الجملة «من نوايانا الخدمة العامة والإخلاص إلخ... والنية سابقة العمل» فدسوا على ما قيل لنا لأحد المرتبين في المطبعة – أن يضع عوض كلمة (العمل) اليمن فجاءت العبارة (والنية سابقة اليمن) واستخلصوا من ذلك وأفهموا السلطان أننا بهذه الجريدة سنسعى أولاً لتحرير اليمن واستقلالها ثم نسعى لاستقلال البلاد العربية إلخ ما هنالك من الترهات – وقد أثرت تلك الوشاية وتعطلت الجريدة فتأمل!

ويستتبع ذلك البحث في أصول الأسباب، ومناشئ العلل التي ذهبت بهم إلى جانب التفريط، والبواعث التي دفعت بهم إلى مهامه وعرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب، وتاه فيها الخرّيت، وضل المرشد حتى لا يدري السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة، والمزعجات المدهشة، والمدهشات القاتلة! وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين، ولبست عليهم مسالك الرشد، وتزيح الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن الغباية بلغت حدها.

وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة في الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة – تصورها يوجب فتور الهمم، وانحطاط العزائم، وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الأدبار عن المطلوب وهو تحت الجناح، وأمام البصر – ويكفي في الوصول إليه عطفة نظر، وقطع بعض خطوات قصيرة.

وإن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم – وهي ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها – ولا ضرورة في ايجاد المنعة إلى اجتماع كل الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى – ولا مرغم للشرقي أن يقف في بدايته موقف الأوروبي في نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرًا أعجزها وأعوزها.

وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية، والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية؛ فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لابتلاع الضعيف، وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة، المُدَبَّج[١] بأشكال المجاملة، شفافًا ينم عما وراءه. وتنقب عن المسالك الدقيقة التي يسري بها الطامعون في دَيَاجِر[٢] الغفلات.

وتهتم بدفع ما يرمي به الشرقيون عمومًا والمسلمون خصوصًا من التهم الباطلة التي يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم، ولا وقوف على حقائق أمورهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون. ولا تتوانى في تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم مع اختيار الصادق، وانتقاء الثابت.

وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلاة العمومية بين الأمم، وتمكين الألفة في أفرادها، وتأييد المنافع المشتركة بينها، والتنبيه إلى السياسات التي تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

---

(١) المُدَبَّج: المُزَيَّن. (م).
(٢) دَيَاجِر: ظُلُمَات. (م).

بحثه في التعصب الجنسي والتعصب الديني

قال: إن استقراء حال الأفراد من كل أمة، واستطلاع أهوائها - يثبت لجلي النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس، ونعرة عليه عند الأغلب منهم - وأن المتعصب ليتيه بمفاخر بَنِيه، ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب - ولا بحث في علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة - أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية - إلا أنه يبطل ظنهم ما نراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم، ثم نقل قبل التمييز إلى أرض أمة أخرى وربي فيها إلى أن عقل، ولم يذكر له مولده فإنا لا نرى في طبعه ميلاً إليه بل يكون خالي الذهن من قبله، ويكون مع سائر الأقطار سواء، بل ربما كان آلف لمرباه وأميل إليه، والطبيعي لا يتغير.

ولهذا لا نذهب إلى أنه طبيعي، ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات - فإن الإنسان في أي أرض كان - له حاجات جمة، وفي أفراده ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة إذا لم يصبغوا بتربية زكية. وسعة المطمع إذا صحبها اقتدار تدعو بطبعها إلى العدوان، فلهذا صار

بعض الناس عرضة لاعتداء البعض الآخر - فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقابًا طوالاً إلى الاعتصاب بلُحْمَة[1] النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا إلى الأجناس، فتوزعوا أمما كالهندي، والإنكليزي، والروسي، والتركماني ونحو ذلك، ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادرًا على صيانة منافعه، وحفظ حقوقه من تعدي قبيل الآخر - ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الإنسان في أطواره - فذهبوا إلى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علمًا بأنه لابد أن يكون جائرًا إذا حكم، ولئن عدل فإن في قبول حكمه ذلاًّ تحس به النفوس وينفعل له القلب.

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية - تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب، وتلجئ الضرورة للاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى، وتتضاءل لعظمته العظماء، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع، وتكون بالنسبة إليه متساوية الأقدام - وهو مبدأ الكل، وقهار السموات والأرض، ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه- مساهمًا، ومشاركًا للكافة في الاستكانة، والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين - فإذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى، وأيقنت بمشاركة القائم على أحكامه لعامتهم في الرضوخ لما أمر به - اطمأنت الأنفس في حفظ الحق ودفع الشر إلى صاحب هذه السلطة المقدسة، واستغنت

(١) بِلُحْمَة: بِقَرَابة. (م).

عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها فيمحى أثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير.

هذا هو السر في إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات، ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ما عدا عصبتهم الإسلامية، فإن المتدين بالدين الإسلامي متى رسخ فيه اعتقاده - يلهو عن جنسه، وشعبه، ويلتفت، ويعرض عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد؛ لأن الدين الإسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق فقط، وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى - بل كما كانت كافلة لهذا - جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد، وبيان الحقوق كليها وجزئيها، وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات، وإقامة الحدود، وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعًا لها - ولن ينالها بوراثة، ولا امتياز في جنس، أو قبيلة، أو قوة بدنية، أو ثروة مالية - وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة، والقدرة على تنفيذها، ورضاء الأمة.

فيكون الوازع عند المسلمين في الحقيقة - شريعتهم المقدسة الإلهية التي لا تميز بين جنس وجنس، واجتماع آراء الأمة - وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا لكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفع عنها - وكل فخار تكسبه الأنساب، وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرًا في وقاية الحقوق، وحماية

الأرواح، والأموال، والأعراض - بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهي ممقوتة على لسان الشارع - والمعتمد عليها مذموم، والمعتصب لها ملوم فقد قال ﷺ : «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قَاتَل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية». والأحاديث النبوية، والآيات المنزلة متضافرة على هذا - ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى «اتباع الشريعة» - إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف له في جنسه، ولا امتياز له في قبيله، ولا ورث الملك عن آبائه، ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه، وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه.

وإن بسطة الملك في الوازعين من المسلمين كان الله يسديها إليهم على حسب امتثالهم للأحكام الإلهية، واهتدائهم بهديها، وتجردهم عن الاعتلاء الشخصي - وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق غيره في أبهة، ورفاهية معيشة، وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد - رجعت الأجناس إلى تعصبها، ووقع الاختلاف، وانقبضت سلطة ذلك الوازع.

هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين لهذا ترى

العربي لا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يذعن لرئاسة الأفغاني، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض. وإن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها، وانتقالها من قبيل إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظًا لشأن الشريعة ذاهبًا مذهبها. نعم إذا شذ أو حاد في سيره عنها، وطلب الإمرة بما ليس من حقه - انصدعت منه القلوب، وانحرفت عن محبته الأنفس، وأصبح وإن كان وطنيًّا فيهم أشنع حالاً من الأجنبي عنهم.

إن المسلمين اختصوا من بين أرباب الأديان - بالتأثر والأسف عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامي بدون التفات إلى جنسها وقبيلها.

ولو أن حاكمًا صغيرًا بين قوم مسلمين من أي جنس كان اتبع الأوامر الإلهية، وثابر على رعايتها، وأخذ الناس بحدودها، وضرب بهم مع المحكومين في الخضوع لها وتجافي عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة - لأمكنه أن يحوز بسطة في الملك، وعظمة في السلطان، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين - ولا يتجشم في ذلك إتعابًا، ولا يحتاج إلى بذل النفقات، ولا تكثير الجيوش، ولا مظاهرة الدول العظيمة، ولا مداخلة أعوان التمدن، وأنصار الحرية! ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء

الراشدين والرجوع إلى الأصول الأولى من الديانة الإسلامية القويمة – ومن سيره هذا تبعث القوة، وتتجدد لوازم المنعة.

أكرر القول بأن السبب هو أن الدين الإسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان إلى الآخرة فقط، ولكن مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم، وما يكسبهم السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة – وهو المعبر عنه في الاصطلاح الشرعي «بسعادة الدارين» – وجاء بالمساواة في أحكامه بين الأجناس المتباينة والأمم المختلفة.

إن بعض المسلمين يعز عليهم الصبر أحيانًا، ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم، وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية، ويسعون إليها منوَّمين، مغرورين – على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق – فمثلهم كمثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع. وأن ما يعرض على الممالك الإسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشؤه قصور الوازعين، وحيدانهم عن الأصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الإسلامية، وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين فإن منابذة الأصول الثابتة، والتحول عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررهما بالسلطة العليا – فإذا رجع الوازعون في الإسلام إلى قواعد شرعهم، وساروا سيرة الأولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد أتاهم الله بسطة في الملك، ألحقهم في العزة بالراشدين أئمة الدين.

جمل مختصرة وأمثال حكيمة[1]

كان يمين جمال الدين إذا شاء أن يقسم قوله: وعزة الحق وسر العدل، وما أقواله: الحقائق لا تزول بالأوهام. الجبن لا يغني، والشجاعة لا تفقر. من دواعي الذل المسكنة. والسؤدد مع عزة النفس.

الأمة أرضها الأمل وبنيانها العمل. ساقط الهمة من علم موقع الفضيلة، وصدق الدعوة – ولم يبادر إليهما – بل ينتظر أن يكون تابعًا ومقلدًا لغيره فيهما. كثرة النصراء لداع، أو لدعوة عن غير علم منهم بصحة الدعوى قلة ومذلة، وقليل من النصراء لدعوة عن علم مكانة واستطالة. من سفه الرأي أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمشيب فقط. ربما أفادت السنون تجاربًا. الأقدمية لا تجدي الأفضلية غالبًا. الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل. أثقل الأعباء محاولة الحسود ستر فضل المحسود. أنمّ شيء على الإنسان فضيلته، ورذيلته.

(١) لكل جملة، أو مثل سبب دعى إليه في حينه – ولو عمدنا إلى ذكر الأسباب لتضخم الكتاب جدًّا، لذلك أرسلنا أكثرها مجردة عن أسبابها.

من توهم الكمال تخونه الأعمال. العاقل من اعتقد بعجزه ثم سعى للعمل. الاعتماد على النفس، والتوكل من أقوى عوامل الظفر. ليس في الإنسان عضو يتحرك لغير قصد وغاية، فكل حركة يفعلها الإنسان لا يعلم غايتها تحكم عليه بالجهل. قضايا الجهل في الإنسان أكثر من قضايا علمه. وعمر الإنسان أقصر من أن ينله ما يحب أن يعلمه. النظام ما انتظم به شمل عالم متفرق يصرفه لوجهة نافعة. لو لم يتنازع الخلق على الحق لما كان ثمة باطل. القوة صنم مرهوب. والضعف شبح مُرْبُوب[1]. لا يؤمن مربوبية القوة إلا شبح الضعف. أحقر الناس من يطلب موت الناس ليحيا. وأعظمهم من يستميت ليحيي ولو واحدًا من الناس. عظمة الملك لا تكون بالتيجان ووقار العلم لا يكون بالطيلسان. التسفل أيسر من الترفع. ميسور للإنسان فعل الأسود وممتنع على الأسود عمل الإنسان. الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان. الأكفاء في العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء.

الفقر عدو الفضيلة والثراء نصير الرذيلة. لا خير في حق لا تدعمه قوة. وبئس الباطل المنصور. تطويل المقدمات دليل على سقم النتائج. حقيقة الأنفة، وعزة النفس عدم الاتكال على الناس. الحجر خير من بشر يقعد لغير علة ويحتاج بشرًا مثله. من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك. لا تطيب نفس الإنسان بالتواضع إلا إذا علم بعض العلم. علماء العصر يظهرهم العصر. وقادة الأفكار تبرزهم الأخطار. الإفراط في التواضع دليل على الادعاء. قلة الكلام لا

(١) مَرْبُوب: مَمْلُوك. (م).

تكون في الغالب دليلاً على الكمال. ليس في كل اختصار بلاغ. صاحب الحق قوي ولو كان ضعيفًا. والمبطل ضعيف ولو كان قويًا. صاحب القلم لا يحتاج إلى عصا. الصامت عن حقه محروم. من فتح له الباب ولم يدخل أولى بالطرد. صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخرس. قلما يأتي الحق بدون عناء. لذة استرداد الحق لا تضارعها الهيبة والتهيب. الإنسان من وقر نفسه وعرف حق غيره من جنسه. لا خير في إنسان يفضله الحيوان. بعض الخلق يرضون بالموت خوف الموت ويلبسون لباس الذل خوف الذل. الأمة بأفرادها والشمم بالتجرد عن النفع الذاتي وطلبه في النفع العام. ما مات أحد في حب أمة إلا وأحيته. من أحب الحياة فليمت في سبيل حياة أمته. لا أمة بدون أخلاق ولا أخلاق بغير عقيدة ولا عقيدة بغير فهم. خير موازين الأمم أخلاقها. سؤدد الأمة معقود بقادتها. خير الأخلاق إنكار الذات. أعظم دلائل الإنكار على الذات الأعمال. ألف قول لا يساوي في الميزان عملاً واحدًا.

طلاب الحكمة كثيرون ولكن ما أقل العاملين. تقل العلماء متى كثر المتطفلون والمدّعون. أعظم دليل على كبر الهمة مجاهرة المرء بمخالفته المألوف إذا تحقق بطلانه. العلماء والعقلاء لا يصح أن يكونوا أكثرية في محيطهم. حكيمان عاقلان في أمة مجموعها مليون خير من ألف متعاقل ومدعي حكمة فيها. ما استحكم الجهل إلا وتفرقت الكلمة، ولا كثر الادعاء المجرد بالصلاح والإصلاح إلا وعم الفساد وشمل. وضيع الحسب يستطيل بالقليل من المال على غيره. الأصل عون والعرق

جَسَّاس[١]. العلم الصحيح نسب صحيح بل وراثة لنبوة. الراحة بالرضى والنَّصَب[٢] بالطموح. إسراف الإنسان بصحته أضر من إسرافه بثروته. إذا لم تساو الطبيعة بين الرجل والمرأة بالتكوين فعبثًا نحاول مساواتهما بالأقاويل. لا مانع من السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور. قوة المرأة بضعفها. وباء الغرض أفتك من وباء المرض. خير ما يحتاجه الشرق من الملوك – القوي العادل – ولا خير في العادل الضعيف كما أنه لا خير في القوي الظالم. شر أدواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا.

الاستقلال أمل يتبعه عمل، وحمل النفس على المكاره، واقتحام المهالك والمصاعب. خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال. ترك ما كان سببًا للصعود يؤدي إلى الهبوط والسقوط. إذا سادت الجهال ساءت الأحوال. إذا خلا الميدان من العقلاء تسابقت الجهلاء. العالم الفقير غني بعلمه، والغني الجاهل فقير بجهله. الأسد لا يعدم فريسة حيثما ذهب. تبلغ المرأة بضعفها ما لا يبلغه الرجل بقوته. الحرية تؤخذ ولا تعطى. والاستقلال لا يُنال بالأقوال. طالب الموت في سبيل حياة الوطن إما أن يموت بطلاً شهيدًا وإما أن يعيش سيدًا عزيزًا. من اعتقد أن لا حياة إلا هذه الفانية فقد خسر الأولى والثانية. إذا كانت حاجة الكون للرجل مرة فحاجته إلى المرأة كرة. عمل واحد تختص وتقوم به النساء تعجز عنه رجال الغبراء.

(١) جَسَّاس: يكشف بواطن الأشياء من خلال معرفة ظواهرها. (م).
(٢) النَّصَب: التَّعَب. (م).

التكلف للسجع ينفر منه الطبع ويحسن وقعه إذا جاء عفوًا. أشد وطأة على الإنسان من غربة اليد والوجه واللسان أن يصبح كحرف الحاء والدهر إفرنجي. عدم التَّشَاكُل[١] من أعقد المشاكل. لا يتم عمل والتآلف مفقود. ولا يكون فشل والاتحاد موجود. يئس الإنسان من أن يجد له صديقًا في الحياة كيئس الغريق من النجاة. من ثابر وكابر على تجربة الضار أولى أن يتخذ عبرة. بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة. الأزمة تلد الهمة. انهزام العاقل من أمام الجهلاء أولى من الظفر بهم. بائع الدر وبائع الفحم يتساويان بالاسم ويختلفان بقدر المباع. الجاهل الحي ميت والعالم الميت حي. كيف لا يفضل أضعف حيوان ناهق يذكر الله إنسانًا ناطقًا ينكر وجود الله[٢].

كيف يجرأ على إنكار المعبود واجب الوجود من يأكله الدود. إذا لم يتعظ الإنسان بما فوقه من أجرام فليتعظ بما تحته من رفاة الأجسام. عدّ الناس معطي الذهب وهو من التراب ثوابًا – إسراف في الثواب. التقي، والورع، والصالح من يعبد الله لا خوفًا من جحيمه ولا طمعًا في جنته، بل لكونه إله يستحق العبادة

---

(١) التَّشَاكُل: التماثل. (م).

(٢) جاء لزيارة السيد جمال الدين رجل متحذلق متفلسف – وتناول الحديث قائلاً أنه قرأ كتب الفلاسفة وثبت عنده أن الله غير موجود ولا يعتقد بوجوده إلا الحيوان إلى آخر ما هنالك من ضروب الهذيان، فضاق صدر السيد ولم يجبه، وقال للحاضرين: هلموا نذهب إلى الحديقة وكان فيها أنواع من الطيور والدجاج وبينهم ديك أشقر كبير جميل أخذ يوالي صياحه ويذكر أخيرًا (الله الله) بنطق واضح تمام الوضوح، عند ذلك قال جمال الدين المثل المحرر: كيف لا يفضل إلخ، فخجل الرجل وانسل من باب الحديقة من غير أن يودع.

والتقديس. مهد جبروتية فرعونية تساق بسياسة بقرونية. أحقر صناعة لنحّات أنفع من تقعر النحاة.

كان مقر الفقه في الرأس والصدر ثم انحدر إلى الجبة والسطر. القبة الجوفاء لا ترجع إلا الصدى. عمامة كالبرج وجُبَّة كالخرج. جمود بعض المتعممين أضر بالإسلام والمسلمين. كان المقصود من النحو(١) أن يكون آلة فصيَّره جمود النحاة غاية. ولم يستعض المتأخرون في أغلب ما يكتبون بسوى أحرف العلة والأجوف والمهموز وفاتهم الجزالة والسلاسة. من عجز عن إصلاح نفسه كيف يكون مصلحًا لغيره. العصامي قد يكون لمن يخلفه عظاميًّا، والعظامي فقط يبقى وارثًا للعظام. اعتماد المظلوم على وعود الظالم بالكلام أقتل له من المدفع والحسام. أمة ثبتت في جهادها لأخذ الحق ساعة خير لها من الحياة في الذل إلى قيام الساعة. إذا لم تتذرع الأمة بشكواها من ظالميها بغير الكلام فاحكم عليها بأنها أضل من الأنعام. أمة تطعن حاكمها سرًّا وتعبده جهرًا لا تستحق الحياة. الإيمان واليقين ليس معناهما

---

(١) ذكرت للسيد جمال الدين ما للأستاذ العلامة الفاضل المرحوم الحكيم كرنيليوس فان ديك من الأيادي البيضاء على أهل بلادنا، بل وعلى الناطقين بالضاد بما ألفه من الكتب الفريدة المفيدة باللسان العربي، وما ترك من تلاميذه من العلماء في البلاد – وأعدت على مسمع جمال الدين ما ذكره لي فان ديك وهو على التقريب قال: ترك لنا الأسلاف وأعنى جهابذة العرب كنوزًا من العلوم والفنون أودعوها في عمارة كبيرة وأوصدوها وتركوا لنا مفتاحها الصرف والنحو. فأخذنا المفتاح واعتقدنا أنه جميع الميراث ولا سواه، وأخذ كل منا بدوره يبردخ ذلك المفتاح ولم يخطر ببال أحدنا أن يفتح به ذلك الباب، ولم نزل إلى اليوم على هذه الحال حتى انبرى المفتاح وما عاد يصلح أن يفتح به ذلك الباب انتهى – فاستحسن جمال الدين ذلك المثل جد الاستحسان واستمطر للحكيم صيب الرحمة والغفران – وقال: عمل فان ديك فنفع، وقال فصدق، وهذا هو المثل الصالح والقدوة الحسنة.

عبادة رؤساء الدين. مقبرة العلوم خزانات الكتب. العلم الحي في الصدر الحي. شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل. كم من منتصر لمظلوم وقع في شرك الظالم. المظلوم حي ولو مات، والظالم ميت ولو عاش. من تولى زمام أمور الجمهور لا غنى له عن مرآة وكتاب تاريخ صحيح. فكما أن المرآة تريه شخصه على علاته هكذا التاريخ ينقل أعماله في حياته. كثير من الآباء يستميتون ليحيوا أبناءهم، وقليل من الأبناء لا يستثقلون طول حياتهم ويستعجلون موتهم.

مهابة تصدر عن كرسي الحاكم لا عن عدله وفضائله أقرب للسخرية منها للاحترام. أكثر أمراء الشرق إذا أُلقى أحدهم في أضيق جُبّ من الاستعباد، وحُفِظت له ألقابه الضخمة مجردة حسبه جنة عرضها السموات والأرض. المرأة إذا اتخذت لفضلها شريكة للحياة نعمت الشركة وطابت الحياة، وإذا اتخذت لمحض الشهوات كانت شركًا للممات. حمال الحطب للإتجار أنفع من حمال الذهب للادخار. عيب الكبير كبير والجبن أقبح عيوب الملوك. يحتاج الملك الجبان للصعلوك الشجاع. تحتجب الحقايق عن الملوك بقدر تحجبهم. العاقل من مثّل في نفسه مثال ما استحسن من غيره. أقرب موارد العدل القياس على النفس. الدين رادع عن رضى في السر، والسلطان وازع في الجهر بالقهر. من خبثت نفسه لان ملمسه، وكثر ختله وخداعه. الشاب جسر من جنون لا غِنى للعقلاء من المرور عليه. أعظم دليل على وجود قوة قاهرة فوق إرادة البشر تقوض عروش الملوك قهرًا، وموت نَطْس[1] الأطباء رغمًا، وعجز الحكماء فعلاً. النعيم والجحيم

(١) نَطْس: حَاذِق بالطب وغيره. (م).

يتجليان للإنسان في صور أعماله، فيتنعم بالحسن منها ويتألم من القبيح. كم من غني محسود بمظهره فقير مقهور في حقيقة أمره.

السعادة في الدنيا ضالة البشر وإذا وجدها أحد قلما يدل عليها، ولا أظنها من موجودات هذا العالم الفاني. ربما تكون القناعة إحدى أسباب السعادة ولكن ليس لها حد معروف، ولا شكل موصوف فالإنسان مسرف في كل شيء، لذلك كثر بين الناس المفرطون وقل المعتدلون. يكفر الإنسان في كل شيء لا يرضاه ويعبد كل شيء يهواه. من أعظم مجالي الحكمة المحافظة على الهيئة المتوسطة، والفضائل بلا شك هيئات متوسطة بين خلتين ناقصتين. الأحزاب السياسية نعم الدواء ولكنها في الشرق تنقلب غالبًا إلى شر الداء. يتألف الحزب في الشرق ويعلن على الأمة غايات ومطالب شريفة فيناصرونه ويكون الكل له أصدقاء في البداية ثم تظهر الأثرة والأنانية وحب الذات فينفرط عقد الحزب ويصير الكل له أعداء في النهاية. قاض في الجنة وقاضيان في النار[١].

---

(١) زار جمال الدين يومًا أحد القضاة ويسمى (نائب) كان في عكا وآخر قاضي (نائب) في إحدى القضوات، وكان القانون العثماني إذ ذاك يقضي بأن يتولى القاضي الشرعي رياسة محكمة الحقوق مع المحكمة الشرعية ومدة مأموريته سنتان ينفصل عند انقضائهما، وفي الأقضية كان القاضي يتولى رياسة محكمة الحقوق والجزاء والتجارة والأجراء - وأخذ كل منهما يشكو قلة راتبه وهو تقريبًا اثني عشر ليرة ونصف عثمانية شهريًّا ويشكو من اضطراره في كل سنتين للانتقال مع عياله ومجيئه للأستانة ومكثه فيها حتى ينال= = نيابة ثانية - وإذ دخل رجل محترم حسن الهيئة واللباس فاحتفل به السيد وعرفه للحاضرين وأنه قاضي في محكمة طنطا، وسأله عن حالة القضاء وراتب القضاة فامتدح الرجل سير القضاء الوطني المصري وأن الراتب كاف واف. فتبسم جمال الدين وقال: قاض في الجنة (وأشار إلى القاضي المصري) وقاضيان في النار (وأشاراً إلى من كان يشكو من قضاة الأتراك).

إذا لم تنصف الحكومة القضاة أحرى بها أن تجعل الذئاب رعاة. إذا كان القاضي يتظلم فكيف بالمظلوم لا يتألم. إنصاف القاضي قبل إنصاف المتقاضي.

قرقعة السيوف بغير فتك، والتبختر بلامة الحرب إبَّان السلم من الأدلة على الجبن في موطن القتال. قبول الدخلاء والمتطوعة في الجيش مفسدة للنظام ومن عوامل الانهزام. قلما ينهزم جيش يتحلى قائده بالصبر والثبات، واقتحام الموت قبل الجند. القائد من قاد بأفعاله لا بأوامره وأقواله. الأمير بأفعاله خير من الأمير بأمواله. الأديب في الشرق يموت حيًّا ويحيا ميتًا. بينما الأدباء في حياتهم أفقر الفقراء فإذا هم بعد الموت يصيرون بالرثاء وحفلات التأبين أغنى الأغنياء. نهض الغرب بالعلم والعمل وانحط الشرق بالجهل والكسل. التقليد بنافع ثبتت منفعته أولى من التقيد بمألوف ثبتت مضرته.

ثمرة العقول لا تجتنى إلا بإطلاقها من قيود الأوهام. من قال أن الدين يأمر بالعسر دون اليسر، وبالضار دون النافع لمجرد التقليد والمألوف فهو كذاب. عماء البصيرة أضر من عماء البصر. كم من أعمى نبغ حسده ويحسده المبصرون. وكم من أبكم بإشاراته أفصح من عيّ بكلماته. الهيئات في الاجتماع حكومية كانت أو غير حكومية إنما هي خليط من أفراد يجب مراعاة التشاكل فيها، والتجانس، وإلا فسد الخليط. ولا يُجتنى الشهد من الحنظل. المعوّج الظاهر من الناس، أقل ضررًا من المتلبس بالاستقامة. من ظن أنه خدع الناس بالباطل يكون أول مخدوع. الأعمى من يظن أن جميع الناس بدون أبصار.

لولا الزرع، ولولا الضَّرْع[١] لما كان سرف الأغنياء ولا ترف الأمراء. موقف الزرّاع والصنّاع من الحضارة أنفع من موقف الإمارة. رأينا شعبًا يعيش بدون ملك، ولكن ما رأينا ملكًا يعيش بدون شعب. حاجة الملك إلى الأمة أشد من حاجة الأمة إلى ملك. للعلم قشور ولباب. فالواقف على القشور يغرق في بحر الغرور. المغرور من لا يرضى إلا عن نفسه، وعما يصدر عنه قولاً كان أو عملاً. المبتدي في أوليات العلوم يظن أنه تبحر فيها وانتهى، والراسخ المحقق فيعتقد أنه ما زال في الابتداء. محدث النعمة بالمال يستعرضه في كل مكان، ومحدث النعمة بالعلم يلقيه على كل إنسان. أظهر الآداب وأليقها بالعلماء، والمتعلمين عدم قطع الحديث على المتكلم، وتركه يتم ما يريد أن يرويه من غير أن يسبقه إليه ولو كان من منسياته. لو يحاسب الإنسان نفسه كما يحاسب غيره لقل خطؤه وقرب من الكمال.

من الغرائب في طبائع الإنسان أنه إذا رضي استحسن القبيح، واستسهل الصعب، وإذا غضب عكس الأمر فيستقبح الحسن ويستصعب السهل، فلو مزج الإنسان ساعة رضاه في ساعة غضبه لوقع على الهيئة المتوسطة وفاز بالفضيلة. قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام. العقل أشرف مخلوق فهو عالم الصنع والإبداع، ولا معطل له إلا الوهم، ولا يقعده عن عمله إلا الجبن، وهو الذي يخيل المفقود موجودًا والقريب بعيدًا. كل عناصر الوجود في هذا العالم الفاني خاضعة

---

(١) الضَّرْع: المراد لولا أعمال الفقراء البسيطة ما كان للأغنياء هذا الترف، والضرع هو رعي الشِّيَاه والنُّوق وما يُدِّره من لحوم وألبان. (م).

للعقل المطلق الإنساني. فكل مستحيل اليوم في الطب والصناعة سوف يكون غدًا ممكنًا. الشركة شرك فإذا لم يصطاد الشركاء غيرهم اصطادوا بعضهم.

الحقيقة ما ثبتت وتغلبت على الأوهام. المصلح الزعيم من لا يفر ولا يتضعضع من أذية اللئام. سجن الظالمين للمصلح «رياضة» ونفيهم له «سياحة» وقتلهم له «الشهادة» وهي أسمى المراتب. الفصل في نزاع نساء البيت ينغص الحياة. أعدل قضاء في الدنيا يعجز عن إرضاء متخاصمتين من النساء على رجل أو شيء. أعقل الآباء من لا يساكن أولاده بعد الزواج، ويستعيض بالتزاور عن التجاور. الأم تسعى وتتصور من وراء زواج ولدها النعيم، فإن زوجته ترى نفسها في الجحيم. قل من رأيت من الرجال من يعرف الهناء بغير النساء، وندر منهم من لا ينسب شقاءه إليهن، والأقرب للصواب أن يقال فيهن ما قيل في الأولاد – وجودهم بلاء وبلاهم بلاء – القوي من الشجر لا يعجل بالثمر.

ينعوج الشرقي بانعواج حاكمه ويستقيم إذا هو استقام. لا ينطبق على الشرقيين قول – مثلما تكونوا يُوَلَّى عليكم – بل حق عليهم قول «مثلما يولى عليكم تكونوا». الأجرب يعدي السليم، والمرتكب يعدي المستقيم. من الصعب وضع حد للعفة وحصرها بداية وانتهاء، فالعفيف في الماديات مثلاً إذا عف عن أخذ ألف دينار كيف يكون موقفه عند المليون إذا عرض عليه. أول صفة رافقت الإنسان الأول «الطمع» وفيه العناء وليس له حد. «والقناعة» وفيها الهناء وحدها، وإن كان كما قالوا الاكتفاء بالموجود وترك التشوق للمفقود ولكن لا يعمل لها

أحد. العربية وسَّعها البدو في البراري والقفار وضيقها الحضر في المدن والأمصار. خذ القياس ودع الناس. لا يحق للسماعي والقياسي أن يمنع أحدهما الآخر. إذا جاز بالسماعي أن ينحرف لم لا يجوز بالقياس أن «ينعوج». العلم قد يكون في الأحداث. ولكن التجارب لا تكون إلا في الشيوخ. بالعدل والمساواة الوفاق والوئام وبالأثرة والأنانية النفرة والخصام. ما أقل المجتهدون في السلف وما أكثرهم في الخلف[١]. من الأدواء والأمراض ما هي عند أكثر الناس نعمة - تفوق نعمة العافية[٢].

(١) قال شارحًا: كان علماء السلف والأئمة منهم لا يجرأون على القول بسنة من سنن الرسول ﷺ إلا بعد التدقيق والنظر في الإجماع وتحري الثقاة من الرواة إلخ. أما الجهلاء من المشايخ المتعممين اليوم فتراهم يتهجون على التحريم للحلال والتحليل للحرام بغير نص، وقد جهلوا أن مقام التحريم ما جاز لصاحب الشرع الرسول الأعظم ﷺ إلا بتنزيل لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾[التحريم/ ١] قال: وقد رأيت منذ أيام شيخًا بعمامة كالبرج وجبَّة كالخرج آخذًا بتلابيب رجل (أفندي) قرب جامع السليمانية في الأستانة وهو يهزه ويقول له: إن لبسك هذا القميص حرام وكفر - لأنه صنع الإفرنج الكفار - قال جمال الدين: فما وسعني إلا أن تقدمت إلى ذلك الشيخ الجاهل وقلت له: يا شيخ إن عمامتك وجبتك، وعمامتي وجبتي هم من صنع الإفرنج، فلماذا لا تخلع عمامتك وترمي بجبتك أولاً ثم تعمد إلى قميص الرجل فتشلحه إياه؟ وكم من أمثال هذا الشيخ الجاهل في هذه الأمة بهذه الأيام! لا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢) قال في مقدمة تلك الأمراض النفسية - مرض جمع الأموال - إذ يعاني جامعها من المشاق أشدها، ويتحمل من المخاطر والمهالك أصعبها - وكثيرًا ما اتخذ لجمعها أسقط الوسائل وأسفلها - حتى إذا تسنى له جمعها وكنزها - ربما خانته العافية فلا يستطيع تناول غذاء لذيذ أو يصرعه الشح فيمنعه من بسيط المأكل والملبس، وهو في كل هذا البلاء يرى في جمعه المال وكنزه نعمة كبرى، وكثيرًا ما كان المال سببًا لقتل جامعه. وهكذا القول في البنين (الأولاد) فإن الأبوين يذوقان في تربيتهم الأمرين ويستسهلون في سبيل راحتهم كل صعب ويلذ لهم العراء إذا كسوهم، والجوع إذا أطعموهم، والسهر إذا أناموهم حتى إذا كبروا استثقل بعضهم وجود الأبوين واستطولوا حياتهما - فسبحان من أودع في كل قلب ما أشغله.

عبرة وذكرى

كنا ذكرنا في مقال سبق أن السيد جمال الدين بحث عن مجموعة «العروة الوثقى» فوجدها وأعطاني نسخة، وبعد مدة استرجع ما أعطاني واستبدلها بالتي كان أبقاها عنده وقال:

«يا شيخ بني مخزوم! إنك لتجد في هذه المجموعة وعلى هامشها إشارات، فكل مقال أشرت إليه أضممه وأثبته في (الخاطرات) فذكرها لا يخلو من العبرة».

فوجدت أكثر ما أشار إليه الأستاذ يتعلق في أحوال مصر، والسودان وفتنة المهدي السوداني محمد أحمد، فقلت: يا أستاذ! إن مسألة المهدي قد انتهى أمرها وتشتت شمل أعوانه ومات الرجل، ورسخ قدم الإنكليز في السودان وفي مصر.

قال: نعم ووضعت يدها على ملك السودان وجعلت قاعدة الملك «الخرطوم» كل ذلك ثمن دم «غوردن باشا» ودية قتله. وما يدريك أنه في الآتي من الزمن سيقتل إنكليزي آخر في مصر، وتأخذ إنكلترا ديته ملكًا آخر وخزائن من المال.

فمسألة السودان، ومسألة مصر – هما في الدور الأول من الأدوار العديدة التي أعدتها الإنكليز لابتلاع تلك الأصقاع، ولسوف تتحول في مصر أحوال، وتظهر أشكال، وتتلون السياسة البريتانية بألوان يندهش منها الإنسان – وما كان في السياسة من الأصول (خصوصًا في تقاليد الإنكليز) وسياستهم فمن الصعب الرجوع عنه بسهولة. هي ترسم اليوم خططًا لأمر سوف تبتدئ فيه بعد جيل – ودخولها لمصر لم يكن ابن ذاك العام بل هو نتيجة مساعي طويلة، ودسائس دقيقة، وأعمال أفكار من أعوام مديدة – وعملاً بإشارته بدأت بإثبات ما أشار إليه من المقالات ومنها.

التهتك في الحيلة

اشتهرت دولة الإنكليز بخلابة الشرقيين، وأخذهم بالرويغة حتى وضحت سبلها من كثرة ما طرقت، وانقلب وجه الحيلة فظهر مستورها من يوم كان اللورد دوفرين في القاهرة لكشف حالة مصر وتقرير نظام لحكومتها «كما يزعمون» لوَّح للحكومة بترك السودان، ثم جاء من بعده الماجور بارنغ وألزم الحكومة بالتنازل عن حقها فيه؛ لأنه ربما يكلفها نفقات وافرة ليس لها عوض من الفائدة. فامتثلت الحكومة أمر غالبيها وهمت بإخلائه. وكان أول عملها أن صدرت أوامر الدولة البريطانية بتعيين الجنرال غوردون للقيام بتخلية السودان، فتكون المنة على السودانيين في استقلالهم «الموهوم» لدولة بريطانيا – وتكون الصلة بينهم وبينها خاصة – وما وصل خرطوم إلا وأقام محمد أحمد أميرًا على كوردوفان. وأخذ في إرجاع الولايات السودانية لملوكها الأقدمين، أو أبنائهم. ولم يكن القصد من هذه الزعزعة إلا أن يكون السودان بعد تنازل المصريين – سيبًا، أو فُرَاطَة[1] – لا حق لأحد فيه، فيأخذه السابق إليه بدون أن تعترض فيه المشاكل السياسية ليتيسر

(١) فُرَاطة: ماء يكون شرعًا بين عدة أطراف مَن سبق إليه فهو له. (م).

للإنكليز عاجلاً أو آجلاً أن يستولوا عليه، وينزعوه من أيدي أمرائه الصغار، ويكون فيه بعض العوض عن مصر لو صدتهم مقاومة الدول عنها، أو قوة غيرها كما أشرنا إلى ذلك. وفي هذه الأزمان (أي سنة ١٨٨٤) أخرجت إنكلترا من جرابها ألعوبة أخرى، ومثلت من ضيق غوردون سببًا عظيمًا لتمهيد طريق يوصل الجيوش لتخليصه. فأصدرت أوامرها إلى أحد المصانع الكبيرة بإعداد الآلات وتعيين المهندسين والصناع ليسيروا إلى سواحل البحر الأحمر، ويباشروا مد سكة حديد من سواكن إلى بربر - كما ذكرت ذلك جريدة البال مال كازيت - وتزعم أن لا باعث لها على ذلك إلا الرغبة في تخليص كوردون، إن كان كوردون في خطر، وتحتاج في إنقاذه إلى إرسال الجيوش، فهل يبقى حيًّا إلى أن تمد سكة حديد، وتخرق الجبال، والأودية وتسير عليها العربات حاملة للجيوش، مع أن الأخبار قد أشارت إلى وقوعه أسيرًا، أو هلاكه قتيلاً.

إذا فرضنا هلاك كوردون (كما هو الغالب) أو خلاصه - فهل تهدم دولة إنكلترا طريق الحديد، وتنقض بناءها بعد إنفاق النفقات الواسعة عليها، أو تتبرع بهبتها للحكومة المصرية سخاء، وجودًا - كلا والله. لا هذا - ولا ذاك - ولكن أخذت أقرب الطريقين للاستيلاء على السودان - فإن مد الطريق الحديدية في تلك الجهة - يسهِّل لها الولاية على السودان الشرقي. فإذا استقر لها الأمر فيه وصلته بالغربي، ولم تلاق في ذلك صعوبة، على أنها في خلال المدة بعد مد السكة تستفيد أعظم فائدة جوهرية من مواصلة البلاد السودانية؛ فإنها تفتح

للتجارة الإنكليزية بابًا، وتغلق بصفته باب المنفعة عن مصر، فتأتي بضائع البَزّ[١]، وما يحتاجه السودانيون من إنكلترا إلى سواكن، ومن سواكن تذهب إلى السودان بدون أن تصل إلى أيدي المصريين، وتنقل الأصناف التجارية السودانية من داخل السودان إلى بربر ثم تصل إلى سواكن، وتصدر إلى أوروبا ولا يراها مصري. فإذا تولى الإنكليز مصر (لا قدر الله) حرموا الوطنيين من الاشتراك معهم في تجارة السودان - وهي من أغزر ينابيع ثروتهم التجارية. وإذا ألجأتهم الحوادث للجلاء عنها - فقد اختصوا بمادة المنفعة التي يمكن أن تأتي من أقطار السودان. وبذلك تتقوض كثير من بيوت التجارة في الأقطار المصرية، ويعدم بخرابها آلاف مؤلفة من النفوس.

بعد أن كتبت هذه المقالة - توقفت عن متابعة نقل كلما أشار إليه جمال الدين من المقالات في «العروة الوثقى» إذ رأيت كلها أو جلها تأتي على ذكر حوادث مضت - وفيها تفنيد، وتقبيح لأعمال إنكلترا خصوصًا في مصر واحتلالها لذلك القطر، وما أتاه عمال الإنكليز مثل «كلفور لويد» وغيره، من الخطيئات، والأعمال إلخ.

فأتيت يومًا لجمال الدين وكاشفته بقولي: هذه المقالة نقلتها إلى «الخاطرات» حسب إشارتك، ولكن توقفت عن نقل ما تبقى مما أشرت إليه، لأنني ما رأيت في نقل حوادث جرت، ومضت، وانقضى أمرها - وكاد الناس أن ينسوها - ولا فائدة

(١) البَزّ: الهيئة مِن لباس أو سِلاح. (م).

للمصريين، أو للشرقيين من إعادة ذكرها. ويكفي أن الأستاذ أوقدها جذوة على الإنكليز في كل مقال وفي كل مجلس – وحشد لهم في صدور، وأفئدة الشرقيين جيوش الضغينة والبغضاء، حتى كاد الأستاذ أن يحرم الإنكليز من كل مزايا الإنسانية، والعدل والنصفة، بل ألصق فيهم كل شنيعة من ظلم، وختل ومكر – وذلك على غير عادة الأستاذ – إذ رأيناه يتتبع حسنات الأمم وسيئاتهم وكذلك الأشخاص – حتى إذا رضي قال فيهم أحسن ما علم، وإذا غضب قال أقبح ما فيهم. أما الإنكليز فما رأينا الأستاذ ذكرهم بخير ما في كل مقاله وحديثه.

سمع لي جمال الدين بإصغاء، ولما انتهيت قال: يا شيخ بني مخزوم! وعزة الحق – أن ما تراه اليوم من الفضول بذكر حوادث مضت، وأعمال أتى بها الإنكليز في مصر والهند، وفيما وطأته أقدامهم من البلاد الشرقية. إن مضت أعيانها فستأتي أشكالها وأمثالها.

فبريتانيا لا تفتر تحدث فُتُوقًا[١] في البلاد – فتدخل من أضيقها فتوسعه وترقب أصغر حدث فتجسمه، وتعمل على شق عصا القوم، وتقسمهم أحزابًا وتكون نصير المتباغضين. سُنة جرت عليها دولة بريتانيا ورجالها فلا يحيدون عنها. أما القول في نفرتي من الإنكليز أو بغضي لهم وتعريضي بسوء أعمالهم فلا يفوتنك العلم أنني ما تناولت الإنكليز وحكومتهم إلا من وجهة استعمارهم، وتدخلهم في الممالك الشرقية كالهند، ومصر – وسومهم أهلها سوء التصرف، ومنتهى العسف والجور،

(١) فُتُوقًا: شُقُوقًا. (م).

فكيف يمكن أن يكون للإنكليز هنا أثر من العدل - ولو أنصفت أو عدلت لما دخلت واستعمرت الأقطار والأمصار - وأتت فيها منكر الأعمال.

الإنكليز كأمة ليس من ينكر أنها من أرقى الأمم - تعرف معاني العدل وتعمل بها، ولكن في بلادها ومع الإنكليز أنفسهم - وتنصف المظلوم إذا كان من الإنكليز - تعلم أن للإنسان حقًّا في الحياة - وهذا الإنسان في عرفهم هو الإنكليزي- وغيره من البشر ليس بإنسان - شعار كل إنكليزي وشعار دولة الإنكليز، أنه ليس في الوجود إلا الإله، وحق الإنكليزي Dieu et mon droit.

فما زال الطمع الهائل مشبوع به رأس كل إنكليزي، ويرى كل بقعة غنية كالهند أحق بها الإنكليز من أهلها. وكل قطر خصب كالقطر المصري الإنكليز أولى به من أهله، ومن أرباب الحق فيه. متى كان الأمر كذلك وهو الواقع - فلا يمكن أن يصدر عن أعمال الإنكليز إلا كل ظلم، ولا يمكن أن تكون وسائلهم غير المكر، والختل، والخديعة - ومن سفه الرأي ومنتهى البله أن يطلب الشرقيون من الإنكليز عدلاً فيهم، أو إنصافًا لهم؛ إذ معنى المطالبة بهذا تخلي الإنكليز عن البلاد وتركها لأهلها وما أبعده منالاً. وهيهات أن تفعله أو تفكر به دون قوة واتحاد. ومختصر القول: أن قصدي في كل ما قلت وتحدثت إن هو إلا كشف ما تدعيه هذه الدولة العظيمة من العدالة، وما تختص به نفسها من الوصاية على نوع الإنسان، فلك بعد هذا الخيار إما أن تكتب بقية ما أشرت إليه، أو تجتزئ بما كتبت وعسى أن ينفع الله به وهو الهادي إلى سواء السبيل.

تمت مواضيع كتاب «الخاطرات» التي كتبت في الأستانة ما بين سنة ١٣١٠هـ وسنة ١٨٩٢م إلى سنة ١٣١٤ هـ وسنة ١٨٩٧م وقد بذلنا كل الجهد، وحرصنا جد الحرص - كما يرى المطالع - لحفظ، وتدوين كل خاطرة، وكل قول لذلك الإمام الحكيم، والأستاذ الكامل المرحوم المبرور السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني فجاء بعونه تعالى سفرًا جامعًا لشتات الحكم، وصائب الآراء في أدواء الشرق وما يعانيه أهله من العلل الاجتماعية. نرجو الله أن ينفعنا جميعًا بعلوم من صدرت عنه تلك «الخاطرات» وما حوته من جليل الأقوال، وبالغ النصيحة، وأن يُسْكِنه فسيح جنانه، ويعامله بجزيل فضله وإحسانه.

وقد سبق لنا القول بأن فقيد الشرق وحكيمه على الإطلاق على بعد شهرته، وغزارة فضله وعلمه، لم يكن له من الآثار غير رسالة في إبطال مذهب الدهريين كتبها بالفارسية في البلاد الهندية عام ١٢٩٨هـ، وقد عني بنقلها إلى العربية العلامة الفهامة المرحوم الشيخ محمد عبده، وهو أعلم مريدي الأستاذ الحكيم، وأوفى من صحبه إلى أن وافى الأستانة كما مر ذكر ذلك، فرأينا في بادئ الأمر من تمام الفائدة، والرسالة وهي من بليغ نفثاته، ومرآة لصحيح عقيدته أن نضمها إلى هذا الكتاب «الخاطرات» ولكن لما وجدنا أن الرسالة مطبوعة، وموجودة في أكثر المكاتب في بيروت، ومن السهل على الطالب تناولها، فقد صرفنا النظر عن إعادة طبعها وإلحاقها، واكتفينا بذكر مقدمة ناقلها للعربية والإتيان على مختصر الرسالة التي وضعت لإبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم، وإثبات أن الدين أساس المدنية، والكفر فساد العمران.

مقدمة الأستاذ المحقق المرحوم الشيخ محمد عبده على الرسالة

نحمد الله على الهداية ونعوذ به من الغواية. ونصلي ونسلم على خاتم رسله وآله وصحبه هداة سبله. وبعد أتيح لي الاطلاع على رسالة فارسية في نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل، محيط المعرفة الشامل الشيخ جمال الدين الحسيني الأفغاني. أما الشيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر ما لا يحتاج معه إلى الوصف، وأما الرسالة فعلى إيجازها قد جمعت لإرغام الضالين وتأييد عقائد المؤمنين ما لم يجمعه مطول في طوله، وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله - دعاه إلى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان في البلاد الهندية عندما رأى حكومة الهند الإنكليزية تمد في الغي جماعة من سكان تلك البلاد إغراء لهم بنبذ الأديان وحل عقود الإيمان، وأن كثيرًا من العامة فُتِغُوا[1] بآرائهم، وخدعوا عن عقائدهم، وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ما تدعيه تلك الجماعة الضالة، وممن سأله عن ذلك حضرة الفاضل مولاي محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بمدينة حيدر آباد الدكن من بلاد

---

(١) فُتِغُوا: وُطِئوا. (م).

الهند، فأجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بإنشاء رسالة في بيان ما كثر السؤال عنه. وقد حداني علو الموضوع، وسمو منزلة الرسالة منه إلى الاجتهاد في نقلها من لغتها إلى اللغة العربية، فتم لي ذلك بمساعدة عارف أفندي الأفغاني تابع الشيخ المؤلف، ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة إن شاء الله.

مختصر الرسالة

بَنَى الأستاذ الحكيم المرحوم السيد جمال الدين الرسالة على أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع نفوسهم خصال كل منها ركن لوجود الأمم، وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية.

«العقيدة الأولى» التصديق بأن الإنسان ملك أرضي وأنه أشرف المخلوقات، «والثانية» يقين كل ذي دين أن أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال باطل، «والثالثة» جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع، وأوسع من هذا العالم الدنيوي، والانتقال من دار ضيقة الساحات، كثيرة المكروهات جديرة بأن تسمى بيت الأحزان، وقرار الآلام إلى دار فسيحة الساحات، خالية من المؤلمات لا تنقضي سعادتها، ولا تنتهي مدتها.

والخصال الثلاث ١ «الحياء». و٢ «الأمانة». و٣ «الصدق».

أما الدهريون «الطبيعيون» فقد وضعوا مذهبهم على أساس بطلان الأديان كافة، وعدها أو هامًا باطلة، ومجعولات وضعية، ووجوب إزالة العقائد الثلاث، ومحو الخصال الثلاث من الإنسان – وبنوا على هذا أن لا حق لملة من الملل أن تدعي لنفسها شرفًا على سائر الملل، ولا أن تعتقد أنها أولى من غيرها بفضيلة ولا أجدر بمزية – وقالوا – أن الإنسان في المنزلة كسائر الحيوانات وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم – بل هو أخس منها خلقة، وأدنى فطرة.

وقالوا – وبئس القول – أن الحياء من ضعف النفس، ونقصها – فإذا قويت النفوس، وتم لها كمالها – لم يغلبها الحياء في عمل ما – كائنًا ما كان – فيجب «على زعمهم» أن يسعى الإنسان في معالجة هذا الضعف ومقاومته؛ ليفوز بكمال القوة «وهو قلة الحياء».

ثم قالوا وفي مقدمتهم «أبيقور الدهري»، وأتباعه الدهريين – «ردًّا على القول أن الإنسان أشرف المخلوقات» ما بال الإنسان معجب بنفسه مغرور بشأنه – يظن أن الكون العظيم إنما خلق لوجوده الناقص، ويزعم أنه أشرف المخلوقات، وأنه العلة الغائية لجميع المكونات. وأن الإنسان من جنونه «على زعمهم» اعتقاده أن له عوالم روحانية نورانية، ومعاهد قدسية ينقل إليها بعد الموت ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء، ولذة لا يخالطها كدر؛ ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف، مخالفًا نظام الطبيعة العادل، وسد في وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية، وحرم حسه كثير من الحظوظ الفطرية – مع أنه لا يمتاز عن

سائر الحيوانات بمزية من المزايا، ولا في شأن من الشؤون - بل هو أدنى وأسفل من جميعها في جبلَّته، وأنقص من كلها في فطرته - وما يفتخر به من الصنائع فإنما أخذه بالتقليد عن سائر الحيوانات - فالنسج «مثلاً» نقله عن العنكبوت، و«البناء» استنّ فيه بسُنَّة النحل، ورفع القصور، وإنشاء الصوامع أخذ فيه مأخذ النمل الأبيض، وادخار الأقوات حذا فيه حذو جنس النمل، وتعلم الموسيقى من البلبل، وعلى ذلك بقية الصنايع - إلى أن يقولوا - إذا كان هذا شأن الإنسان من النقص عن الحيوانات، فالأولى أن لا يغتر بأن في الآخرة ثوابًا وعقابًا - ويحرم نفسه في هذه الدنيا من حظوظ اللذة، ويقيد نفسه بأوهام الحلال والحرام، واللائق وغير اللائق، والحياء، والصدق والأمانة، وغيرها من الأمور الوضعية التي تقيد بها الناس جهلاً، ولم يتقيد بها الحيوان، والبهم إلى آخر ما هناك من الأضاليل والأباطيل التي تجعل بمقتضى أصول مذهبهم أدنى إليهم من الحيوانات أفضل من الإنسان.

وقد أفاض الحكيم المرحوم السيد جمال الدين بتفنيد جميع تلك الأباطيل بمقدمات صادقة، وبراهين ساطعة - منها وجوب الاعتقاد بالله وبالثواب والعقاب ومنافع ذلك للبشر - قال: إن كل فرد من نوع الإنسان قد أودع بحسب فطرته، وبناء بنيته شرور كثيرة. وشهوات عديدة تميل به إلى مشتهيات، فإذا قام كل فرد لدفع الشر عنه بقوة ساعده أو سلاحه، أو الأقران بدفع شرور أقرانهم فني عمر الجميع بالدفاع، وما كان لهم من الوقت متسع لغير عمل، وإن قيل أن قوة الحكومة

بقوانينها تعمل لصون الأفراد قلنا أن قوة الحكومة إنما تأتي على كف العدوان الظاهر ورفع الظلم البيِّن - أما القتل في الخفاء والاختلاس، والزور المموّه وغير ذلك من الجرائم التي يرتكبها أرباب الشرور والشهوات، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه، وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل، وكامنات الدسائس، ومطويات الخيانة، ومستورات الغدر حتى تقوم بدفع ضرره، وهل يرتاب عاقل أن الدهري الذي ينكر وجود الخالق ولا يؤمن بثواب أو عقاب - إذا ظفر برجل معه مال وليس من يراه من أهل السلطة - هل يتردد بقتل ذلك الرجل وأخذ ما معه؟ كلا ثم كلا - أما إذا كان ذلك الرجل ممن يعتقد، ويؤمن بأن للعالم خالقًا، قادرًا، عالمًا بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس، واسع الحول سامي القدرة، وأنه قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه، لا شك أن ذلك المؤمن لا يقدم على قتل النفس ولو بعد عن أنظار أهل السلطان الزمني.

إذن فسلطان الدين أقوى، وأنفع من السلطان الزمني، وصرامة القوانين. هذا أبسط قياس بين من يؤمن بالله وبين من ينكر وجوده جل جلاله. ثم لو أخذنا بقية أباطيل الدهريين وفرضنا تمكنهم من إزالة العقائد الثلاث، والخصال الثلاث، وتسنى لهم أن يستبدلوا الحياء بقلة الحياء، والصدق بالكذب، والأمانة بالخيانة، وصون الأعراض بالهتك والإباحة والاشتراك - فبأي نظام تصان الحقوق وتحفظ هيئة الاجتماع، وكيف تأمن الأم من ابنها أن لا يهتك عرضها، أو البنت من أبيها، أن لا يفضحها، وغير ذلك من مقوضات أساس العمران.

نكتفي بهذا القدر من مواضيع الرسالة – وعلى طالب المزيد أن يتناولها فهي مطبوعة كما قلنا – وموجودة في أكثر المكاتب – نسأل الله الحماية من الضلال والغواية. إنه سميع مجيب.

﴿نهاية المتن﴾

معد التقديم في سطور

منى أحمد محمد أبو زيد

- أستاذ الفلسفة الإسلامية، دكتوراه في الآداب سنة ١٩٨٩م جامعة الزقازيق، تقدير مرتبة الشرف الأولى، رئيس قسم الفلسفة بآداب حلوان سنة ٢٠٠٤م.
- عملت وكيلاً للكلية لشئون الدراسات العليا والبحوث من ٢٠٠٠م إلى ٢٠٠٣م، ثم ٢٠٠٤م، ومن ٢٠٠٧م حتى الآن.

من أبرز الأعمال والمؤلفات العلمية

- الخير والشر في الفلسفة الإسلامية، بيروت، ١٩٩١م.
- التصور الذري في الفكر الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م.
- الإنسان في الفلسفة الإسلامية، بيروت، ١٩٩٣م.
- الفكر الكلامي عند ابن خلدون، بيروت، ١٩٩٧م.
- المدينة الفاضلة عند ابن رشد، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- الحرية الإنسانية عند الشيعة – الإثنى عشرية، الإسكندرية، ١٩٩٩م.

من أبرز الأبحاث

- الدين والعلم في فكر زكي نجيب محمود، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، عدد (٦٩)، ١٩٩٠م.
- أبو القاسم الزهراوي رائد الجراحة العربية، مجلة الدراسات الإسلامية، باكستان ١٩٩١م.
- ابن رشد طبيبًا، الكتاب التذكاري – المجلس الأعلى للثقافة، مصر ١٩٩٣م.
- المنهج الإصلاحي عند الإمام عبد الحميد بن باديس، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد الثاني، ١٩٩٣م.

اللجنة الاستشارية للمشروع

٢٠١٢/٢٠١٣

إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر – **رئيس اللجنة.**

إبراهيم البيومي غانم (جامعة زايد، دبي)، الإمارات العربية المتحدة.

إبراهيم زين (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور)، ماليزيا.

أبو يعرب المرزوقي (عضو المجلس التأسيسي، وزير مستشار لدى رئيس الحكومة التونسية في مجالي التربية والثقافة)، تونس.

جاسرعودة (مركز دراسات التشريع والأخلاق، كلية الدراسات الإسلامية)، قطر.

حسن مكي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.

رجب شان ترك (جامعة فاتح، إسطنبول)، تركيا.

رضوان السيد (الجامعة اللبنانية، بيروت)، لبنان.

زاهر عبد الرحمن عثمان (مؤسسة إعمار بالرياض)، السعودية.

زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.

زينب الخضيري (جامعة القاهرة)، مصر.

سعيد بنسعيد العلوي (جامعة الرباط)، المغرب.

صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر– **أمين اللجنة.**

ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.

عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشؤون الدينية)، عُمان.

عمار الطالبي (جامعة الجزائر)، الجزائر.

محمد زاهد جول (كاتب وباحث)، تركيا.

محمد عمارة (هيئة كبار العلماء، الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.

محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.

محمد موفق الأرناؤوط (جامعة آل البيت)، الأردن.

مصباح الله عبد الباقي (جامعة كابول)، أفغانستان.

منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.

نور الدين الخادمي (وزير الشؤون الدينية)، تونس.

نوزاد صواش (مؤسسة البحوث الأكاديمية والإنترنت، إسطنبول)، تركيا.

سلسلة «في الفكر النهضوي الإسلامي»

صدر في هذه السلسلة

(١) العـــودة إلـــى الـــذات، تأليف علي شريعتي.
(٢) الحياة الروحية في الإسلام، تأليف محمد مصطفى حلمي.
(٣) امرأتنا في الشريعة والمجتمـع، تأليف الطاهر الحداد.
(٤) الإسلام دين الفطرة والحرية، تأليف عبد العزيز جاويش.
(٥) المـــرأة والعمـــل، تأليف نبوية موسى.
(٦) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، تأليف مصطفى عبد الرازق.
(٧) دفـــاع عـن الشـريعـة، تأليف علال الفاسي.
(٨) مقاصد الشريعة الإسلامية، تأليف الطاهر ابن عاشور.
(٩) تجديد الفكر الديني في الإسلام، تأليف محمد إقبال، ترجمة محمد يوسف عدس.
(١٠) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تأليف عبد الرحمن الكواكبي.
(١١) المدرســة الإســلامية، تأليف محمد باقر الصدر.
(١٢) الإسلام وأصول الحكم، تأليف علي عبد الرازق.
(١٣) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تأليف خير الدين التونسيّ.
(١٤) الحرية الدينية في الإسلام، تأليف عبد المتعال الصعيديّ.
(١٥) الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية، تأليف حسين الجسر.
(١٦) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، تأليف محمد الغزاليّ.
(١٧) القرآن والفلسفة، تأليف محمد يوسف مُوسى.
(١٨) كشف المخبَّا عن فنون أوربا، تأليف أحمد فارس الشدياق.
(١٩) المرشد الأمين للبنات والبنين، تأليف رفاعة الطهطاوي.
(٢٠) شروط النهضة، تأليف مالك بن نبيّ.
(٢١) مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، تأليف رفاعة الطهطاويّ.
(٢٢) نهضة الأمة وحياتها، تأليف طنطاويّ جوهريّ.
(٢٣) البيان في التمدن وأسباب العمران، تأليف رفيق العظم.
(٢٤) - (٢٥) تحـــرير المـــرأة، تأليف قاسم أمين، وتربية المرأة والحجاب، تأليف طلعت حرب.
(٢٦) تنبيه الأمة وتنزيه الملة، تأليف محمد حسين النائيني، تعريب عبد المحسن آل نجف، تحقيق عبد الكريم آل نجف.
(٢٧) خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني، تأليف محمد باشا المخزومي.
(٢٨) - (٢٩) السفور والحجاب، تأليف نظيرة زين الدين، ونظرات في كتاب السفور والحجاب، تأليف مصطفى الغلاييني.
(٣٠) في الاجتماع السياسي الإسلامي، تأليف محمد مهدي شمس الدين.
(٣١) لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟، تأليف الأمير شكيب أرسلان.
(٣٢) المدنية الإسلامية، تأليف شمس الدين سامي فراشري، ترجمة وتقديم محمد م الأرناؤوط.
(٣٣) المدنيـــة والإسلام، تأليف محمد فريد وجدي.
(٣٤) المســئلة الشرقية، تأليف مصطفى كامل.
(٣٥) وجهة العالم الإسلامي، تأليف مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين.
(٣٦) طلعة الشمس شرح شمس الأصول، تأليف نور الدين عبد الله بن حميد السالمي.

KHĀṬIRĀT JAMĀL ’AL-DĪN ’AL-’AFGHĀNĪ ’AL-ḤUSAYNĪ

The Thoughts of Jamaluddin al-Afghani

Muhammad Pāshā ’al-Makhzūmī

DAR AL-KITAB
AL-MASRI

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB
AL-LUBNANI

KHĀṬIRĀT JAMĀL ’AL-DĪN ’AL-’AFGHĀNĪ ’AL-ḤUSAYNĪ

في الفكر النهضوي الإسلامي

KHĀṬIRĀT JAMĀL ’AL-DĪN ’AL-’AFGHĀNĪ ’AL-ḤUSAYNĪ

(27)

هذا الكتاب

طُبع لأول مرة عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م). وهو يحتوي على الخاطرات التي ألقاها جمال الدين الأفغاني أثناء إقامته الأخيرة في الأستانة، في الفترة من (١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م) إلى (١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م)، أي حتى وفاته.

ترجع أهميته إلى أنه ضم آخر ما صرح به الأفغاني من آراء قبيل وفاته. بالإضافة إلى أن مُسجِّل هذه الخاطرات (محمد باشا المخزومي) كان موضع أسرار الأفغاني، فهو صديقه وتلميذه وملازمه. وقد كشف له الأفغاني عن نواياه، وأوضح له آراءه بحرية وصراحة؛ لذا جاء الكتاب صورة حيّة وصادقة لآراء جمال الدين؛ جامعًا بين دفتيه خلاصة ما أنتجه عقل هذا المفكر الإسلامي الكبير؛ من أحاديث ومحاورات ودروس وآراء كان يتلوها على مجالسيه ومريديه.

يقول الإمام الأكبر أحمد الطيب عن المشروع:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن هذا المشروع الذي تقوم به مكتبة الإسكندرية - وهي تستهدف إعادة نشر الإنتاج العلمي والثقافي لأعلام نهضتنا في العصر الحديث - ليُعدُّ فيما أرى - من أهم المشاريع العلمية نحو تأصيل المفاهيم الثقافية في العالم الإسلامي وإعادة تأسيس عقل إسلامي معاصر يستوعب أصوله، ويعيش عصره. وإني أدعو إلى ترجمة هذه الأعمال إلى اللغات الحية، وتعميم نشرها، بكل الوسائل الورقية والإلكترونية.

شيخ الأزهر

أ.د/ أحمد محمد الطيب

ISBN: 978-977-452-186-9

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT